



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



قسم التاريخ - جامعة محمد بوضياف - المسيلة
قسم التاريخ والجغرافيا - المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

ال عمران في المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة والحديثة دراسة في التركيبة الإثنية والحضارية

أعمال مهداة للمرحوم
الأستاذ الدكتور مبارك بوطان

تقديم وتصدير / أ. د. أحمد مريوش
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة
إشراف:

أ. د. رضا بن علال

قسم التاريخ والجغرافيا

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

أ. د. عبد الغني حروز

قسم التاريخ

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

جمع وتنسيق: أ/ أحلام لغريب

قسم التاريخ - جامعة محمد بوضياف - المسيلة

ديسمبر 2024م

جمادى الآخرة 1446هـ



العمران في المغرب الأوسط خلال الفترة

الوسيطة والحديثة

أعمال مهداة للمرحوم

الأستاذ الدكتور مبارك بوطارن

الطبعة الأولى

إصدارات دار أحلام 2024

ISBN:978-9969-553-91-8

الإيداع القانوني: ديسمبر 2024

الكاتب: إشراف: أ.د/ عبد الغني حروز - أ.د/ رضا بن علال

عنوان الكتاب: العمران في المغرب الأوسط خلال الفترة

الوسيط والحديثة أعمال مهداة للمرحوم الأستاذ الدكتور مبارك

بوطارن

تصميم الغلاف والإخراج الفني: أحمد محمد عزوز

المدير العام: أسماء سنجاسني

الناشر: دار أحلام للنشر

إيميل: editionahlem@gmail.com

هاتف: 0794813011/0698370013

شارع الإخوة بوحجة بلدية أولاد شبل بئر توتة الجزائر العاصمة

جميع الحقوق محفوظة © لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.



دار أحلام للنشر
MAISON D'ÉDITION AHLEM



فرقة أعلام الحضنة والذاكرة الوطنية
البحث في الرواية الشفوية
والمخطوطات والأرشيف



مخبر الدراسات التاريخية
والسوسيولوجية للتغيرات
الاجتماعية والاقتصادية

سلسلة الكتب الأكاديمية لفرقة بحث (prfu)
أعلام الحضنة والذاكرة الوطنية
البحث في الرواية الشفوية والمخطوطات والأرشيف

العمران في المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة والحديثة دراسة في التركيبة الإثنية والحضارية أعمال مهداة للمرحوم الأستاذ الدكتور مبارك بوطان

إشراف:

أ.د/ عبد الغني حروز أ.د/ رضا بن علال

قسم التاريخ قسم التاريخ
جامعة محمد بوضياف - المسيلة المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة



إهداء

هذا الكتاب مهدى إلى روح الأستاذ
الدكتور مبارك بوطارن رحمه الله



تقدير

كلمة في ذكرى رحيل زميلنا البروفيسور بوطارن مبارك

الأستاذ الدكتور: أحمد مريوش رئيس قسم التاريخ والجغرافيا

بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر

هي وقفات من ذلك الزمن الجميل، والأجل منه هوان يقيم الانسان نفسه من حين لآخر حتى يعي جيدا بمحتوى مساره بحلوله ومره، ووقتها يتذكر كل منا الشيء الكثير مما أنجزه، بل وقد نلجأ أحيانا الى إعادة النظر فيما أنجزناه برفقة زملاء وأصدقاء كانوا شركاء معنا في مشوارنا المهني منهم من يزال في ميدان البذل والعطاء، ومنهم من فارقنا الى الدار الآخرة وهي مصير الجميع.

وأذكر من بين هؤلاء الذين فقدناهم من زملاء المهنة: البروفيسور عثمان حشلاف أستاذ الأدب العربي، والبروفيسور حليمي عبد القادر أستاذ الجغرافيا، والبروفيسور محمود يعقوبي أستاذ الفلسفة والبروفيسور مرسل محمد أستاذ الجغرافيا، والبروفيسور الجيلالي أعطاطفة أستاذ اللغة الفرنسية، والبروفيسور بوطارن مبارك أستاذ التاريخ الوسيط، ونحن اليوم على مقربة من احياء ذكرى وفاته لأولى، إذ لا يقدر قيمة الرجال إلا الرجال.

فعلا لقد فارقنا الرجل في غفلة من أمرنا ونحن منغمسين في أمور الدنيا ومتاعب المهنة، وأتذكر أنه قبيل وفاته بأكثر من شهر صادفته في فناء المدرسة وهو في طريقه لحضور دروس اللغة الإنجليزية التي فرضتها الوزارة على أساتذة الجامعة، وقلت له هل تحضر في أن تجادلنا باللغة الإنجليزية، فابتسم كعادته وقال لي لقد أعتبتنا مشاغل الدنيا على كبرنا، وأرغمونا على دراسة هذه اللغة. ووقتها لم أكن أعلم بما يعاينيه من المرض الذي لم يعطله عن أداء مهامه البيداغوجية.

وبعدها تغيب عن حصص التدريس لأسبوعين وهي ليست من عادته، واستفسرت عن ذلك الغياب من أحد المقربين من عائلته فأخبرتني عن حالته الصحية الغير مريحة التي كانت سببا في ذلك حتى وفاته. ونزل خبر الوفاة كالصاعقة على محبيه من أساتذة وموظفين وعمال وطلبة لما عرف به من تواضع وأخلاق ومهنية شريفة. وقد لمسنا كل ذلك في معاشرته، واشتركت شخصا مع الفقيد في أعمال بحثية وكانت ناجحة بامتياز، وكان معنا ضمن فريق الخدمات الاجتماعية وقدمنا الكثير إلى من يستحقون من خدمات، ورافقت الفقيد في خرجات علمية الى البلاد الأجنبية والعربية وكان خير الرفيق.

نعم لقد فارقنا الزميل الى الدار الآخرة بعد ان ترك فراغا بيننا كأساتذة قدماء أسهمنا في خدمة المؤسسة وتكوين المكونين في ظروف صعبة جدا ليست كما هي اليوم، وكما قلت سابقا لا يقدر قيمة الرجال إلا الرجال والفقيد قيمته كبيرة تذكر وتشكر وندعوه بالرحمة والمغفرة، ونتمنى من المولى القدير الاستجابة.

بوزريعة في: 20/11/2024.

شهادات عن المرحوم
البروفيسور مبارك بوطارن
(رحمه الله)

قراءة في السيرة الذاتية للأستاذ المرحوم: مبارك بوطارن (1960-2023م)

(رحلة عمر ملؤها العلم والأخلاق والتّضحية والابتسام)

الأستاذ الدكتور: عبد الغني حروز

قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف المسيلة



لا يجادل اثنان في كون رحيل الإنسان أكبر خسارة
يمنى بها محبوه، فقد أَلف الله تعالى بين قلوب الناس على نحو
جعل الروابط فيما بينهم تبنى على الألفة والمحبة والمصالح
المشتركة، حتى إذا انفرط عقد مجموعة بشرية معينة بفعل
موت أحدها أو بعضها ساد الحزن والتفجع والإحساس بما
يشبه الخسارة، قد تفوق الخسارة المادية التي يحرص الإنسان
كل الحرص على تفاديها .

هذا الوضع هو الذي عاشه الأساتذة و الطلبة الذين عرفوا الأستاذ الفقيه
مبارك بوطارن، الذي فارق الحياة بشكل مفاجئ يوم 4 سبتمبر 2023 ليترك
آثارا لا تمحي في نفوسهم، لهذا فكر زملاؤه وأصدقائه و طلبته في دعوة الذين عرفوه
على مستوى قسم التاريخ و الجغرافيا بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر و كذا
قسم التاريخ بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة، وعلى مستوى مختلف جامعات الوطن
وخارجها، ومن مختلف التخصصات الإنسانية والاجتماعية إلى للمساهمة في
الاستكتاب الجماعي لإنجاز كتاب أعمال مُهداة للأستاذ مبارك بوطارن، تكريما له
ولمساره البيداغوجي والعلمي، الذي ساهم من خلاله في تخريج عدة دفعات، ومناقشة

و تأطير عدد هائل من الطلبة المتخرجين، بالمدرسة العليا للأساتذة منذ بداية عمله بها و
إلى غاية وفاته رحمه الله

و فيما يلي نعرض لكم ما تيسر لنا من سيرته العطرة الحافلة بالعلم و الاخلاق
والتضحية:

- الاسم: مبارك.
- اللقب: بوطارن.
- تاريخ الميلاد: 1960 م بباتنة.
- الحالة العائلية: متزوج.
- الماضي الثوري: ابن شهيد.
- المؤهل: دكتوراه دولة.
- الرتبة أستاذ التعليم العالي.
- مكان العمل: المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر.
- تخرج من معهد الآثار، جامعة الجزائر سنة 1985 م، متحصلا شهادة
الليسانس.
- حصل على درجة الماجستير من جامعة الاسكندرية سنة 1991 م.
- حصل على شهادة دكتوراه دولة من جامعة الجزائر سنة 2007 م.
- عمل أستاذا مساعدا بالمدرسة العليا للأساتذة منذ سنة 1992 م.
- عمل أستاذا مشاركا بمعهد الترجمة، جامعة الجزائر.
- عمل أستاذا بقسم التاريخ، جامعة الجزائر.
- عمل أستاذا مشاركا بجامعة التكوين المتواصل.
- عمل أستاذا زائرا بجامعة محمد خيضر، بسكرة.

- عضو هيئة التدريس لطلبة السنة الأولى ماجستير منذ 2002 م.
- **المسؤولية داخل الهيكل البيداغوجي:**
- أشرف على تنظيم ملتقيات المترشحين لشهادة التبريز.
- عضو اللجنة العلمية على مستوى قسم التاريخ والجغرافيا بالمدرسة.
- عضو اللجنة المشتركة لوضع البرامج بين وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ووزارة التربية الوطنية.
- عضو اللجنة البيداغوجية الوطنية للتاريخ.
- عضو المجلس العلمي بالمدرسة.
- شارك عضوا مشرفا ومت دخلا في عدة ملتقيات علمية نذكر منها:
- الندوة الوطنية حول المدارس العليا للأساتذة يومي 6-5 ديسمبر 1999 م.
- الملتقى الوطني حول تعليمات العلوم الإنسانية أيام 24-23-22 ماي 2000 م.
- تحليل الخطاب في العلوم الإنسانية أيام 10-9-8 ماي 2001 م.
- اللسانيات ودورها في العلوم الإنسانية يومي 6-5 ماي 2001 م.
- واقع تدريس التاريخ والجغرافيا في المنظومة التربوية يومي 14-13 أفريل 2003 م.
- الملتقى العربي الأول المقربة في التعليم والتعلم الجزائر يوم 10-9 ماي 2004 م.
- المنتدى المغربي حول نحو إطار مغربي موحد للتقييم في المؤسسات الجامعية لتكوين المكونين الجزائر يومي 6-5 ماي 2010 م.

- رئيس تحرير مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا التي يصدرها مخبر التاريخ والحضارة بالمدرسة.

- عضو هيئة التحرير لمجلة المبرز التي تصدرها المدرسة.

- رئيس اللجنة البيداغوجية بالقسم.

تأطير البحوث العلمية:

- شارك في مناقشة مذكرات تخرج طلبة ما بعد التدرج المتخصص.

- أشرف وناق وترأس لجان المناقشة لمذكرات طلبة شهادة اليسانس.

- أشرف على مذكرات الماجستير.

- أشرف على رسائل الدكتوراه وعضو في عدد من لجان تقييم الماجستير والدكتوراه.

نشاطات البحث:

- عضو فرقة بحث موضوعها: تطور المجال العمراني في الجزائر.

- عضو فرقة بحث موضوعها: التعليم و المراكز العلمية في العصر الإسلامي مع التركيز على المغرب.

- رئيس فرقة بحث موضوعها: المراكز الحضارية في الصحراء الجزائرية.

- عضو فرقة بحث الشعب في معركة: الوكالة الوطنية لترقية البحث الجامعي.

- عضو فرقة بحث: المراكز الحضارية والثقافية بالمغرب الأوسط المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية.

- عضو فرقة بحث موضوعها: الدور التجاري لمدينة الصحراء الجزائرية.

- عضو فرقة بحث: التعليم وأهميته في تاريخ الجزائر الحديثة من خلال المخطوطات.

- رئيس فرقة بحث: معجم المواقع التاريخية في الجزائر بالعصر الوسيط.
- رئيس فرقة بحث: المراكز التجارية في المغرب الأوسط ودورها في ازدهار المنطقة.
- نشر عدد من المقالات العلمية في مجلة معهد الآثار جامعة الجزائر ومجلة المبرز التي تصدرها المدرسة العليا للأساتذة - ومجلة حوليات إدارية.

نشاطات إدارية:

- عمل كرئيس دائرة التبريز منذ 13-09-1992 م إلى غاية-03-2019 م.
- عمل كرئيس دائرة البحث العلمي منذ 05-10-1998 م إلى غاية 20-02-2007 م.
- عضو بالمجلس العلمي للمدرسة.
- نائب مدير المخبر بالمدرسة منذ 2001 م.
- رئيس قسم التاريخ والجغرافيا بالمدرسة منذ 22 ماي 2010 م إلى سبتمبر 2015 م.
- شغل منصب مدير مساعد للدراسات في التدرج والشهادات منذ سبتمبر 2015 م إلى شهر أكتوبر 2018 م.
- شغل منصب مدير مساعد لأنظمة الإعلام والاتصال والعلاقات الخارجية منذ 2019 م إلى اليوم.
- وكان لا يزال يمارس عمله أستاذا المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة. إلى أنه وافته المنية يوم 04 سبتمبر. 2023
- رحم الله أستاذنا العزيز وجعل الجنة سكنا له مع الصديقين والنبين والشهداء.

بطاقة التعريف المدرسية
CARTE D'IDENTITÉ SCOLAIRE

Nom de l'Établissement: C.E.M. de J. A. Bouda - Alger اسم المدرسة

Année Scolaire: 1974-1975 السنة الدراسية

Signature de l'Élève: Boutarene امضاء التلميذ

Je soussigné André du C.E.M. أسفله أنا المصنف
Certifie que l'Élève Boutarene Mebarek أشهد أن التلميذ
Né le 1960 à Algiers في المولد
Domicile à Bouzarja - Alger الساكن
est élève de mon établissement تلميذ في مدرستي
Cours 1ère M. A. في القسم
Signature du Directeur: Le 21-5-1975 امضاء المدير

CS Scanné avec CamScanner MARQUE DÉPOSÉE

الدكتور مبارك بوطارن في المرحلة المتوسطة سنة 1975

Lycée Mixte de Rouiba

II ARTE DE CONTROLE

L'élève: BOUTARENE
M. e. b. a. r. e. k.
de la Classe de 2. S. A. S. M. A.
est inscrit en qualité de: A. P. o. n. s. i. n. g. i. r. e.
pour l'année Scolaire 1979-1980
N°...
N°...

CS Scanné avec CamScanner


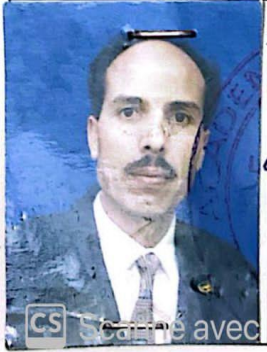
الدكتور مبارك بوطارن في المرحلة الثانوية سنة 1980-1979



الدكتور مبارك بوطارن في المرحلة الجامعية سنة 1983-1982



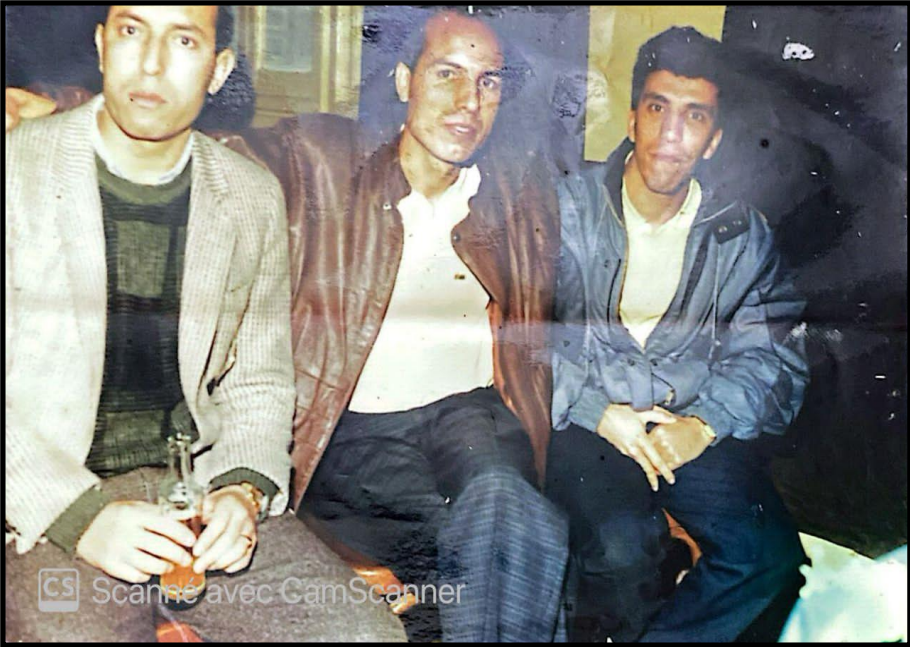
الدكتور مبارك بوطارن منتسبا لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

MINISTÈRE DE L'ENSEIGNEMENT SUPÉRIEUR ET DE LA RECHERCHE	ALGERIE CATÉGORIE	98/4275 Carte n°
 <p>Les services de la vie étudiante CROUS Besançon</p>	Accès au oeuvres universitaires	
<p align="center">CARTE D'ADMISSION DANS LES RESTAURANTS (Personne autorisée)</p>		
	<p>NOM : <u>BOUTARENE</u></p> <p>Prénoms : <u>ABAREK</u></p> <p>Établissement d'exercice : <u>CROUS</u></p> <p>DIVISION DE : <u>VIE ETUDIANTE</u></p> <p>Accueil : <u>198</u> au <u>31/07/98</u></p> <p>Étudiants : <u>108/98</u> au <u>15/08/98</u></p> <p>Étrangers</p> <p>Cette carte est strictement personnelle, toute infraction donnera lieu à des sanctions. Elle doit être présentée à l'appui de toute demande formulée auprès du Centre Régional des Oeuvres.</p>	

الدكتور مبارك بوطارن في مرحلة الأستاذية سنة 1998



الدكتور مبارك بوطارن مع صديقه الدكتور أحمد مريوش



مع الزملاء الأساتذة...



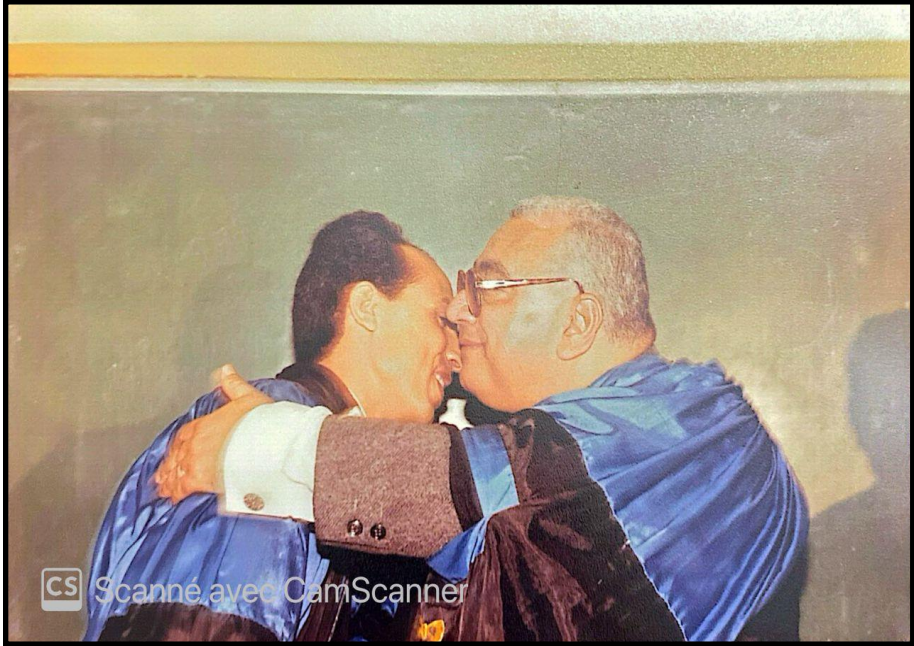
الدكتور مبارك بوطارن مع مجموعة من أصدقائه



الدكتور مبارك أمام اللجنة العلمية أثناء مناقشته رسالة الماجستير



بانصات... أمام اللجنة العلمية المناقشة



الدكتور مبارك بوطارن يتلقى التهنئة من رئيس اللجنة العلمية



مع اللجنة العلمية... وصورة تحفظ الذكرى



الدكتور مبارك بوطارن مع الزملاء بعد المناقشة



الدكتور مبارك بوطارن يحضر مناقشة رسالة علمية لأحد أصدقائه



اكتمال المهمة...



الأصدقاء يشاركون صديقهم الأستاذ بعد نجاحه



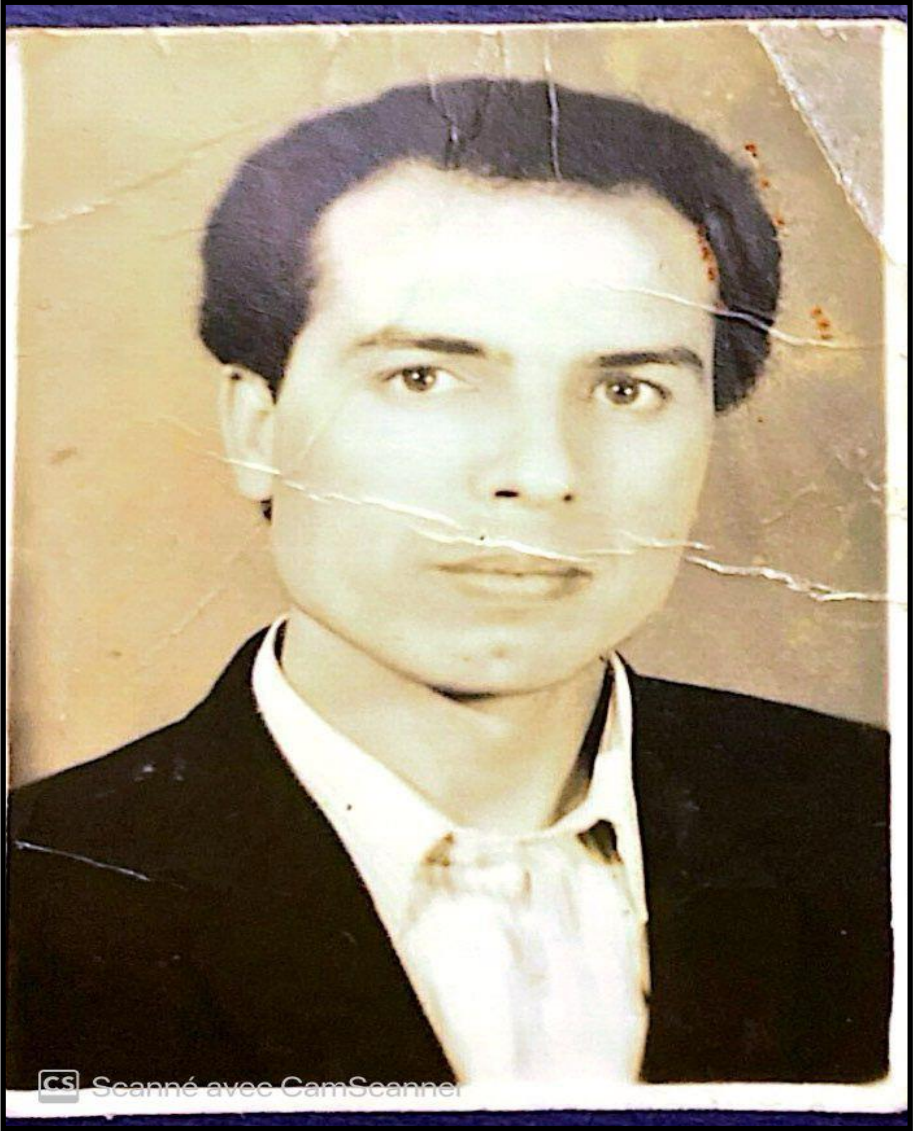
الدكتور مبارك في جولة ببلبنان



الدكتور مبارك بوطارن في البقاع المقدسة



الدكتور مبارك بوطارن يحتفي بصديق بعد مناقشته أطروحته



الأستاذ الدكتور مبارك بوطارن في شبابه

البروفيسور بوطارن مبارك كما عرفناه

الأستاذ الدكتور أحمد مريوش

المدرسة العليا للأساتذة: بوزريعة



سيرة ومسار لآخ عزيز على قلوبنا عرفناه عن قرب، شاركناه في الكثير من المحطات، فارقنا فجأة من دون ان نحضر انفسنا للوعة الفراق، ومع ذلك يذهب الرجال ويبقى الأثر، فكثيرهم أولئك الذين اسهموا في تمشين حركة التغيير المجتمعي نحو الأفضل، ومنهم مبارك الذي كان دوما قريبا من فعل الخير بلا هوادة و

بدون حساب بطرائقه المختلفة منها وسيلة التربية والتعليم وغرس مفاهيم القيم النبيلة في عقول الناشئة بين طلبته بغرض وضع الإضافة الإيجابية للمساهمة في تشييد المجتمع الجزائري ما بعد الاستقلال، هذا المجتمع الذي ورث عن الاستعمار العنصري الاستيطاني إرثا ثقيلا قوامه ظاهرة التشرد ونشر الأمية وفرض المجاعة على الساكنة مما تسبب في انعدام دفعى العائلة الكبيرة بعد ان اسهم في فكك أو اصرها المجتمعية، وتلك أحاسيس قليلة من الكثير، بل و جامعة شعرنا بها نحن جيل الاستقلال، ومن بيننا نخض بالذكر أحيانا مبارك الذي شاركنا في تلك المشاعر ووجد نفسه يتحمل ذلك العبء من جهة، ويشعر من جهة أخرى بالمسؤولية الثقيلة التي تنتظرنا للمساهمة نحو الأفضل، وهي خصال تعلمناها عن غيرنا من جيل الثورة ونحن طلبة مبتدئين خلال مسيرتنا الدراسية.

ومن دون شك أن زميلنا الدكتور مبارك قد عاش هو الآخر تلك المرحلة البائسة بكل حيثياتها وهو ابن شهيد والمصطلح لا يحتاج الى الشرح ووالده قد أدى الواجب لتحرير الوطن، فما كان عليه إلا أن يكون خير خلف لخير سلف كما هو في تربية ذلك الزمان، وقد لمست فيه تلك الخصلة منذ ان تعرفت عليه حينما توظفت بالمدرسة العليا للأساتذة ولم تجمعنا مرحلة التلمذة ولا مرحلة الجامعة كطلبة، بل جمعتنا هموم المرحلة وما كنا نسعى لتقديمه خلال مرحلة التدريس من بذل و عطاء للتقليل من ارث الاحتلال وتفعيل جيل المستقبل نحو طموح افضل و تكوين جيل لا يعترف بالهزيمة.

وإشياء القدر أن فقدنا بالأمس الأخ العزيز على قلوبنا مبارك في يوم الاثنين المبارك، وكان وقع الخبر فاجعة على قلوب من عرفوه و لو أنه قضاء القدر المحسوم و كل منا مآله القبر، قلت فارقنا هذا الزميل بغتة بعد مرض عضال دام شهور الزمه الفراش، وكنا وغيرنا ممن يعرفه ندعوا له دوما بالشفاء في صلاتنا حتى يتعافى ويواصل معنا المشوار والعطاء خدمة لتكوين اجيال الغد، ولكن المحسوب عند الخالق لا يغيره المخلوق، وكان قدر الله وما علينا سوى أن نتحلى بالصبر..

تكلمنا عنه و هو في الحياة حتى لا نوصف بالمتملقين و يحق لنا اليوم ان نقول عنه شهادة الحق و هو في مثواه الأخير، لقد عرفناه و تعاملنا معه عن قرب كأستاذ و كمسؤول منذ خريف 1994 حينما كنا نعمل معا في جامعة الخروبة بحسين داي قبل انتقال إدارة المدرسة العليا الى مدرسة بوزريعة أي قرابة 30 سنة من ذلك التاريخ الى كتابة هذه الاسطر، و كان وقتها الفقيد هو من يتولى متابعة تكوين طلبة التبريز الذين كانوا يلتحقون بالمدرسة كمتدربين من قطاع التعليم الثانوي بوزارة التربية الوطنية،

وكانت المدرسة في جنيها و لم يلتحق بها بعد طلبة البكالوريا، و قد تولت مهمة تكوين المكونين لنيل شهادة الأستاذ المبرز، و قد تم تكوينهم بالمدرسة و نجح بعضهم في تخصصات مختلفة، بل وواصل بعضهم دراساته العليا حتى أصبح فيما بعد ضمن طاقم الأساتذة الجامعيين بالمدرسة، و ترقى بعضهم حاليا الى رتبة أستاذ التعليم العالي، وكانت المسيرة كلها في العطاء و بذل الجهود خدمة للتحسين البيداغوجي .

وبعد ان تكفلت إدارة المدرسة بتكوين طلبة ما قبل التدرج للطلبة الجدد الحاصلين على شهادة البكالوريا بدرجة مشرفة بغرض تكوينهم كأساتذة لوزارة التربية بعد خضوعهم للمقابلة الشفهية، كان زميلنا مبارك من الأوائل الذين اشرفوا على العملية و قدم الدعم للإدارة وبالخصوص بعد موجه الاقبال الواسعة من المنتسبين للمدرسة والذين توافدوا عليها بكثرة للحصول على شهادة أستاذ التعليم في الأطوار الثلاثة الثانوي و المتوسط و الابتدائي على الرغم من العجز في المقاعد البيداغوجية .

وكانت وقتها المهمة صعبة لتحضيرهم و الاشراف عليهم بين ما هو نظري و تطبيقي حتى يصبحون أساتذة مكونين مع قطاع وزارة التربية الوطنية، و لم نقصر وقتها على الرغم من النقص الملحوظ في وسائل التكوين وكذا العجز الواضح في عدد الأساتذة الدائمين واللجوء الى التعاون مع أساتذة التاريخ من جامعة الجزائر وكذا أساتذة الجغرافيا من جامعة باب الزوار الذين لم ييخلوا علينا بما لديهم من خبرة في التأطير و صياغة البرامج و تتبع الخرجات الميدانية للطلبة .

و لم يكن ذات يوم زميلنا مبارك ببعيد عن هذا المسار التكويني وتقديم للخدمة وقد شاركنا في انجاز البرامج لتكوين الطلبة في ملامح مختلفة، كما شاركنا أيضا في السعي لفتح مخبر التاريخ والحضارة و الجغرافيا التطبيقية بالمدرسة و يعد من أولى

المخابر لها، و كانت له المساهمة في التأسيس لفرق البحث بغرض تنمية معارف الأستاذ الباحث، بل اكثر من ذلك مسعاه الكبير في فتح التكوين فيما بعد التدرج أي الدراسات العليا وإعطاء الفرص التكوينية للطلبة المتخرجين من داخل المدرسة أو خارجها، و لدينا اليوم من الأسماء الكثير ممن هم في رتبة أستاذ التعليم العالي سواء بالمدرسة و حتى بالعديد من جامعات الوطن ..

لقد فارقنا هذا الطيب العزيز بما عرفنا عنه من طيبة وحسن الخلق والمواظبة على العمل، كان يتسم في وجوه الكثير ممن تلقاه كعاداته، كان كاتما لغضبه الذي يشوبه أحيانا في وجوه البعض ممن كانوا يزعجونهم في بعض الحالات، كان غير حاسدا بل وخدموا لغيره بحسب المستطاع حتى قال البعض عنه أنه استغلت طيبته من بعض الطفيليين ممن لم يرقوا الى مقامه وهم كثر في حياتنا المهنية اليومية ..

ولم نسمع عنه ذات يوم أن تفوه بكلمة سوء اخلت من مهنته وحيائه، كان قربه من خالقه واضحا من خلال سلوكه و تعامله وأدائه لفريضة الصلاة في مواعيدها كما عرف عنه بالمدرسة، تولى تعداد المهام البيداغوجية والادارية بالمدرسة واضفى عليها الإضافة، وكانت أبواب مكتبه مفتوحة امام الجميع، كل ذلك رفع من تواضعه وسمعته بين اسرة التدريس وطلبة القسم واسرة المدرسة عموما واعطى كل ذلك الفضل الكبير في تكريس التوازنات والتقليل من عواقب التنابزة و مرض الاثنية الذي امتهنه البعض لتوسيع الهوة بين اسرة التدريس بالمؤسسة، و كان دوما يرجح البحث عن الوفاق وقول الصدق والمصالحة لتقوية النهج التربوي والحفاظ على خصال الأستاذ المربي.



صورة من الزمن الجميل التقطت بفناء المدرسة ويظهر فيها من اليمين
الى اليسار الأستاذ: بكار العايش، أيت طالب مراد، سيفور عز الدين،
بوطارن امبارك، مريوش أحمد، بن علال رضا

هكذا عاش بيننا هذا الآخ الخلق في محيطه الجامعي، وقد عرفنا عنه أيضا تلك
الخصال أثناء سفرنا معا الى البلاد العربية أو الأجنبية و كان دوما بطيبته المعهودة، و كم
كنا سعداء حينما نسترجع ذكريات مسار تلك السفريات العلمية التي جمعتنا
وبالخصوص قضاء الأوقات الطويلة في مكتبة الأسد الوطنية و أحيانا في المكتبة
الظاهرية من دون اكل حتى العودة الى فندق الزهور بساحة المرجة بوسط دمشق.

تلك بعض الذكريات من الزمن الجميل لرفقاء المدرسة، و ستبقى خالدة في
الذاكرة، وحين العودة من السفر كنا دوما نتذكر حيثياتها التي عززت من صداقاتنا فيما
بيننا وأن الصديق المثالي تعرفه خلال السفر كما يقول الكثير، و كان ذلك واضحا حين
سفرنا الى الخارج سواء الى بلاد المشرق بدمشق وحلب أو الى مصر ببلاد الكنانة التي

درس بها فقيدنا مرحلة الدراسات العليا بجامعة الإسكندرية وتحصل منها على درجة الماجستير في الآثار الإسلامية.



**صورة أمام مدخل مكتبة حافظ الأسد الوطنية بدمشق سنة 2000
ويظهر فيها على اليمين الأستاذ بوطران امبارك و بجانبه الأستاذ
مريوش احمد.**

وبحسب شهادة أخيه الهادي الذي استفاد هو بدوره من منحه للدراسة بمصر فإن مبارك كان مواظبا على دراسته وإتمام اطروحته في وقتها المحدد، ولم تلهيه مغريات الدنيا كغيره من بعض زملائه من الطلبة الجزائريين وذلك لما كانت تعرف به المدن المصرية من الصخب الليلي وبالخصوص القاهرة التي لا ينام سكانها إلا مع بزوغ فجر الصباح، فكان عفيفا مترفعا عن بريق اللهو ومحافظا على واجبه الذي سافر من أجله.

لقد فارقنا هذا الزميل وهو في اعز البذل والعطاء العلمي، وكان رحمه الله كلما التقيت به يقول لي إن تولي مسؤولية الإدارة قد افقدتنا نكهة البحث وابتعدتنا كثيرا عن الكتابة والتأليف، كما قلل من آدائنا البيداغوجي أحيانا، وتلك هي مهامنا الأساسية التي توظفنا من أجلها، وهو اعتراف منه بالشعور المهني الذي قلما نجده لدى البعض ممن هم في المهنة، وهي معيار من خصال الأستاذ الناجح، وكان دوما يقدم الكثير لطلبته على مستويات مختلفة بيداغوجية وتربوية وخلقية، ولم نسمع عنه ذات يوم ما لا يرضيه ويقلل من شخصيته في الحرم الجامعي ..

فارقنا مبارك، وقد ودعناه بالنظرة الأخيرة في غرفة بمنزله بالعاصمة وطلبنا من المولى القدير أن يغفر له خطاياہ و الكمال لله، وودعناه بعد صلاة المغرب في مقبرة العاليا وهو الى جوار ربه بعد ان استمعنا الى كلمة تأبين خالدة أدلى بها أحد أساتذة المدرسة حول الراحل عرج فيها الآخ البروفيسور نواصة عن حياة الراحل أبكت القلوب وأحيت الذكريات و هي ليست برثاء عابر بل كانت موعظة لنا جميعا عما ينتظرنا كلنا، هكذا كان الوداع الأخير للزميل والآخ وسيبقى مبارك مبارك في قلوبنا دوما رحمة الله عليه .

أبحاث ودراسات تاريخية

الأوضاع الاجتماعية لبلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي

The Social Conditions of the Maghreb before the Islamic Conquest

أ.د/ مبارك بوطارن - رحمه الله / د.مرزاق بومداح

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

ملخص:

يتناول موضوع هذا المقال الأوضاع الاجتماعية لبلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي؛ حيث تطرقنا فيه إلى أهم عناصر سكانه كالبربر والأفارقة واليهود والسودان والروم والفرنج، ثم عالجنا هذه الدراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لسكان بلاد المغرب حيث تناولنا الديانة التي كانت يعتنقها هؤلاء السكان، ثم ذكرنا السياسة المتبعة التي انتهجها الاحتلال البيزنطي اتجاه سكان بلاد المغرب من خلال فرض الضرائب الباهظة، واتباعه سياسة التمييز العنصري باعتبار البيزنطيين هم أصحاب الطبقة العليا والنفوذ، وما دونهم يُعتبرون في نظرهم من الطبقات الوضيعة، بالإضافة إلى الاضطهاد الديني الممارس من قبل السلطات البيزنطية من خلال فرضهم للمذهب المنوئيلي بالقوة على سكان المنطقة، فكان ظهور الفاتحين المسلمين وما يحملونه من مبادئ سامية وعادلة سببا في تخليصهم من نير الاحتلال البيزنطي، وتحسين أوضاعهم الاجتماعية، واعتناقهم الدين الإسلامي الحنيف، والتخلص من الديانة الوثنية وغيرها من الديانات المحرفة كاليهودية والنصرانية.

الكلمات المفتاحية: البربر؛ بلاد المغرب، السكان؛ الأوضاع الاجتماعية؛

البيزنطيون؛ الفتح الإسلامي.

Summary:

The subject of this article deals with the social conditions of the Maghreb before the Islamic conquest. In it, we touched on the most important elements of its population, such as the Berbers, Africans, Jews, Sudanese, Romans, and Franks. Then this study dealt with some aspects of the social life of the inhabitants of the Maghreb, where we discussed the religion that these populations professed, and then we mentioned the arrogant policy that the Byzantine occupation pursued towards the inhabitants of the Maghreb by imposing taxes. It was exorbitant, and followed a policy of racial discrimination, considering that the Byzantines were the owners of the upper class and influence, and those below them were considered in their view to be among the lowly classes, in addition to the religious persecution practiced by the Byzantine authorities through their forceful imposition of the Menothelite doctrine on the inhabitants of the region. Thus, the emergence of the Muslim conquerors and the principles they carried Sublime and just means of freeing them from the yoke of Byzantine occupation, improving their social conditions, embracing the true Islamic religion, and getting rid of paganism and other distorted religions such as Judaism and Christianity

Keywords: Berber; Maghreb countries, Population; Social conditions; Byzantines; Islamique conquest.

مقدمة:

كانت بلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي خاضعة للاحتلال البيزنطي، وكان البربر هو العنصر الغالب على المنطقة، ومن هنا يتبادر إلى الذهن الإشكالية التالية: كيف كانت الأوضاع الاجتماعية لسكان بلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي؟ ويتفرع عن هذه الإشكالية عدة تساؤلات فرعية، ومن أهمها نذكر ما يلي:

ما هي الحدود الجغرافية لبلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي؟ وفيما تتمثل أهم العناصر المكونة لسكانه؟ وما هو الدين الذي كان يعتنقه المغاربة قبل وصول الفاتحين المسلمين؟ وهل كانت سياسة البيزنطيين اتجاه السكان عادلة؟ ولماذا قام البربر بخوض عدة حروب ومعارك ضد الاحتلال البيزنطي؟

أولا: جغرافية بلاد المغرب:

عرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة؛ فأطلق القرطاجيون لفظ أفري (Afri) على أهل البلاد الذين يسكنون حول مدينتهم طاقا (Utica) (المدينة القديمة)، وعاصمتهم قرطاجة (المدينة الحديثة)، وسمى هيرودوت النطاق الجغرافي من شمال إفريقيا الممتد من غرب مصر حتى البحر الكبير باسم ليبيا، وأطلق على سكانه البيض اسم الليبيين تمييزا لهم عن جاورهم من بلاد الصحراء بالأثيوبيين السود، مع العلم أن الإغريق أخذوا اسم إفريقية من القرطاجيين فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي، ومن ثم سميت هذه المنطقة أفريقيا أي بلاد الأفري، واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه

المنطقة، وأطلق هيرودوت لفظ أفريقيا على كل ما يلي مصر غربا من البلاد حتى المحيط الأطلسي⁽¹⁾.

وبعد احتلال الرومان لقرطاجة في سنة 146 ق.م أطلقوا اسم إفريقية أو ولاية إفريقية البروقنصلية (Africa proconsularis) للدلالة على المناطق التي كانت تبعتها مباشرة للقرطاجيين، ونوميديا للدلالة على المنطقة المتوسطة التي تليها، وكانت آنذاك مستقلة، وموريطانيا للدلالة على المنطقة الغربية المتطرفة، وكانت هي الأخرى مستقلة عن الرومان، وبعد الاحتلال الروماني لنوميديا في سنة 46 ق.م وموريطانيا في سنة 40م؛ تجزأت نوميديا إلى قسمين أحدهما شرقي والآخر غربي، وغدت موريطانيا قسمين: موريطانيا القيصرية وعاصمتها شرشال وموريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجيس (طنجة)، ثم أضيفت إليهما فيما بعد موريطانيا السطايفية (سيتيفيس) وعاصمتها سطيف-جريا على سياسة الرومان المؤسسة على التجزئة والتفتيت للوطن وللسكان، كما أنه لا يستبعد أن يكون اسم إفريقيا (Africa) الذي

(1)- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة-مصر، ص ص 1-2؛ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي والبشير مزالي، مؤسسة تاوات الثقافية، 2011م، ص 7؛ موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 14؛ عبد الحميد حسين حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي من الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة-مصر، 1427هـ/2007م، ط 1، ص 11؛ عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط-المملكة المغربية، 1388هـ/1968م، ج 1، ص 2؛ عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية-مصر، 1999م، ص 39؛ هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1421هـ/2001م ص ص 353، 365، 369.

استخدم أثناء الاحتلال الروماني مشتقا من التسمية المحلية بزعمهم للإله "إفري" قبل أن يتم تعميم الاسم على كامل القارة⁽¹⁾. وفي العصر البيزنطي اتسع مدلول كلمة إفريقية، ليصبح شاملا لكل المنطقة التي تمتد من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا⁽²⁾.

وأما في الفترة الإسلامية فقد اختلفت آراء المؤرخين العرب والمسلمين حول مدلول كلمة إفريقية؛ فابن عبد الحكم (ت. 257هـ/871م) وهو من أقدم وأوثق مؤرخي الفتح يشير إلى أن قرطاجنة كانت مستقر سلطان إفريقية تغلب عليها جرجير (جرجوريوس)، وكان نفوذه يمتد من طرابلس إلى طنجة، وأما البكري (ت. 487هـ / 1094م) فيصف لنا إفريقية بقوله: "وحد إفريقية طولها من برقة شرقا إلى مدينة طنجة الخضراء غربا، واسم طنجة مرطانية، وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان"، وبعض المؤرخين استثنى إقليم بنطابلس (المدن الخمس) الذي جعله جزءا مستقلا عن مصر تارة، وإفريقية تارة، وألحق بمصر إداريا تارة أخرى، فيذكر البلاذري (ت. 279هـ/892م) أنه قد بلغه أن أطرابلس بينها وبين إفريقية تسعة أيام، وأما ابن أبي دينار (ت. نحو 1110هـ/1698م) فيذكر أن إفريقية هي بلد القيروان وهي أوسط بلاد المغرب، ثم يقول في موضع آخر: "وحد إفريقية بالطول من برقة إلى طنجة، وعرضها من البحر الشامي إلى الرمال التي أول بلاد السودان قاله

(1) - محمد البشير شنييتي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 ق. م - 40 م)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة-الجزائر، ط2، ص41؛ لقبال، المرجع السابق، ص13-14؛ مريم صليحة، "مقاطعة السطايفية حدودها وسر وجودها"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، الجزائر، ج6، العدد 16، 2018 م، ص219.

(2) - لقبال، المرجع السابق، ص14.

غير واحد، قلت: في زماننا هذا لا يعبر بإفريقية إلا من واد الطين إلى بلد باجة"، وأما ياقوت الحموي فحدد إفريقية بقوله: "وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية، وقيل: إلى مليانة، فتكون مسافة طولها نحو شهرين ونصف⁽¹⁾."

ويرتبط تاريخ ظهور مصطلح المغرب في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أي قبل منتصف القرن الأول الهجري، وهذا ما أشار إليه ابن الأثير (ت. 630هـ/1233م) في تاريخه، ويظهر أنه استعمل في هذه الفترة للدلالة على الجزء الغربي من العالم الإسلامي الذي كان يشمل مصر بملحقاتها، والشام وما جاوره من الناحية الأخرى، المشرق الإسلامي الذي كان يشمل العراق وفارس وبلاد ما وراء النهر⁽²⁾.

وأما إطلاق مصطلح المغرب على نطاق شمال إفريقية أو جزء منه فأغلب الظن أنه لم يقع قبل القرن الثالث الهجري أي في عصر ابن عبد الحكم (ت. 257هـ/

(1) - عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ، ص 210؛ عبد الله بن عبد العزيز البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1992م، ج2، ص672، أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت-لبنان، 1988م، ص223؛ محمد بن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ، ط1، صص 15-16؛ مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد-العراق، 1986م، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت-لبنان، 1995م، ط2، ج1، ص228. ص143؛ لقبال، المرجع السابق، ص14؛ مؤنس، المرجع السابق، ص2.

(2) - علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 1417هـ/1997م، ط1، ج2، ص689؛ لقبال، المرجع السابق، ص15.

871م) الذي أشار في حديثه عن نشاط وال المغرب معاوية بن حديج بقوله: "ثم خرج إلى المغرب بعد عبد الله بن سعد معاوية بن حديج التجيبي سنة أربع وثلاثين" (1).

واختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلول المغرب، فجعله البعض منهم يشمل بلاد شمال إفريقية بالإضافة إلى الأندلس، وجميع الممتلكات الإسلامية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، مثل جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا وجزيرتي سردينيا وكورسيكا وجزر البليار أو الجزر الشرقية وهي ميورقة ومنورقة ويابسة، وجعل المقدسي مصر من بلاد المغرب بقوله: "ويمتد المغرب من تخوم مصر إلى البحر المحيط"، وبعضهم قلص من الحدود الشرقية من المغرب فجعلها من الإسكندرية شرقاً إلى المحيط كابن حوقل (ت. بعد 367هـ/978م): "حدّه من أرض طنجة على البحر إلى نواحي تنس وإلى تونس والمهدية من أرض إفريقية مقبلاً على أرض اطرابلس وبرقة إلى الإسكندرية"، وقسم الاصطخري (ت. 346هـ/957م) المغرب إلى قسمين شرقي ويشمل برقة وإفريقية وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة، وغربي وهو الأندلس، وتبعه في ذلك ابن عذاري (ت. نحو 712هـ/1312م) بإدخال الأندلس مع المغرب وجعله جزء منه بقوله: "إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة سلاء... وبلاد الأندلس أيضاً من المغرب وداخله فيه لاتصالها به" (2).

(1) - ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 220؛ لقبال، المرجع السابق، ص 15.

(2) - إبراهيم بن محمد الإصطخري، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت-لبنان، 2004م، ص 36؛ أحمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط 1، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1983م، ص 7.

ويذكر الزهري المتوفي في أواسط القرن السادس الهجري أن حدود بلاد المغرب تبدأ أولاً من جبال برقة وجبال أسوان في المشرق، وهذه الجبال على آخر عمل مصر وأول عمل القيروان، وآخره أقصى السوس، ويقسمه إلى ثلاثة أصقاع: فالصقع الأول إفريقية ويمتد من جبال برقة إلى جبال نفوسة وجبال الونشريس، والصقع الثاني المغرب الأقصى من جبال الونشريس إلى جبال أشبرتال الداخل في البحر الأعظم، والصقع الثالث السوس الأقصى وحده في المشرق الصحراء المتصلة ببلاد لمتونة المرابطين مع الصحراء الجنوب وحده في الجنوب، وبلاد نول في الغرب، ومدينة أزقي في الشرق، وحده في الشمال الجبل الأعظم المسمى بجبل درن⁽¹⁾.

وقسم الناصري (ت. 1315هـ / 1897م) بلاد المغرب إلى ثلاثة أقسام وذلك بقوله: "ثم هذا المغرب يشتمل على ثلاث ممالك: مملكة إفريقية وهي المغرب الأدنى وقاعدتها في صدر الإسلام مدينة القيروان، وفي هذا العصر مدينة تونس، وسمي أدنى لأنه أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز ثم بعد إفريقية مملكة المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وجزائر بني مزغنة... ثم بعد ذلك مملكة المغرب الأقصى، وسمي الأقصى لأنه أبعد الممالك الثلاث عن دار الخلافة في صدر الإسلام، وحد هذا الأقصى من جهة المغرب البحر المحيط، ومن جهة المشرق وادي ملوية مع جبال تازا، ومن جهة الشمال البحر الرومي، ومن جهة الجنوب جبل درن"⁽²⁾.

(1) - محمد بن أبي بكر الزهري، الجغرافية، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد-مصر، د. ت. ط، ص 106-117.

(2) - أحمد بن خالد السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء-المملكة المغربية، د. ت. ط، ج 1، ص 127.

يمكننا القول أنه على الرغم من كل هذه التقسيمات السالفة فإن جمهور المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين اتفقوا على تحديد كلمة المغرب بالأراضي الإسلامية الممتدة من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي، فهناك المغرب الإفريقي، وهناك المغرب الأندلسي لأن كلمة مغرب أو مغاربة قد تعني أيضا الأندلس وأهله⁽¹⁾.

ثانيا: التركيبة السكانية لبلاد المغرب القديم

سكن بلاد المغرب منذ القديم عناصر سكانية عديدة كالبربر والأفارقة والسودان واليهود والرومان والوندال، وسنحاول التطرق إلى ذلك بما يلي:

1- الأفارقة: هم خليط من بقايا المستعمرين لبلاد المغرب كالرومان والوندال والبيزنطيين، وبقايا الشعب القرطاجي القديم، ونفر من البربر ممن استقر ودخل في طاعة البيزنطيين، وتتضح التفرقة بينهم وبين البربر من قول جوتييه (Gautier): "وعلى أي الأحوال يسمى الأهالي الثائرون بأسماء قبائلهم، أو يسمون المور، أو البربر جملة، ولكنهم لا يسمون الأفارقة أصلا، إن هذه التسمية قصر على خصومهم حماة النظام وهم أهل قرطاجة أو رعاياها"؛ ومن خلال نص جوتييه (Gautier) يدل أن العرب أخذوا هذه التسمية عن المؤلفين اللاتين⁽²⁾.

ومن خلال الاطلاع على المصادر العربية والإسلامية نجد أن ابن عبد الحكم (ت. 257هـ / 871م) والبكري (ت. 487هـ / 1094م) يذكران أن الأفارقة نسبة إلى فارق بن بصر أو فارق بن مصرم، وأن فارق قد حاز لنفسه من الأرض ما بين برقة إلى إفريقية، فبالأفارقة سميت إفريقية، ويذكر ابن عبد الحكم (ت. 257هـ / 871م)

(1) - أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، د. ت. ط، ص 10.

(2) - مؤنس، المرجع السابق، ص 5.

وابن خلدون (ت. 808هـ/1406م) أن الأفارقة كانوا خدما للروم أقاموا على صلح يؤدّونه إلى من غلب على بلادهم، وأما البكري (ت. 487هـ/1094م) فيذكر لنا أن بعض الأفارقة كان مقيما بركة: "وحول مدينة بركة قبائل من لواتة ومن الأفارق"، كما يصف ابن عذارى (ت. نحو 712هـ/1312م) سكان إفريقية بالأفارقة، وذلك عند حديثه عن غزو ابن أبي السرح لإفريقية وهزيمته لجرجير في معركة سببلة⁽¹⁾، وهناك تعبير عجم إفريقية أو الأفارقة الأعاجم الذي يعني أيضا الأفارقة كما ذكر ذلك ابن عبد الحكم (ت. 257هـ/871م) وابن خرداذبة وابن عذارى (ت. نحو 712هـ/1312م)⁽²⁾.

وسكن الأفارقة بصورة رئيسية في المدن الساحلية، وبخاصة في مقاطعة إفريقية البروقنصلية، حيث عُرفت مدينة قابس حتى بعد الفتح الإسلامي بمدينة الأفارقة الأعاجم، وهناك أدلة تشير إلى أن الأفارقة استوطنوا في بركة، وفي نزاوة بمدينة يقال لها بشرة، ونوميديا، وفي بعض المناطق الداخلية الغربية كمدينة فاس. وأما عن لغة الأفارقة فكانت رطانة ليست بعربية ولا بربرية ولا عجمية ولا قبطية، فكان لا

(1) - ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ص 197، 212؛ البكري، المصدر السابق، ج 2، ص ص 650، 671؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج 1، ص 12؛ عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1408هـ/1988م، ط 2، ج 2، ص 573.

(2) - ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 229؛ عبيد الله بن خرداذبة، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت-لبنان، 1889م، ص 86؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج 1، ص 38.

يفهمها غيرهم، وفي هذا الصدد يذكر البكري (ت. 487هـ / 1094م): "ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا قبطي لا يعرفه غيرهم" (1).

2- السودان: هم أصحاب البشرة السوداء، وسماهم هيرودوت بالأثيوبين (2)، وكانت واحات الصحراء هي همزة وصل بين المغرب والسودان، وفي هذا الصدد يذكر الإصطخري مانصه: (وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات الآمن وجه المغرب لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم)، وقد وصف المؤرخون العرب والمسلمون بعض المدن الصحراوية كغدامس ووزويلة وأوجلة وسجلماصة بأنها أبواب السودان، وتعود جذور هذه العلاقة إلى ما قبل العصر القرطاجي والروماني، وكان عامل استخدام هؤلاء في الخدمات الخاصة كالحراسة والفلاحة هو أساس جلبهم بكل الوسائل إلى بلاد المغرب (3).

(1) - ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 229؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 39؛ محمد بن محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت-لبنان، 1409هـ، ط 1، ج 1، ص 297؛ أحمد بن إسحاق اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1422هـ، ط 1، ص 189؛ البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 656؛ أوكيل، المرجع السابق، ص 29؛ عبد الواحد دنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت-لبنان، 2004م، ط 1، ص 40.

(2) - هيرودوت، المصدر السابق، ص 369.

(3) - الإصطخري، المصدر السابق، ص 40-41؛ البكري، المصدر السابق، ج 1، ص 15؛ الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 18؛ اليعقوبي، المصدر السابق،

ص 183؛ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)، منشأة المعارف، الإسكندرية-مصر، 1993م، ج 1، ص 108؛ حمودة، المرجع السابق، ص 20.

وقام سكان الصحراء المنتشرون في المدن والواحات بدور كبير في ربط بلاد المغرب بأرض السودان عن طريق التجارة، أو تسهيل حركة مرور التجار وغيرهم بالمنطقة الصحراوية، ويذكر الدكتور سعد زغلول أن الجماعات السودانية لم يكن لهم كيان خاص ببلاد المغرب، مما يعني أن الدماء السودانية القادمة من الجنوب كانت تذوب أول بأول في دماء أهل البلاد، كما هو الحال الآن، ولذا خلى ذكركم من قبل المؤرخين العرب والمسلمين⁽¹⁾.

3- الروم والفرنج: كان للاحتلال الروماني لبلاد المغرب لمدة طويلة، ثم من بعده الاحتلال الوندالي ثم البيزنطي أن يكون للروم والوندال وجود بهاته المنطقة، ورغم أنه حدث اختلاط وتزاوج بين الروم والوندال والبيزنطيين والبربر لكن هذا الامتزاج كان محدودا، ولذا ظل الروم والوندال والبيزنطيين يكونون جماعات منفصلة عن البربر، وقد أشارت المصادر الإسلامية إلى الروم المستوطنين بالمغرب، ومن ذلك ما ذكره ابن عذارى (ت. 712هـ/ 1312م) عند مسير حسان بن النعمان إلى قرطاجة: "فسار نعمان حتى نزل عليها وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة"، ويذكر في موضع آخر عند حديثه عن حسان بن النعمان والكاهنة: "فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون"⁽²⁾.

4- اليهود: لا يعرف بالتحديد متى قدم اليهود إلى بلاد المغرب، وإن كان ذلك في عهود سحيقة، ويذكر بعض المؤرخين أن قدوم اليهود إلى المغرب كان عقب هدم

(1) - زغلول، المرجع السابق، ص 108-109؛ حمودة، المرجع السابق، ص 20-21.

(2) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج 1، ص 34-35؛ زغلول، المرجع السابق، ج 1، ص 109؛

أوكيل، المرجع السابق، ص 29.

الهيكل الأول في سنة 586 ق.م من قبل الملك البابلي بختنصر ودخوله بيت المقدس؛ فقام بتشريدهم منها، فجلوا منها، وعُرف هذا الجلاء بجلاء بابل أو الجلاء الأول، وتوجه بعض اليهود على قوارب فينيقية إلى قرطاجة التي كان قد أسسها الفينيقيون سنة 814 ق. م، وتتفق معظم الدراسات على أن الهجرات المكثفة إلى بلاد المغرب بدأت أوائل القرن الثالث قبل الميلاد في عهد بطليموس الأول، وخضوع برقة (قورناية) للسيطرة البطلمية، وفي عهد الرومان أضحى إقليم برقة منطقة جذب لليهود حيث سمح لهم الرومان بحرية التنقل في حوض البحر المتوسط وفقا للسلام الروماني، واستقرت جالية يهودية في العصر الروماني بمنطقة ويلي، ويبدو أن اليهود بوليلي ظلوا بها حتى بعد الفتح الإسلامي، واستمرت الهجرة اليهودية إلى بلاد المغرب خاصة بعد تحطيم الهيكل على يد الرومان في سنة 70م؛ فاستقروا في برقة وقرطاجة، وتشير الروايات إلى زيادة الهجرة اليهودية في المغرب الأقصى حيث توغلوا غربا حتى بلغوا منطقة درعة⁽¹⁾.

واستمرت الهجرة اليهودية إلى بلاد المغرب في العصر الوندالي في سنة 430م حيث تمتع اليهود بهدوء نسبي، لكن بعد خضوع المغرب للسيطرة البيزنطية في سنة 533م أُجبر اليهود على اعتناق الديانة النصرانية، وأدت اضطهادات البيزنطيين

(1) - عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم-مصر، 2001م، ط1، ص ص 53-56؛ أحمد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، شركة دار الورّاق للنشر، بيروت-لبنان، 2014م، ط1، ص 126؛ زغلول، المرجع السابق، ص 106؛ حمودة، المرجع السابق، ص 24؛ حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء-المملكة المغربية، 1986م، ط1، ص 9؛ ابن منصور، المرجع السابق، ص 259.

للإهود إلى فرار الكثير منهم إلى عمق الأقاليم الجنوبية لبلاد المغرب، وبعضهم توجه إلى المغرب الأقصى، واندمجوا مع البربر الذين سكنوا الصحراء والجبال والأودية؛ فتخلّى الإهود عن سكنى المدن تحت وطأة الاضطهاد الروماني خاصة بعدما وجدوا ترحيباً من هذه القبائل، وتزايد عدد الإهود في المغرب نتيجة لاعتناق بعض القبائل البربرية للديانة اليهودية في نهاية الاحتلال البيزنطي⁽¹⁾.

وجذبت منطقة المغرب الأقصى عدداً من الإهود، وانتقل إليها النازحون من بلاد الأندلس هرباً من اضطهاد القوط خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين؛ فعندما اعتنق الملك القوطي ريكارد الأول (Reccared I) المذهب الكاثوليكي سنة 589م اعتبر الإهود من الهراطقة، ومن ثم شملهم الاضطهاد، وكان مجمع طليطلة الديني الذي انعقد في سنة 694م قد فرض على الإهود التنصير، ومن لا يتنصر يصبح عبداً وتصادر أملاكه، كما يُنزع منه أولاده بعد بلوغهم السابعة، ويربون تربية نصرانية، وقد أدى ذلك إلى فرار أعداد كبيرة من الإهود إلى المغرب الأقصى⁽²⁾.

5- البربر: هم سكان البلاد الأصليون كما يلقبهم الرومان، وذكرت النصوص الهيروغليفية الشعوب القاطنة إلى غرب نهر النيل تحت اسم الليبو، كما ورد اسم الليبيين في التوراة، وأطلق الإغريق اسم الليبيون على السكان القاطنين على سواحل إفريقيا الشمالية من حدود مصر إلى المحيط، والأثيوبيون على السكان القاطنين جنوب

(1) - بشير، المرجع السابق، ص 57؛ حمودة، المرجع السابق، ص 25.

(2) - عطية القوسي، الإهود في ظل الحضارة الإسلامية، مركز الدراسات الشرقية، القاهرة-مصر، 1422هـ/2001م، ص ص 129-130؛ بشير، المرجع السابق، ص ص 57-58؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، 1417هـ/1997م، ط 4، ج 1، ص 31.

هذه المنطقة، وقد أطلق الإغريق أيضا لفظ البربر (Barbaroi) والرومان لفظ (Barbarus) باللغة اللاتينية التي تقابلها باللغة الإنجليزية (Barbarian) على الشعوب الخارجة عن نطاق الحضارة الرومانية والتي تعتبرها همجية، وفي هذا الصدد يذكر قزال (Gsell) أن البربر هم الأهالي المستعصين عن الحضارة اللاتينية، وأما المؤرخون المسلمون كابن خلدون فيذكر أن أحد ملوك التبابعة يقال له أفريقش بن قيس لما غزا المغرب وإفريقية رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك فقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر⁽¹⁾.

ويذكر علماء النسب أن البربر يجمعهم جذمان عظيمان، وهما برنس وماذغيس. ويلقب ماذغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس، وهما معا ابنا برنس. وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد؟ فابن ابن حزم نقل لنا عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنها لأب واحد على ما حدثه عنه يوسف الوراق. وقال سالم بن سليم المطماطي وصابي بن مسرور الكومي وكهلان بن أبي لواء، وهم نسابة البربر: إن البرانس بتر، وهم من نسل ملازيغ بن كنعان. والبتر بنو بر بن قيس بن عيلان، وربما نقل ذلك عن أيوب بن أبي يزيد، إلا أن رواية ابن حزم على رأي ابن خلدون أصح لأنه أوثق⁽²⁾.

(1) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 117؛ أضيفان أكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة: محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط - المملكة المغربية، 2007م، ج 1، ص 271؛ محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د. ت. ط، ص ص 21-26.

(2) - ابن حزم، المصدر السابق، 195؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 117.

ويرى البعض أن المسلمين هم من أطلق اسم البرانس والبتري على القبائل البربرية، فأطلقوا اسم البتري على القبائل البربرية التي يرتدي أبنائها لباسا قصيرا، واسم البرانس على القبائل البربرية الذين يرتدون اللباس المسمى بالبرنوس⁽¹⁾. كما يرى بعض المؤرخين أن القبائل البرنسية هي القبائل المتمدنة والمستقرة بالمدن الذين يعيشون على الزراعة، أما القبائل البترية فهي تلك القبائل البربرية التي سكنت البادية واختارت حياة الترحال والتنقل وممارسة مهنة الرعي⁽²⁾. ويبدو أن تقسيم القبائل

(1) - تقسيم البربر إلى قسمين باعتبار اللباس مردود لسببين: أولهما أن قبائل صنهاجة الجنوب وهم من فروع البرانس قطعاً، ومع ذلك فهم لا يلبسون البرنس ولم يثبت أنهم لبسوه في يوم ما ثم هجروه إلى غيره، كما أنه يصعب إيجاد علاقة ما بين غطاء الرأس في البرنس وبين اللثام عند قبائل صنهاجة الجنوب، ثم إن البرنس في وقتنا سمة الفروسية ولباس للفرسان المحليين وهؤلاء أغلبهم من البتري، ومن يتخذونه لباساً اليوم إنما هم أولئك الذين ينسبون بأصولهم إلى فرع البتري، وأخصهم فروع زناتة مثل بني يفرن في وقتنا. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص 60-61.

(2) - يرى الأستاذ لقبال بأنه قد اتسعت الافتراضات وتشعبت الآراء حول هذا التقسيم البدائي لسكان المغرب، فهل أن أساس التقسيم هو ملاحظة اختلاف أساليب الحياة الاجتماعية بين مجموعتين كبيرتين من السكان، وهنا يلاحظ أن أغلب قبائل البتري تعيش وفق أنماط وأساليب المجتمع البدوي من النقلة لانتجاع الماء والكأ، وسكنى الخيام، وامتلاك النوق والجمال، والميل إلى قطع السابلة والإغارة على مراكز الاستقرار والعمران والاعتصام بالصحراء، أو بالأماكن النائية عن مراكز السلطة السياسية في قمم الجبال أو فوق الهضاب والتلؤل. وبعكس البتري، البرانس فأغلبهم مستقرين في القرى الساحلية أو التلية، ومنتشرون في السهول للفلاحة وللغراسة، ويحترفون سائر المهن التي اعتاد ممارستها المستقرون ومنها مزوالة النشاط التجاري والصناعي. والبرانس بحكم استقرارهم هم قرييون من مراكز السلطة السياسية ومن ثم فهم يتأثرون بكل ما

البربرية إلى إلى قبائل مدرية ووبرية مرجعهم إلى الكلمتين اليونانيتين: (Botros)؛ التي تعني البدو، والرعاة، ثم (Barano) برانوس التي يقصد بها أولئك الذين اختاروا حياة الاستقرار، ومع أن هذا التفسير فيه الكثير من الصحة في شكله العام؛ إلا أنه لا ينطبق على كل القبائل البترية، حيث ثبت أن بعض القبائل البترية اختارت حياة الاستقرار وسكنى المدر، منها بطون من: نفزاوة، ومطغرة، ولواتة، وكومية، ومغيلة، ومديونة... إلخ⁽¹⁾.

-البربر البرانس: يرى ابن خلدون أن البرانس نسبة إلى بني بربر سحو بن أبزج بن جمواح بن ويل بن شراط بن ناح بن دويم بن داح بن مازيغ بن كنعان بن حام⁽²⁾. ومن أهم بطون البرانس نذكر ما يلي:

أ-إزداجة: تعرف أيضا باسم وزداجة، ولم تذكر لنا المصادر في حدود ما اطلعنا عليه اسم أبيهم أو سلسلة النسب التي توصلهم إلى أبيهم برنس، ويرى بعض



يطرأ على البلاد من هجرات وثقافات وحروب. واعتبر الأستاذ لقبال أن هناك جملة من الملاحظات حول هذا التقسيم: ومنها أن العرب المسلمين لم تجر عاداتهم في مثل هذه الحالات بملاحظة الأسس الاجتماعية سواء في تصنيفهم لأنفسهم أو لغيرهم من الشعوب. ثم إن ظاهري النقلة والاستقرار بالنسبة لقبائل البربر مسألة نسبية قد تكثر هنا وتقل هناك حسب الظروف، وقد اشتهرت بعض قبائل البتر بالاستقرار وممارسة الزراعة واحتراف المهن كقبيلة كومية بفروعها الثلاثة ندرومة ووصعارة وبني يلول، وقبيلة جرواة. أنظر: لقبال، دور كتامة، ص 58-60.

(1) - بوزياني، المرجع السابق، ص 176، 476-477؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 117-118؛ سالم، المرجع السابق، ص 51؛ حمودة، المرجع السابق، ص 17؛ زعلول، المرجع السابق، ص 86.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 124.

المؤرخين كابن خلدون أن إزداجة ووزداجة قبيلتان متباينتان؛ فإزداجة تنسب إلى قبيلة زناتة البترية، ووزداجة تنسب إلى قبيلة هواره البرنسية، ومن أهم بطون إزداجة نذكر: مسطاسة، ومسكن أو مسقن. ويعلمنا ابن حزم (ت. 456هـ / 1064م) أن من قبائل وزداجة: مسطاسة. ولزنانة بطون عظيمة كبنى برزال، وبنى دمر، ومغراوة، وبنى صغمار، وغيرهم⁽¹⁾. وكانت مواطن قبيلة إزداجة كما يذكر ابن خلدون بالمغرب الأوسط بناحية وهران، وفي بعض القرى المنتشرة بحوض وادي سبو⁽²⁾.

ويذكر بعض الرحالة أن من مضارب مسطاسة وهي إحدى بطون قبيلة إزداجة في الطريق بين سبتة وفاس، ومن مراكز استقرار إزداجة نذكر بلد نكور، وأيضا في إقليم باجة⁽³⁾.

ب-أوربة: هم أولاد أورب بن برنس، وكانت قبيلة أوربة من أكثر القبائل البربرية قوة وغلبة أيام الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وهم بطون كثيرة، ومنها: بجاية ونفاسة ونعجة وزهكوجة ومزياتة ورغيوتة وديقوسة. وكان أميرهم بين يدي الفتح الإسلامي ستردير بن رومي بن بارزت بن بزريات⁽⁴⁾.

ومواطن قبيلة أوربة في أوليلي بالمغرب الأقصى، وفي بلاد الأوراس بالمغرب الأوسط، والريف بالمغرب الأقصى، ومن شمال تيهرت إلى وهران، وفي غرب فاس⁽⁵⁾. ويذكر لنا لقبال أن لقبيلة أوربة أوزاع أخرى في عدة جهات من بلاد المغرب، وقد

(1) - ابن حزم، المصدر السابق، ص 498.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 191؛ بوزياني، المرجع السابق، ص 484.

(3) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 763، لقبال، دور كتامة، ص 69.

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 192

(5) -بوزياني، المرجع السابق، 492.

اشتهروا بأنهم كانوا نصارى ومتأثرون بالحضارة البيزنطية، وكانت لهم صلات مع الروم، ومع الأفارقة، وربما كان لهم نوع من الزعامة على بني قومهم في العصر البيزنطي، والتي استمرت حتى بعد مجيء طلائع الفتح الإسلامي إلى البلاد، حتى كان لهم في وقت ما ممارسة الزعامة لا على حلف البرانس فقط، وإنما على حلف البتر أيضا، وما ذلك إلا لقوة بأسهم وكثرة عددهم، وحكمة ومرونة أمرائهم. ومن أشهر أمراء أوربة في أول الفتح الإسلامي سكرديد بن زوغي (رومي) بن مازرت بن برزيات الذي قيل أنه توفي في سنة 71هـ/ 690-691م بعد ولاية استمرت ثلاثا وسبعين سنة دون أن تشير مصادر الفتح أثناء هذه المدة إلى حركة يكون قد قام بها، أو دور يكون قد مثله إما لفائدة أو ضد العرب المسلمين، وقد آلت زعامة قبيلة أوربة وحلف البرانس إلى كسيلة بن لمزم ربما لأن سكرديد قد أصبح شيخا كبيرا طاعنا في السن، وأصبح لا ينهض بأعباء الحكم⁽¹⁾.

ج-صنهاجة: ذكر السيوطي (ت. 911هـ/ 1505م) عند حديثه عن قبيلة صنهاجة بقوله: "الصنهاجي: بالكسر والسكون وجيم إلى صنهاجة قبيلة من حمير بالغرب، وذكر ابن خلدون نسب صنهاجة بقوله: من ولد صنهاج، وهو صناك بالصاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم. إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج، وهو عند نسابة البربر من بطون البرانس من ولد برنس بن برّ، وذكر الطبري (ت. 310هـ/ 922م) أن صنهاجة من قبيلة حمير، وبذكر ابن خلدون (ت. 808هـ/ 1406م) أن بعض النسابة يزعم أنه صنهاج بن المثني بن المنصور بن مصباح بن يحصب بن مالك بن عامر بن حمير الأصغر بن

(1) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 28؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 142؛

لقبال، المرجع السابق، ص ص 72-73.

سبياً، كذا نقل ابن النحويّ من مؤرخي دولتهم وجعله ليحصب. وقد مرّ ذكره في أنساب حمير وليس كما ذكر والله أعلم. وأما المحققون من نسابة البربر فيقولون: هو صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن قيمتا بن سدور بن مولان بن مصلين بن يبرين بن مكسيلة بن دقيوس بن حلحال بن شرو بن مصرايم بن حام. ويزعمون أن جزول واللمط وهسكور إخوة صنهاج، وأن أمهم الأربعة بصكي وبها يعرفون وهي بنت زحيك بن مادغيس، ويقال لها العرجاء فهذه القبائل الأربعة من القبائل إخوة لأم والله أعلم⁽¹⁾.

ومن بطون قبيلة صنهاجة نذكر: بلكانة وأنجفة وشرطة وملتونة ومسوقة وكدالة ومندلسة وبنو وارت وبنو يتين، ومن بطون أنجفة: بنو مزوات وبنو تثليب وفشتالة وملوافة. هكذا يكاد نقل بعض نسابة البربر في كتبهم، وذكر آخرون من مؤرخي البربر أن بطونهم تنتهي إلى سبعين بطناً⁽²⁾.

وفي الحقيقة فإن صنهاجة لم تكن مجرد قبيلة، بل كانت حلفاً عظيماً تعددت قبائله، تحت كل فرع منها عمائر، وبتون، وأفخاذ، ومن أهمها في بلاد المغرب الأوسط: تلكاتة، وكانت لهم الزعامة على سائر فروع صنهاجة الشمال، ولهم منزلة بينها أشبه بتلك التي تبوأها ملتونة، وأظهر فروع تلكاتة بنو مناد بن منقوس، ومنهم الزيريون والحماديون، ومن آثار هؤلاء بناء المدن التالية: أشير، مليانة، المدية، جزائر بني مرغنة، ومتيجة، وبجاية، وبجاية هي إحدى فروع قبائل صنهاجة، ومن فروعها بنو ورياكل،

(1) - جلال الدين السيوطي، لب الباب في تحرير الأنساب، دار صادر، بيروت-لبنان، د. ت.

ت، ص 163؛ ابن خلدون المصدر السابق، ج 6، ص 201؛

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 202.

ومضاربهم حول ضاحية ملالة، ويظهر أن رهطا من بجاية هاجروا إلى تونس، لأننا لاحظنا في شمال تونس اسم بجاوة، والنسبة إليهم كالنسبة إلى بجاية (بجاوي)⁽¹⁾.

وبقرب بجاية وفي المنطقة بينها وبين مدينة تيزي وزو الحالية يوجد بقايا من قبيلة صنهاجة: كفرع بني خليل وعرفوا في تلك الجهات باسم "بني خليلي"، كما ذكر بعض الرحالة فرعا منهم باسم بني أبي خليل في منطقة الونشريس، ويوجد بنو جعد قرب حمزة (البويرة حاليا)، وبنو وارث وهم بنو وارثن بالبربرية يوجد أثرهم بجهة بجاية ويعرفون بمشتاهم آيت وارث واعلي، وقد أشار البكري (ت. 487هـ/ 1094م) إلى فرع منهم بين تامدلت وأودغست في الطريق من درعة إلى الصحراء، وهم مندجون في إطار أبناء عموماتهم صنهاجة اللثام. وبنو عمران على مقربة من بجاية وهم من صنهاجة أيضا، وهم في دوار أبرارين ومنهم في قرية الأربعاء وقرب برج منايل، أما بنو عمران الجبال والسفلية فهم قرب مرسى جيجل غير بعيدين عن مضارب قبيلة كتامة. وبطيوة وآثارها توجد مدينة أرزيو ناحية وهران، بالإضافة إلى وجود قرية وقبيلة بهذا الاسم في نفس الجهة. وهناك قبيلة تاركة جمع توارك (طوارق) وهم من بقايا صنهاجة اللثام، وآثارها في جبل الهقار بالمغرب الأوسط، ومن كبرى قواعدهم الآن تمنراست، ويحتفظون حتى الآن باسم التوارق، وبهم سميت مدينة ترغة وهي مجال إقليم سجلماسة. وأما قبيلة جزولة فتوجد بقاياها في جهات من المغرب الأوسط، ويدل عليها شيوع لقب الجزولي، وأشار الجغرافيون والرحالة إلى وجود جبل باسم جزول أو كزول تقع عليه أو في سفحه مدينة تاهرت⁽²⁾.

(1) - الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 261؛ لقبال، دور كتامة، ص ص 87-88.

(2) - لقبال، دور كتامة، ص ص 88-89.

ومن فروع وبقايا قبيلة صنهاجة أيضا قبيلة وانوغة وقد اندمجوا في إحدى القبائل ومنها قبيلة بني مكلا قرب قرية يسر، وتذكر هذه القبيلة كتلة جبلية حول مدينة سور الغزلان تعرف بجبال وانوغة. وقبيلة متنان أو متنه التي تضرب عشائرها بقرية قرية عين بسام (ولاية تيطري)، ويوجد فرع آخر لها هاجر في ظروف غير محددة في الطريق الذي يربط بين طنجة وسبتة، ويحتفظ بنفس الاسم التاريخي القديم. وفرع مزغنة من صنهاجة كان يضرب حول الأخضرية، ومدينة الجزائر قبل تأسيسها، ولذا أخذت المدينة نفس اسم القبيلة، وعُرفت عند الرحالة بجزائر بني مزغنة (مزغناي أو مزغان)، وتندمج مزغنة في قبيلة بني سليمان الشراقة، مع احتفاظها بالاسم القديم، وتضرب الآن على ضفة وادي يسر غير بعيدة عن قرية الأربعاء. وفرع ملوالة (أيلوالة باللهجة المحلية) ويوجدون قرب مدينة الجزائر. ويوجد فرع بني حميد في إطار قبيلة يسر الغربي شرقي الجزائر، وربما فرع بني عثمان أيضا، أما بقايا بني سليب فتوجد آثارها في ناحية قالمة من مضارب كتامة، كما أن فرع مليانة على العدو الشرقية لوادي الشلف، وفرعة لمدية في جبال التيطري، والزناكة في تلمسان، وبني دركول بناحية زمورة قرب غليزان، وبني زروال (بني رزويل أحيانا) بقرب من البيض⁽¹⁾.

يمكننا القول أن مواطن صنهاجة كما يذكر لنا ابن خلدون أنه لا يكاد قطر من أقطار المغرب يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتى زعم بعضهم أنهم يشكلون ثلث سكان البربر، وينقسم الصنهاجيون حسب مواطنهم ونظام حياتهم إلى قسمين: صنهاجة الشمال (سكان التلول والجبال)، وصنهاجة الجنوب (سكان الصحراء)، ومن أعظم قبائل صنهاجة الجنوب نذكر: لمتونة، ومسوفة، وجدالة، وتمتد

(1) - المرجع نفسه، ص 90.

مواطنهم جنوب مفازة الصحراء الكبرى، وحتى بلاد السودان، وهم من أهل الوبر⁽¹⁾. والميزة الأخرى التي تضاف إلى ما سبق ذكره هي قوة الرابطة الدموية بين فرعي صنهاجة في الشمال والجنوب بسبب إحساس القوم بوحدة الأصل واللهجة والتراث⁽²⁾.

د- عجيصة: هم من بطون البرانس، من ولد عجيصة من برنس، ومدلول هذا الاسم البطن، فإنّ البربر يسمّون البطن بلغتهم عدّس بالبدال المشدّدة، فلما عربّتها العرب قلبت دالها جيمًا مخفّفة، وكان لهم بين البربر كثرة وظهور، وكانوا مجاورين في بطونهم لقبيلة صنهاجة⁽³⁾.

ومن آثار وبقايا عجيصة ببلاد المغرب الأوسط، أن هناك قبيلة تحمل نفس الاسم القديم جنوبي غربي بجاية، على ستة وعشرين ميلا، ثم قبيلة أخرى باسم عجيصة في أرض بني تليان، وتقع بين مدينتي القل وقسنطينة وهي مضارب قبيلة كتامة، وقبيلة أخرى في منطقة الحضنة الشرقية تحمل نفس الاسم القديم، وهي تقع بالتحديد في دوار الجزار (مشتى) مركز أولاد سليح الآن بقرب مدينة بريكة الحالية أو مدينة طبة القديمة، وقبيلتا الأعراش والساحل القبلي ضمن دوار الكركور بالمغرب الأوسط، وقد أسس حماد في وقت لاحق في أعلى قمة جبل تاقربوست في مضارب

(1) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 201؛ بوزياني، المرجع السابق، ص 655.

(2) - لقبال، دور كتامة، ص 84.

(3) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 192.

قبيلة عجيسة عاصمة لدولته الجديدة التي سماها القلعة لأنها مكانها قلعة أبي طويل القديمة⁽¹⁾.

ه-كتامة: ذكر السمعاني (ت. 562هـ/1167م) نسب قبيلة كتامة بقوله:

الكتامي بضم الكاف وفتح التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وفي آخرها الميم هذه النسبة إلى كتامة، وهي قبيلة من البربر نزلت ناحية من بلاد المغرب⁽²⁾. وهذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب وأشدّهم بأسا وقوة، وأطولهم باعا في الملك، وهم عند نسابة البربر من ولد كتام بن برنس، ويقال: كتم ونسابة العرب يقولون إنهم من حمير ذكر ذلك ابن الكلبي والطبري⁽³⁾. ويذكر لنا ابن منصور: بنو كتام أو كتم من برنس، وهم عرب حميريون⁽⁴⁾.

وبطون قبيلة كتامة كثيرة يجمعها كلها غرسن ويسوّدة ابنا كتم بن يوسف، ومن قبيلة يسوّدة: السبد وذنحاجة ومتوسة ورسين، وكلّهم بنو يسّودة بن كتم. وإلى دنحاجة ينسب قصور كتامة بالمغرب لهذا العهد. ومن غرسن مصالة وقلان وماوطن ومعاذ بنو غرسن ابن كتم، وهيفة وجيملة ومسألته وبنو بناوة بن غرسن، وملوسة من إيان ولطاية وإجّانة وغسمان وأوباست بنو تيطاسن بن غرسن وملوسة من إيان غرسن بن

(1) - البكري، المصدر السابق، ج2، ص723؛ ابن منصور، المرجع السابق، ج1، ص ص70-71.

(2) - عبد الكريم بن محمد السمعاني، الأنساب، ط1، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1408هـ/1988م، ج5، ص31.

(3) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص195.

(4) - ابن منصور، المرجع السابق، ج1، ص303.

غرسن. ومن ملوسة هؤلاء بنو زيدوي، وعدّ ابن حزم (ت. 456هـ/1064م) منهم زواوة بجميع بطونهم، وهو الحق على ما تقدّم⁽¹⁾.

ويذكر ابن خلدون أن قبيلة كتامة كانت تنتشر قبل الإسلام في كل جهات بلاد المغرب، وعلى رأي لقبال فإن هذا الرأي إن صح فإن هذا يقسر إلى حد ما بقاء جيوب كتامية في أرض غير إفريقية، والمناطق الشرقية من بلاد المغرب الأوسط الآن، حيث مضاربهم الأصلية التي اشتهروا بها منذ عصر الفتح الإسلامي⁽²⁾.

وذكر بوزياني أن مواطن كتامة تمتد من تخوم بجاية غربا إلى بونة غربا، ومن سواحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى جبال الأوراس جنوبا، وهذا ما ذكره ابن خلدون بقوله: "مواطنين بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربا إلى جبل أوراس من ناحية القبلة. وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكثرها لهم، وبين ديارهم ومجالات تقلّبهم مثل أبكجان وسطيف وباغاية، وبفاس وتلزمه ويتكست وميلة وقسنطينة والسيكرة والقلّ وجيجل من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة... وكان من هذه البطون (الكتامية) بالمغرب الأقصى كثير متدبون عن مواطنهم"⁽³⁾.

وينتقد لقبال ابن خلدون عند ذكره مواطن كتامة بأن عيب هذا التحديد أنه يترك الحد الشرقي لمنطقة كتامة دون توضيح، كما يجعل منطقة زواوة خارجة عن هذا الإطار، مع أنه يقرر هو نفسه أن زواوة جزء من كتامة، ويعني ذلك أن ما بين هذه

(1) - ابن حزم، المصدر السابق، ص 501؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص ص 196

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 195؛ لقبال، ص ص 97-98.

(3) - بوزياني، المرجع السابق، ص ص 729-730؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 195.

الحدود التي عبر عنها ابن خلدون بأرياف قسنطينة هي مجالات كتامة ومضارب فروعها المختلفة منذ الفتح الإسلامي للمنطقة حتى القرن الثامن الهجري⁽¹⁾.

ويمكن تحديد امتداد منطقة كتامة شمالا بخط وهمي على الساحل يبدأ من نقطة ما قرب مرسى الخزر (القاله) إلى ما وراء تدلس (دلس حاليا) في أرض زواوة، وفيما بين الحدين توجد موانئ القالة، عناية، القل، سكيكدة، جيجل، بجاية، دلس. أما الحد الجنوبي فيمكن اعتبار جبال أعالي الناس من سلسلة جبال الأوراس، وهو مركز أنوغيسن قرب أريس، وبو حمامة قرب خنشلة، ثم جبال الحضنة الشرقية حدودا ينتهي عندها امتداد منطقة كتامة، أما في جهة الشرق فالحد يبدأ في نقطة ما على الساحل قرب القالة، ويمر عبر جبال النمامشة في اتجاه الجنوب تاركا تبسة ومسكيانة خارج الحد. أما في الغرب فالحد يبدأ في نقطة ما على الساحل تقرب من دلس ثم ينزل بحذاء جبال تيتري حيث مضارب صنهاجة، تاركا كتلة جرجرة التي تعرف بجبال زواوة داخل مجالات كتامة وضمن فروعها. وفي داخل هذا العمق توجد قرى زواوة الجبلية، ومراكز ومدن كتامة، وهي: قلمة، سوق أهراس، سطيف وإيكجان، ميله، قسنطينة، هذا عدا القرى الجبلية والسهلية والقصور المنتشرة هنا وهناك⁽²⁾.

و-جزولة: أضاف نسابة البربر سابق المطماطي وأصحابه لمطة وهسكورة وجزولة أو كزولة إلى قبائل البرانس، وينتقد الأستاذ لقبال هذا الرأي بقوله: "أما القول بأن سابق المطماطي هو من نسابة البربر قد أضاف إلى بطون البرانس: لمطة، وجزولة، وهسكورة، فقول ليس بجديد وبشيء من التأمل يتضح أن هذه البطون الثلاثة إنما هي فروع لحف صنهاجة الكبير مثل غمارة وهرغة وتينمل بالنسبة لحلف

(1) - لقبال، دور كتامة، ص 98.

(2) - المرجع نفسه، ص ص 98-99.

مصمودة الكبير"، ويذكر ابن خلدون أن جزولة إخوة لصنهاجة ولمطة وهسكورة، من أمهم المسماة تصكي العرجاء بنت زحيك بن مادغيس، وأما عن أب جزولة ولمطة وهسكورة فيذكر ابن حزم أنه لا تحقيق في نسبهم، وبطون كزولة كثيرة، ومنهم بطن يسمى يزدكتن، ومعظمهم يستقر بأرض السوس، ومجاورين لقبيلة لمطة، ويتوزعون أيضا في بلاد المغرب الأوسط إذ ينسب إليهم جبل جزول القريب من تيهرت⁽¹⁾.

ز-لمطة: وهو نفس نسب كزولة الذي ذكرناه آنفا، وقد ذكر ابن خلدون ولهم شعوب كثيرة، وأكثرهم ظواغن أهل وبر، ومنهم بالسوس قبيلتا زكن ولخس، ومنهم من اختار الصحراء موطنًا، ومنهم من ساح في السهوب الجنوبية لتلمسان⁽²⁾.

ح-هسكورة: هم أمم كثيرة وبطون واسعة ومواطنهم بجبالهم متصلة من درن إلى تادلا من جانب الشرق إلى درعة من جانب القبلة، وبطون هسكورة هؤلاء متعددون فمنهم مصطاوة وعجرامة وزمراوة وانتيفت وبنو نفال وبنو رسكونت، وهناك من قسم هسكورة إلى قسمين: هسكورة القبلة وفيها سبعة أفخاذ وهم: ايزمراون (زمراوة)، وايفسفيسن (فسفيسة)، واكرنان (كرنانه)، وايمغران (مغرانة)، وايونيلن (نيلة)، وآيت ووارت (بنو واوارت)، وآيت يلفتن (بنو يلفتن)، والقسم الثاني هسكورة الظل، وهي أحد عشر فخذًا وهم: ايزمراون ((زمراوة)، ايسايوين (ساوية)، ايصاد (صادة)، ايجدامن (عجدامة)، ايتيفت (هتيفة)، آيت سسكور

(1) - ابن منصور، المرجع السابق، ج 1، ص 302؛ لقبال، المرجع السابق، ص 68؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 271؛ بوزياني، المرجع السابق، ص 730.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 270؛ بوزياني، المرجع السابق، ص 741؛ ابن منصور، المرجع السابق، ج 1، ص 302.

(بنو سكور)، اين لسيد (لسيدة)، اين ماصوص (ماصوصة)، آيت مصطاو (مصطاوة)، اين ميمونة (ميمونة)، اين ولتان (هلتانة)⁽¹⁾

ط-مصمودة: يكتنف نسب مصمودة بعض الغموض، فبينما يتجاهل ابن حزم ذكر تسلسل نسبهم، مخالفاً بذلك عادته، التي اتبعها مع جل القبائل البترية؛ ونراه مع ذلك يتطرق إلى نسبهم بصورة موجزة مع بعض الاضطراب، فيذكر لنا: أنهم أبناء مصمود بن يونس بن بربر. ثم يذكر بعض بطونها. كبرغواطة، غمارة، وأهل جبل درن، وعند الحديث عن أهل جبل درن يذكر أسماء قبائل مصمودة وهي: آصادن، تينملل، حاحة، دكالة، ركراكة، غمارة، كدميرة، كنفيسة، هرغة، هزميرة، هتاتة، هيلانة، وريكة، واوزيكت، وفي مواضع أخرى يضيف إليهم: برغواطة، كلاوة، هزرجة، علماً بأنه يصر على كون برغواطة قبيلة مصمودية⁽²⁾.

وبمقابلة أسماء القبائل المصمودية التي وردت عند ابن خلدون، مع ما جاء في كتاب المقتبس في معرفة الأصحاب، وما ورد في كتاب قبائل المغرب لابن منصور، يتضح لنا الآتي: فالنسبة لقبيلة إلى قبيلة آصادن يذكر ابن خلدون أن من بطونهم مسفاوة، وماغوس، مع احتمال انتساب غمارة، ورهون، وأمول إليهم أيضاً، أما صاحب كتاب الأنساب، فيصنفهم مرة ضمن قبيلة هسكورة، ومرة أخرى ضمن فقرة القبائل باسم: آصادن (صادة). وإليهم تنسب المدينة آصادة التي أعلمنا البكري

(1) - بوزياني، المرجع السابق، ج1، ص ص 808-809؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص271،

(2) - ابن حزم، المصدر السابق، ص ص 500-501؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص370؛ بزياني، المرجع السابق، ص 743-744.

أنها تقع في جنوب مدينة يُجاجين، التابعة لبني مسارة من مصمودة، وأما قبيلة تينملل فذكر صاحب كتاب الأنساب أنها تتفرع إلى إحدى عشر فخذاً⁽¹⁾.

وأما عن مواطن مصمودة فهي تمتد في شمال المغرب الأقصى من جهة الشرق إلى المحيط الأطلسي من جهة الغرب، ثم تمتد مساحلة إلى الجنوب شاملة سهول أزغار (الغرب) وتامسنا (الشاوية) ودكالة والحوز، حتى تتصل جبال الأطلس الكبير، ثم تسير شرقاً من رؤوسها الداخلة في المحيط الأطلسي إلى ملتقاها بجبال الأطلس المتوسط بين تازة وتادلة عند ثنية المعدن المعروفة ببني فازاز إلى أكرسلوين بسجلماسة بجوار قبائل صنهاجة⁽²⁾.

ي-أوريغة: يرجع نسب هذه القبيلة إلى ريغ الذي يقال له أوريغ وهو ابن برنس، وترك أوريغ أربعة أبناء وهم: هوار وهو أكبرهم، ومغر، وقلدن، وملد، ويتفرع عن هؤلاء بطون كثيرة وكلهم ينسبون إلى هوار. فمن بطون هوار: غريان وورغة وزكاوة ومسلاتة ومجريس. ويقال إن ونيغن منهم. فمن بطون مغر: ماوس وزمّور وكباد وسواي، ومن بطون قلدن: ماصه وورصطيف وبيانة، ومن بطون ملد: مليلة وسطط وروفل واسيل ومسراتة⁽³⁾. وأما ابن حزم فيذكر أن من ولد قلدن (قلدن) قمصانة، وورصطيف، وبيانة، وبل، ويقال إن صنهاج ولط إنّما هما ابنا امرأة يقال لها تزكي، لا يعرف لها أب، تزوّجها أوريغ؛ فولدت له هوار؛ فهم إخوة لأم⁽⁴⁾.

(1) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 118؛

(2) - ابن منصور، المرجع السابق، ج 1، ص 322.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 184.

(4) - ابن حزم، المصدر السابق، ص 498.

ومن أهم مواطن قبيلة أوريغة كانت مواطن الجمهور من هواره هؤلاء، ومن دخل في نسبهم من إخوانهم البرانس دوالصمغر لأول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة كما ذكره المسعودي والبكري. وكانوا ظواغن وأهلين، ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل المثلثين فيما يلي بلاد كوكو من السودان تجاه إفريقية، ويعرفون بنسبهم هكارة، قلبت العجمة واوه كافا أعجمية تخرج بين الكاف العربية⁽¹⁾.

-البربر البتر: تنقسم قبائل البتر إلى أربع قبائل كبرى⁽²⁾، وهي:

أ-قبيلة أداسة: وهم أبناء أداس بن زحيك بن مادغيس الأبتري. ومن بطونها نذكر: أندارة، أوطيطة، ترهونة، صنبرة، هداغة، هنزولة، شتاتة. وكانت مواطن بني أداس قبيل الفتح الإسلامي في جهات طرابلس وما يليها إلى برقة، وكان بعضهم مستقرا في أوساط مديرية، وبعضهم أهل وبر وظواغن طلبا للنجعة، وعليه فقد توغلت أحياء منهم في القفار، ويذكر ابن خلدون أن بني أداس كلهم اليوم في قبيلة هواره⁽³⁾.

ويذكر ابن منصور أن قبيلة أداسة قد اختلطت بقبيلة هواره البرنسية، لأن أم أداس تزوجها بعد زحيك ابن عمه أوريغ بن برنس والد هواره على القول بأن مدغيس وبرنس أخوان، ويذكر لنا وشتاتة وهي فروع قبيلة أداسة قد استقرت بالجبال

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 185.

(2) - سالم، المرجع السابق، ص 52-53؛ حمودة، المرجع السابق، ص 17؛ زعلول، المرجع السابق، ج 1، ص 86.

(3) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 119؛ ص 138.

القريبة من نهر مجردة بالقطر التونسي، وكانت فرقة منها تسكن جبل زالغ المشرف على مدينة فاس، وإليها ينسب الموضع المسمى باب وشتاة⁽¹⁾.

ب- قبيلة ضريسة: تنسب هذه القبيلة إلى ضري بن زحيك بن مادغيس الأبر. ومن بطونها: بني فاتن، وبني يحيى، ومن بني فاتن تتفرع إلى أفخاذ ومنها: درنة وصدينة وصطفورة وهذه الأخيرة عرفت فيما بعد باسم كومية، ولماية، مديونة، مطغرة، مطماطة، مغيلة، ملزوزة، كشاة. ومن بني يحيى تتفرع إلى: زناتة، زواوة، مكناسة، زواغة⁽²⁾.

وزناتة هم أبناء ورصطف بن يحيى بن ضري، وذكر ابن خلدون أصل لفظة زناتة من صيغة جانا التي هي اسم أبي الجيل كله، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبهم. وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا جانات. وإذا أرادوا التعميم زادوا مع التاء نونا فصار جاناتن، ونطقهم بهذه الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب بل ينطقون بها بين الجيم والشين وأميل إلى السين، ويقرب للسمع منها بعض الصفير فأبدلوها زايا محضة لاتصال مخرج الزاي بالسين، فصارت زانات لفظا مفردا دالا على الجنس. ثم ألحقوا به هاء النسبة وحذفوا الألف التي بعد الزاي تخفيفا لكثرة دورانه على الألسنة والله أعلم⁽³⁾.

وهم على حسب رأي ابن حزم ثلاثة أحياء: الديديت، ورسيج، فريني، وأما ابن خلدون فذكرهم باسم: الدير، ورسيك، فرني، وابن خلدون عندما تكلم عن قبيلة زناتة يصفهم بالجيل، كما يصفهم باسم الشعوب، وهذا لضخامة زناتة، وكثافة

(1) - ابن منصور، المرجع السابق، ص 303.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 155؛ ص 139.

(3) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 10-11.

أحيائها وتشعبها، ومن بطون زناتة نذكر: جراوة. وبني يفرن، ومغراوة وبني يلبث وبني زنداك وبني رواو، ورتزمير وبني أبي سعيد وبني ورميغان والأغواط وبني ريغة وغيرهم، وبنو ومانو، ويلومي، وواسين: وهو أخو مغراوة، ومن بطون بني واسين: بنو مرين، بنو توجين، بنو زيان⁽¹⁾.

وأما عن مواطن جراوة الأولى فقد كانت بإفريقية والمغرب الأوسط، ثم نزحوا إلى بلاد المغرب الأقصى، وهم إلى عهد ابن خلدون يقيمون بتلك الديار، ويندرجون ضمن قبيلة يطوفت، وغيرها من أحياء غمارة، وأما قبيلة يفرن فكانت مواطنهم بإفريقية وجبال الأوراس، وجهات تلمسان وتيهرت، ثم انتقل جمهورهم إلى المغرب الأقصى، وقبيلة مغراوة التي تمتد مواطنهم ضمن بلاد المغرب الأوسط من تلمسان إلى الشلف وحتى جبال مديونة، وهيمنوا بعد ذلك على المغرب الأوسط كله، وبعض الأقطار من المغرب الأقصى، وبنو وركلا (ورجلا) كانوا يقيمون بجنوب الزاب، وبنو ومانو بالمغرب الأوسط شرق وادي میناس (وادي مينا) وحتى أسافل الشلف، ويتشرون أيضا في القصور الجنوبية التي تسمى توات وتيكورارين، وأما بنو يلومي فينتشرون على الضفة الغربية لوادي میناس بالجعبات والبطحاء وسيك وجبل هواره وبني راشد، ويتشرون أيضا في القصور الجنوبية التي تسمى توات وتيكورارين، وتنتشر مواطن قبيلة بنو واسين في ربوع إفريقية والمغرب الأوسط. إذ كانوا في جهات قسطنطينية وتورز وبلاد الحمة، وإلى الغرب من قابس، وفي جبال الأوراس، وبصحراء

(1) - ابن حزم، المصدر السابق، ص 496؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص ص 233، ج 7،

ص ص 12، 15، 33، 74، 78، 79.

برقة وأرض الزاب وغدامس، وجل بني واسين يتوزعون ما بين ملوية وجبل بني راشد⁽¹⁾.

وأما قبيلة زواوة فقد أدرجها ابن حزم مرة بين أبناء سمكان بن يحيى البتريين ومرة أخرى ضمن قبائل كتامة البرنسية، واتبعه في ذلك ابن خلدون، وأما صاحب كتاب مفاخر البربر الذي كتبه في سنة 712هـ/ 1312م أي قبل أن يولد ابن خلدون فيسجل فيه زواوة ضمن قبائل البتر؛ حيث جاء فيه ما نصه: "وأعلام القبائل التي تسمى البتر من البربر؛ هم: زواغة، وزناتة، وزواوة، ونفزة، ولواتة، وومزاتة، ونفوسة..." ثم قال: "وزواو اسم رجل هو زواو بن سمجان (سمكان) بن يحيى بن تمزيت (تمصيت) بن ضريس أخو جانا بن يحيى أبو زناتة". ومن أهم بطون قبيلة زواوة نذكر: بنو كوزيت، وبنو كوفي، وبنو مرانة، ومشدالة، وولزاجة، وبنو بوشعيب، وبنو بويوسف، وبنو صدقة، وبنو غبرين،..." وأما عن مواطن قبيلة زواوة فقد حدده ابن خلدون بقوله: "مواطن زواوة بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة أوطنوا عنها جبالا شاهقة متوعدة تنذر منها الأبصار ويضلّ في غمرها السالك مثل بني غبرين بجبل زيري، وفيه شعراء من شجر الزان يشهد بها لهذا العهد. ومثل بني فرلوسن وبني سرا، وجبلهم ما بين بجاية وتدلس وهو أعظم معاقلهم وأمنع حصونهم، فلهم به الاعتزاز على الدول والخيار عليها في إعطاء المغرم"⁽²⁾.

(1) - بوزياني، المرجع السابق، ج1، ص ص264، 271، 279، 292، 293، 305، 308، 309، 346، 347.

(2) - مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط1، دار أبر رقراق للطباعة والنشر، الرباط-المملكة المغربية، 2005م، ص ص167، 172؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص501؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص168-169.

وعلى العموم فقد حدد ابن خلدون مواطن قبيلة زناتة بقوله: "والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم، ويُعرف بهم فيقال: وطن زناتة. ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى..."⁽¹⁾.

ج- قبيلة نفوسة: هم أبناء بنو نفوس بن زحيك بن مادغيس الأبتري، وهم أعظم القبائل البربرية عددا وقوة. ومن أحيائهم المعروفة بنو زمور، وهم غير أبناء زمور من قبيلة البرانس، ولكنهم يختلطون بهم ويلتبسون للاسم الموحد لكلا الفريقين، ويذكر ابن منصور أن بعض أحياء نفوسة كماطوسة اندرجوا ضمن قبيلة بني يخلفون على الضفة اليمنى لوادي يسر؛ في الجهة الشرقية للجزائر، وبنو مسكور فهم مندمجون ضمن قبيلة آيت ونير الساكنة قرب زاكورة بالمغرب الأقصى⁽²⁾.

د- بنو لوا: يتنسب لوا إلى زحيك بن مادغيس الأكبر، ومن بطونه نذكر: نفزاوة ولواتة.

1- نفزاوة: هم أبناء يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك. فلوا الأكبر وضري أخوان، وأبوهما هو زحيك بن مادغيس الأبتري. ولنفزاوة بطون عديدة منها: زاتيمة، زُهيلة، سوماتة، غُساسمة، مَرْنيسة وهم متفرقون على كل بلاد المغرب، وأما رسيف فتتفرع منها عدة بطون: كوكلاتة التي تتفرع إلى: ديمار، ريجون، سراين، كزناية، رياغل، يصلتن، وقبيلة لهاصة التي تتفرع منها: ورفجومة، ورتدين⁽³⁾. وكانت قبائل نفزاوة تقيم في الأول في جنوبي الجريد، وما يتاخمه من إقليم طرابلس شرقا، وصحراء عمالة قسنطينة غربا، حتى سُميت المنطقة كلها باسم نفزاوة،

(1) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 3.

(2) - ابن منصور، المرجع السابق، ج 1، ص 308؛ بوزياني، المرجع السابق، ج 1، ص 441.

(3) - بوزياني، المرجع السابق، ج 1، ص ص 380-381.

ثم تفرقت تلك القبائل بعد ذلك في سائر بلاد المغرب حاملة معها أسماءها الفرعية، ولم تبقى إلا قبيلة واحدة صغيرة تحمل نفس الاسم بشط الجريد، ويقال أن قبيلة نفزة الموجودة في الشمال التونسي هي إحدى قبائل نفزاوة، وأن اسمها عُرب أثناء فرارها أمام زحف القبائل العربية من بني هلال من مواطنها الأصلية بالجنوب إلى مواطنها الجديدة بالشمال⁽¹⁾.

2-لواتة: ذكر ابن حزم أن نسابي البربر يزعمون أن سدراتة، ومزاتة، ولواتة، من القبط، ولواتة وقد رد ابن خلدون على ابن حزم بقوله: "وليس ذلك بصحيح. وابن حزم لم يطلع على كتب علماء البربر في ذلك". ولواتة هم أبناء لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك، فلوا الأصغر ونفزاو أخوان، ويذكر لنا ابن خلدون أن البربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصار لوات، فلما عربته العرب حملوه على الأفراد وألحقوا به هاء الجمع". وللوا عدد من الأولاد أشهرهم: زاير، فاصلة (ماصلت)، كطوفت، نيطط. ومن أشهر هؤلاء نذكر قبيلة فاصلة أو ماصلت التي تفرع منها: أكورة، جرمانة، عتروزة (عزوزة) مغانة، فزاير، ومزاتة التي تفرع عنها عدد كبير من الأحياء أهمها: بلايان، حمرة، دكمة، قرنة، مجيعة، مَدونة، وتقع أرض مَزاتة جنوب شرقي سطيف، وتوجد فئة منهم في إقليم الجريد، أما نيطط فممنهم: سدراتة التي تنسب إليها المدينة الموجودة قرب ورجلاء، والمدينة الموجودة في الشرق الجزائري على الحدود التونسية⁽²⁾.

(1) - ابن منصور، المرجع السابق، ج 1، ص 306.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص ص 152-153؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص 498؛ بوزياني، المرجع السابق، ج 1، ص ص 420-421.

ويذكر ابن حزم أن مغراوة وهو من قبيلة زناتة تزوج أم سدراتة فصار سدراتة أخا أولاد مغراوة لأهمهم، وبالتالي اختلط نسبهم بهم، ولقبيلة سدراتة فروع كثيرة وبطون عديدة مستقلة بنفسها ومعروفة باسمها الأصلي أو مندمجة في غيرها، ومعروفة بأسماء فرعية، منها قبيلة سدراتة قرب مدينة برج بوعريرج بالمغرب الأوسط، وقبائل آيت سدرات القريبة من وادي درعة بالمغرب الأقصى⁽¹⁾.

ويمكننا القول أن قبيلة لواتة كانت تقيم بمواطنها الأصلية بالأقاليم الشرقية وخاصة ببرقة وعلى حدود مصر، وكانت لهم في الماضي مدن عريقة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان، ولما بدأ المسلمون محاولاتهم الأولى لفتح بلاد المغرب كانت لواتة أول قبيلة واجهوها فأسلمت وأعانتهم على الفتح، وانساحت معهم إلى جهات طرابلس وشط الجريد وجبل الأوراس ومنطقة الزاب، وانتشرت بطونها وفروعها الكثيرة بعد ذلك في جميع بلاد المغرب من نهر النيل إلى المحيط الأطلسي، فمنهم بواحات مصر وقرى الصعيد والجبال المعروفة بهم قبلة قابس وشفاقس، وأحياء بالجبال المطللة على سهل متيجة، وبسيط تاكرارت، وبجهات وادي مينا، وفاس، وتادلة من المغرب الأقصى. وقد اندثرت بعض البطون والأحياء اللواتية اليوم من تلك الجهات أو اندرجت في قبائل طرأت عليها، ولكن بعض القرى بقي مع ذلك يحمل اسمها لسكانها في القديم⁽²⁾.

يمكننا القول أن غالبية سكان بلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي كان مكونا من البربر بالإضافة إلى عناصر أخرى كالأفارقة، والروم، والفرنج، والسودان، واليهود.

(1) ابن حزم، المصدر السابق، ص 487؛ ابن منصور، المرجع السابق، ج 1، ص 305.

(2) - ابن منصور، المرجع السابق، ج 1، ص 305.

ثالثا: الحياة الاجتماعية في بلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي:

نتطرق في هذا المبحث إلى دراسة بعض المظاهر الاجتماعية لسكان بلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي، وهي على النحو التالي:

1-ديانة سكان بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي:

يذكر عبد الرحمن بن خلدون أن سكان بلاد المغرب كانوا يدينون بالديانة المجوسية، فيذكر ما نصه: "مثل ويلي عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد السوس، وكانوا على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية"، ويذكر في موضع آخر أنه لما استوثق أمر إدريس وتمّت دعوته زحف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل قندلاوة وبلهوانه ومديونة وما زار، وفتح تامستا، ومدينة شاله وتادلا، وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية فأسلموا على يديه طوعا وكرها وهدم معاقلمهم وحصونهم، وأيضا في موضع آخر: "هؤلاء البربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى حسبها هو معروف في تاريخ الفتح بإفريقية والمغرب... وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب إلا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم"⁽¹⁾.

ومن خلال ما ذكره ابن خلدون من نصوص يتبين لنا أن معظم سكان المغرب كانوا يدينون بالديانة الوثنية بالإضافة إلى بعض العناصر التي كانت تعتنق الديانة اليهودية والنصرانية.

ومن الشواهد على اعتناق سكان بلاد المغرب للديانة اليهودية العثور على قطعة رخامية بمنطقة الأوراس بالقرب من لمبزي تذكر أن أحد الوثنيين المغاربة قد تهود،

(1) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 17، 237؛ ج 6، ص 139.

ويبدو أن اليهود قاموا بنشر الديانة اليهودية وبشروا بها بين قبائل المنطقة على عكس زعمهم بعدم قيامهم بذلك، واستجاب لهم البعض، وتحولوا إلى هذه الديانة، ووصلت البيع إلى القيصرية التي وجدت بها طائفتان يهوديتان الأولى بتيبازة، حيث وجدت آثار تعود إلى منتصف القرن الرابع للميلاد يُرجح أنها بيعة يهودية قبل أن تتحول إلى كنيسة، والثانية بالقيصرية -أي بشرشال- التي ذكر بها اسم رئيس بيعة، ومعه مجموعة من اليهود. كما يذكر ابن خلدون أن قبيلة جراوة قد تهودت، من خلال قوله: "وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم، لقرب الشام وسلطانه منهم كما كان جراءة (جراوة) أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح"⁽¹⁾.

وأما عن الديانة النصرانية فيرجع تاريخ ظهورها إلى سنة 180م الذي يُعتبر بداية التحول في التاريخ النصراني لبلاد المغرب القديم، إذ لا نمتلك قبل هذا التاريخ معلومات أكيدة حول الديانة النصرانية في إفريقية؛ فيذكر لنا أحد مؤرخي الفترة البيزنطية وهو نيسيفور كاليكست (Nicephore Callixte) يعتقد بأن من قام بنشر النصرانية في مصر وقورينا وطرابلس هو القديس مرقس، ويشير نص لوهاب بن موناوي (ت. 961هـ/ 1038م) بأن من أرسل إلى القيروان اسمه فيليب، في حين نجد وثيقة مرسلة من البابا غريغوار الأكبر (Le Grand Gregoire) يجيب فيها على التماس رسمي من قبل أساقفة نوميديا يطالبون فيها بالاحتفاظ بعباداتهم القديمة.

(1) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 140؛ عمران عبد الحميد، الديانة المسيحية في المغرب القديم -النشأة والتطور- (180-430م)، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري-قسنطينة، 1432 - 1433هـ/ 2010-2011م، ص ص 70.

ويرجع ابن خلدون ظهور الديانة النصرانية في بلاد المغرب إلى عهد الحواريين وهذا بقوله: "وعند علماء النصارى أن الذي بعث من الحواريين إلى رومة بطرس ومعه بولس من الأتباع، ولم يكن حواريا، وإلى أرض السودان والحبشة، ويعبرون عن هذه الناحية بالأرض التي تأكل أهلها، والناس متى العشار، وأندراوس إلى أرض بابل، والمشرق توماس، وإلى أرض إفريقية فيلبس، وإلى أفسوس قرية أصحاب الكهف يوحنا، وإلى أورشليم وهي بيت المقدس يوحنا، وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس، وإلى أرض برقة والبربر شمعون القناني⁽¹⁾.

ومع بداية الفتح الإسلامي كان كسيلة بن لمزم -وهو من زعماء قبيلة البرانس- يعتنق الديانة النصرانية، حيث ذكر لنا ابن خياط ذلك بقوله: "وكان نصرانيا"⁽²⁾. كما أشار ابن خلدون (ت. 808هـ/1406م) أن كسيلة كان يعتنق الديانة النصرانية من خلال قوله: "وكانت رئاسة البربر يومئذ في أوربة لكسيلة بن لمزم، وهو رأس البرانس، ومرادفه سكرديد بن رومي بن مازرت من أوربة، وكان على دين النصرانية فأسلما الأول الفتح. ثم ارتدا عند ولاية أبي المهاجر واجتمع إليهما البرانس"⁽³⁾.

وهناك من يرى أن النصرانية في بدايتها الأولى بمنطقة المغرب قد انتشرت بين صفوف الطبقات الاجتماعية السفلى التي لم تجد رغبتها في الديانة الوثنية، وهذا الطرح يخالف الحقيقة الاجتماعية لبلاد المغرب القديم، والتي تتصف بسيادة نمط القبيلة في جميع المجالات بما في ذلك الجانب الديني، إذ لم يُلاحظ في التاريخ النصراني لبلاد

(1) - عبد الحميد، المرجع السابق، ص 75-75؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 2، ص 173.

(2) - خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، 1397هـ، ص 251.

(3) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 142.

المغرب القديم بأن قبائل قد تنصرت كاملة، إلا أن التنصير ظهر داخل المدن بصفة أكبر⁽¹⁾.

وعند الحديث عن الديانة الوثنية نجد أن سكان المغرب القديم قبل الفتح الإسلامي قد عبدوا الحيوانات، ومن أشهرها نذكر الكباش، ونلاحظ أن الرسوم والنقوش الصخرية للكبش ذات الهالة كانت تغطي كافة المنطقة المغاربية، وهي تنتشر في ثلاث مجموعات رئيسية، وهي:

أ- الصحراء الشرقية: بفزان، والطاسيلي، وناجر، والشريط الشمالي الغربي من تبستي.

ب- الجنوب الوهراني: في كل من بوعلام زناقة، قصر زكار، أفلو، وأيضا في مواقع بالجلفة منها عين الناقة، والصافي بورنان.

ج- شرق قسنطينة: في خنقة بوحجار، وكهف تاسنغة والشافية⁽²⁾.

وقد أدى غموض تلك الشواهد إلى تعدد رمزية الكبش المرسوم بدائرة أو قرص على رأسه مع ترك بقع من الصوف على الكتفين أو في وسط الظهر؛ وأما أكصيل (قزال) فيذكر أن بعض النقوش والرسوم تُظهر كبش تحيط بعنقه قلادة غالبا، وعلى رأسه شيء ضخم مستدير الشكل هو كرة لا قرص، ويثبتها على ما يبدو شيء

(1) - عبد الحميد، المرجع السابق، ص 76.

(2) - محمد الصغير غانم، "بعض من ملامح الفكر الديني الوثني في بلاد المغرب القديم"، مجلة الحوار الفكري، المجلد 2، العدد 02، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2001م، ص 63؛ خليفة عبد الرحمان، الديانة الوثنية المغاربية القديمة (منذ النشأة إلى سقوط قرطاجة 146 ق. م)، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري-قسنطينة، 1428 - 1429 هـ / 2007-2008م، قسم ص ص 72-73.

كأنه رباط يمر تحت حنكه، فانتشار الرسوم -كما يرى البعض- يُمثل الحضور الدائم لأداة العبادة، ويعلق أكصيل (قزال) على ذلك بقوله: "وفي ذلك برهان على سعة انتشار عبادة الكباش"⁽¹⁾. أما الكباش المقدس الحقيقي في زعمهم فلم تكن مشاهدته في تناول الجميع، بل يسمعون فقط عن معجزاته التي ينسجها حوله الكهنة الذين يحضون بشرف مشاهدته في اعتقادهم، وكان لكل قبيلة كباشها أو كبشها المقدس. ويظهر أن الكباش ذات الهالة كان يتم فيها التركيز على الشكل الكروي الذي يرمز إلى أحد الكواكب، وما التقاء القرنين في بعض الرسوم إلا من أجل هدف أقوى هو التوصل إلى تصوير الشكل الكروي، وإذا كان أغلب الدارسين قد أجمعوا على أن تلك الأشكال ترمز لأحد الكواكب؛ فالاختلاف بقي سائدا بينهم هل المقصود به الشمس أم القمر، وهو أمر ليس من السهل الجزم فيه برأي⁽²⁾.

والجدير بالذكر أن البكري (ت. 487هـ / 1094م) قد أشار إلى أن هناك قبيلة من البربر يقطنون في جبل وعمر، وهذا الجبل يقع ما بين أغمات والسوس، وهؤلاء البربر هم مجوس يعبدون الكباش حيث أنه لا يدخل أحد منهم السوق إلا مستترا.⁽³⁾ وأما الهدف من تلك العبادة؛ فهي في زعم البعض منهم موجهة لضمان نمو وازدهار القطعان بما يمثله القرص في اعتقادهم من عبادة الشمس والخصوبة المرتبطة

(1) -أصطيفان أكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط - المملكة المغربية، 2007م، ج 6، ص ص 113-114.

(2) - عولمي الربيع، "ملاحم الفكر الديني الوثني وطقوسه في بلاد المغرب القديم"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 09، العدد 1، جوان 2018، ص ص 192-193؛ خلفه، المرجع السابق، ص ص 73-74.

(3) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 353؛ زغلول، المرجع السابق، ج 1، ص 11.

بها، خاصة أنه تم تبنيها من طرف الرعاة مُربي الماشية، ويؤكد هذا ما ذكره هيرودوت من اتساع انتشار عبادة الشمس بين المغاربة القدماء. كما لا تستبعد بعض التعليقات ارتباط هذه العبادة بفكرة استئزال المطر إلى جانب فكرة الخصوبة، وذلك تجاوبا مع حالة الجفاف التي أصبحت تعرفها المنطقة، ويدعم هذا أن "أ. م. ن" في اللهجات الأمازيغية تعني الماء، أو يمكن أن يعني السماء التي تسبح في فضاءها الشمس التي ينزل منها المطر المخصب كما كانوا يعتقدون⁽¹⁾.

كما عبد المغاربة القدامى الثور، ويظهر ذلك من خلال رسمهم لثيران في تازروك بالهقار وفي سيلة، وأخرى تحمل على رأسها قرصا في مواقع عديدة بفزان والتبستي والطاسيلي ناجر، كما ورد اسم الإله قرزيل على نقشين في إقليم طرابلس، وفي القرن السادس بعد للميلاد أشار الشاعر البيزنطي كوريبوس إلى انتشار هذه العبادة الوثنية بين القبائل الليبية في منطقة السيرتين، منها قبيلة لأغواطن (لواتة) فكانوا يسمونه قرزيل، وهو في زعمهم ثمره زواج الإله أمون ببقرة، ومما يزيد من أهمية هذه الرواية إشارتها إلى تجسيدهم للإله قرزيل في شكل ثور من خشب أو معدن يرهبون به أعداءهم في بداية المعركة، ويعتبرونه قائدا لهم في الحرب. وهذا ما كان يمارسه البربر كاللكوانتيون وهم عشيرة من ناحية السدرتين كما يذكر أكصيل (قزال). بالإضافة إلى ذلك فقد عبد المغاربة القردة والثعابين والأسود⁽²⁾.

وقد أشار المالكي إلى الديانة الوثنية التي كانت تعتقها الكاهنة، والتي حاربت الفاتحين المسلمين في النصف الثاني من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي بقوله: "

(1) -خلفة، المرجع السابق، ص 74.

(2) -أكصيل، المرجع السابق، ج 6، ص 116؛ خلفة، المرجع السابق ص ص 85-86.

وهربت الكاهنة... تريد جبال أوراس، ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبده، يحمل بين يديها على جمل" (1).

وكانت المغارات والكهوف محل تقديس من طرف سكان المغرب القديم الذين اتخذوها أمكنة للعبادة، ونظروا إليها بخوف واحترام، وقد يرجع ذلك لكونها في نظرهم مساكن للآلهة، أو لأن عمق المغارة في رحم الأرض بزعمهم يسمح لهم بزعمهم بالاتصال مع الإله تحت الأرضي وربما مع الإله الأعلى، وكانوا يعتقدون أنهم يكونون أقرب للإله عندما يغوصون في باطن الأرض أو يصعدون إلى قمم المرتفعات لأداء العبادات. وكانوا يرسمون في جوانبها العميقة المظلمة رسوما حيوانية أو آدمية، مستعينين في ذلك بإشعال النيران؛ فكانت الأماكن الموهلة في الكهوف وقفا على الكهنة ومحرمة على الأفراد العاديين. ومن الأمثلة على تلك المغارات تلك الموجودة بوادي إيتل أين تغطي الرسوم جدران بعض القبور الاصطناعية، أو بوادي الشايل بطرابلس أين تغطي النقوش الصخرية أرضية إحدى المغارات الطبيعية، وأيضا في كهف دخلة الزيتون قرب ميله (2).

وقد تعددت أشكال الحجارة التي عبدها المغاربة، وأكثرها ذات الشكل الكروي ثم في شكل مسلة، وحتى وقت متأخر استمر تبجيل الحجارة من خلال وضع كرات حجرية وتكديسها على مصطبة في المزارات بالأرياف، بجانب أعطيات أخرى كالمصاييح ومجمرات البخور، وعادة ما يتم مد عمود بشكل أفقي إلى الأعلى من المصطبة تُعقد فيه قطع وخرق القماش. وقد ذكر لنا البكري عبادة الأحجار عند قبائل ودان بقوله: " ثم من قصر ابن ميمون ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبني على

(1) - المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 54.

(2) - خلفه، المرجع السابق، ص 77-82.

ربوة يسمى كرزة، ومن حواليه من قبائل البربر يقربون له القرابين، ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون به في أمواهم إلى اليوم"⁽¹⁾. ومن هذا الصنم إلى ودان مسيرة ثلاثة أيام". وعبد المغاربة الأشجار، فكان يربطون خيوطا وخرقا إلى بعض الأشجار. وكان الهدف من ذلك العبادة هو طرد الشر في زعمهم. وتم تقديس أنواع كثيرة من الأشجار ومن أهمها شجرة الزيتون والكرمة والنخلة أو السدره وغيرها، وقد استمرت هذه الظاهرة حتى عصرنا الحالي ففي منطقة عين الدراهم ناحية فريانة بتونس توجد شجرة عملاقة يسميها السكان "لالة فرنانة" يعتبرونها مقدسة، ويقصدونها عند الحاجة، ويربطون خيوطا أو قطعة من الثياب متلفطين بأمنية لهم أو لبعض أقاربهم، فضلا عن أن لا أحد يجروء على إيذاها، وكذلك الشأن بالنسبة للسدره المرابطة ببعض مناطق الجزائر، ويمثل ربط الخيوط بالشجرة التزاما من الشخص بعبادتها⁽²⁾.

ومن الطقوس الوثنية الشريكة التي كان يُمارسها سكان بلاد المغرب طقس أبو غنجة، وهو عبارة عن دمية يقوم المحتفلون بكسوتها بقطع من القماش والجلد، وتحملها فتاة ترتدي أبهى الثياب، ويحاط بها فتيات القرية، ويتبعهن الأطفال والنساء، وتردد الفتيات أهازيج يطلبن فيها في زعمهم استدراار المطر، وتقدم لهن الهدايا من دقيق ولحم، حيث يتم تحضير الطعام عند مزاراة أو ضريح، وبعد ذلك تُقام حفلة تسمى لعبة أنزار، حيث تتجمع الفتيات اللواتي هن في سن الزواج حول فتاة تقوم بدور خطيبة أنزار الذي هو سيد المطر في اعتقادهم، وترفع الدمية يديها وهما عبارة عن

(1) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 560.

(2) - غانم، المرجع السابق، ص 64؛ خلفه، المرجع السابق، ص 85-89.

ملعقتين مفتوحتين نحو السماء لكي تتلقيا المطر الذي طال انتظاره وترتبط الملعقة بالغذاء⁽¹⁾.

وكان يُمارس هذا الطقوس الشرقي عند بداية فصل الخريف، حيث يبدأ فصل الحرث عادة الذي ينم خوف سكان المغرب من الجفاف وتضرعهم للإله أنزار في اعتقادهم كرمزية للماء الذي يُعطي بزعمهم الحياة لمنطقة جافة في الغالب، فكانوا يعتقدون أن الماء هو رمز للإخصاب وأن الفتيات هن رمز الإخصاب يمثلن الأرض فيتم التلقيح ما بين الماء والأرض. (تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا)⁽²⁾.

وقد ذكر في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك هو الذي ينزل المطر، كما ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)﴾ (سورة الشورى، الآية: 28). قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: قال قتادة: ذكر أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قحط المطر وقل الغيث وقنط الناس؟ فقال: مطرتم إن شاء الله، ثم قرأ: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا". والغيث ما كان نافعا في وقته، والمطر قد يكون نافعا وضارا في وقته وغير وقته، قال الماوردي: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، وهو قول السدي. وقيل ظهور الشمس بعد المطر، ذكره المهدوي، وقال مقاتل: نزلت في حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا، ثم أنزل الله المطر. وقيل: نزلت في الأعرابي سأل رسول الله ﷺ عن المطر يوم الجمعة في خبر الاستسقاء، ذكره القشيري، والله أعلم". وهو الولي الحميد ""الولي" الذي ينصر أوليائه". الحميد "المحمود بكل لسان. وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

(1) - عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 23-24.

(2) - عمران، المرجع السابق، ص 24.

الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿70﴾ (سورة الواقعة، الآيات: 68-70). قال ابن كثير عند تفسيره للآيات: ثم قال تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ عَنِي السحاب، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ يقول بل نحن المنزلون. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا أي زعاقا مرا لا يصلح لشرب ولا زرع. لَوْلَا تَشْكُرُونَ أي: فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذبا زلالا ﴿... لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11)﴾ (النحل، الآيات: 10-11) (1).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50)﴾ (سورة الفرقان، الآيات: 48-50) قال البغوي في تفسيره: "... قوله عز وجل: لنحيي به {أي: بالمطر، بلدة ميتة ولم يقل: ميتة لأنه رجع به إلى الموضع والمكان، ونسقيه مما خلقنا أنعاما أي: نسقي من ذلك الماء أنعاما، وأناسي كثيرا أي: بشرا كثيرا،... ولقد صرفناه بينهم يعني: المطر، مرة ببلدة ومرة ببلد آخر. قال ابن عباس: ما من عام بأمر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض، وقرأ هذه الآية... ليذكروا أي: ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى، فأبى أكثر الناس إلا كفورا جحودا، وكفرانهم هو أنهم إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا. وفي الحديث الذي رواه البخاري عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَّةِ، عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ،

(1) - إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1419 هـ،

فَلَمَّا انْصَرَفَ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ». (قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ، قَالَ): أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ،
فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ
بِالْكَوْكَبِ".⁽¹⁾

وقد أرشدنا الإسلام عند وقوع الجفاف وقلة الغيث إلى دعاء الله سبحانه
وتعالى، وإقامة صلاة الاستسقاء، وقد عرفها وهبة الزحيلي بقوله: "شرعا: طلب
السقي من الله تعالى بمطر عند حاجة العباد إليه على صفة مخصوصة أي بصلاة وخطبة
واستغفار وحمد وثناء". وسببه: قلة الأمطار، وشح المياه، والشعور بالحاجة لسقي
الزرع وشرب الحيوان، ويحدث الجفاف عادة ابتلاء من الله تعالى، بسبب غفلة الناس
عن ربهم، وتفشي المعاصي بينهم، فيحتاج الأمر للتوبة والاستغفار والتضرع إلى
الله".⁽²⁾ وجاء في الحديث الذي يرويه الإمام مالك رحمه الله تعالى في كتابه الموطأ: "أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَسْقَى قَالَ: "اللَّهُمَّ اسْقِ عِبَادَكَ وَبَهْمَتَكَ، وَأَنْشُرْ رَحْمَتَكَ،
وَأَخْيَ بِلَدِكَ الْمَيِّتَ"⁽³⁾.

(1) - الحسين بن مسعود البغوي معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، حققه وخرج
أحاديثه: محمد عبد الله النمر وآخرون، ط1، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417هـ/1997م، ج6،
ص90؛ البخاري، المصدر السابق، ج1، ص290. رقم الحديث: 810.

(2) - وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ط4، دار الفكر، دمشق-سوريا، د. ت. ط، ج2،
ص438.

(3) - مالك بن أنس، الموطأ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي،
دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، 1406هـ/1985م، ج1، ص190.

وكانت عبادة الشمس والقمر مُنتشرة بين المغاربة القدامى، وقد أشار هيرودوت أنه عدا النسامون الذين يستقرون حول بحيرة تريتون، أي السيرت الصغير، والأترنت الذين كانوا يلعنون الشمس لأنها تؤذيهم؛ فإن بقية الليبيين كانوا يعبدون الشمس والقمر، ويقدمون لهما القرابين تزلفاً، وعبادتها شائعة بين مختلف الليبيين على حد تعبير هيرودوت⁽¹⁾، وكانوا يقصون للأبكار من القطيع جزءاً من أذنيها ثم يرمونه ما بين كتفي القربان الذي تلوى رقبتة ثم يضحي به بعد ذلك للشمس، وذلك بزعمهم لدفع الشرور، ونمو القطيع، لما للشمس في تصور الرجل المغربي من ارتباط فصول الزراعة والحصاد بمسيرتها، ودورها في تخصيب الأرض بأشعتها الحارة. وأما عن عبادة القمر فإننا نعثر في القرن الثالث بعد الميلاد عند ترتيليان على إشارة إلى ثلاثة آلهة قمرية منها فارسوتينة المورية التي كان يعبدها الأفارقة الذين لم يتروموا، والتي استمرت تُمارس حتى وقت متأخر، وهو ما دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار عبادة القمر أكثر انتشاراً من عبادة الشمس عند البربر. وقد تواصلت عبادة الشمس كما يذكر ابن خلدون بين قبائل البربر وهذا بقوله: "... حتى جاء الإسلام وكان منهم من تهود، ومن تنصر وآخرون مجوسا يعبدون الشمس والقمر والأصنام"⁽²⁾.

ومن الآثار المكتشفة حديثاً التي استند إليها بعض المؤرخين كأدلة على عبادة الشمس، وهي كثيرة منها: توجيه المدافن نحو الشرق أي الجهة التي تشرق منها الشمس، كذلك عُثر على رمزها وهو القرص على الكثير من النُصُب والقبور في مناطق عديدة من المغرب القديم، نذكر منها النقش البارز لقرص الشمس والذي بلغ

(1) - هيرودوت، المصدر السابق، ص 366.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 123؛ خلفه، ص 90-92.

طوله 1.30 متر قرب كهف كيفان بلغماري، وعلى غرف قبور من نوع الحوانيت في جبل زيت، وأخرى في نواحي عين البيضاء، وفي قاسطل قرب تبسة، وفي تيبازة، وعُثر على نقش صخري لقرص الشمس قرب واحة كريس بجنوب تونس⁽¹⁾. ومن عبادة الشمس أن الطفل الصغير عندما كانت تقلع له سنه أو ضرسه توجه إلى الشمس ويقال لها أعطيتك سن أو ضرس الحمار فأعطني سن أو ضرس الغزال.

وتظهر لنا بعض الشواهد التاريخية والأثرية أن سكان المغرب القديم قد عبدوا أسلافهم وبعض ملوكهم، ويتجلى ذلك في حرص السكان على توجيه موتاهم إلى حيث تشرق الشمس أثناء عملية الدفن، ويشير هيرودوت أن الليبيين الرحل كانوا يدفنون موتاهم كالإغريق ما عدا قبائل الناسامون حيث يمددون الجثمان من الشرق إلى الغرب في حين أن الناسامون يدفنون الميت في وضعية الجلوس أو يرمونه في البحر، وكانت لهم طريقة في القسم حيث يضعون أيديهم على القبر ثم يقسمون بصاحبه، ويقدمون الأدعية ثم ينامون بجانب القبر وكل ما يترأى لهم في الحلم يفعلونه، وإلى عهد قريب كان سكان منطقة أرزولا بالمغرب الأقصى يصعدون على صنم ضخمة يحتوي على أثر لقدم ضخمة يعتقدون بأنه يعود إلى جداهم للتبرك به. ومن أهم الملوك الذين اعتبروا آلهة في نظر المغاربة القدماء نذكر يوبا وهيمصا وغلوسا، حيث وجدت العديد من الكتابات النقوشية الإلهائية لبعض الملوك ومنها نقيشة لاتينية مهداة خصيصا إلى روح يوبا في تاسمات (Tassammert)، وأخرى في بجاية مهداة إلى روح الملك بطليموس (Ptolémée) ابن يوبا، وأخرى بالجزائر وشرشال، وبينت بعض النقوش أن سكان منطقة ثوبورسيكوم (Thubursicum) توجهوا

(1) - خلفه، المرجع السابق، ص 91.

بالعبادة إلى هيمبسال بن غودة. ولا شك أن تلك الإهداءات كانت قد أنجزت بعد موت هؤلاء الملوك الذين كانوا ينظر إليهم بعد موتهم بأنهم آلهة حقيقيين، وقام الملك يوبا الثاني برسم صورته على العملة، وكان يظهر رأسه مغطى بجلد أسد، وكان يدعي أنه من ذرية هيراكليس (Hercule)، ولعل هذا ما جعل بعض المؤرخين يستتجون أن عبادة الملوك في بلاد المغرب القديم إنما كانت نتيجة للتأثيرات الهيلينية وتقليدا لهم⁽¹⁾.

ولما دخل الفاتحون المسلمون إلى بلاد المغرب حملوا معهم الدعوة إلى التوحيد الخالص، وأمروا الناس بتوجيه العبادة إلى الله وحده لا شريك له، وقد ورد في القرآن الكريم آيات عديدة تحذر من عبادة غير الله، ومنها عبادة الموتى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ (195) إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)﴾. (سورة الأعراف، الآيات: 194 - 198). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)﴾ (سورة

(1) - عبد الحميد، المرجع السابق، ص 35-38.

فاطر: الآيتان: 13-14)، كما نهى الإسلام عن الحلف بغير الله ومنه حديث الذي رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَتَدَاهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ" (1). وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن سعد بن عبيدة، أن ابن عمر سمع رجلا يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا يحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ" (2). والحديث صححه الألباني.

وفي الحقيقة فإن إنسان المغرب القديم قبل ظهور الإسلام وقبيل الفتح الإسلامي كان معظم سكانه يعتنق الديانة الوثنية، فعبدوا مخلوقات خلقها الله وسخرها للإنسان، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)﴾ (سورة الأعراف، الآية: 54). وجاء تفسير ابن الطبري لهذه الآية ما نصه: "إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، كل ذلك بأمره، أمرهن الله فأطعن أمره، ألا الله الخلق كله، والأمر الذي لا يُخالف ولا يُرد أمره، دون ما سواه من الأشياء كلها، ودون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا

(1) - البخاري، المصدر السابق، ج 5، ص 265. رقم الحديث: 5757.

(2) - محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، وآخرون، ط 2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، 1395هـ/1975م، ج 4، ص 110. رقم

الحديث: 1535.

تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا تأمر، تبارك الله معبودنا الذي له عبادة كل شيء، رب العالمين⁽¹⁾.

كما أن هذه المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار والحيوانات التي عبدها إنسان المغرب القديم، كل هذه المخلوقات كانت ولا تزال عابدة لله ساجدة مطيعة لأمره كما قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18)﴾ (سورة الحج، الآية: 18)، وفسر لنا ابن كثير هذه الآية بقوله: "يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرها، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُونَا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (سورة النحل، الآية: 48) وقال هاهنا: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ: أي من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (سورة الإسراء، الآية: 44) وَقَوْلُهُ: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ إنما ذكر هذه على التنصيص، لأنها قد عُبِدَت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة"⁽²⁾.

وقد أمرنا الله تعالى بإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى وترك كل المعبودات الباطلة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

(1) - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار التربية والتراث، مكة المكرمة-المملكة العربية السعودية، د. ت. ط، ج 12، ص ص 483-484.

(2) - ابن كثير، المصدر السابق، ج 3، ص 354.

وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38) ﴿ (سورة فصلت، الآيتان: 37-38). وجاء في تفسير ابن كثير: "... ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه تعالى على أنها مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه لا يغفر أن يشرك به ولهذا قال تعالى: فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا أي عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ كقوله عز وجل: ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) ﴾. (سورة الأنعام، الآية: 89)⁽¹⁾. وجاء في تفسير القرطبي للآية: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (سورة الأنعام، الآية: 82) أي بِشْرِكٍ، قال أبو بكر الصديق وعلي وسلمان وحذيفة، رضي الله عنهم. وقال ابن عباس: هو من قوم إبراهيم، كما يسأل العالم ويحجب نفسه. وقيل: هو من قول قوم إبراهيم، أي أجابوا بما وهو حجة عليهم، قاله ابن جريج. وفي الصحيحين⁽²⁾ عن ابن مسعود: (لما نزلت: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

(1) - المصدر نفسه، ج7، ص 166.

(2) - أنظر: البخاري، المصدر السابق، ج3، ص 262. رقم الحديث: 3246. وأنظر: مسلم،

المصدر السابق، ج1، ص 114. رقم الحديث: 124-197.

عَظِيمٌ﴾". ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي: في الدنيا⁽¹⁾. وقد حذر الله سبحانه وتعالى من الشرك فقال تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (48). (سورة النساء، الآية: 48). وقال سبحانه وتعالى في موضع آخر وفي نفس السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (116). (سورة النساء، الآية: 116).

2- فرض الضرائب المجحفة على السكان المغاربة:

أمر الإمبراطور البيزنطي جوستينيان (527-565م) عند احتلاله لبلاد المغرب، -ومن أجل تموين مشاريعه الحربية منها والعمرانية- بأن أعطى لحاكمه على شمال إفريقيا كل السلطات والصلاحيات غير المحدودة، وكلفه بجمع الأموال الطائلة لتموين بيزنطة بالمؤن من قمح وشعير، وزيت، وفواكه كل سنة، ولكن بلاد المغرب عجزت عن تحقيق كل ذلك، لهذا لجأ الحاكم البيزنطي إلى استعمال سياسة القوة والشدة في جباية الضرائب، وأخذوا يتأخرون في دفع أعطيات الجند وجعالات الأهالي، واشتد ضغط الحياة؛ فارتفعت الأصوات بالشكاوى في كل مكان، وأخذت أسباب الاضطرابات تتوافق وتتكاثر، فأخذ الجند يشغبون ويغيرون على مزارع السكان الآمنين ويقومون بترويعهم، وتحولوا شيئاً فشيئاً إلى لصوص وقطاع طرق⁽²⁾. وأمام هذه التصرفات بدأ السكان يحسون بالظلم، ويرسلون الشكاوى إلى الحكومة البيزنطية جراء ما يلحقهم من ظلم وتعسف من قبل عُمَها، لكنها ردت

(1) - محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة-مصر، 1384 هـ/ 1964 م، ج7، ص30.

(2) - مؤنس، المرجع السابق، ص ص 23-24.

عليهم ردا جافيا، وخاصة بعد أن أرسل وفد من قبيلة لواتة إلى حاكم برقة وطرابلس سرجيوس (Sergius) للشكوى من عدوان الجند البيزنطي على الأهالي، فقام هذا الحاكم بقتل وفد قبيلة لواتة كلهم، ولم ينج منهم إلا واحد أسرع يرجف نبأ الفاجعة إلى القبائل التي رفعت لواء الثورة جراء ذلك⁽¹⁾.

3 - كثرة الثورات ووقوع الكثير من البربر قتلى وأسرى بيد البيزنطيين:

كان للظلم الذي اتبعه الاحتلال البيزنطي اتجاه سكان بلاد المغرب أن أدى ذلك إلى اندلاع الكثير من الثورات، التي لم تهدأ منذ بداية الاحتلال وإلى غاية نهاية الاحتلال البيزنطي على يد الفاتحين المسلمين، ومن أهم الثورات وهذا على سبيل المثال لا الحصر نذكر ما يلي:

ثورة إقليم بيزانسيا (المزاق) (Byzacium): التي نشبت نتيجة للظلم الذي سلطه البيزنطيون على سكان بلاد المغرب؛ فثار هؤلاء السكان بإقليم المزاق في سنة 534م ضد هذه السياسة المتعطسة اتجاههم، وقد وقعت هذه الثورة بعد طرد الاحتلال الوندالي ودخول المحتل البيزنطي، وهو ما دفع بسليمان الخصي (Salomon) الحاكم أو الوالي على شمال إفريقيا آنذاك إلى الإسراع إلى إقليم المزاق، حيث دارت معركة ماما التي فقد فيها الثوار عشرة آلاف مقاتل⁽²⁾. وهناك ثورة

(1) - المرجع نفسه، ص ص 23-24.

(2) - محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم، السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1992م، الجزائر، ص ص 271 - 272، دريسي سليم، البيزنطيون في شمال إفريقيا الاحتلال والعمارة الدفاعية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار القديمة، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص 65؛

Charles Diehl, L'Afrique Byzantine Histoire de la domination Byzantin en Afrique (533-709), Ernest Leroux, pp48-49.

سكان الأوراس ضد الاحتلال البيزنطي: حيث ثار ملك الأوراس في صيف 535هـ على رأس جيش مكون من ثلاثين ألف مقاتل، ودخل في عدة معارك مع الحاكم البيزنطي سليمان الخصي (صولومون)، ورغم فشلهم في هذه السنة إلا أنهم تمكنوا في سنة 536م من هزيمة قوات بيداس، واحتلوا الأوراس، وفرّ بيداس إلى موريطانيا، وتمكنوا من مد نفوذهم إلى ضواحي المسيلة (زابي يوستينيانا) وإلى موريطانيا السطايفية، وتم مد خط الليمس إلى حدود الأوراس، وبناء تحصينات جديدة مثل طبنة وذلك لمراقبة تحركات سكان الأوراس⁽¹⁾.

كما ثارت قبائل طرابلس بقيادة قبيلة لواتة عندما تعرضت ممتلكاتهم للاعتداء من طرف البيزنطيين، فحدثت عدة معارك شنها البربر ضد المحتل البيزنطي، وكان من أهم نتائج هذه الثورات مقتل سليمان الخصي في ربيع 544م، كما اندلعت الثورة في قرطاجة، وقد تمكن الأمير قاسمول من الانتصار على البيزنطيين في أكثر من مرة، ولقي ثلاثة حكام بيزنطيين حتفهم وهم: تيودور (Theodore) في سنة 569م حاكم الإدارة البيزنطية بإفريقيا، ثم القائد العام للجيش تيوكيستوس (Theoctestos)

(1) - تحتات، المرجع السابق، ص ص 11-13؛ جوليان، المرجع السابق، ج 1، ص ص 367-368؛ حارش، المرجع السابق، ص ص 272-273، 377، 378، لعياضي، المرجع السابق، ص ص 174-175

؛Pocobius, History of the war, books III , the loeb classical, London William Heine- mann, New York, G. P Putnam's sons, volumes II, pp381-389 ; Mercier, Op. cit,pp171-172 , Charles. Diehl, op. cit, p90.

في سنة 570م، وأخيرا القائد العام للجيش أمامبيليس (Amabilis)، وفي سنة 574م⁽¹⁾.

وقد أدى كثرة الثورات التي قادها سكان المغرب القديم ضد الاحتلال البيزنطي -والتي لم تتوقف إلى غاية الفتح الإسلامي - إلى ضعفهم، وتراجع مناطق احتلالهم مقارنة مع الاحتلال الروماني، وتم إعادة بناء وترميم خط الليمس، وهي خطوط دفاعية تتكون من خنادق وأسوار محصنة تفصل مناطق الاحتلال البيزنطيين عن مناطق استقرار البربر، وحتى تحميهم من هجمات البربر المفاجئة التي تطالب دائما باسترجاع أراضيهم وممتلكاتهم المغتصبة.

4-الاضطهاد الديني:

بعد أن تمكن البيزنطيون من طرد الوندال من بلاد المغرب بقيادة القائدة البيزنطي بلازريوس، وكان ذلك في سنة 534م، استعادت كنيسة القسطنطينية نفوذها في بلاد المغرب حيث تمكنوا من طرد الأريوسيين مذهب الوندال الذي قاموا بنشره في بلاد المغرب أثناء الاحتلال، وثأروا منهم أشد الثأر، واضطهدوا الدوناتية وكذلك

(1) - حارث، المرجع السابق، ص ص 273 - 276؛ يوسف عيش، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه دولة في تاريخ وآثار المغرب القديم،، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري -قسنطينة، 2006-2007م، ص 242؛ دريسي، المرجع السابق، ص ص 75-76؛

Diehl, L'Afrique Byzantine, op. cit, pp459-460 procopius, op. cit, pp393.395 Ernest Mercier, Histoire de L'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française 1830, Ernest Leroux éditeur 28, rue Bonaparte, 28, Paris-France , ,pp172.

اليهود، ولم يقف انقسام الديانة النصرانية إلى هذا الحد إذ انقسم اليعاقبة⁽¹⁾ وهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وهو المذهب الرسمي للإمبراطورية البيزنطية على أنفسهم، والذي تفرع منه مذهب النسطورية القائلة بثنائية طبيعة المسيح: الإلهية (اللاهوت) والإنسانية (اللاهوت)، أن مريم هي أم الرجل وليست أم الإله⁽²⁾. (تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا).

(1) - مذهب اليعقوبية: أعلن هذا المذهب في مجمع عقد بمدينة أفسس بالأناضول في سنة 431م، واتخذ المجمع قرارا يوافق عقيدة البابا كيرلس بطريك الإسكندرية القائل: "إن المسيح طبيعة واحدة، وقد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت (الإله) والناسوت (الإنسان)، فصار المسيح في زعمهم هو الله، وأن الله مات وصلب وقتل. نعوذ بالله من الخذلان، ويسمى هذا المذهب باليعقوبي نسبة إلى يعقوب البرازعي الذي ظهر في منتصف القرن 6م الذي دعا إليه وقام بنشره، وفي أمثال هؤلاء قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72)﴾. (سورة المائدة، الآية: 72)، الطوفي، المصدر السابق، ج2، ص 591؛ شلبي، المرجع السابق، ص ص 193-194.

(2) - النسطورية: أتباع نسطور الذي كان بطريكا على القسطنطينية في سنة 482م، وقد زعم أن المسيح عليه السلام إله تام وإنسان تام ليس أحدهما غير الآخر، غير أن مريم ولدت الإنسان، وأن الله لم يلد الإنسان إنما ولد الإله، فالإله ليس مولودا لمريم. وبذلك وضع نسطور الأساس للقول بطبيعتين في حق المسيح، (تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا). وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)﴾ (سورة التوبة، الآيتان: 30-31). وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾ (سورة الإخلاص). وقال ابن كثير عند تفسيره لسورة الإخلاص: "

وأراد الإمبراطور البيزنطي هرقل (610-641م) أن يخلص بلاده من هذه الفوضى، وتمكن بعد الاتصال مع كبار رجال الدين أن يصدر في سنة 638م مرسومًا اشتهر باسم الأكتيسيس (l'Ecthesis) يفرض من خلاله مذهبًا وسطًا ترضى عنه الطوائف كلها؛ وهو المذهب المونوليتي أو المونولوثي (Monothelism)⁽¹⁾ بغية تحقيق الغرض السياسي في إيجاد الوحدة بين شعوب الإمبراطورية النصرانية، لكن



وقال عكرمة. لما قالت اليهود نحن نعبد عزيزا ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبهه ولا عدل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. أنظر: الطوفي، المصدر السابق، ج2، ص591، أحمد شلبي، المسيحية، ط10، مكتبة النهضة المصرية-القاهرة، 1988م، صص192-193؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج8، ص497.

(1) - المذهب المونوليتي: صدر من قبل بطريق القسطنطينية سرجيوس، ويرى -أعاذنا الله من ذلك- أن للمسيح إرادة واحدة، وتختلف فلسفة المونوليتية عن مذهب الطبيعة الواحدة في كونها تركز فكرة الطاقة الإلهية الواحدة للمسيح، وقد رد الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (72) سورة المائدة الآية: 72، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)﴾ (سورة مريم، الآيات: 88-95). أنظر: العربي، المرجع السابق، صص133-134؛ رستم، المرجع السابق، ص231؛ فاطمة قدورة الشامي، الحضارة البيزنطية، ط1، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، 1423هـ/2002م، ص36.

هذا الأمر أدى إلى ثورة الناس، وقابله سكان بلاد المغرب بالسخط، مما أدى بهرقل إلى استعمال القوة في سبيل نشر مذهبه الجديد، وزاد الأمر سوءا بعد الاضطهاد الديني الذي مارسه البيزنطيون في حق نصارى بلاد الشام ومصر⁽¹⁾، وفرارهم إلى بلاد المغرب، وحاول حاكم إفريقيا التدخل لكنه فشل، فاتفق مع أسقف قرطاجة على الكتابة للإمبراطور البيزنطي وبابا روما يوضحان لهما سوء الأحوال واضطرابها⁽²⁾.

ولكن بعد وفاة الإمبراطور البيزنطي هرقل في سنة 641م خلفه على عرش الإمبراطورية البيزنطية قسطنطين الثالث (641م)، وكان عدوا للمذهب المنوثلّي فأصدر أوامره باضطهاد أتباع هذا المذهب، وبعد أن انفرد بالعرش البيزنطي هرقلوناس -لأنه كان يحكم مع أخيه قسطنطين الثاني الذي توفي بعد ثلاثة أشهر- قامت أمه الامبراطورة مارتينا بالوصاية عليه، وكانت من أتباع المذهب المنوثلّي فقامت باضطهاد مخالفيه، وأما حاكم قرطاجة جورج فقد أمر باضطهاد أنصار المذهب المنوثلّي؛ فلما وصلت هذه الأنباء إلى القسطنطينية حتى صدر الأمر باستدعائه إلى

(1) - عن الاضطهاد الذي مورس ضد معارضي المذهب المنوثلّي أنظر: السيد الباز العريني، مصر البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة-مصر، 1961م، ص ص 402-403؛ عزيز سوريال، تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة: إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة-مصر، 2005م، ص ص 97-98.

(2) - ستيفن رنسيان، الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة-مصر، 1997م، ص 133؛ ص ص 132-133؛ مؤنس، المرجع السابق، ص ص 42-44؛ عيش، المرجع السابق، ص 14؛ سوريال، المرجع السابق، ص ص 96-97؛ Diehl ; op. it, pp542-544.

هناك ليحاسب على تصرفاته، فتوجه مذهولا إلى القسطنطينية وهو لا يدري ما هي العقوبة التي سينالها⁽¹⁾.

وتعقدت الأمور عندما وصل إلى بلاد المغرب جماعة من الرهبان والراهبات الذين خرجوا من مصر فرارا من الاضطهاد الديني البيزنطي، وبعيدا عن مواطن الخطر في الوقت الذي المسلمون يقومون بفتح بلاد مصر، حيث أخذ هؤلاء الرهبان ينشرون مذهب اليعاقبة بكل حرية في كنف الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثالث (641م) مما أثار سخط الكاثوليك، ولكن بعد أن اعتلى قنسطانز (641-668م) عرش الإمبراطورية البيزنطية وكان من أتباع المذهب المنوثلبي لم يجد معارضوه وعلى رأسهم الراهب ماكسيموس (Maximus) وهو من أشهر رجال الدين في القرن 7م، صعوبة في إعلان الثورة، وقيام جرجير أو جريجوريوس بإعلان نفسه إمبراطورا على إفريقية، وكان ذلك في سنة 646م⁽²⁾.

إن العقيدة المنوثلبية التي حاول هرقل فرضها على شعوب الإمبراطورية البيزنطية ومنها سكان بلاد المغرب لم تلبث أن أنكرها الأرثوذكس وبابوات روما، ولم يؤد ذلك إلا إلى اشتداد العداوة والاضطراب بين شعوب الإمبراطورية، كما فشلت جهود الكنيسة في إيجاد نوع من التوفيق بين المذاهب المختلفة في الأزمنة الماضية⁽³⁾.

(1) - مؤنس، المرجع السابق، ص ص 44-45.

(2) - زغلول، المرجع السابق، ج 1، ص 125؛ جوليان، المرجع السابق، ج 1، ص ص 381-382؛
العريني، المرجع السابق، ص ص 135، 144؛ طه ذنون، المرجع السابق، ص ص 64-65؛ مؤنس،
المرجع السابق، ص ص 21، 46-47؛

Diehl, L'Afrique Byzantine, op, cit, pp554-

(3) -العريني، المرجع السابق، ص 134.

وقد ساهم هذا الاختلاف الديني إلى انشقاق بلاد المغرب عن الإمبراطورية البيزنطية
دنيا وسياسيا من خلال إعلان جريجوريوس نفسه إمبراطورا على بلاد المغرب واتخاذ
سيبطة عاصمة لدولته الجديدة.

5 - النظام الطبقي في ظل الاحتلال البيزنطي:

كانت تركيبة المجتمع المغربي في عهد الاحتلال البيزنطي وقبل الفتح الإسلامي
تنقسم إلى مجتمعات قبلية انقسامية كثيرة، ويمكننا تصنيفها على النحو التالي:
أ- الطبقة الأرستوقراطية: وتتمثل في طبقة البطارقة والحكام الذين حكموا بلاد
المغرب، وتميزوا بعلاقة مع القصر الإمبراطوري، ومن أهم شخصيات هذه الطبقة
نذكر سولومون الذي أصبح بطريقا لبلاد المغرب خلال سنوات 534-536م، ثم ما
بين 539-544م، كما أنه استغل منصبه لدعم عائلته للوصول إلى الطبقة
الأرستوقراطية؛ فقد كان له أخ يسمى باخوس (Bachus) الذي قلده مناصب هامة
في الدولة، كما قام بتعيين ابن أخيه سرجيوس حاكما لطرابلس، وربما أصبح بطريقا
للمقاطعة الإفريقية، وجرمانوس الذي عينه الإمبراطور البيزنطي جوستينيان على
رأس المقاطعة الإفريقية خلفا لسولومون في سنة 536م، وغيناديوس الذي عُيِّن
كبطريق على المقاطعة الإفريقية خلال الفترة الممتدة ما بين 578-591م⁽¹⁾.

كما تولى الأفارقة مناصب عليا في الدولة، ومن بينهم بولينوس الإفريقي، وهو
من أصل ليبي الذي عينه الإمبراطور البيزنطي جوستينيان مكلفا بالحسابات على
مستوى القصر الإمبراطوري في سنة 529م، ويبدو أنه مع نهاية القرن السادس

(1) - عيبش، المرجع السابق، ص ص 98-100.

الميلادي بدأ الأفارقة بدورهم يرتقون إلى المناصب العليا في الدولة، ويُشكلون الأغلبية⁽¹⁾.

ب- طبقة الملاكين الكبار: هم من الأفارقة، وهم سكان البلاد من المورين المترومين بالتجنس من سكان المدن الذين خضعوا لسيطرة الوندال، ولم يستفيدوا مباشرة من حكم البيزنطيين، وكانت أوضاعهم سيئة في عهد الوندال، بعد أن افتك جنسريق منهم أراضيهم ووزعها على أتباعه، وخاصة في منطقة الشمال الغربي لإفريقيا البروقنصلية، ثم بعد ذلك تحسنت أحوال السكان المترومين في عهد الإمبراطور البيزنطي جوستينيان الثاني (565-578م)، وذلك بعد إخماد ثورات البربر (548-550م)، حيث أعاد توزيع الأملاك، والأراضي الخصبة على الموالين للوجود البيزنطي؛ فانعكست تلك العملية على تمويل بناء الحصون الدفاعية التي أشرف عليها كبار الملاك، فضلا عن استفادتهم من الناحية الإدارية بحصولهم على حق المشاركة رفقة رجال الكنيسة في تعيين حُكام الأقاليم، وعموما كانت الأراضي الخصبة والضياع الكبرى من نصيب الملاكين الكبار بما فيهم رجال الكنيسة. وقد استطاعت الإدارة البيزنطية أن تضمن ولاء السكان المترومين بمنحهم الأراضي وإعادة تكريس ظاهرة الرومنة، والتشجيع على بعث عملية الترومن، ولكن تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية⁽²⁾.

والجدير بالذكر أن طبقة الملاكين الكبار قد شكلت أغلبية عناصر الإدارة الإقليمية، مدنية كانت أم عسكرية، وبدرجة أخص القساوسة ورجال الدين، الذين

(1) - المرجع نفسه، ص 103.

(2) - منصورى، المرجع السابق، ص 38؛ عيبش، المرجع السابق، ص 103؛ عيساوي، المرجع

السابق، ص ص 505-506.

سمحت لهم مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية من التعويض التدريجي للإدارة المحلية، وأصبح القساوسة يتمتعون بمكانة اقتصادية هامة حيث يبدو أن فرار أغلبية أفراد الطبقة الأرستقراطية المحلية من أعباء الالتزامات المادية التي تتطلبها الوظائف البلدية، جعلتهم يتحولون تدريجياً إلى الكنائس والأديرة التي كانت تعفيهم من كل هذه الواجبات، مما سمح في نفس الوقت لهذه المؤسسة الدينية من تعاضم نفوذها المادي وقدراتها الاقتصادية، يضاف إلى ذلك مؤهلاتها الإدارية واللغوية، وبالتالي أصبح القس هو الشخصية المحلية الأكثر قدرة على تمثيل مدينته وسكانها، بفضل هذه الثنائية المادية والأخلاقية⁽¹⁾.

ج- الطبقة العامة: تمثل النسبة الأكبر من سكان المدن والأرياف، وهي غير معروفة، وغير مصنفة إلا من خلال بعض المهن أو الوظائف، فلا نعرف عددها أو خصوصيتها سوى أنها فقيرة ليس بإمكانها ترك نقائش تُخلد أسماءها⁽²⁾. ويمكن تقسيم الطبقة العامة إلى عدة أصناف:

➤ - الفئات الريفية: يمكن اعتبار صغار الملاكين بالإمبراطورية البيزنطية وبإفريقية جزء منها العماد الأساسي للاقتصاد، لذلك سعت الإدارة البيزنطية إلى حماية الملكية الصغرى في مختلف أنحاء الإمبراطورية من الاندثار والذوبان في الملكيات الكبرى، وذلك مقاومة لجشع كبار الملاكين، ولتأمين عائدات الدولة من الضرائب، التي كان يتكفل بها هؤلاء الملاكين الصغار، بالإضافة إلى مساهمتهم في توفير ما تحتاجه الدولة من الجند، إلا أن الموقف الرسمي للدولة لم يكن يتطابق مع الواقع، حيث سلك حُكام بيزنطة سياسة جبائية جائرة تجاه

(1) - عيش، المرجع السابق، ص ص 103-104.

(2) - المرجع نفسه، ص 107؛ منصور، ص 29.

سكان الأقاليم البعيدة، ومنها بلاد المغرب، حيث فُرضت الضرائب دون مراعاة للواقع الاجتماعي والسياسي، وكانت المحاصيل الزراعية عرضة للإتلاف خاصة الحرق سواء بالنسبة لكبار الملاكين أو صغارهم، وقد أجبر الظلم والضييم الناتج عن السياسة الغير العادلة للأباطرة البيزنطيين العديد من الملاكين الصغار لبيع والتنازل عن ممتلكاتهم وتحويلها إلى الملاكين الكبار. ويبدو أن للسياسة الجبائية التي اعتمدتها الإدارة البيزنطية اتجاه هذه الفئة ترك آثارا سيئة على هذه التركيبة، وذلك بإثقال كاهلها بالضرائب، وتجريدها من أية إمكانية تسمح لها بالرقى الاجتماعي، فمن الناحية القانونية لم يكن مُمكنا السماح للفلاحين الصغار أن يرتقوا إلى وضعية أحسن، فلم يكن يُسمح لهم إلا بأداء الخدمة العسكرية والواجب الجبائي، ويبدو أنه كان عليهم التكفل بتزويد الحاميات العسكرية بما تحتاجه من مؤن، ولذلك فإن ردود فعل هذه الفئة العنصرية اتجاه هذه السياسة الجائرة كانت تنقلب إلى انتقام من كبار الملاكين، وهذا من الأسباب التي تفسر إنشاء الحصون داخل المنطقة وتحصين المدن، حتى بدت بلاد المغرب وكأنها منطقة عسكرية⁽¹⁾.

➤ -الفئات الوسطى الحضرية: تبدو الفئات الوسطى الحضرية فئات غير متجانسة من حيث التركيبة؛ إذ نجد الموظفين الإداريين أو رؤساء المناطق الحضرية الجهوية، وهؤلاء وإن كانوا مرتبطين اجتماعيا بالفئات الوسطى فهم في تبعية مباشرة لقادة الجيش ورجال الكنيسة وكبار الملاكين الذين يساهمون في تعيينهم أو اختيارهم، وقد تميز أصحاب المهن النفيسة بالثراء مما سمح لهم

(1) -منصوري، المرجع السابق، ص ص 25-30؛ يعبش، المرجع السابق، ص 107.

بالارتقاء إلى الطبقة الأرستقراطية، فقد ظل أصحاب المهن المتواضعة كالخزف والنسيج والشموع يتميزون بامتلاك وسائل الإنتاج، إلا أنهم عرضة للتقلبات الأوضاع أو التقهقر والانحدار الاجتماعي. وقد تجلّى دور هذه الطبقات الوسطى في الصراعات الاجتماعية التي عرفتها بلاد المغرب من خلال الصراع المذهبي، والتي كثيرا ما اعتبرت بمثابة رد فعل على حالة الفوضى التي أصبحت تعيشها بلاد المغرب، وهذا بسبب ائقال كاهل هذه الفئة بالضرائب المجحفة، وهذا ما جعل نسبة كبيرة منهم تنخرط في حياة الرهينة هروبا من عسف الإدارة وجور الجباة، ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية قد شجعت هذه الظاهرة بتأثير الكنيسة، رغم أن نتائجها كانت وخيمة على الدولة البيزنطية، حيث بدأت تتجمع الثروة تدريجيا في يد هياكل الكنيسة من جهة وكبار الملاكين من جهة أخرى، فضلا عن تقلص مصادر الجباية، مما أحدث انقلابا في موازين القوى سواء في مركز الدولة أو في أطرافها⁽¹⁾.

➤ -الطبقات الفقيرة: تشير النصوص القانونية البيزنطية مثل قانون جستنيان (Le Code Justinien)، وكذلك القرارات الإمبراطورية (Les Nouvelles) إلى وجود فئات فقيرة معدمة تحتل الدرجات السفلى في المجتمع على الأقل في مجالين: في مجال القوانين المدنية، وذلك عند الحديث عن الزواج؛ إذ تُقرّ القوانين البيزنطية وجود نوعين من الزواج، زواج الأعيان وأعضاء مجلس الشيوخ والموظفين السامين والتجار، الذي يفضي إلى حق الأبناء في الحياة المدنية والمشاركة في الوظائف الرسمية على اختلاف أنواعها.

(1) - عيبش، المرجع السابق، ص ص 108-109.

وزواج الفقراء والجنود والمزارعين وهي آخر الفئات في السلم الاجتماعي، زواج مقبول حتى وإن كان مجرد تعايش بين رجل وامرأة، ولكنه لا يُعطي للأبناء حقوقاً مدنية تسمح لهم بالانخراط في سلك الوظائف الرسمية. ومعنى ذلك أن الفئات الشعبية تُعتبر محكومة لا يمكنها بمقتضى القانون الوصول إلى وضعية الحاكم حتى ولو كان بسيطاً. وأما في مجال القوانين الجنائية فقد كانت القوانين الجنائية البيزنطية تنظر إلى الناس حسب وضعياتهم المادية، فالغني يُعاقب مادياً كدفع غرامة مالية أو فقدان بعض الامتيازات الاجتماعية، وأما الفقير فيُعاقب بدنياً كالحبس أو الجلد... إلخ. ويمكن أن ندرج ضمن الفئات الفقيرة كل الذين يعيشون في الأوساط الحضرية في وضعية مهمشة بالنسبة للدورة الاقتصادية أو بالنسبة للمؤسسات البلدية، وهؤلاء لا يُمثلون وحدة اجتماعية متجانسة على عكس أمثالهم في الريف الذين يمثلون كتلة متميزة وموحدة مما يجعلها أكثر استعداداً للثورة على الحكم البيزنطي، إذ لا نعلم ثورات لأهل المدن في إفريقيا البيزنطية، في حين لم تهدأ الأوضاع في المناطق الريفية طوال العهد البيزنطي⁽¹⁾.

ويصنف سكان بلاد المغرب أو السكان الأصليين أو الأهالي ضمن الفئات الفقيرة، واستعمل المحتل البيزنطي عبارة الأهالي للتعبير عن هذه المجموعة البشرية التي وقفت موقفاً متبايناً من الوجود البيزنطي، وبالتالي فهذه الفئة يمكن تقسيمها إلى قسمين:

(1) - منصوري، المرجع السابق، ص 35-37.

➤ -الفئة الأولى: كانت تتكون من الجلبين والريفين في إقليم الأوراس، وهي
جموع متحالفة مناصبة العداء للوجود البيزنطي، ولا سيما في المناطق النوميديّة،
وبناء على المعطيات التاريخية فقد استمالوا إليهم الوندال، وتعاونوا معهم في
الإطاحة بالسيادة البيزنطية في المنطقة.

➤ -الفئة الثانية: كانت بصورة شكلية مساندة للإدارة البيزنطية، ويمثلون زعماء
بعض القبائل المورية التي تسعى للحفاظ على مصالحهم⁽¹⁾.

وقد برز موقف الأهالي الراض للوجود البيزنطي من خلال خروج أغلبهم
من دائرة السيطرة الجديدة، وذلك بتركهم للنشاط الزراعي، وعدم انخراطهم في
النظام الاقتصادي الذي أعاده البيزنطيون تركيزه على الطريقة الرومانية، وهذا الرفض
قد تسبب في تعميق حالة الفقر، وانتشار نمط الحياة البسيطة⁽²⁾.

➤ -العبيد: بالرغم أن المصادر لا تسمح بتتبع هذه التركيبة البشرية، ونسبها
بالنسبة للمجتمع عموماً، فإنها ظلت تُشكل نسبة كبيرة من الطبقات العامة
طيلة التاريخ القديم، وعموماً فأغلب المعطيات تصور تفاههم هذه الظاهرة،
فالقوة التي اكتسبها طبقة الملاكين الكبار تفترض أنها تتركز على الجانب
العقاري مثلما تتركز على حجم اليد العاملة، خاصة إذا تصورنا أن بعض
المجموعات أقدمت على تحويل ضياعها على شكل حصون مدججة بالقلاع،
وكانت مصادر العبيد تتم عن طريق تجار العبيد الذي كانوا يقومون بعمليات
الخطف، وشحن هؤلاء وبيعهم في أسوأ النخاسة. وأيضاً عن طريق الحروب،
وخاصة إذا علمنا أن فترة الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب قد عرفت الكثير

(1) -عيساوي، المرجع السابق، ص 506.

(2) - منصوري، المرجع السابق، 40.

من الحروب مع القبائل البربرية، والتي كانت تنتهي بعمليات السبي والأسر، والتي تكون نهايتها في أسواق العبيد. وكانت نسبة العبيد في الأرياف تعتبر أكبر من المدن، وهذا لارتباطها بخدمة الأرض⁽¹⁾.

الخاتمة:

من خلال ما سبق يمكننا القول أن سكان بلاد المغرب كانوا يعيشون أوضاعا اجتماعية صعبة للغاية، وهذا نتيجة للاحتلال البيزنطي الغاشم التي اتبع سياسة ظالمة مع سكان بلاد المغرب تمثلت في فرض الضرائب المجحفة، ونظراته الاستعلائية باعتبار أن البيزنطيين أسيادا وغيرهم عبيدا، ولم يسلم السكان حتى من الاضطهاد الديني، وهذا بإرغام السكان على اعتناق المذهب الجديد للإمبراطورية البيزنطية وهو المذهب المنوثلبي الذي ابتدعه هرقل، حيث قام بفرضه على كل شعوب الإمبراطورية بالقوة، على الرغم من أن معظم سكان بلاد المغرب كانوا يعتنقون الديانة الوثنية القائمة على الشرك وتعدد الآلهة الباطلة التي كانت تُعبد من دون الله سبحانه وتعالى، ولم يتم تخليص السكان من هذا الوضع الاجتماعي الصعب والمأساوي إلا بقدوم الفاتحين المسلمين حيث تمكنوا من طرد المحتل البيزنطي، وقاموا بدعوة السكان إلى الدين الإسلامي الحنيف القائم على التوحيد الخالص، فدخل الناس في دين الله أفواجا، وأصبح سكان بلاد المغرب الإسلامي من أكبر الدعاة إلى الإسلام في أوروبا الغربية كالأندلس وصقلية وجزر البليار، والسودان الغربي وخاصة في مالي والنيجر والسنغال وتشاد وغيرها.

(1) - عيبش، المرجع السابق، ص 111.

ومن أهم التوصيات في هذا المقام نذكر ما يلي:

1- الدعوة إلى التعرف على جهود المغاربة في نشر الحضارة العربية والإسلامية، وخاصة في بلاد السودان الغربي وفي أوروبا الغربية. وهذا من خلال عقد الندوات والملتقيات الوطنية والدولية.

2- القيام بدراسات حول أوضاع السودان الغربي والأندلس قبيل الفتح الإسلامي.

3- دراسة أوضاع المشرق الإسلامي الخاضع لسيطرة الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية، في فترة ما قبل الفتح الإسلامي، وإجراء المقارنة بينهما، واستخلاص أهم النتائج والعبر.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني

"رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية"

The Precursor Movements of Travel Culture in Ottoman Algeria: An Original Perspective on Travel Culture in the Medieval Era and Its Implications for the Subsequent Historical Period

أ.د. البشير بوقاعدة

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر

ملخص:

نعالج في هذه المقالة موضوعا مهما حول إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني، حيث حاولنا من خلاله رصد المرحلة الانتقالية بين الفترة الوسيطة والعثمانية وقراءة مدلولات الرحلة العلمية فيها، وأبرز ملامحها وتداعياتها على الفكر المغرب الأوسطي، وتبرير إشكالية تأثيرها بالحركة القائمة في الوسط السياسي، وأبرز مقوماتها ووجهتها، دون أن ننسى ذكر أهم الرحلات التي شهدتها هذه الفترة الانتقالية.

الكلمات المفتاحية: الرحلة العلمية، العهد العثماني، الفترة الوسيطة، المشرق،

المغرب الإسلامي

Abstract:

In this article, we address an important topic regarding the precursor movements of travel culture in Ottoman Algeria. We aimed to trace the transitional phase between the medieval period and the Ottoman era, analyzing the significance of scientific travel during this time, its prominent features, and its implications for Middle Maghreb thought. Additionally, we justify the issue of its influence by the political movements of the time, highlighting its main components and directions, while also noting the key journeys that characterized this transitional period.

Keywords: scientific travel, Ottoman era, medieval period, the East, Islamic West.

مقدمة:

لما تناهى إلى أسماعنا بأن جماعة من زملائنا الكرام تعتزم على نشر كتاب جماعي تكريماً للأستاذ المرحوم -بإذن الله- مبارك بوطارن؛ عرفانا وتقديراً لمجهوداته في خدمة الوسط العلمي، وتعكف على استقبال أعمال بحثية لذلك الغرض، رأيت أنه من الواجب علي أن أسهم في هذا العمل العلمي بمداخلة حول حياة أستاذه الدكتور بوطارن مبارك (رحمه الله).

ومن ثمّ، أرى إنه من الواجب بداية، شكر كل القائمين على هذا الاكتتاب العلمي التكريمي لأستاذنا (رحمه الله)، والتفاتهم الطيبة التي تعكس -على الأقل- وفاء أصدقاء وأخوة وزملاء وطلبة الأستاذ بوطارن (رحمه الله) لأخٍ لهم وصديق وزميل وأستاذ فاضل، عرفه الجميع بحسن خلقه وطيبه نفسه ونبل خصاله وجميل تواضعه.

أما عن صلتي بالأستاذ الدكتور بوطارن مبارك (رحمه الله)، فإن جذورها تعود إلى سنة 1997 حينما كنت طالبا في السنة الأولى ليسانس ملمح ثانوي بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة الجزائر العاصمة وكان الأستاذ هو مدرّسنا في مادة (وحدة) "ما قبل التاريخ". ثمّ تجددت علاقتي به سنة 2011 عندما كان يدرّسنا نحن طلبة السنة الأولى ماجستير تخصص تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي مادة (وحدة) منهجية البحث التاريخي. وتوطدت العلاقة أكثر بعدما أثرت أن يكون مشرفي على رسالة الماجستير ومرشدي ومعيني - بعد الله سبحانه وتعالى - على إنجازها. والحق إنه كان لي حينها نعم السند والمرشد العلمي والموجه، فجزاه الله عني خير الجزاء.

وعلى هذا الأساس، انتخبت هذه الورقة البحثية من متوجاتي العلمية المنجزة، أسهم بها في هذه المبادرة الطيبة؛ عرفانا بجهود وفضل هذا الأستاذ علي. وأستغل هذه

السانحة للدعاء له بالرحمة والمغفرة، فالله أسأل أن يتغمده بواسع رحمته، وأن يكرم نزله، وأن يطهره من الذنوب والخطايا، وأن يرزقه الفردوس الأعلى.

وقد أثرت أن تكون مساهمتي البحثية حول اشكالية "ارهاصات الحراك الرحلاقي بجزائر العهد العثماني" رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية"، وهي رؤية بحثية تنطلق من أساس تاريخي مفاده: أنّ دراسة تاريخ حقبة زمنية معينة يظلّ مبتورا إذا لم يُمدّ بجسور متينة إلى الحقبة التي سبقتها، ولا سيما إنْ تعلّق بأحداث ذات الحقل البحثي وحيثيات نفس الاشكالية التاريخية.

ويتركّز جهدنا البحثي ضمنها حول مفاحصة اشكالية مقومات الفكر الرحلاقي في جزائر العصر الوسيط، ومنطلقاته، وطبيعة الروافد الثقافية التي تُغذيه، وملاحقة أبرز مسارات حراكه، وموقعه في تدوين الرواية التاريخية التي تحتفظ بتاريخ الجزائر في العصر الوسيط، كما تتوقف الدراسة عند مجريات تاريخ الفترة الانتقالية بين العصرين المؤطرين لتاريخ الجزائر في حقبتين مفصليتين: وهما العصر الوسيط والعهد العثماني، سعيا وراء تحديد مؤثرات النهضة الرحلاتية بالحقبة الأولى في تبلور الفكر الرحلاقي بالحقبة الموالية، ومعاينة مظاهر تكاملية الجهد الرحلاقي بالحقبتين في تدوين تاريخ الجزائر والاحتفاظ برواياته.

1. الفعل الرحلاقي بالمغرب الأوسط بين طلائع الحراك ومسارات التطور:

حرص أهل المغرب الأوسط (الجزائر) عبر تاريخه الممتد على مسافة العصر الوسيط الزمنية على ملازمة الحراك الرحلاقي (داخل بلاد المغرب وخارجها) على اختلاف غايته؛ سواء في مسعى أداء فريضة الحج كغاية عظمى باعتباره ركنا من أركان الاسلام، أو في سبيل الاستزادة من روافد العلم وينابيع المعرفة والاحتكاك بأهل

العلم وأقطابه، والتواصل مع صنّاع المعرفة في شتى فنونها ومختلف حواضرها ومراكزها، وقد قيل: أنّ من بين ما يُدرك به العلم: "الرحلة والسفر"، أو نشدا لتنمية التجارة وتحصيل المنافع الاقتصادية.

مع الإشارة إلى أنّ حركة الرحلة إلى البلاد المشرقية في بداية أمرها اكتست طابعا دينيا أكثر من كونها ثقافة شعبية تعكس تعدّد المقاصد والغايات مثلما أصبح عليه الحال عند الجيل اللاحق. بما يعني أنّ الحج أو أداء الفرض الديني كان المحرك الأساس والغالب بنسبة جدّ عالية للمسير والتحرك إلى المشرق، وكان الحجاج يستغلون تلك السانحة في مراميههم الأخرى التجارية أو أداء الفرض الثقافي والعلمي.

ومن الملاحظات اللاعبة التي يحسن التنويه بها في مطلع هذه الدراسة، بما يخدم هذه الطارحة ويتناغم ومقصدا من مفاحصتها:

1.1 أنّ تناول طلائع الحراك الرحلاتي ببلاد المغرب الأوسط وتحديد بداياته الأولى، لا يمكن بمعزل عن بلاد الغرب الاسلامي بشكل عام؛ ذلك أنّ شخصية المغرب الأوسط السياسية لم تبرز إلى العلن بصورة معلنة إلا تزامنا ومظاهر الانفصال عن مركز الخلافة الاسلامية بالمشرق خلال النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (808م)، وتحديدًا بشأن المغرب الأوسط مع قيام دولة بني رستم بالحاضرة الناهرية مع مطلع العقد السابع من نفس القرن المذكور. وأنّ جغرافيته (المغرب الأوسط) مثّلت قبل ذلك التاريخ جزءا لا يتجزأ من مجال البلاد الاسلامية المترامية بين صعيد مصر شرقا وسواحل المحيط الأطلسي غربا؛ تداخلت أحداثه السياسية والثقافية والدينية، وتقاطعت مجرياتها في مفاصل متعدّدة؛ مثّلت التاريخ المشترك لهذا الإقليم، والانتفاء لنفس المجال والجغرافية، أو الشخصية المندمجة قبل تذبذب العلاقة مع القيادة المركزية ببغداد العباسية، وبروز ضروب الانفصال ببلاد الغرب الاسلامي،

ومظاهر الاستقلال السياسي والحكم المحلي⁽¹⁾. ناهيك عن الشحّ الخبري الذي اصطبغ به النص المصدري حيال أحداث الحراك الرحلاتي للنخب العاملة أو طلبة العلم ورواد بيت الله الحرام لأداء الفريضة وزيارة الأمان المقدسة والمعلم الإسلامية والحضارية خاصة خلال القرون الأربعة الأولى من تاريخ المغرب الأوسط في العهد الوسيط، عدا ذلك النزر اليسير من الروايات التي ألمحت إليها بعض المظان المصدريّة لاسيما كتب الطبقات والتراجم والسير، غير أن رواياتها لا تعلن بما فيه الكفاية عن الشخصية الجغرافية والإقليمية للعناصر المرتحلة والمتنقلة بين حواضر المغرب فيما بينها أو بينها وبين الحواضر المشرقية. ومصدق ذلك كما عبّر عنه أحد الباحثين: أنّ القاضي -على سبيل المثال لا الحصر- يمكن أن ينبت من تربة تونسية، ويتعلّم في فضاء أندلسي، ويستقضي بحواضر المغرب الأوسط، ليتحول إلى مجالس الإفتاء بالمغرب الأقصى، ثمّ يتصدّر القضاء بتونس، ويبلغ إشعاعه العلمي أقاصي الصحراء الكبرى ويغوص في قلب بلاد السودان ويذيع في حواضر المشرق⁽²⁾.

2.1 نبتت رغبة الرحلة في نفوس أهل المغرب الأوسط في العصر الوسيط مع بدايات الوجود الإسلامي بالمنطقة، واقرنت بصفة وثيقة بأداء فريضة الحج كمقصد أول ورئيس. ثمّ أخذت فروع شجرة الرغبة وأغصانها في نفوسهم تتفرّع وتتعدّد؛ جامعة بين أداء الفريضة وزيارة الأماكن المقدسة، والتبحّر في العلم والاستزادة من

(1) بن معمر محمد، رحلات الحج من المغرب الأوسط إلى مكة المكرمة، مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد 18، العدد الأول، وهران، الجزائر، 1439 هـ/ 2017 م، ص 278.

(2) وهو ما أشار إليه الباحث: محمد بن معمر نقلا عن إبراهيم التارزي في كتابه "رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة". راجع: بن معمر، المرجع السابق، ص 278.

فنونه، وطلبا للإجازة⁽¹⁾ ولعلو السند " في الأحاديث والآثار التي كانوا يروونها، والكتب التي كانوا يتلقونها"⁽²⁾، بالإضافة إلى الرحلة لوجه الاستنفاع المادي على كاهل التجارة والمعاملات الاقتصادية.

3.1 طالعنا مصنفات التراجم والسير والطبقات على بعض العينات من أهل العلم الذين شدوا الرحال من المغرب الأوسط إلى بلاد المشرق وعلى رأسها مكة المكرمة؛ الذين جمعوا بين الرحلة للعلم والعبادة، سواء بشكل فردي أو جماعي. ومن الذين أشار إليهم النص المصدري نوره في متن الجدول الموالي:

	الرحالة	الوجهة	السنة	الغاية	المصدر
القرن 7هـ	أبو زكريا يحيى الزواوي	المشرق	ت611هـ	الحج والعلم	عنوان الدراية، ص127.

- (1) حميداتو علي، أدب الرحلة من السيرة الذاتية إلى المتخيل قراءة في رحلة ابن حمادوش، مجلة علوم اللغة العربية وأدائها، ع14، ج1، جامعة الوادي، الجزائر، 2018، ص08.
- (2) الناجي لمين، رحلات علماء المغريرين الأقصى والأوسط الملكية وآثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1437هـ / 2016م، ص05، 19. ومن الذين اشتهروا بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط بالحرص على طلب علو السند وحصلوا ذلك كما يذكره الغبريني في كتابه عنوان الدراية: الشيخ الفقيه على بن أبي نصر فتح بن عبد الله المتوفى سنة 752هـ؛ حيث ذكر أنه كان يروي، ويُسمع، ويُتفق عليه، "وله علو سند في الحديث". الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح، عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979، ص137. راجع كذلك: الناجي، المرجع السابق، ص23.

علي بن أبي نصر البجائي	المشرق	ت652هـ	الحج والعلم	عنوان الدراية، ص137.
أبو زكريا بن محمّوية	المشرق	ت677هـ	الحج والعلم	عنوان الدراية، ص103.
عبد الحق الأنصاري	افريقية والمشرق	ت675هـ	الحج والعلم	عنوان الدراية، ص60.
أبو العباس أحمد الغماري	افريقية والمشرق	ت682هـ	الحج والعلم	عنوان الدراية، ص93.
أبو العباس أحمد الأنصاري	افريقية والمغرب	ت693هـ	العلم	عنوان الدراية، ص119.
أبو زكريا الزواوي	المشرق	ت611هـ	الحج والعلم	عنوان الدراية، ص127.
أبو العباس أحمد الملياني	المشرق والمغرب	ت682هـ	الحج والعلم	عنوان الدراية، ص188.
محمد المقرئ التلمساني	المشرق والمغرب	ت759هـ	الحج والعلم	نفتح الطيب، ج1، ص7.
أحمد الغبريني	المغرب الإسلامي	ت714هـ	العلم	عنوان الدراية، ص10-15.
أبو علي الزواوي المشدالي	المشرق والمغرب	ت741هـ	الحج والعلم	عنوان الدراية، ص103.
ابراهيم بن يخلف التلمساني	المشرق والمغرب	ق8هـ	الحج والعلم	البستان، ص66.
ابن عمر البجائي التنسي	المشرق والمغرب	ت740هـ	الحج والعلم	نيل الابتهاج، ص94.

أبو زيد عبد الرحمن التنسي	المشرق والغرب	ت743هـ	الحج والعلم	نيل الابتهاج، ص245.
أبو موسى عيسى	المشرق والغرب	ت749هـ	الحج والعلم	نيل الابتهاج، ص355.
أبو عبد الله محمد الآبلي	المشرق وفاس	ت757هـ	الحج والعلم	البستان، ص215.
أبو عبد الله الشريف	تونس	ت771هـ	العلم	البستان، ص165.
محمد المقرئ	المشرق وافريقية	ت758هـ	الحج والعلم	البستان، ص155.
ابن مرزوق الخطيب	المشرق والأندلس	ت781هـ	الحج والعلم	البستان، ص184.
عبد الله الشريف الحسني	الأندلس	ت792هـ	العلم	البستان، ص117.
أبو زيد عبد الرحمن	تونس والمشرق	ت797هـ	الحج والعلم	نيل الابتهاج، ص245.
محمد بن سليمان النجار	الأندلس	ق8هـ	العلم	البستان، ص294.
إبراهيم التلمساني	المغرب الأقصى	ت804هـ	العلم	البستان، ص66.
محمد بن عمر الهواري	المشرق والغرب	ت843هـ	الحج والعلم	روضة النسرين، ص42.
الحسن أركان التلمساني	المشرق والغرب	ت857هـ	الحج والعلم	روضة النسرين، ص116.

إبراهيم التازي نزيل وهران	المشرق والغرب	ت866هـ	الحج والعلم	روضة النسرين، ص139.
أحمد بن الحسن الغماري	المشرق والغرب	ت874هـ	الحج والعلم	روضة النسرين، ص193.
ابن مرزوق الحفيد	المشرق والغرب	ت842هـ	الحج والعلم	غنيمة الوافد، ص10.
محمد الشريف	المشرق والغرب	ت847هـ	الحج والعلم	البستان، ص117.
أحمد بن زاغو التلمساني	المشرق والغرب	ت845هـ	الحج والعلم	البستان، ص42.
أبو الفضل التلمساني	المشرق وافريقية	ت845هـ	الحج والعلم	البستان، ص42.
قاسم بن سعيد العقباني	المشرق	ت854هـ	الحج والعلم	البستان، ص148.
عبد الرحمن الثعالبي	افريقية والمشرق	ت875هـ	الحج والعلم	غنيمة الوافد، ص9.
أبو الفضل المشدالي	افريقية والمشرق	ت864هـ	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص121.
ابن صعد التلمساني	المشرق والغرب	ت901هـ	الحج والعلم	روضة النسرين، ص69.
ابن مرزوق الكفيف	المشرق	ت901هـ	الحج والعلم	البستان، ص251.

القرن 10

	أحمد الونشريسي	المغرب الأقصى	ت914هـ	العلم	المعيار، ج1، ص10.
	محمد بن أحمد بن مرزوق	المغرب الأقصى	918هـ	العلم	البستان، ص258.
القرن 11	أحمد المقرري	المشرق والمغرب	1041هـ	الحج والعلم	نفح الطيب، ج1، ص39.
	عيسى بن محمد البطيوي	المشرق والغرب	1033هـ	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص121.
	سعيد قدورة	الغرب الاسلامي	ت1066هـ	العلم	تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص104.
	عبد الكريم الفكون	المشرق وافريقية	1073هـ	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص519.
	عاشور القسنطيني	المشرق والغرب	1074هـ	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص383.
	يحيى الشاوي	المشرق وافريقية	1095هـ	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص102.

جدول رقم 01: يمثل توزيع عينات من النخب المرتحلة بالجزائر بين القرنين

7 و11 للهجرة.

التعليق على الجدول:

قادنا الرصد الاحصائي إلى تسجيل الملاحظ الموالية:

- إذا كان لا يخفى على كل ذي بصيرة بأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال الوقوف على إحصاء دقيق لعدد العينات التي ارتحلت من المغرب الأوسط -على اختلاف غايات خروجها- على امتداد المسافة الزمنية المؤطرة للعصر الوسيط وقد

صدق أحمد المقري حين قال في نفح الطيب: "إنَّ حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علّام الغيوب الشديد المحال"⁽¹⁾، فإنَّ ذلك يُجتمَع علينا التنبيه إلى مقصدنا من إيراد هذا الجدول؛ والمتمثل في محاولة منّا لترصد مسارات نشاط الحراك الرحلاقي ببساط المغرب الأوسط بين القرنين السابع والحادي عشر الهجريين، وملاحقة العوامل التي أسهمت في نموه من جهة، وشكّلت عقبات أثّرت على مساراته وخطوطه وحركة نموه من جهة أخرى. وذلك عسانا نهتدي إلى رؤية حيال ثقافة الرحلة بالمجال المدروس، وانعكاساتها على الحياة العلمية والثقافية به، ومن ثمَّ تحديد نقاط التماس بين الحقتين التاريخيتين لنفس المجال تحت حكم كيانات العصر الوسيط خاصة العهد الزياني والعهد العثماني لاسيما في بدايات الأخير.

- بناءً على ما يتضمّنه الجدول من معطيات، نشير بأنّنا أحصينا حوالي أربعة وأربعين (44) شخصية مرتحلة لوجه العلم؛ كانت غالبيتها تقرنه بأداء الفرض الديني وزيارة الأماكن المقدسة، خرجت من المغرب الأوسط لوجه الرحلة على اختلاف مقاصدها. وقد توزعت عيناتها على مدار القرون المختارة على النحو الموالي: القرن السابع: ثمان (8) شخصيات، والقرن الثامن أربعة عشر (14) شخصية، والتاسع: اثنا عشر (12) شخصية، والعاشر أربع (4) شخصيات، والحادي عشر: ستة (6) شخصيات.

وتوزعت عيناتها حسب الوجهة على النحو الذي يوضحه الجدول الموالي:

(1) المقري أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، ج 1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1388هـ / 1968م.

الوجهة	العدد
المشرق والغرب الاسلامي	09
المشرق والأندلس	02
الغرب الاسلامي	02
المشرق	05
المشرق والمغرب	10
المشرق وأفريقية	09
أفريقية	01
المغرب	03
الأندلس	02
أفريقية والمغرب	01

جدول رقم 02: يمثل توزيع أعداد الشخصيات العلمية حسب الجهات

الرحلية التي قصدتها.

- نلفت الانتباه إلى أنّ إطار الجدول الزمني ضمّ ثلاث قرون من حقبة العصر الوسيط بالمغرب الأوسط بالإضافة إلى القرنين العاشر والحادي الذين يمثلان بدايات الوجود العثماني بالجزائر أو طلائع الجزائر العثمانية. مع الإشارة إلى أنّ القرن العاشر الهجري يمثل قاسما مشتركا بين الحقتين؛ على اعتبار أنّ التبعية للدولة العثمانية كانت خلال العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادي، وأنّ سقوط الدولة الزيانية كان خلال العقد السابع من نفس القرن؛ أي سنة 962هـ / 1554م.

- اصطبغت الفترة الزمنية الممتدة على مدار القرون الهجرية الخاضعة للمدارسة بنوع من التذبذب والتراجع في الحراك الرحلاتي، وأحيانا الانقطاع تماما عن الرحلة، وذلك راجع إلى سيادة الاضطرابات العسكرية، وغياب الأمن في المسالك، ومن ذلك أنّه في العهد الحمادي زمن الهجرة الهلالية وما أعقبها من ضروب الإفساد التي ألحقوها بمجاله خلال القرن 5هـ / 11م تضرّرت حركة الرحلة بشكل ملحوظ وتذبذبت مساراتها وانقطعت خلال سنوات معينة ووجهات محدّدة.

ومع أنّ خطوط الرحلة من حواضر المغرب الأوسط ومراكزه إلى غيرها من حواضر العالم الاسلامي قد عرفت انتعاشا لافتا خلال العهد الموحيدي، ونموا لامعا، إلا أنّ فترة التنافس على الملك الموحيدي من طرف ورثته (الدول الثلاث) مثّلت فترة عصيبة أعاقّت مسار ذلك النمو وأثّرت سلبا على مسار حركيته، وخاصة خلال العهد الزياني؛ والذي وبالرغم من النشاط الرحلاقي المتميز الذي كان سمة هذه الحقبة إلا أنّ عصر هذه الدولة لم يخل هو الآخر، من ضروب الاضطراب التي نغصت على أهل العلم وضيّقت في وجوههم السبل، وأعاقّت طريقهم لوجه العلم، وحتى لأداء الفريضة؛ بسبب التوتر الذي خيّم على مسار العلاقة بينها وبين الدولتين الجارتين: الحفصية والمرينية؛ وخاصة الأخيرة. وهو ما تعكسه معاناة الساكنة التلمسانية على مدار سنوات الحصار المريني لها على امتداد مسافة زمنية تربو عن سبع سنوات (698-706هـ)⁽¹⁾.

- الجمع بين الرحلة لطلب العلم وأدا مناسك الحج، كان سمة لافتة جدا من خلال العينات المذكورة؛ فالحج وطلب العلم كما قيل كانا وجهين لعملة واحدة⁽²⁾.

(1) مع الإشارة إلا أنّ توقف نشاط الرحلة كان متعلقا بالساكنة التلمسانية فحسب؛ ذلك أنّ السلطة المرينية التي فرضت حصارها المحكم على تلمسان وطوقت عنقها بسوار جيوشها وقواتها العسكرية المراقبة على أسوارها، كانت تشرف على تنظيم مواكب الحج انطلاقا من مدينة المنصورة التي شيّدها مع بدايات سنوات الحصار.

(2) بن معمر، المرجع السابق، ص 286، شريخي نبيل، الحج في مجتمع المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين بين مشقة الرحلة والشوق إلى المقصد، مجلة مدارات تاريخية، مج 2، ع 5، الجزائر، 2020، ص 271.

- توسّع منحى الرحلة أفقيا وعموديا؛ راسما في منحاه العمودي: تطور الحراك الرحلاتي وانتعاشه، ورسوخه كثقافة شعبية في المتخيل المجتمعي الجزائري. أمّا أفقيا: فمن خلال انتشار خطابه جغرافيا في مجالات المغرب الأوسط وأقاليمه، وتوسّعه في أعماق النسيج المجتمعي وبين ظهرانیه.

- توسيع مجالات الرحلة؛ ففي الغالب لا يقتصر الرحالة على حاضرة واحدة بالإقليم الذي ينتقل إليه، بل كذلك لا يقتصر على إقليم واحد بل يتجول في حواضر المشرق والمغرب والأندلس. كما إنّ حواضر المشرق في الوقت الذي حازت الحظ الأوفر من زيارة أهل المغرب الأوسط أكثر من غيرها من حواضر الغرب الإسلامي خاصة خلال القرون الخمسة الأولى من العصر الوسيط، فإنّ إفريقية بحواضرها الهامة كتونس كانت محطة عبور لهذه الوجهة، ومسلكا أساسيا نحوها، ومقصدا حيويا لوجه العلم والمعرفة بها.

ولا بأس من التنبيه إلى أحد أبرز الدوافع الكامنة في توجيه النظر بشكل بارز إلى هذه الوجهة (الجهة الشرقية)؛ وذلك أنّ الفضاء المغرب أوسطي يعجز عن إشباع حاجة طلبة العلم وإرضاء رغباتهم المعرفية بما يكفي. حيث أنّه وبعيدا عن التقليل من شأن المجال المغرب أوسطي بصفة خاصة والمغاربي بصفة عامة ثقافيا وعلميا خلال العصر الوسيط؛ على اعتبار النهضة العلمية التي عرفها والنمو المعرفي الذي شهده بشكل مستمر وصورة متنامية على مدار المسافة الزمنية المؤطرة للعهد الوسيط، مثل المشرق بحواضره الثقافية اللامعة، ومراكزه العلمية المشعة، ومعالمه الدينية المقدسة، أحد أبرز مواطن الاستقطاب للنخب العلمية، وطلبة العلم ومتشوفي المعرفة. ذلك أنهم ومع ما ينهلونه بمراكز العلم بمجال مسقط رأسهم، وعلى يد أساطين العلم به وأقطاب شيوخه وقاماته الشاخطة، لا يتوقف طموحهم العلمي عند ذلك الحدّ، ولا

تشبع نفوسهم مما حصّلت على غزارته، بل تظل رحالهم مشدودة إلى غيره من حواضر العلم ببلاد المغرب أو المشرق، رغبة في الاستزادة وأملا في إشباع الفضول، وإرضاء الرغبة في إنماء المعارف وتطوير القدرات والاطلاع على ثقافة الآخر والاستئناس بما جادت به القرائح في شتى مجالات العلم والمعرفة بألمع الحواضر المشرقية خاصة مكة المكرمة⁽¹⁾.

2. خطوط الرحلة ومساراتها:

توزّعت على أربع جهات، وهي:

2. 1 الرحلة المغرب أوسطية نحو المشرق:

جمعت الرحلة إلى هذه الوجهة بين جميع مقاصدها وغايات أصحابها: الدينية والعلمية والاقتصادية. ومثّل هذا الاتجاه المقصد الرئيس لشريحة عريضة من نخب العلم وطلبته بالمغرب الأوسط⁽²⁾، والوجهة المفضلة لهم لتحقيق المراد، وملامسة الهدف المنشود. فلا تكاد تقف على طالب علم ارتحل ينشد غايته العلمية إلا وكانت بلاد المشرق محطة أساسية يُؤلّي وجهه شطرها وتشرّب عنقه صوبها، وقد أشرنا سلفا وفي محطات متعدّدة من بحر دراستنا هذه إلى مقومات الجذب التي يحوزها هذا الإقليم؛ بما أهّله ليحظى بهذه الأولوية في ترتيب وجهات أصحاب الرحلة من أهل المغرب الأوسط بشكل خاص أو الغرب الاسلامي بشكل عام.

(1) بن معمر، المرجع السابق، ص 278.

(2) بوسلامة محمد، هجرة الجزائريين إلى بلاد المشرق في العهد العثماني "1518-1830"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج 2، ع 1، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2019، ص 327.

ولو نظرنا إلى عدد الرحلات التي قصد أصحابها المشرق في ضوء الإحصاء الذي أوردناه في الجدول السابق، لوقفنا على أنّ حوالي أربعة وثلاثون (34) شخصية علمية من أصل أربع وأربعون (44) كانت وجهتها حواضر المشرق للاستزادة في العلم والرغبة في أداء الفرض الديني؛ أي بنسبة حوالي 77 بالمائة من مجموع العينات التي انتخبناها للمعينة ضمن الجدول الأول. وقد فصلنا في الجدول بشأن عدد العينات التي ارتحلت إلى المشرق كوجهة منفردة عن غيرها من الوجهات، وذكرنا بأنّ عددها بلغ خمس (05) شخصيات، في الوقت الذي جمعت الشخصيات الباقية من أصل أربعة وثلاثون (34) بين المشرق كوجهة وبين الوجهات الأخرى، على النحو الموالي: ثمانية (8) شخصيات جمعت في وجهتها بين المشرق والغرب الإسلامي بشتى حواضره، وإحدى عشر (11) شخصية كانت وجهتها متزاوجة بين المشرق والمغرب الأقصى، وتسع (9) شخصيات جمعت بين الرحلة إلى المشرق وإفريقية.

وطبيعي أن تحتل مكة صدارة الحواضر المشرقية التي تشدّ إليها الرحالة، وتحوز حصة الأسد من رحلات أهل المغرب الأوسط إليها. ثمّ تليها الحواضر المشرقية التي تشوي مقدسات ومعالم دينية على جغرافيتها كالمدينة المنورة والقدس⁽¹⁾، وكذا الحواضر الواقعة على طريق الرحلة إلى الحجاز كالمدينة ومصر وحواضر إفريقية، ثمّ تليها الحواضر المشرقية البارزة في العلم كبغداد والبصرة⁽²⁾.

(1) بوسلامة محمد، المرجع السابق، ص 21.

(2) عمارة، المرجع السابق، ص 113.

3.2 الحراك الرحلاتي المغرب أوسطي باتجاه افريقية:

تنطلق الرحلة من حواضر المغرب الأوسط باتجاه افريقية مروراً على سبيل المثال من تلمسان إلى الجزائر إلى بجاية إلى قسنطينة، فبونة، وتونس، ثم طرابلس وبرقة.

ونلعم الانتباه إلى أنّ هذه الوجهة، مثلت غاية لذاتها؛ أي كانت حواضرها مقصداً لشريحة من طلبة علم المغرب الأوسط، كما كانت في ذات الوقت محطة رئيسة ضمن مسار الخط الرابط بين المغرب الأوسط وبلاد المشرق بحواضرها المتعددة؛ استغل المارة عبر خطها فرصة الرحلة إلى المشرق بالتوقف عند حواضرها والاستفادة هناك، سواء ذهاباً أو إياباً.

ولو رجعنا إلى المعطيات التي تمّ رصدتها في ضوء الجدول الأول، للمسنا بأنّ هذه الوجهة كانت مقصداً فريداً لشخصيتين ضمن العينات التي أخضعناها للمفاحصة. ولشخصية واحدة جمعت بين هذه الوجهة ووجهة بلاد المغرب الأقصى ضمن عينات الجدول أيضاً. ولشخصيتين تقلبت في مغارب العصر الوسيط والأندلس أو جامعة بين الوجهات الثلاث: افريقية والمغرب الأقصى والأندلس. وكانت محطة عبور لعشر شخصيات قصدت حواضر المشرق، ودائماً ضمن النماذج التي احتضنها الجدول المذكور آنفاً.

3.3 الرحلة المغرب أوسطية إلى المغرب الأقصى:

لم يعرف هذا الاتجاه الرحلاتي انتعاشاً لافتاً خلال العصر الوسيط مقارنة بما بات عليه الأمر خلال طائع العهد العثماني وفترة القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين

للدروس والإقامة والتجارة⁽¹⁾. وذلك أنّ الوجهة البارزة كما أشرنا إليه سالفًا، كانت إلى المشرق؛ وإلى الحواضر العلمية التي تقع بالطريق إليه. أمّا باتجاه الغرب فبالرغم من أنّ الوجهة مثّلت مقصد لشريحة من أهل المغرب الأوسط لاستزادة العلمية وتقوية المدارك، فإنّ مسارها كان يعرف تذبذبًا ملحوظًا، بسبب الاضطرابات السياسية التي تشهدها الساحة السياسية لبلاد الغرب الاسلامي، ومن ذلك: الصراع العسكري الذي اصطبغت به علاقات بني حماد مع المرابطين خلال فترة حكم يوسف ابن تاشفين (454هـ-500هـ / 1062-1106م)⁽²⁾، أو ضروب النزاع التي طغت على نسيج علاقات بني زيان مع الدولة الجارة بالجهة الغربية (المرينية).

ومن الطبيعي أنّ الوضع المضطرب الذي تفرزه حروب الحصار ومعاركه، تؤدّي إلى فقدان الأمن عبر أغلب المسالك الرئيسة والثانوية، واستفحال عمل الخرابة وضروب النهب والسلب والغصب بها وسيطرة اللصوص على أبرز شرايين الحياة الاقتصادية والثقافية بها، بل وصل الأمر ببعض القبائل ذات النجعة والحرب أن تُرغم التجار والمارة بها على أداء الإتاوة مقابل المرور بأراضيها. وفي هذا المنحى يطالعنا الرحالة العبدري بنصّ في غاية الأهمية؛ وذلك أنّه حين كان في طريق الرجعة من تلمسان إلى فاس مرورًا بتازا، ذكر أنّه لما وقف على باب تلمسان نحو سنة 688هـ/ 1289م هو ومن معه، صادفوا قافلة كبيرة خارجة إلى جهة الغرب زاد عددها عن الألف نسمة، فقال له قائل بأنّ لأصحابها في محاولة الخروج نحوًا من ثلاثة أشهر حتى تسنى لهم بخفارة على أداء خفارة، ففرح كثيرًا حين أدركها من الغد بوجدة خصوصًا

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص385.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، ص229.

مع كثرة عددها، لأنّه كان يأمل أن يجد الرفقة لمواصلة مسيره مع عصبته نحو مقصده، وقد أدرك ذلك⁽¹⁾. كما ذكر البلوي أنّ القافلة التي كان بين أعضائها قد تعرّضت في نقاط متفرقة من بلاد المغرب الأوسط لهجمات قطاع الطرق ذاهبا وإيابا سنة 736هـ و740هـ⁽²⁾.

بيد أنّ انتعاش طريق الرحلة العلمية إلى الجهة الغربية خلال القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين لا يعني انحصار التوجه الرحلي نحو المشرق، بل كما ألمحت إليه عديد الدراسات عدّد "القرن الثاني عشر هجري (18م) من أهم القرون التي أسهم فيها الجزائريون اسهاما واضحا في كتابة رحلاتهم بمختلف أنواعها مقارنة بالقرون الماضية، إلا أنّ هذه الإسهامات كانت قليلة الانتاج بالقياس كتاب الرحلات المغاربة⁽³⁾، وهذا راجع إلى عدم رجوع الرحالة إلى الجزائر ليكتب ملاحظاته ويدون رحلته"⁽⁴⁾. وكانت الرحلة الحجازية أكثر وفرة نسيبا مقارنة بألوان الرحلة الأخرى ووجهاتها نحو الحواضر المشرقية⁽⁵⁾.

(1) العبدري محمد البلنسي، الرحلة المغربية، تقديم، سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ / 2007م، ص 212.

(2) انظر: ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، تح، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1429هـ / 2008، ص 45.

(3) وقد أشار إلى هذا رائد الكتابة في التاريخ الثقافي للجزائر، الدكتور أبو القاسم سعد الله. راجع: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 385.

(4) عجنّاك يمينّة، أدب الرحالة الجزائريين إلى الحجاز خلال القرن 18 "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أنموذجا"، مجلة بحوث، ع11، ج3، الجزائر، ص 16.

(5) المرجع نفسه، ص 16.

3. 4 الرحلات المغرب أوسطية إلى الأندلس:

ارتحل عدد معتبر من أهل المغرب الأوسط إلى الأندلس لوجه أداء الفرض الثقافي أو العلمي مع التنبيه إلى أن عدد المرتحلين ليس قارا عند حدٍّ معين، بل يعرف تفاوتاً حسب كل مرحلة، يتقلّص حيناً ويرتفع في أحيان أخرى. بل إنه حين بلغت الاضطرابات بالعاصمة الزيانية تلمسان أوجها؛ حين انتشر الخوف والقلق بين أظهر الرعية بسبب الحرب وضروب الصراع العسكري والتناحر لوجه المصلحة التوسعية خاصة بعدما اشتد الحصار المريني على تلمسان وأحاط بها إحاطة السوار بالمعصم، مثّلت الأندلس ملاذاً آمناً لشريحة من علماء المنطقة؛ حيث اضطروا للهجرة، ومغادرة المناطق التي خيّم على سمائها جو الاضطراب، مُيَمّنين وجوههم نحو المناطق الآمنة والبعيدة من مواضع الاضطراب كالأندلس، ولم يرجعوا إلى تلمسان إلا بعدما رُفِع عنها الحصار بعد مدّة من الزمن ناهزت ثمان سنوات على قول بعض المؤرخين⁽¹⁾، فقد مدّ بصره محمد المكودي إلى غرناطة وقصدها حتى ينأى من تبعات الحصار الذي عصّف بتلمسان وأمصارها. وعلى درب المكودي سار الشاعر أبو عبد الله محمد بن

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج2، تح، أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م، ص139. راجع كذلك: لطيفة بشاري: علاقة بني عبد الواد ببني مرين بين القرنين 7-10هـ/13-16م، مجلة أفكار وأفاق، ع3، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2012، ص63.

خمس التلمساني (ت708هـ/1309م) سنة 703هـ/1304م قاصدا غرناطة أيضا⁽¹⁾.

أما مع تقلص المساحة الإسلامية بالجزيرة الأندلسية مع تنامي الضغط الصليبي وتعاضم الخطر النصراني على المسلمين بالمنطقة، فقد انكمشت خط الوجهة إلى هذه الجهة من طرف مغاربة العصر الوسيط بشكل عام وأهل الأوسط بشكل أخص، وغدت بلاد المغارب هي المقصد، والأكثر استقطابا للنخب الأندلسية بحثا عن فضاء آمن وجغرافية إسلامية تحتضنهم.

ومع ذلك، ما غاب ذكر الأندلس عن الخطاب الرحلي لدى بعض الرحلة وأهل العلم، خاصة من تمت جذورهم بصلة إلى الأصل الأندلسي، ويشدهم الحنين إلى مسقط رأسهم ومنبت عرقهم. ومن ذلك أنّ الأندلس كانت من الأماكن التي ذُكرت ضمن مادة رحلة ابن حمادوش، من غير أن يزورها؛ وإنما اعتمادا على تراث الأقدمين⁽²⁾.

4. مقومات انتعاش الحراك الرحلاتي بالمغرب الأوسط:

من مقومات هذا الانتعاش، نذكر:

- وقوع المغرب الأوسط في مركز بلاد المغارب؛ باعتباره نقطة وصل بين حواضر المغارب فيما بينها، وبينها وبين الحواضر المشرقية. فمدن: تاهرت الرستمية، والقلعة وبجاية الحمادية، وتلمسان الزيرية كانت محطات رئيسة ومفصلية لقوافل

(1) ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص304، ابن مريم: المصدر السابق، ص125، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج1، تقديم، عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ص245-247.

(2) عجناك، المرجع السابق، ص21.

الحج والتجارة والعلم المرتحلة من الجهات الغربية للمغرب الأوسط والجنوبية له إلى حواضر المشرق، أو من المشرق نحوها؛ أي ذهابا وإيابا⁽¹⁾.

- شغف أهل الجزائر إلى توسيع مشارب المعرفة، وتنويع مواردها، والاطلاع على رصيد الآخر الثقافي، كان عوناً لطلبة العلم على تكبد عناء ومشاق السفر.

- تجذّر الفكر الرحلي في أرضية الخطاب الثقافي السائد بمجتمعات الغرب الاسلامي بشكل عام والمغرب الأوسط بصورة أخصّ؛ حيث ساد في المخيال العام والثقافة الشعبية: أنّ التحصيل المعرفي دون حركة رحلية لا يفي بالغرض على أكمل وجه، وأنّ ملازمة الكمال الاجتهادي في طلب العلم والعلا لا يكون في صورته المثلى إلا إذا ساحت طالب العلم في الجغرافيا الحاضرة للمعرفة بمختلف حقولها ودروبها، وتنقل في فضاءاتها ومجالاتها الثابتة لمراكز العلم ومؤسساته.

- دور المؤسسات الثقافية المشرقية والمغاربية ومراكزها العلمية في استقطاب النخب وطلبة العلم والمعرفة للجلوس على كراسي العلم بها، والاحتكاك بأساتذتها ورواد المعرفة بها، ومنها: القرويين بالمغرب الأقصى، وقرطبة بالأندلس، والزيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة، والحرمين بالمشرق.

- دور السُّلطان اللامع بجزائر الحقبين الوسيطة والعثمانية في تأمين الطرق والمسالك البرية والبحرية وخطوط المواصلات مع مختلف أقاليم العالم الاسلامي، وسعيها لفرض الأمن والاستقرار السياسي بالمجالات الخاضعة لسلطانها؛ مما سمح

(1) بن معمر، المرجع السابق، ص 281، مالكي سميّة ولباد سالم، أدب الرحلات الحجازية الجزائرية في القرن الثامن عشر الميلادي أنموذجا، مجلة لغة-كلام، مج 7، ع 2، مخبر اللغة والتواصل، جامعة غليزان، الجزائر، 2019، ص 74-76.

بنشاط وحيوية الحراك الرحلي وانتعاشه⁽¹⁾، واتساع حدود دائرة رواده، ومنتحليه سبيلا من سبل التحصيل العلمي، وطريقا من طرق كسب المعرفة.

- ازدهار الحياة العلمية والأدبية بجزائر الفترتين الخاضعة للمدارسة⁽²⁾، مثل حافزا وباعثا ودافعا قويا على الحركة والترحال لرصد المعرفة، والتمكين العلمي، والتواصل الحضاري، والتبادل الثقافي والفني.

- التعلّق ببلاد المشرق السائد في المخيال المجتمعي على اعتبار ما تحوزه من مقومات دينية على رأسها أداء الفرض (الحج)⁽³⁾.

5. أثر الحراك الرحلاتي على الحياة الثقافية بجزائر العصر الوسيط والعهد

العثماني:

ويمكن رصد ذلك الأثر من خلال العرض الموالي:

(1) لامعة زكري، الرحلة العلمية بين الأندلس والدولة المرينية ودورها في تحقيق الصلات الثقافية خلال القرنين 7-9هـ / 13-15م، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 1431هـ / 2010م، ص 28.

(2) دباح عائشة، الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات "رحلة الحسين الورثيلاني أنموذجا"، مجلة قضايا تاريخية، ع8، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 1439هـ / 2017م، ص 50، علوي مصطفى، الرحلة العلمية بين المغرب الأوسط والأندلس بين القرنين الثالث والسادس الهجريين (رحلة القلصادي القرن التاسع الهجري نموذجا)، مجلة الساوره للدراسات الانسانية والاجتماعية، مج7، ع1، جامعة الأغواط، الجزائر، 2021، ص 302.

(3) انظر كذلك ما أورده في هذا المضمار: نميش سميرة، الرحلة العلمية وأثرها في تكوين شخصية العلماء أبو العباس المقرئ أنموذجا، مجلة البحوث التاريخية، مج5، ع1، الجزائر، 2021، ص 58 -

- كان لعلماء الجزائر سواء في العصر الوسيط أو العثماني مساهمات معتبرة في إثراء الحركة الثقافية الإسلامية والإنسانية: مشرقا ومغربا⁽¹⁾. وهو ما تعكسه بصمات النخب التي جابت مشارق الأرض ومغاربها وسارت في منابها في سبيل العلم والمعرفة استفادة وإفادة، وأخذا وعطاء. وهو ما يُحيلنا إلى تضافر الجهد العلمي لنخب الجزائر على امتداد تاريخها الإسلامي في دعم الحقل المعرفي والثقافي وإثرائه، والمساهمة في تغذيته في شتى العلوم والفنون، وكانت الرحلة العلمية آلية من آليات تحصيله، وسبيلا من سبل نشره وخدمته.

- أسهم التراث التأليفي والمتنوع الفكري والعلمي الذي أنتجه النشاط الرحلاقي بالمغرب الأوسط في الحقبة الوسيطة، في تشكيل جسور ثقافية؛ ربطت حياة هذا العصر بالحياة الفكرية بجزائر العهد العثماني، ووصلت بين عهدين متعاقبين؛ تباين سقفهما السياسي والسلطوي. ففي ضوء الحقل الثقافي والأرضية الحضارية والتراث الرحلي والمناخ الفكري الذي أسس له الجيل النخبوي بجزائر العصر الوسيط، انطلقت نُخب الجزائر العثمانية وطلبتها تستثمر في كنوزه، وتبحث في تراثه. ومن مظاهر ذلك الإرث الرحلي على سبيل المثال لا الحصر: رحلة أبي القاسم التوجيبي التلمساني (ت730هـ/1329م) الموسومة: "مستفاد الرحلة والاعتراّب"⁽²⁾، رحلة ابن خلدون (ت808هـ/1405م) المسماة "التعريف بابن

(1) خلوي شميصة، مساهمة علماء الجزائر العاصمة في إثراء أدب الرحلة رحلة عبد الرحمان الثعالبي (ت:875هـ) أنموذجا، مجلة اللغة العربية، ع30، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2018، ص308.

(2) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص385.

خلدون شرقا وغربا"⁽¹⁾، رحلة عبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ/م)⁽²⁾، رحلة محمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت 759هـ/ 1357م)، الموسومة بـ: "رحلة المتبل"، رحلة حفيده أحمد المقرئ التلمساني (ت 1041هـ/ 1631) المسماة "رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق"⁽³⁾، رحلة ابن القنفذ القسنطيني (ت 810هـ/ 1407م) "أنس الفقير وعز الحقيير"⁽⁴⁾، ورحلة أبي الفضل المشدالي البجائي (ت 864هـ)⁽⁵⁾. ومن الرحلات التي عرفتها الجزائر خلال القرون الموالية: رحلة الحسين الورثياني (ت 1193هـ) الشهيرة بـ: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، رحلة أبو راس الناصري (ت 1238هـ/ 1823م) المسماة "فتح الإله منته في التحدث بفضل ربي ونعمته"⁽⁶⁾، رحلة المصعبي للشيخ إبراهيم بن بثمان ليسجني المصعبي (ت 1232هـ/ 1817م)،

(1) ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، عرض وتعليق، محمد بن تاويت الطنجي، حررها وقدم لها، نوري الجراح، دار الكتب العلمية، بيروت، 1425هـ/ 2004م.

(2) الثعالبي عبد الرحمن، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، ويليها رحلة عبد الرحمن الثعالبي، تح، محمد شايب شريف، دار ابن جزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1426هـ/ 2005م، ص 12 وما بعدها.

(3) لبصير سعاد، التقاطع بين الأدب والتاريخ ضمن الرحلة الحجازية الجزائرية خلال العهد العثماني، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الانسانية والاجتماعية، مج 13، ع 1، جامعة الجلفة، الجزائر، 2021، ص 879.

(4) ابن قنفذ القسنطيني، أنسر الفقير وعز الحقيير، صححه محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

(5) مداح نور الدين، أبو الفضل محمد بن محمد المشدالي العلامة الموسوعي الرحالة، مجلة الشهاب، ع 7، معهد العلوم الاسلامية، جامعة الوادي، الجزائر، 1437هـ/ 2018م، ص 187.

(6) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 377.

رحلة ابن مسائب التلمساني (ق 12هـ / 18م)، رحلة الشاعر أحمد ابن التريكي (ق 12هـ / 18م)، رحلة أحمد ابن عمار الجزائري (ق 12هـ / 18م) التي تدعى "رحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"⁽¹⁾، رحلة ابن حمادوش الجزائري (ت 1197هـ / 1782م) المسماة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"⁽²⁾، رحلة عبد الرحمن بن ادريس التلاني، ورحلة البوني أحمد بن قاسم التميمي (ت 1139هـ) المسماة "الروضة الشهية في الرحلة الحجازية"⁽³⁾.

- تسهم الرحلة في تحويل التجربة الانسانية إلى كتابة تاريخية، وتناسلية الدينامية الثقافية، وفي استمرارية فعاليتها وانتعاشها⁽⁴⁾.

- ينطق الخطاب الرحلي بمستوى رقي الصناعة الفكرية بكل مناحيها: لغوية، أسلوبية، فنية...⁽⁵⁾.

- يكشف الخطاب الرحلي عن الكامن الفكري، ويعبر عن الثقافة الاجتماعية، والمعطى الاقتصادي، والبعد الديني.

(1) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 224، لبصير، التقاطع بين الأدب والتاريخ، ص 879.

(2) مالكي ولباد، المرجع السابق، ص 76.

(3) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 61.

(4) لبصير سعاد، التفاعل الثقافي والعلمي بين الرحالة الجزائريين ونظرائهم من بلاد المشرق خلال العهد العثماني، مجلة قضايا تاريخية، ع 8، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 1439هـ / 2017م، ص 95.

(5) لبصير سعاد، التفاعل الثقافي والعلمي، ص 95.

- وضع الخطاب الرحلي الأحداث التاريخية والقضايا الاجتماعية والدينية والعلمية في سياقاتها التاريخية والزمنية والجغرافية والبيئية، وحدد إطارها القيمي والهوياتي، ومرجعيتها الروحية والدينية، وأبان عن منظومتها العُرفية⁽¹⁾.

- استقدام مؤلفات من المشرق تخص العديد العناوين الهامة في الحقل الثقافي، ومن ثمّ التي تتعلق بالجانب التاريخي⁽²⁾.

- أسهم الخطاب الرحلي إلى حدّ ما في توحيد النسق الفكري الجزائري المغربي من جهة، والجزائري المشرقي من جهة ثانية⁽³⁾، والجزائري على امتداد حقبة الزمنية، من زاوية ثالثة. وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بالثقافة بمجتمعات العالم الاسلامي المتزامنة، ومثاقفة شعوب الوسط الجغرافي الواحد المتناسلة عبر العصور أو المتوارثة.

- كان للكراسي العلمية وحركة الجدل ومجالس المناظرات مساهمة فاعلة في انعاش الحياة الثقافية بجزائر العهدين الوسيطى والعثماني، وتنمية الحياة الفكرية⁽⁴⁾.

- مثل أدب الرحلة موسوعة شاملة لمختلف جوانب الحياة المتباينة للأمم الموزعة على البساط الجغرافي الذي امتطى صهوته الرحالة، يرصد معطياته، ويسجل انطباعاته عن واقع أجناسه وطبيعة معاشهم وتفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم، ويحصد

(1) ولقد فصلا أحد الباحثين تفصيلا جميلا في دور أدب الرحلة في التعبير عن العلاقة بين أدب الرحلة والاثنوغرافيا. وللتفصيل في ذلك. ينظر: رحاني علي ودرنوني سليم، فصل المقال فيما بين الرحلة والاثنوغرافيا من اتصال، مجلة التغير الاجتماعي، ع4، نخب التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر، جامعة بسكرة، الجزائر، ص 271-275.

(2) عمارة، المرجع السابق، ص 114.

(3) لبصير، التفاعل الثقافي والعلمي، ص 96.

(4) لامعة، المرجع السابق، ص 70.

تجاربه وما عاشه وعاشه متقللا بين أظهرهم، وبذلك يبنى خطابا رحليا يفصح عن أدوار الرحالة، ومفعوله ضمن نشاطه، ومكانة نبضه فيه بصوته المفرد أو الجمع انطلاقا من مرجعيته الدينية والثقافية والجغرافية⁽¹⁾.

- يسهم النص الرحلي في تغذية حقول الكتابة والتدوين وفق خطاب يتماشى وطبيعة الغرض الرحلي وشخصية الرحالة الدينية والعلمية والثقافية. بحيث يترجم ذلك الفعل خلاصة الجهد الرحلي منسوج في مادة مكتوبة مدونة ترسم صورة تراجم التجارب الانسانية إلى مشاريع مكتوبة ونصوص مدونة، تحاكي المناسبات الاجتماعية المرصودة، والتظاهرات الثقافية المنتجة، والمنفعة الاقتصادية المحصودة، والجلسات العلمية المنعقدة. وبذلك فهي كما عبّرت عنه الباحثة "لبصير": "تدون لم تدونه كتب التاريخ السياسي ومصادره بأسلوب يجمع بين الواقعة التاريخية وعنصر الإثارة والتشويق لذلك عدّ هذا الخطاب لبنة الدراسات التاريخية"⁽²⁾.

- يرسم الخطاب الرحلي صور التضامن والتقاطع بين فنون العلوم الانسانية والاجتماعية ومواطن تقاطعاتها، ويجمع بين التيمات والأنساق الثقافية المتأصلة ضمن ذلك الخطاب؛ خاصة بين التاريخ والأدب⁽³⁾.

- يعكس الخطاب الرحلي التنوع المضموني المنفتح على الحقول المعرفية بمناحيها التاريخية والجغرافية والسياسية والدينية في صورتها التحليلية أو النقدية أو الاثنوغرافية...، ويقدم تصور شمولي لذلك المخزون الدلالي الذي يعكس هوية

(1) آجقو سامية، الرحلة بين الواقع وفعل الكتابة، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، مج 21، ع 2، جامعة باتنة، الجزائر، 2020، ص 179-176.

(2) لبصير، التقاطع بين الأدب والتاريخ، ص 879.

(3) المرجع نفسه، ص 878.

المرتحل العرقية والجغرافية والدينية والثقافية، ويفصح عن غاياته ومراميه الارتحالية⁽¹⁾.

- يمثل النص الرحلي في بعض مناحيه شهادة حضارية حية، التقطت صورها عدسة الرحالة، تكمن قوتها في سوغها لتاريخ المجتمعات المغاربية والمشرقية، في قالب متميز؛ يجمع بين أحداث مساحة جغرافية واسعة، ويثوي نسيجا من النصوص المستوعبة لأخبار الأمم في مناحي حياتها المتعددة. فكأنه ذاكرة جماعية لا تعترف بالحدود الجغرافية، وتلتئم تحت سقف ديانة واحدة، وثقافة مشتركة، وأسلوب حياتي متقارب يتناغم والثقافة السائدة والإيديولوجية المتحلة.

- في الوقت الذي كانت السفارة والوفادة من بين أهداف الرحلة وأغراضها عند شريحة من النخب؛ فقد كان الساسة ورجال البلاط يكلفونهم بمهام سياسية تندرج ضمن غاية توطيد النسيج العلائقي مع الدول الجارة والمعاصرة لها في نفس الخط الزمني، وتبادل الرأي والمنفعة فيما بينهم، لعب الخطاب الرحلي في بعض زواياه دور السفارة عبر الزمن؛ بنقل خبرات جيل الحقبة السابقة وميراثها إلى الجيل الذي تلاه على نفس المجال أو إلى أبعد منه وأوسع. فكان بمثابة حلقة وصل ثقافي لمجتمعات متناصلة متعاقبة تنتمي إلى نفس الجغرافية وتفرش ذات المجال، وآلية من آليات التبادل العلمي، والتحاور الفكري، والتقارب الثقافي.

- تسهم الرحلة العلمية في بناء شخصية الفرد الثقافية، وتوسيع مداركه المعرفية، وقدراته العلمية. كما تساعد على تحسين بنائه النفسي، والاجتماعي، وتنمي فيه قدرات الاكتشاف والمعرفة، والتواصل، وتقوده إلى مد جسور التواصل الثقافي مع

(1) المرجع نفسه، ص 878.

الآخر وتبادل الخبرات والمعارف⁽¹⁾. كما تعدّ أحد المقاييس العلمية مقياسا ومعايرها لقياس مكانة العالم بين أترابه⁽²⁾.

- تساهم الرحلة العلمية كذلك في تطعيم المكتبات المغرب أوسطية بأمهات الكتب والمصادر في شتى تخصصات المعرفة وحقول العلم.

- تمكّن من تحصيل الإجازة العلمية. حيث مثلت هذه الأخيرة أحد أسمى غايات طلبه العلم -بالمغرب الأوسط خاصة وبلاد المغرب عامة- في نشاطهم الرحلي، من أجل تحصيل الإجازة في شتى العلوم الشرعية من حديث وفقه، وكذا لتولي الوظائف والمهام الدينية كالافتاء والتدريس والتأليف والقضاء⁽³⁾.

- المساهمة في التأسيس للفكر الأنثربولوجي وإرساء دعائمه. وجدير التنويه في هذا الصدد بجهد الباحث "بلعربي" في مسعى إثبات دور الخطاب الرحلي الاسلامي في التنظير لهذا العلم، وإبراز السبق الاسلامي في التأسيس لكيانه، والبصمة الاسلامية في تطويره⁽⁴⁾. فهذا العلم (الأنثربولوجيا) -كما يذهب إليه ذات الباحث- الذي ديدنه دراسة الانسان؛ من خلال مفاحصة أوجه التباين والتشابه بينه وبين غيره من الكائنات، من جهة، وبينه وبين بني جنسه، من جهة أخرى، وُلِد في رحم الفكر الاسلامي وترعرع بين أحضان اهتمامهم العلمي؛ بما يجعله -حسبما يؤكده- علما عربيا

(1) نميش، المرجع السابق، ص 64.

(2) المرجع نفسه، ص 64.

(3) المرجع نفسه، ص 64.

(4) بلعربي خالد، الفكر الأنثربولوجي في كتابات الرحالة المسلمين، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع12، جامعة الوادي، الجزائر، ص 181.

اسلاميا أصيلاً⁽¹⁾. وحتى لا نحيد عن جادة صواب اشكالية بحثنا، نشير بأنّ هذا الباحث، انزوى إلى معاناة اللمة الاسلامية في التأسيس لهذا العلم في ضوء المنتج العلمي الذي أفصح عنه الإرث الرحلي؛ استنادا إلى بنيته الفكرية، وخطابه الرحلي، وثماره المعرفية؛ فقد كشف هذا المنتج بشتى بُناه الفكرية عن العديد من الحقائق عن طبيعة المجتمعات التي زارتها النخب المرتحلة خلال العهد الوسيط والمناخات الفكرية التي طافوا بمجالها واستأنسوا بمجالسها، وأنماط حياتها، وسبل معاشها، وآليات تفكيرها، وسماتها الثقافية والحضارية، ونحوها. وهو ما يشي بمكانة هذا الصنف المصدري (كتب الرحلة) ضمن الأصول العلمية التي شكّلت "الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا"⁽²⁾. ويعتبر الفكر الخلدوني الذي تنطق به مادة مقدمة كتابه العبر أو رحلته شرقا وغربا، أحد الارهاصات المتينة لإسهام المغاربة في خدمة علم الأنثروبولوجيا، باعتبارها من المحاولات الجادة لتفسير الأنظمة الاجتماعية والثقافية، ومعالجة العلاقة القائمة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية، وموقع تباين البشر في اللون والأمزجة النفسية والصفات الجسمية والخلقية في التأثير على الفكر والسلوك والنمط المعيشي⁽³⁾، وتحديد المستوى الحضاري، ومكانة البيئة الجغرافية والفكرية والثقافية في صناعة الفارق الحضاري ومستويات التطور السياسي⁽⁴⁾. وباعتبار فكره

(1) المرجع نفسه، ص 183.

(2) المرجع نفسه، ص 183.

(3) ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، ج 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1421هـ / 2000م، ص 104.

(4) بلعربي، الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين، ص 183.

كذلك من الجهود التي أسست لمنهج دراسة المجتمعات البشرية، والدورة الحضارية التي تمر بها الأجيال وتعيشها الانسانية⁽¹⁾.

- كانت الرحلة العلمية بمختلف أنواعها مدرسة ثقافية، لعبت دورها المحوري في الحياة المجتمعية؛ من خلال بنا الفكر الانساني وتطويره، وإثراء الحقل الثقافي بشتى فنون المعرفة⁽²⁾.

6. نقاط التماس الرحلات بالجزائر بين العهدين الوسيطى والعثمانى:

حتى تتجلى مرامينا من معالجة هذه المحطة البحثية، نعتقد أنّ العرض الموالي كفيل بذلك:

- اتساع الرحلة بالمغرب الأوسط خلال القرون التي سبقت الوجود العثماني بالجزائر خاصة القرنين السابع والثامن الهجريين (13 و 14م)⁽³⁾؛ بما يحيل إلى أنّ المخيال الجمعي خلال تلك الفترة، وهي القناعات التي ظلّت راسخة في أذهان ساكنة الجزائر مع طلائع العهد العثماني، كميراث ورثوه من أجدادهم، وحافظوا على تقاليدهم ومنهجهم في تحصيل العلم، سيّما وأنظارهم تطلّ مشدودة إلى بلاد المشرق؛ التي بها مهبط الوحي وأرض الحرمين، ومصدر الحضارة الاسلامية، ومنبع العلوم الشرعية⁽⁴⁾.

- مثلّ المشرق بما يحتويه من أماكن مقدسة وفي طليعتها أرض الحرمين، وما يعكسه من رمزية دينية في ذهنية المسلم وبشكل أساس لأداء فريضة الحج، مقصدا لا

(1) ابن خلدون، العبر، ج 1، ص 104.

(2) عمجناك، المرجع السابق، ص 13-15.

(3) الناجي، المرجع السابق، ص 05.

(4) المرجع نفسه، ص 19.

تنفكّ عنه الأنظار للزيارة الواجبة في حق من استطاع إلى ذلك سبيلا، ولا تفتقر القلوب تهفت لأداء الفرض ما دام مرتبطا بحياة المسلم الدينية وبالغاية من وجوده على وجه البسيطة. وبالتالي شكّل هذا المقصد المحوري في حياة الفرد الدينية قاسما مشتركا بين النسيج الاجتماعي بالجزائر عبر حقبة الزمنية المتعاقبة وفتراته الاسلامية المتتالية. ومن ثمّ، ما كانت حياة ذلك الحراك الرحلاقي الذي شهدته جزائر العصر الوسيط ونشاطه المتناسل على مداره لتتوقف في العصور الموالية بداية بعصر الوجود العثماني في الجزائر، ولا لتخفت شمس تلك الرغبة والحرص على ذلك المقصد مهما تتالت الدهور، وتعاقبت الأزمنة، ما دام الأمر يتعلق بواجب مقدس يكتسي صفة التراثية والتجدد في نفس الآن.

- انطلاقا من أنّ مقصد الرحلة إلى المشرق طلبا للسند العالي كان غاية المنى لكل عالم حديث ومجتهد في علم الرواية ومهتم بجمع وتحقيق ودراسة نصوص الأحاديث النبوية ورواياتها؛ من خلال الاجتهاد في البحث عن الطرق الصحيحة التي تقرّبهم إليه؛ بمختلف مراتبه سواء القرب من نسل بيت النبوة أو مشاهير الأئمة أو مشاهير الكتب الحديثية⁽¹⁾، فقد شكّل لا محالة مادة غراء قوية حافظت على مسار تواصل هذه الرغبة بين مجتمعات الجزائر عبر عصورها الاسلامية وحقبها المتعاقبة بداية من جزائر العصر الوسيط فجزائر العهد العثماني، وما والاها، وماء الحياة لتعيش هذه الرغبة في نفوسهم ولا تذبل أوراق نباتها. كما إنّ احتكاك أهل المغرب الأوسط (الجزائر) بنخب المشرق الاسلامي وبلاد المغارب والأندلس، فضلا عن كونه أسهم في بناء قاعدة علمية متينة، لعب دوره الفاعل في اطلاعهم على ثقافات المجتمعات

(1) الناجي، المرجع السابق، ص 21.

الاسلامية في شتى المناطق التي زاروها، ذلك أنّه من أدبيات الرحلة في المغرب الأوسط بشكل خاص وأهل المغارب بشكل عام: تعريجيهم في رحلاتهم إلى الحج على بلاد الشام والعراق لما تحتضنه من معالم لها رمزية تاريخية ودينية كزيارة بيت المقدس أولى القبلتين وثاني الحرمين، والمسجد الأموي بدمشق، ونحوها⁽¹⁾.

- البعد الاقتصادي هو الآخر، مثل حافظا وعاملا مساعدا على إنهاء رغبة الرحلة في النفس البشرية، سعيا وراء الرزق، وطلبا للكسب والمعاش. واستنادا إلى أنّ هذا المعطى حيوي في منظومة المقاصد الرحلاتية، لم يتخلّف كل من وجد إلى الرحلة سبيلا لنيل مراده وملامسة مبتغاه.

- لعب كذلك انفساح المجال أمام المجتمع الجزائري وانبساطه أمامهم نحو المشرق دورا محوريا في نشاط الرحلة وانتعاشها؛ فلا عوائق ولا حواجز تحول دون مقصدهم إلى المشرق ولا حدود سياسية تفصلهم عنه، سواء خلال فترة العصر الوسيط⁽²⁾، أو خلال العهد العثماني؛ أين أصبح الرحالة ينطلق من الجزائر إلى أرض المشرق لا يغادر سقف السلطة العثمانية، ولا تغيب عنه عين سيادتها، ولا يحتاج إلى جواز سفر أو رخصة ليجوب المجالات التي ينشدها.

- اتساع التأليف بالمغرب الأوسط في الحقبة الوسيطة بشكل لافت خاصة خلال القرنين الذين سبقا الوجود العثماني بأرض الجزائر حتى أضحي -كما عبّر عنه أحد الباحثين- عادة جارية، ومن أبرز مظاهر ذلك المتنوع: مصنفات التراجم والسير والطبقات والمعاجم والبرامج والفهارس⁽³⁾. وبذلك مثّلت مادة هذه المصنفات

(1) المرجع نفسه، ص 18.

(2) آجقو، المرجع السابق، ص 173.

(3) الناجي، المرجع السابق، ص 05.

باعتبارها من المصادر الناطقة بميراث الأجداد الفكري والثقافي والحضاري وسجلا يحفظ تاريخ بلاد المشرق ومختلف المناطق والبلدان التي زارها رحالة المغرب الأوسط ودونوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم⁽¹⁾ وأوصافهم لمجالس العلم التي ارتادوها والمناقشات التي دارت رحاها بينهم وبين العلماء الذين احتكوا بهم وغير ذلك مما سمعوه ودونوه من أخبارها، إرهابا علميا متينا اعتمدت عليه النخب الجزائرية في العهد العثماني متوجها العلمي والفكري، واستعانت بها لتطعيم مادته، كما مثل ذاكرتها الجماعية وتراثها الرحلي الأصيل. ويُستشف من ذلك مكانة ذلك الحراك الثقافي في صناعة الشخصية الفكرية للطبقة العاملة والمفكرة في العصر الموالي، وموقعها في بلورة توجهاتها العلمية والفكرية، وإسهامها في تطور الدرس العلمي بشتى تخصصاته؛ سواء الدرس الفقهي أو الحديثي أو التاريخي أو العقلي.

- تجلّت شخصية المغرب الأوسط العلمية والثقافية خلال هذه الفترة بشكل أقوى وأبرز من ذي قبل. وهو ما يعكسه الرصيد العلمي والإنتاج المعرفي الذي أنتجه أهله ونُخبه العلمية في مختلف التخصصات وشتى الحقول المعرفية، والمدارس العلمية والفقهية التي أفصحت عن نهضة علمية مغرب أوسطية تعكس جهود أهل المنطقة، ولا تنفصم عن النهضة التي باتت عليها بلاد المغرب بشكل عام.

- حافظت العديد من الأسر وبيوتات العلم بجزائر العهد العثماني حرصها واجتهادها في خدمة العلم والمعرفة اقتداءً بأسلافها وجذورها العائلية الممتدة إلى العصر الوسيط؛ بما يشي بتعاقد الجهد العلمي والفعل الثقافي بين الأجداد، والأبناء

(1) راجع كذلك ما أورده: ميسوم مولود، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس أنموذجا، مجلة جسور المعرفة، مج5، ع4، جامعة الشلف، الجزائر، 2019، ص216.

والأحفاد في بناء حضارة الجزائر. وبإثراء المعرفة الانسانية وحفظ الثقافة الاسلامية ونشرها وتوسيعها. وينطق في ذات الوقت بمواصلة الجيل اللاحق لمسيرة العطاء العلمي والثقافي الذي شيّد أساسه الجيل السابق، وسيرهم على نفس الخطى، وذات المنهج في خدمة الحضارة الاسلامية والانسانية، وتأمينا في نفس الآن لميراث أجدادها الثقافي والحضاري. ومن هذه البيوتات العلمية التي مثلت ذلك الامتداد الثقافي، وكانت حاضرة بعلمائها في حقول العلم والمعرفة بشتى فنونها وتخصصاتها، على مدار المسافة الزمنية المؤطرة للعهدين الوسيط والعثماني بالجزائر: الأسرة الفكونية؛ التي من أبنائها عبد الكريم الفكون القسنطيني (ت1073هـ/1663م) صاحب كتاب "منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية"⁽¹⁾. وأسرة المقرئ؛ التي من بين أبرز ما أنجبت من علماء الحفيد أحمد المقرئ (ت1041هـ/1631)⁽²⁾ صاحب الكتاب الشهير بنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب⁽³⁾. كما حافظت معظم حواضر جزائر العصر الوسيط على إشعاعها العلمي وبريقها الثقافي ولمعانها المعرفي،

(1) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص519، بوخلوة حسين، عبد الكريم الفكون القسنطيني حياته وآثاره (988-1073هـ/1580-1663م)، رسالة ماجستير، جامعة وهران الجزائر، 2009، ص43.

(2) وجده هو: أبو عبد الله محمد المقرئ المتوفى سنة 759 للهجرة. راجع بشأنه: ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه، الجزائر، 1336هـ/1908م، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص212، أبو الأجفان محمد بن الهادي، الامام أبو عبد الله محمد المقرئ التلمساني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1988، ص17.

(3) راجع بشأنه: المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، احسان عباس، مج1، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م.

خلال العهد العثماني على غرار بجاية، قسنطينة، الجزائر، مازونة، وتلمسان⁽¹⁾، مُشكّلة قواعد علمية تستقطب النخب وطلبة العلم، ومراكز للتواصل والثقاف، أسهمت في نقل المعرفة عبر الزمن وإحياء التراث على مدار عصوره.

- لم يمثل التراث الرحلي بشتى كنوزه وفي مختلف الفنون والعلوم بجزائر العصر الوسيط وسيلة من وسائل الاتصال الحضاري مع الآخر واكتشافه⁽²⁾ خاصة ضمن المجال الاسلامي، وسبيلا من سُبل المفاقة معه عبر قناة الرحلة فقط، بل مثل كذلك جسرا تواصليا متينا بين صفتي العصرين: الوسيط والعثماني بالجزائر، وآلية من آليات التلاقح العلمي والفكري بين جيلي العصرين، ومظهرها من مظاهر التعاون لبناء حضارة الجزائر وحفظ هويتها الثقافية، والدينية، والاجتماعية، والجغرافية.

-
- (1) وهو ما استوقف الباحثة "دباح" في مسار دراستها لأثر النص الرحلي على الحياة الثقافية بالجزائر. وللوقوف على تفاصيل ما توصلت إليه. ينظر: دباح، المرجع السابق، ص 48.
- (2) للوقوف على تفاصيل مستفيضة بشأن أهمية أدب الرحلة في الحياة الثقافية والحضارية، ينظر: سديرة سهام، أدب الرحلة الماهية، البنية والشكل، مجلة دراسات معاصرة، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، المركز الجامعي تسمسليت، الجزائر، 2018، ص 335-337، لبصير سعاد، الرحلة الحجازية في العهد العثماني (1518-1830) مصدر أساسي للكشف عن الحدث التاريخي الاجتماعي الآفات الاجتماعية نموذجا، مجلة التراث، مج 8، ع 1، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، 2018، ص 199-205، بن ناهض عبد الكريم، التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب العربي من خلال الرحلة العياشية (ماء الموائد)، مجلة الذاكرة، ع 10، مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2018، ص 57.

خاتمة:

على ضوء ما تمّ تناوله ضمن مادة هذه الدراسة:

- يعكس النشاط الرحلاقي الذي شهدته الجزائر خلال حقبتها الوسيطة والعثمانية الهوية الدينية والثقافية والفكرية لمجتمعاتها، وترسم ملامح تكاملية المشهد الثقافي بمختلف مكوناته على مدار العصرين، وتنطق بحياة النهضة الفكرية التي عاشت على مداريهما على بساطها.

- مثل الحرص على أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة قاسما مشتركا أو محركا رئيسا للفرد المسلم على الارتحال والانتقال إلى بلاد الحجاز ومكة المكرمة. ومشقة هذه الرحلة هي المشقة التي يتجشم كل المسلمين عناءها دون كل أو ملل ويتشوقون للقيام بها ما دام الأمر يتعلق بأداء الفرض.

- انطلاق الفعل الرحلاقي في الوسط المجتمعي بجزائر العصرين الوسيطي والعثماني من مرجعية غائية واحدة مشتركة في الغالب الأعم، تعكس في ناحية: مكانة الحركة في مسعى التحصيل العلمي والاقتصادي، وقدسية المقصد في منحى أداء الفرض الديني.

- يعكس الخطاب الرحلي بجزائر الحقتين الوسيطية والعثمانية الإرث الحضاري والتاريخي لمجتمعاتها، ويرسم ملامح هويتها الدينية والثقافية.

- شكّلت الرحلة الدينية الحجة الحجازية قوام النشاط الرحلي، وعموده الفقري؛ بحكم سمو هدفها وقدسيته.

- أسّس التراكم التاريخي للمادة المعرفية التي أنتجها النص الرحلي وأفصح عنها خطابه لثقافة شعبية مفادها: أنّ المعرفة تؤخذ أنّ كانت، ويُرتحل لوجهها مهما بُعد

موطنها، وتُصرف في سبيلها النفوس مهما ثقلت مشاقها وأعباءها، وفرضته مطالبتها وأغراضها.

- مثل الخطاب الرحلي عيّنة من العينات التي أفصحت عن تكاملية الفعل الثقافي العلمي بين فروعه وتخصصاته وأجناسه؛ حيث تجاوز القطيعة التي جسّدتها خطابات أصحاب الفنون الأدبية والعلمية في انتاج المعرفة، وأبان عن تجربة جامعة بين مواضيع وحقول معرفية متلونة: تاريخية، وجغرافية، ودينية، واجتماعية، وتراجمية، وبيوغرافية وإثنوغرافية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج2، تح، أبو الفداء عبد اله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ/ 1987م.
2. ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، تح، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1429هـ/ 2008.
3. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق، ماريا بيخوس بيغيرا، تقديم، محمد بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
4. ابن قنفذ القسنطيني، أنسر الفقير وعز الحقير، صححه محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.
5. ابن سعد التلمساني، روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق، يحي بوعزيز، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، ط1، 2002.
6. ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1421هـ/ 2000م.
7. ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، عرض وتعليق، محمد بن تاويت الطنجي، حررها وقدم لها، نوري الجراح، دار الكتب العلمية، بيروت، 1425هـ/ 2004م.

8. ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه، الجزائر، 1336هـ / 1908م.
 9. ابن مرزوق محمد التلمساني، المناقب المرزوقية، تح، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1429هـ / 2008.
 10. التنسي عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح، محمود بوعباد، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
 11. التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج1، تقديم، عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، ليبيا.
 12. الثعالبي عبد الرحمن، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، يليها رحلة عبد الرحمن الثعالبي، تح، محمد شايب شريف، دار ابن جزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1426هـ / 2005م.
 13. العبدري محمد البلنسي، الرحلة المغربية، تقديم، سعد بوفلاحة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ / 2007م.
 14. الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح، عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979.
 15. المقرئ أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1388هـ / 1968م.
- ثانيا: المراجع:
17. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998.

18. أبو الأجفان محمد بن الهادي، الامام أبو عبد الله محمد المقرئ التلمساني،
الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1988.
19. آجقو سامية، الرحلة بين الواقع وفعل الكتابة، مجلة العلوم الانسانية
والاجتماعية، مج 21، ع2، جامعة باتنة1، الجزائر، 2020.
20. الناجي لمين، رحلات علماء المغربين الأقصى والأوسط الملكية وآثارها
العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، دار الكلمة للنشر والتوزيع،
القاهرة، مصر، 1437هـ / 2016م.
21. بن معمّر محمد، رحلات الحج من المغرب الأوسط إلى مكة المكرمة، مجلة
الحضارة الاسلامية، المجلد 18، العدد الأول، وهران، الجزائر، 1439هـ / 2017م.
22. بلعربي خالد، الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين، مجلة
المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع12، جامعة الوادي، الجزائر.
23. بوخلوة حسين، عبد الكريم الفكون القسنطيني حياته وآثاره (988-
1073هـ / 1580-1663م)، رسالة ماجستير، جامعة وهران الجزائر، 2009.
24. بوسلامة محمد، هجرة الجزائريين إلى بلاد المشرق في العهد العثماني
"1518-1830"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج2، ع1، جامعة ابن
خلدون، تيارت، الجزائر، 2019.
25. حميداتو علي، أدب الرحلة من السيرة الذاتية إلى المتخيل قراءة في رحلة ابن
همادوش، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع14، ج1، جامعة الوادي، الجزائر،
2018.

26. خلوي شميصة، مساهمة علماء الجزائر العاصمة في اثراء أدب الرحلة
رحلة عبد الرحمان الثعالبي (ت: 875هـ) أنموذجا، مجلة اللغة العربية، ع30، المجلس
الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2018.

27. دباح عائشة، الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في
عهد الدايات "رحلة الحسين الورثياني أنموذجا"، مجلة قضايا تاريخية، ع8، المدرسة
العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 1439هـ/ 2017م.

28. رحمان علي ودرنوني سليم، فصل المقال فيما بين الرحلة والاثنوغرافيا من
اتصال، مجلة التغير الاجتماعي، ع4، مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في
الجزائر، جامعة بسكرة، الجزائر.

29. عجنالك يمينة، أدب الرحالة الجزائريين إلى الحجاز خلال القرن 18
"نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أنموذجا"، مجلة بحوث، ع11،
ج3، الجزائر.

30. علوي مصطفى، الرحلة العلمية بين المغرب الأوسط والأندلس بين
القرنين الثالث والسادس الهجريين (رحلة القلصادي القرن التاسع الهجري نموذجا)،
مجلة الساور للدراسات الانسانية والاجتماعية، مج7، ع1، جامعة الأغواط، الجزائر،
2021.

31. سديرة سهام، أدب الرحلة الماهية، البنية والشكل، مجلة دراسات
معاصرة، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، المركز الجامعي تسمسيت،
الجزائر، 2018.

32. بن ناهض عبد الكريم، التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب العربي
من خلال الرحلة العياشية (ماء الموائد)، مجلة الذاكرة، ع10، مخبر التراث اللغوي

والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر،
2018.

33. نميش سميرة، الرحلة العلمية وأثرها في تكوين شخصية العلماء أبو

العباس المقرئ أنموذجا، مجلة البحوث التاريخية، مج5، ع1، الجزائر، 2021.

34. لبصير سعاد، التقاطع بين الأدب والتاريخ ضمن الرحلة الحجازية

الجزائرية خلال العهد العثماني، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية للأبحاث
والدراسات في العلوم الانسانية والاجتماعية، مج13، ع1، جامعة الجلفة، الجزائر،
2021.

35. لبصير سعاد، الرحلة الحجازية في العهد العثماني (1518-1830)

مصدر أساسي للكشف عن الحدث التاريخي الاجتماعي الآفات الاجتماعية نموذجا،
مجلة التراث، مج8، ع1، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، 2018.

36. لبصير سعاد، التفاعل الثقافي والعلمي بين الرحالة الجزائريين ونظرائهم

من بلاد المشرق خلال العهد العثماني، مجلة قضايا تاريخية، ع8، المدرسة العليا
للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 1439هـ/ 2017م.

37. لامعة زكري، الرحلة العلمية بين الأندلس والدولة المرينية ودورها في

تحقيق الصلات الثقافية خلال القرنين 7-9هـ/ 13-15م، رسالة ماجستير، جامعة
أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 1431هـ/ 2010م.

38. لطيفة بشاري: "علاقة بني عبد الواد ببني مرين بين القرنين 7-

10هـ/ 13-16م"، مجلة أفكار وأفاق، ع3، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2012.

39. مداح نورالدين، أبو الفضل محمد بن محمد المشدالي العلامة الموسوعي
الرحالة، مجلة الشهاب، ع7، معهد العلوم الاسلامية، جامعة الوادي، الجزائر،
1437هـ/2018م.

40. مالكي سميرة ولباد سالم، أدب الرحلات الحجازية الجزائرية في القرن
الثامن عشر الميلادي أنموذجا، مجلة لغة-كلام، مج7، ع2، مخبر اللغة والتواصل،
جامعة غليزان، الجزائر، 2019.

41. ميسوم مولود، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر رحلة محمد
بن علي السنوسي إلى فاس أنموذجا، مجلة جسور المعرفة، مج5، ع4، جامعة الشلف،
الجزائر، 2019.

التعدد الاثني وأثره على المجتمع الجزائري في العهد العثماني

Ethnic Pluralism and Its Impact on Algerian Society During the Ottoman Era

ط.د. ثريا بن الزاوي

جامعة آكلي محمد اولحاج البويرة

th.benzaoui@univ-bouira.dz

ملخص:

لم يكن العصر الحديث عصر بناء الدولة الجزائرية ومؤسساتها وقوتها العسكرية فحسب، بل كان أيضا عصر تشكل نسيج اجتماعي قل نظيره في العالم فقد عرفت الجزائر توافد العديد من الأعراق و الأجناس، فجاء الأتراك والأندلسيون واليهود والزنوج وظهر الكراغلة بالإضافة إلى الأمازيغ والعرب ليشكل كل هؤلاء بما يحملونه من ثقافة وعادات وتقاليد ايجابية كانت أم سلبية مجتمعا متلاحما ومتجانسا جمعه الدين والوطن الواحد وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز التنوع الاثني الذي عرفته الجزائر وتأثيره على المجتمع الجزائري في العهد العثماني.

الكلمات المفتاحية: التعدد الإثني، الأتراك، الأندلسيون، الكراغلة، التلاحم،

التنوع الثقافي.

Summary :

The modern era in Algeria was not only a period of building the state of Algeria and its military institutions and power, but it was also a time of forming a unique social fabric unmatched in the world. Algeria witnessed the influx of many races and nationalities. The Turks and Andalusians came, as well as Jews, Blacks, and the emergence of the Kharajites in addition to the Amazigh and Arabs. All of these groups, with the cultures, customs, and positive or negative traditions they brought, formed a cohesive and homogeneous society united by the single religion and homeland. This study aims to highlight the ethnic diversity experienced in Algeria during the Ottoman era and its impact on Algerian society.

key words: Ethnic diversity, Turks, Andalusians, Karaghla, cohesion, cultural diversity

مقدمة

تعتبر التعددية الإثنية من أكثر الظواهر إثارة للجدل لما تشكله من خطر على وحدة الشعوب والدول فلطالما ارتبط مفهومها بالنزاعات والحروب والانقسام وهذا ما جعلها محط دراسة من مختلف العلوم كالعلوم السياسية والاجتماعية والتاريخية، والتاريخ كغيره من العلوم منح هذه الظاهرة حيزا واسعا من الدراسة والبحث وهذا من خلال دراسة التاريخ الاجتماعي للكتل والجماعات الإثنية بما يحتويه من عادات وتقاليد وثقافة ولغة ودين من أجل إيجاد الآليات المناسبة للتعامل مع هذه الظاهرة.

تعد الجزائر نموذجا رائدا في التعددية الإثنية منذ القدم، فالمجتمع الجزائري يتكون من جماعات إثنية متعددة توافدت على الجزائر على فترات تاريخية مختلفة وزاد عددها أكثر مع انضمام الجزائر للدولة العثمانية أين عرف المجتمع تغيرا واضحا ولمعرفة خبايا هذا الموضوع سنحاول الإجابة على الأسئلة التالية: ما المقصود بالتعددية الإثنية؟ ومن هي الجماعات الإثنية التي قدمت إلى الجزائر؟ وما مدى انسجام هذه الجماعات الإثنية مع بعضها البعض؟ وكيف كانت علاقتها مع السلطة الحاكمة؟ وللاجابة على هذه الأسئلة تطرقت للمحاور الآتية: - مفهوم الإثنية والجماعات الإثنية/ الجماعات الإثنية في الجزائر

- العلاقة بين الجماعات الإثنية/ العلاقة بين الجماعات الإثنية والسلطة الحاكمة.

مفهوم الإثنية والجماعات الإثنية:

مفهوم الأثنية ETHNICITY كما يطلق عليها بالإنجليزية جاءت من الكلمة اليونانية ETHNO والتي تعني شعب أو قبيلة وقد تم استخدام هذه الكلمة لأول مرة في اللغة الانجليزية في القرن الرابع عشر وظلت تستخدم للإشارة إلى المهمشين أو المكروهين، وشاع استخدام مفهوم الأثنية بين السياسيين وعلماء الاجتماع والعامّة في

الغرب منذ الخمسينيات من القرن العشرين ومنذ الستينيات أصبح اللفظ يستخدم للدلالة على جماعة بشرية يشترك أفرادها في العادات والتقاليد واللغة والدين وأي سمات أخرى مميزة كالأصل والملامح الفيزيائية الجسدية، وتعيش في إطار مجتمع واحد جماعة أو جماعات⁽¹⁾. وهذا ما ذهب إليه ويل مور will moore حيث عرف الاثنية أنها جماعة تمتاز بلغة وتاريخ ودين مشترك يميزها عن الآخرين، أو تتميز من خلالها 'وهذا ما تبناه قاموس أكسفورد أيضا حيث جعل العرقية تضم القبيلة أو الأمة التي تمتلك ثقافة أو تقاليد ثقافية تميزها'⁽²⁾

ولكي نطلق على جماعة مجتمعاً اثنيا لا بد من توفر المعايير التالية:

1. لا بد للجماعة من اسم وذلك ضروري لأنه الرمز الشخصي للجماعة لأن افتقار الاسم يعكس هوية جماعية غير مكتملة التطور.

2- التاريخ والذي يمثل الذاكرة الجماعية التي ترص الإلهام الفكري للجماعة هذا التاريخ غالباً ما يكون سبباً في الشعور بالماضي والتاريخ المشترك.

3- الاشتراك في ثقافة واحدة تقوم على توليفة من: اللغة والدين والقوانين والعادات والمؤسسات والمأكّل والملبس ولا بد للجماعة أن تشعر بالارتباط لإقليم محدد سواء كانت تعيش فيه أم لا.

4- لا بد للأفراد أن يفكروا في أنفسهم كجماعة تسعى لتأسيس مجتمع اثني بمعنى الإحساس بإثنتيتهم المشتركة، فالجماعة لا بد أن تكون مدركة لذاتها ولا بد أن

(1) ايدابير أحمد: التعددية الأثنية والأمن المجتمعي دراسة حالة مالي، رسالة ماجستير، قسم العلوم

السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر 3، الجزائر، 2011 / 2012، ص 12

(2) سالك نبيلة: الآليات المؤسسية لإدارة التعدد الإثني، أطروحة دكتوراه، كلية الحقوق والعلوم

الإنسانية، جامعة باتنة، الجزائر، 2015 / 2016، ص 17

تكون متضامنة فهذا الأخير يحدد قوة الترابط بين أعضاء الجماعة فهو مقياس تماسك الجماعة⁽¹⁾.

التركيبة الإثنية للمجتمع الجزائري في العصر الحديث:

كان المجتمع الجزائري في العصر الحديث يتكون من عدة جماعات اثنية وهي: الأمازيغ، العرب، العثمانيون، الكراغلة، الأندلسيون، اليهود، الزنوج، ويمثل الأمازيغ والعرب السكان الأصليين للجزائر بينما يعتبر كل من العثمانيين و الكراغلة والأندلسيين واليهود والزنوج جماعات وافدة وفيما يلي تعريف لكل منها:⁽²⁾

الأمازيغ: يطلق على سكان شمال إفريقيا بصفة عامة وسكان المغرب الأوسط على أنفسهم اسم الأمازيغ وهو ما أجاب به وفد قبيلة لواتة الذي أرسله عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة عندما سألهم الفاروق عن نسبهم⁽³⁾ وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون "والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام...و أن اسم أبيهم مزيع.⁽⁴⁾

(1) عاشور محمد: التعددية الإثنية إدارة الصراعات واستراتيجيات التسوية، المركز العلمي للدراسات السياسية، دون طبعة، مصر، 2002، ص 31

(2) شويتم أرزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005/2006، ص 52.

(3) الدراجي بوزياني: القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها، دار الكتاب العربي، الجزء 1، د ط، الجزائر، 2007، ص 19

(4) الميلي مبارك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج 1، دط، لبنان، دون سنة نشر، ص 89

ويقسم علماء الأجناس الأمازيغ إلى طائفتين، الطائفة الأولى تشمل بربر البتر ومن أشهر قبائلها لواتة وزناتة ونفزاوة ورجراجة وأداسة و أنتوسة، وهو قوم رحل يعيشون في السهول غالبا ويعيشون على الرعي والطائفة الثانية تضم بربر البرانس أو الحضر وهم سكان الهضاب والسهول والمدن والقرى الكبيرة ويرتبون معيشتهم على الصناعة في المدن وعلى الزراعة في الهضاب والسهول.

ومن أهم القبائل الأمازيغية في الجزائر صنهاجة وكنامة التي تقيم في بلاد القبائل الصغرى وزواوة التي تسكن في القبائل الكبرى أما زناتة فهي تعيش في بلاد القبائل ووادي الشلف وملوية الآن وتقيم قبائل بني يفرن (زناتة) بالوقت الحاضر بين شلف وملوية ومن قبائل صنهاجة فرع شهير يسمى الطوارق وهم يقطنون الهقار من جنوب القطر الجزائري.⁽¹⁾

العرب: بدأ توافد العرب على المغرب العربي مع بداية الفتوحات الإسلامية، وازداد عدد الوافدين إليه من القبائل العربية في شكل هجرات متتابعة ومن القبائل العربية التي دخلت المغرب بنو هاشم، بنو تميم، جهينة، سليم، بنو عدي، بنو أمية، بنو أسد... الخ، هذا بالإضافة للعناصر الرسمية التي قدمت كوفود ذات مهام رسمية كالولاية والعمال وحاشيتهم والجنود وعائلاتهم.⁽²⁾

عرف الوجود العربي بشمال إفريقيا نقلة نوعية مع بداية توافد قبائل بني هلال وبنو سليم للمنطقة في القرن 11م وفيما يلي لمحة موجزة عن هذه القبائل:

(1) سليمان محمد: موسوعة القبائل العربية بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، الجزء الأول، مصر، 1997، ص 1045

(2) خلفات مفتاح: قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط مابين القرنين (6هـ-9هـ/ 12م-15م) دراسة في دورها السياسي والحضاري، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 95.

قبائل بني هلال: مثلت قبائل بني هلال غالبية العرب المستقرين بالمغرب الأوسط، وكان لهلال نهيك ومناف وتفرع عن نهيك زغبة ورياح والأثيج وعن مناف عمر وقرّة:

1-قبائل الأثيج: ومن أهم بطونهم الضحاك وعياض ومقدم والعاصم ولطيف ودريد وكرفة. وهم من أكثر الهلاليين عددا وأكثرهم بطونا.

2-قبائل رياح: أهم بطونهم عمر بن رياح ومرداس بن رياح وسعيد بن رياح وعامر بن رياح

3-قبائل زغبة: استوطنوا غرب بجاية إلى تلمسان و أهم بطونهم: يزيد وحصين ومالك وعامر وعروة.⁽¹⁾

4-قبائل المعقل: تنتسب قبائل المعقل إلى عرب اليمن حسب ابن خلدون وقد زاد عددهم كثيرا أيام الزيانيين مع أنهم لم يتجاوزا حين دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين المائتين.⁽²⁾

5-قبائل بني سليم: قدمت منهم إلى المغرب الأوسط قبيلة عوف في القرن الثامن عشر واستوطنوا منطقة تبسة ومنطقة جنوب سطيف وولاية ميلة حيث توجد بلدية الرمانّة التي يتفرع منها الكثير من أصول بني سليم وهم من قبيلة الحوامد و يوجد بطن من المحاميد بمنطقة سوف، ويتمركز أيضا أولاد سليم في ولاية سعيدة

(1) ابن خلدون عبد الرحمان: كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر، المجلد 6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983، ص 41-51.

(2) كرزاز فوزية: التوزيع الجغرافي للبربر والعرب بالمغرب الأوسط، عصور الجديدة، العدد 21-22، 2016، ص 117.

ويوجد جزء منهم بولاية النعامة ويتمركزون أيضا بولاية معسكر ومنهم بطن من دباب يسمون النوايل ومنهم القبيلة الشهيرة المستقرة قرب مدينة الجلفة.⁽¹⁾

أدت الهجرات الهلالية إلى تغييرات كبيرة في المنطقة إلى جانب امتزاج الهلاليين مع الزيانيين مكونين بطون رئيسية اسمها عربي وأصلها بربري والتي أصبحت لها سيادة مثل الذواودة الممتين إلى رياح وعلى هذا يمكن تقسيم الأعراش حسب العرق إلى:

القبائل البربرية: قبيلة بني ورصوص أصوله تعود إلى بقايا القبيلة البربرية أولهاسة، وقبيلة العمامرة وقبيلة أولاد رشائش.⁽²⁾

القبائل العربية: كأعراش أولاد نايل وهي أكثر قبائل الصحراء الجزائرية وأكثرها عددا.⁽³⁾

القبائل العربية - البربرية: كما كنا قد ذكرنا من قبل أن هناك قبائل بربرية تعربت فهناك قبائل رفضت هذا التعريب وبقيت محافظة على أصولها الأمازيغية ولجأت إلى أعالي الجبال لحماية نفسها من الوافدين الجدد مثل قبيلة زواوة.⁽⁴⁾

(1) مبروك قارة: تاريخ المدن والقبائل بالجزائر التركيبية الاجتماعية النسب والانتساب، مطابع رويغي، الطبعة 3، الجزائر، 2018، ص 16.

(2) كرزاز فوزية: نفسه، ص 120.

(3) بوحوش شهناز: الدور السياسي والاجتماعي والثقافي للقيادات العربية في الجزائر خلال القرن 19، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2019-2020، ص 44.

(4) معاشي جميلة: الأسر المحلية في بايلك الشرق من القرن 10هـ-13هـ / 16م-19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005، ص 220.

من خلال استعراضنا للقبائل التي كانت موجودة في الجزائر نلاحظ تشابك أصولها واختلاطها في بعضها البعض، كما يمكن ملاحظة التطور الذي حصل داخل تكوين القبيلة نفسها حيث انقسمت هذه الأخيرة إلى عدد من الفروع والتي كونت بدورها فروع مختلفة ضمت عناصر مختلفة الأصول⁽¹⁾، استطاعت أن تفرض بذلك حكمها الوراثي عليها وأمام التفرع الذي عرفته القبيلة أخذ النفوذ الأسري يطغى على نفوذ القبيلة التي أصبحت تختار زعيمها من بين أقوى الأسر والتي عرفت باسم الأجياد، بالإضافة إلى ظهور الأسر المرابطية التي نشأت بفعل استقرار المرابطين بين القبائل للوعظ والإرشاد والتعليم وهذا ما جعل العديد من القبائل تلتف حولهم وأصبحت بذلك العديد من القبائل تحمل اسم المرباط الذي انطوت تحت لوائه.⁽²⁾

الأندلسيون: ويعرفون أيضا في الكثير من الكتابات التاريخية بالمورسكيين ويقصد بهم المسلمون الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال حاليا) بعد فتحها على يد طارق بن زياد، إلى غاية سقوط غرناطة سنة 1492م يقول المؤرخ الإسباني مانويل باريوس أغليرا، "أن الوضع القانوني للموريسكي ظهر رسميا في غرناطة وفي باقي مملكة إسبانيا، عندما أصدرت السلطات يوم 12 فبراير / شباط 1502م مرسوماً يخيّر المسلمين بين اعتناق المسيحية أو النفي ومغادرة إسبانيا، وهكذا فالموريسكي تعني المسلم الذي اعتنق المسيحية في إسبانيا بعد هذا التاريخ.⁽³⁾

(1) لخضر عبدي: القبيلة والطريقة الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، شهادة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، 2014-2015، ص 40.

(2) بوحوش شهنواز، نفسه، ص 48.

(3) نفسه: ص 50

أما في قاموس التاريخ الاسباني فان كلمة مورسكيين تعني "مسيحيو اسبانيا المنصرين بالقوة بداية من القرن السادس عشر. واستعملت اللفظة رسميا في ملفات محاكم التفتيش عام 1520م و أصبحت مصطلحا شاع استعماله في اللغات الأوروبية بصيغ متقاربة، ثم استعمل في اللغة العربية، بعد إخضاعه لتصرفاتها.⁽¹⁾

ارتبط التواجد الأندلسي في المغرب العربي عامة وفي المغرب الأوسط خاصة بالصراع البحري العثماني الاسباني في البحر المتوسط مع بداية القرن السادس عشر إلا أن هذا لا يعني أن التواجد الأندلسي في الجزائر بدأ بانضمام الجزائر للدولة العثمانية لأنه بدأ قبل ذلك بكثير، وقد مر الوجود الأندلسي في الجزائر بثلاث مراحل أساسية حسب الأستاذ نصر الدين سعيدوني: المرحلة الأولى استغرقت الفترة الإسلامية المتقدمة من القرن الثامن ميلادي (2هـ) إلى القرن 11 ميلادي (8هـ) وكانت هجرات اسر وجيهة وأعلام أندلسية بارزة (ص 79 مقارنة للوضع الاقتصادي والاجتماعي لأهل الأندلس بمدينة الجزائر)، أما المرحلة الثانية للوجود الأندلسي بالجزائر فقد بدأت في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) واستغرقت فترة الموحدين والدول الإقليمية التي ورثتهم واستمرت حتى انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس بسقوط غرناطة 1492 بيد الإسبان وقد تزايد عدد الأندلسيين في هذه المرحلة مع سقوط الحواضر الإسلامية الكبرى بالأندلس مثل قرطبة (1236م)، وبلنسية (1238م) وجيان (1248م) واشبيلية (1248م).⁽²⁾

(1) لكحل سمية، كروم بومدين: ظهور المصطلح الموريسكي ومحاوله اجتثاث الهوية الإسلامية في

الأندلس، مجلة أنثروبولوجية الأديان، العدد 21، 2018، ص 122

(2) عنان عبد الله: الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية، مطبعة لجنة

التأليف والترجمة والنشر، ط2، القاهرة، 1961، ص 23

وقد عرفت المرحلة الثالثة نزوحا كبيرا للأندلسيين وتبدأ من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي) إلى غاية بداية القرن السابع عشر ميلادي تزامنا مع قرارات التنصير القصري والطرْد النهائي للمسلمين (1609-1614) والتي أصدرها الملك الأسباني فيليب الثاني بهدف القضاء نهائيا على العنصر الإسلامي في إسبانيا.⁽¹⁾

استقر الأندلسيون في مناطق عدة من أقصى الشمال الغربي إلى أقصى الشمال الشرقي منذ بداية الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط، كانت أهم مراكز الاستقرار بالغرب الجزائري وهران ونواحيها و مستغانم و أرزيو وجهاتها وتلمسان وقلعة بني راشد ومازونة وندرومة وبالشرق الجزائري استقرت الجاليات الأندلسية ببجاية وجيجل والقل وقسنطينة وبونة والقالَة أما في الوسط فقد تركز الأندلسيون في مدن الجزائر والبليدة وشرشال وتادلس والمدينة ومازونة وفي إقليمي متيجة والساحل القريب منها.⁽²⁾

ساهم الأندلسيون مساهمة هامة في تطوير الاقتصاد الجزائري ولاسيما الزراعة وقد ساعدتهم على ذلك معرفتهم بطرق الري المناسبة فقد أقاموا الأحواض والصهاريج واستغلوا مياه الضواحي حيث قاموا بجلبها وتوزيعها على العيون داخل

(1) لكحل سمية: المرجع السابق، ص 124

(2) سعيدوني نصر الدين: الأندلسيون الموريسكيون بمقاطعة دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة حوليات، المجلد السابع، العدد الأول، 1993، ص 108.

المدينة فعلى سبيل المثال نذكر أن عين الحامة جلبت مياهها من طرف مهندس أندلسي وهو أسطى موسى.⁽¹⁾

استصلح الأندلسيون الكثير من الأراضي وادخلوا تقنيات زراعية متطورة من حيث آلات العمل الفلاحي وطرق التشذيب والتلقيح.. الخ مما أدى إلى تطور الإنتاج وتحسن أنواعه، كما أدخلوا أنواع عدة من الفواكه والخضراوات مثل والتوت والليمون ومختلف أنواع الخضضر كالفلفل والبطاطس والطماطم والباذنجان والملفوف.. الخ. بالإضافة إلى العديد من أنواع الزهور التي كانت تزرع بغرض تقطيرها.

أما بالنسبة للصناعة فقد أقام الأندلسيون المشاغل وأنشأوا الورشات لمزاولة مختلف المهن والصناعات كالحداة والنجارة والخياطة ومعالجة الخزف والجلد والحرير، كما برع الأندلسيون في بناء المنازل وصناعة الأسلحة والبارود والأقفال وتربية دودة القز، وقد ظهرت صناعات مستحدثة ارتبطت بالوجود الأندلسي بالجزائر كنسيج القטיפه التي اختص فيها مهاجروا غرناطة الذين استوطنوا شرشال والقلعة حيث كانت تربي دودة القز.⁽²⁾

الأتراك: تشكلت النواة الأولى للعثمانيين في الجزائر من الجند الانكشاري ومن المتطوعين اللذين أرسلهم السلطان العثماني سليم الأول، وقد بلغ عدد الأتراك العثمانيون في مدينة الجزائر حوالي 1000 نسمة في بداية الوجود العثماني في الجزائر

(1) بن يوسف مفيدة: الجالية الأندلسية بالجزائر وتأثيراتها الحضارية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني القرنين السادس عشر والسابع عشر (16-17م)، شهادة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2010-2011، ص 92.

(2) نفسه: ص 119.

ليصل عددهم عند ازدهار المدينة حوالي 22 ألف نسمة ثم 4 آلاف نسمة في فترة التقهقر بالتالي خضع عددهم للظروف التي كانت تعيشها المدينة.⁽¹⁾

كان الأتراك العثمانيون ينقسمون إلى مجموعتين: تتكون الأولى من الأتراك العثمانيين القادمين من الأناضول والرومي وأفراد هذه الفئة لا ينتمون كلهم إلى الانكشارية بل هناك من كان يمارس حرفا صناعية و أعمال أخرى، أما الفئة الثانية فكانت تتشكل من الأوربيين الذين كانوا يلحقون بفئة الأتراك العثمانيين بعد أن يعتنقوا الإسلام وكانوا يسمون بالاعلاج وتعود أصولهم إلى مختلف بلدان أوروبا.⁽²⁾

استقر الأتراك في حصون وثكنات مدينة الجزائر كما توزعوا على حاميات المدن ومن أهم هذه الحصون التي كان يقيم فيها الجنود الأتراك حصن القصبة وبرج النجمة والبرج الجديد وبطارية رمضان ومن أشهر الثكنات، ثكنة الخراطين وأسطى موسى والدروج و أسكي وباب الجزيرة وباب البحر....الخ، أما خارج المدينة فقد توزع أفراد الانكشارية على مختلف النوبات والحاميات في البايلاكات الثلاث قدرها هايديو بـ: 16 نوبة.⁽³⁾

(1) سعيدوني نصر الدين، المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 98-99.

(2) نواصر عبد الرحمان: تأثيرات الوجود العثماني في مدينة الجزائر خلال عهد الدايات (1082 - 1246 هـ/ 1671 - 1830 م) مقارنة من خلال الوثائق الأرشيفية، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة غرداية، الجزائر، 2017-2018، ص 28.

(3) غطاس عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700 - 1830 م مقارنة اجتماعية - اقتصادية، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص ص 7-8.

كان النشاط الاقتصادي للعثمانيين محدودا لأن أغلبهم كانوا يعيشون على راتبهم أما من اختار ممارسة نشاط آخر فقد اختاروا التجارة حيث يملكون الحوانيت وقد ذكر محمد أمين أن الأتراك العثمانيين المتزوجين من جزائريات قد مارسوا أنشطة تجارية وحرفية متعددة قصد تحسين وضعيتهم الاجتماعية التي تراجعت بفعل زواجهم من جزائريات عربيات أو أمازيغيات حيث حرّموا من امتيازاتهم المادية السابقة.⁽¹⁾

الكراغلة: تكونت هذه الفئة نتيجة زواج أفراد الجيش الانكشاري بنساء البلاد⁽²⁾، والكراغلة كمصطلح جمع كرغلي، وهي عبارة تركية تتكون من شقين "قول" بمعنى عبد و "أوغل" بمعنى ابن بالإضافة إلى أداة الجمع "الر" وعلامة الإضافة "ي" حسب قواعد اللغة التركية وبذلك يكون معنى المصطلح لغويا أبناء العبيد، ومعنى العبد هنا لا ترتبط بالوضعية الاجتماعية للأُم وإنما ترتبط بوضع آبائهم الذين يعتبرون في نظر السلطة العثمانية عبيد للسلطان، و العبد هنا هو أحد رعايا الدولة الدافعين للضرائب و أحد خدام السلطان الذين يعملون في الجيش أو الإدارة أو في خدمة البلاط، وقد استعمل المصطلح للإشارة إلى أبناء الزواج المختلط في المناطق التي عرفت الوجود العثماني كالجزائر.⁽³⁾

(1) بن عتو بلبروات: المدينة والريف بالجزائر في العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، 2007-2008، ص 141.

(2) غطاس عائشة: المرجع السابق: ص 41.

(3) مقصودة محمد: الكراغلة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، 2014-2015، ص ص 70-71.

نشأت هذه الفئة في العهود الأولى للوجود العثماني في الجزائر لكن ظهورهم بصفة مستقلة يعود حسب الأستاذة عائشة غطاس إلى سنة 1596، وقد تركز الكراغلة في البداية في المدن التي تركزت فيها الحاميات التركية وهي: مدينة الجزائر، تلمسان ومعسكر و مستغانم و قلعة بني راشد و مازونة و مليانة و المدية و القليعة و بسكرة و قسنطينة و عنابة⁽¹⁾، كما استوطن الكراغلة أيضا الأرياف حيث استقرت مجموعة منهم في وادي الزيتون و أسسوا قبيلة الزواتنة الواقعة بنواحي الاخضرية، كما استقر قسم منهم بضواحي زمورة (تابعة لبابلك الشرق)، ومنهم من اختار المناطق الجبلية ببلاد زواوة.

بلغ عدد الكراغلة خلال القرن السابع عشر حوالي ألفي كرغلي في مدينة الجزائر وحدها، ليتكاثر عددهم على مر السنين بالمدن الكبرى حتى أنهم أصبحوا يشكلون الأغلبية في بعضها ففي تلمسان مثلا ألفوا شبه حكومة خاصة بهم وتقاسموا المدينة مع طبقة الحضر بفضل عددهم الكبير⁽²⁾، وقد قدر عدد الكراغلة حسب فونتير دي برادي بعشرة آلاف كرغلي سنة 1754 وخمسة وعشرون ألف كرغلي في نهاية الحكم العثماني حسب شالر⁽³⁾.

تمتع الكراغلة في السنوات الأولى للوجود العثماني في الجزائر بنفس الامتيازات والحقوق التي تمتع بها الأتراك لكن هذه الامتيازات بدأت تتقلص شيئا فشيئا مقابل زيادة نفوذ الانكشارية الذين رأوا فيهم منافسا يجب التخلص منه فعملوا على الحد من

(1) غطاس عائشة: المرجع السابق، ص 15

(2) سعيدوني نصر الدين، المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 95

(3) حنيفي هلايلي: النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2004، ص 100.

سلطتهم سواء في الجيش أو الإدارة، فقد كانوا يطردون من الجيش ما إن يصلوا إلى رتبة ضابط كما كان توليهم للمناصب الإدارية أو الانضمام للجندية مرهونا بمدى رضا الأتراك عليهم.⁽¹⁾

وعن أوضاع الكراغلة يقول شالر "الكراغلة لا يتمتعون بحقوق أكثر مما يتمتع به الجزائريون، فيما يتعلق بالمناصب في الدولة، لكن يمكنهم الرقي في البحرية كما يمكنهم الوصول إلى مناصب القائد و الباي...كما يتمتعون بامتيازات لا قيمة لها ولكنه لا تربطهم أية علاقة بالأتراك، وقد رفضهم العنصر التركي رفضا قاطعا واعتبرهم من جنس السكان الجزائريين.⁽²⁾

اهتم الكراغلة بمختلف مظاهر النشاط الاقتصادي والتجاري فاشتغلوا بمهن عدة، فمارسوا صناعة الأنسجة الملونة التي انتشرت ورشاتها في تلمسان بصفة خاصة واشتغلوا في مجال الخياطة فكان منهم أمين الخياطين واهتموا خاصة بخياطة القاوqجية أو الشاشية كما برعوا في خياطة و تطريز القفطان وصناعة الأحذية. واهتموا بالأعمال التجارية الكبرى فكان منهم كبار الملاك بقسنطينة و ميله و تبسة...الخ.⁽³⁾

والى جانب الصناعة والتجارة امتهن الكراغلة الفلاحة وقد ساعدهم على ذلك المزارع والأراضي التي ورثوها عن آبائهم فبرز منهم كراغلة دار السلطان اللذين

(1) Shaw: (T) voyage dans la régence d'alger trad de l'anglais par j,mac cartthy,2ed,bous lama,Tunis1980 ,p185.

(2) شويتام أرزقي: دور الكراغلة في الجزائر أثناء الفترة العثمانية 1519-1830، مجلة أفكار وآفاق، المجلد الثالث، العدد 04، 2013، ص 178.

(3) دادة محمد ومقصودة محمد: الأوضاع الاقتصادية لكراغلة إيالات المغرب العثمانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين دراسة مقارنة، مجلة البشائر الاقتصادية، المجلد الخامس، العدد الثاني، الجزائر، 2019، ص 15.

توجهوا للفلاحة بعد ثورة 1633م وكراغلة واد الزيتون، مكنت هذه الأنشطة الكراغلة من جمع ثروات معتبرة كانت المحافظة عليها واستثمارها تقتضي استقرار الأوضاع وهو ما دفع بالكراغلة إلى مهادنة السلطة العثمانية وانتهاج سياسة التقارب معها.⁽¹⁾

تجدر الإشارة إلى أن الكراغلة تولوا على فترات زمنية مختلفة مناصب هامة في الدولة فكان منهم الأغاوات حيث حمل في الفترة من 1643 إلى 1775م أكثر من 20 كراغليا لقب الأغا (لقب الأغا كان يحمله أغا المحلة و أغا الهالين كما كان يحمله المشرفون على بعض المناصب الإدارية)، كما تولى 16 كراغليا في الفترة بين 1628 - 1748م منصب البلوكباشي⁽²⁾ بالإضافة إلى ذلك تولى العديد من الكراغلة منصب الباي منهم: الحاج أحمد باي و الباي مصطفى عمر وعصمان باي ابن محمد باي الكبير.⁽³⁾

الزنج: ترجع أصول الزنج أو الوصفان إلى بلاد السودان وقد تواجد بالجزائر عدد كبير منهم فقد بلغ عددهم مع نهاية القرن الثامن عشر مابين 2000 و3500 زنجي بمدينة الجزائر، وكانوا يشتغلون في أعمال المنازل والمخابز وأعمال البناء والنسيج، هؤلاء كانوا يتمتعون ببعض الحقوق ويعاملون معاملة حسنة

(1) Boyer(P): Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger, in R.O.M.M, n° spéciale(N°8), 1985, p85.

(2) ميلودي محمد: الموظفون في الجزائر خلال العهد العثماني، اطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة 2، الجزائر، 2018 - 2019، ص 188.

(3) Boyer(P): op.cit, p88

من طرف أسيادهم وسرعان ما يحصلون على حريتهم بعد اعتناقهم الإسلام كما كانوا يشاركون في الأعياد والاحتفالات وكانوا يملكون فرقة موسيقية خاصة.⁽¹⁾

وأشار شالر إلى أن فئة الزوج محدودة العدد مقارنة بالفئات الاجتماعية الأخرى المتواجدة بالمدينة وذكرت الباحثة عائشة غطاس انه كان للعبيد الزوج قائد يدعى تارة قائد العبيد وشيخ العبيد أو قائد الوصفان تارة أخرى وقد انضوى تحت سلطته العبيد المعتقين.⁽²⁾

اليهود: عاش اليهود في الجزائر منذ القدم وقد تكونت هذه الطائفة عبر العصور من فئتين رئيسيتين هما اليهود الأهالي (التوشايم) الذين أصبحوا مع مرور الزمن عنصرا منصهرا في المحيط الثقافي والحضاري والاجتماعي الجزائري يصعب تمييزهم عن غيرهم من الجزائريين لولا اختلاف الدين والطقوس الروحية والطبائع النفسية وقد أدى الاندماج الكبير لهذه الفئة بالجزائريين المسلمين إلى تسميتها يهود العرب أو اليهود الأصليين لتمييزها عن اليهود الأوربي الأصل، والطائفة الثانية هي الميغوراشيم أو الأندلسيون وقد لجأ هؤلاء إلى الجزائر عندما بدأت الإمارات والدويلات الإسلامية بالتساقط هناك⁽³⁾ والميغوراشيم لفظة عبرية معناها المطرودون وينقسم هؤلاء إلى: سفارديم وهو اليهود المطرودون من الأندلس والاشكيناز وتطلق على اليهود الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوروبا، بالإضافة إلى القرانا"

(1) نواصر عبد الرحمان: المرجع السابق، ص 72

(2) بلبروات عتو: المرجع السابق، ص 158

(3) سعد الله فوزي: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، دار الأمة، ط 2، الجزائر، 2004، ص 147

اليهود النصارى " وهم اليهود القادمون من توسكانا وخاصة من مدينة ليفورن⁽¹⁾، أقام اليهود في مناطق مختلفة فقد استقر بعضهم في المناطق الساحلية مثل مدينة الجزائر ومدينة وهران و عنابة و بجاية، واختار بعضهم مدنا بالداخل مثل تلمسان و قسنطينة، بينما لجأ آخرون إلى الصحراء أين استقروا في واحات تقرت وتوات ووادي ميزاب.⁽²⁾

كان عدد أفراد الطائفة اليهودية يتراوح في المتوسط ما بين 20000 و30000 نسمة يزيد ويتناقص حسب الظروف والأحداث الاقتصادية والسياسية التي تمر بها البلاد وقد كانت مدينة الجزائر هي نقطة التمرکز الأساسية لليهود حيث كانت تستقطب من 10000 إلى 12000 ألف يهودي مقابل 4000 و7000 يهودي بوهران و قسنطينة، بينما وصل عددهم في نهاية العهد العثماني حسب شالر سنة 1818 إلى 5 آلاف يهودي في الجزائر وقد أدت ثورة الانكشارية سنة 1805 الى هجرة الكثير من العائلات اليهودية وتناقص عددهم بشكل ملحوظ.⁽³⁾

مارس اليهود نوعين من الأنشطة الاقتصادية أولا الصنائع والحرف فاشتغلوا بالصياغة التي تعتبر من أهم الحرف التي مارسها اليهود إذ اشتهروا باشتغالهم بجميع الحرف التي لها علاقة بالمجوهرات وبالمعادن الثمينة كالذهب والفضة وقد احتكروا

(1) بن صحراوي كمال: دور يهود الجزائر الدبلوماسي أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، دار قرطبة، ط2، الجزائر، 2016، صص 27-28

(2) سعد الله فوزي: نفسه، ص 148

(3) نفسه، ص134

هذا المجال احتكارا تاما⁽¹⁾ والعطارة والقزازة والخياطة و الحرارة...الخ⁽²⁾، وثانيا
النشاطات المالية وتعني كل نشاط له علاقة بالأموال والتجارة ومن بين هذه
النشاطات الصيرفة (تبديل العملة)، والسمسرة وفي هذا الصدد يقول شالر "كما هي
عادة اليهود في مختلف البلدان فإنهم يمارسون جميع فروع التجارة وهم يحتكرون في
هذا البلد السمسرة وأعمال المصارف وتبديل العملة.." ⁽³⁾

أما بالنسبة للتجارة فقد مارسها اليهود بنوعها الداخلية والخارجية فمارسوا
تجارة القوافل التي تمتد بين الجزائر وقسنطينة وتجارة الحرير والقماش والمصاييح
والخردوات واعتمد عليهم الأهالي لتزويدهم بكل متطلباتهم من السكر والشاي
والأقمشة وذلك عن طريق الباعة المتجولين⁽⁴⁾ هذا عن التجارة الداخلية أما بالنسبة
للتجارة الخارجية فقط سيطر عليها اليهود سيطرة شبه مطلقة وذلك عن طريق شركة
اليهوديين بكري وبوشناق خاصة فيما يتعلق بتجارة الحبوب القمح والشعير والجلود
والصوف..الخ. ⁽⁵⁾

(1) طوبال نجوى: طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر 1700-1830 من خلال سجلات

المحاكم الشرعية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2004/2005، ص. 160

(2) نفسه، ص 164.

(3) نفسه ص 190.

(4) الزيري محمد العربي: التجارة الخارجية في الشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 و1830،

دار الحكمة، ط 3، الجزائر، 2015، ص 177.

(5) الزيري محمد: المرجع السابق، ص 268-269. معوشي أمال: ملامح من الحياة الاجتماعية

والثقافية ليهود الجزائر خلال العهد العثماني 1516-1830، حوليات جامعة الجزائر، المجلد 34،

العدد 1، الجزائر، 2020.

لم يقتصر نفوذ اليهود وسيطرتهم على الجانب الاقتصادي فحسب بل امتد أيضا للجانب السياسي فقط كان اليهودي بوشناق يلقب بملك الجزائر نظرا لحضوته الكبيرة لدى الداي فقد كان يستقبل القناصل ويوجه السياسة الخارجية للجزائر وفق ما يتلائم مع مصلحته.⁽¹⁾

العلاقة بين الجماعات الإثنية:

يعتبر التعدد الإثني في أي مجتمع من المجتمعات عاملا من عوامل النزاع وعدم الاستقرار وذلك نظرا للاختلاف الكبير بين هذه الجماعات والذي يكون عادة من ناحية اللغة والدين والعادات والتقاليد... الخ، لكن الجزائر في العهد العثماني لم تعرف هذا النوع من الصراع ولعل ذلك يرجع بالدرجة الأولى لاشتراك جميع هذه الجماعات في الدين الواحد ألا وهو الدين الإسلامي، وعن أهمية العامل الديني في تماسك المجتمعات يقول ماكس فيبر إن الدين عامل حاسم في ضم الأفراد وزيادة قوتهم وتماسكهم وتجانسهم⁽²⁾ و ما زاد من فاعلية العامل الديني في ربط مختلف الجماعات الإثنية في الجزائر في العهد العثماني هو عامل الجهاد الديني فالجهاد هو الذي جاء بالعثمانيين للجزائر أو بالأحرى هو الذي دفع بالجزائريين للاستنجاد بالعثمانيين - إخوة الدين - الذين حملوا راية الجهاد الديني ضد الكفار ولا سيما ضد الأسبان، وهو الذي وحد الجزائريين والأندلسيين.

إن العثمانيين وأهل الأندلس و شمال إفريقيا يتشابهون كثيرا في هذه النقطة فجميعهم كانوا جند حدود الدولة الإسلامية الكبرى وجميعهم كانوا أصحاب ميول

(1) بن صحراوي كمال: المرجع السابق، ص 135 .

(2) فلوري لوران: ماكس فيبر، تر: محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، بيروت،

حربية، وجميعهم أيضا آمنوا بالإسلام كعقيدة راسخة واتخذوا من الجهاد طريقا للدفاع عن هذه العقيدة، ويمكننا أن نضيف أن جميعهم كانوا من أهل السنة، ولعل من أسرار التواجد العثماني طيلة قرون في الجزائر أوجه التشابه هذه التي ذكرناها بين الطرفين.⁽¹⁾

رغم أهمية العامل الديني في بناء علاقة قوية بين مختلف السكان إلا أنه لم يكن العامل الوحيد فقد نشأت مع مرور الزمن بين مختلف هذه الفئات علاقة تأثير وتأثر ساهمت شيئا فشيئا ليس فقط في امتزاج هذه الفئات بل وانصهارها في المجتمع الجزائري مكونة ثقافة واحدة وهي الثقافة الجزائرية الخاصة، ولعل أهم تأثير عثماني في الجزائر أنهم كانوا سبب استحداث فئات اجتماعية جديدة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فالمباشرة تزايد عدد العثمانيين من جنود ومرافقيهم من العلماء والقضاة والدرأويش وبعض النساء وان كن قلة، أما غير المباشرة فتتمثل في تلك المهجرات الأندلسية نحو البلدان المغربية عموما والجزائر خاصة، إضافة إلى المصاهرات التي تمت بين العثمانيين والأهالي مما أوجد فئة أخرى وهي الكراغلة.⁽²⁾

كما يبرز لنا التأثير العثماني في المجتمع الجزائري من خلال مساهمة العثمانيين في الأوقاف وتمثلت الأملاك الموقوفة في دكاكين ودور أوكلوا تسييرها إلى مؤسسات الوقف خاصة مؤسسة سبل الخيرات ومؤسسة الحرمين الشريفين وخصصوا البعض منها لصالح المساجد خاصة المسجد الأعظم بمدينة الجزائر والبعض الآخر للمدارس

(1) سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج1، دار الغرب الاسلامي، ط1،

ص 197

(2) غطاس عائشة، المرجع السابق، ص25

والأضرحة والزوايا(لم تكن أوقاف العثمانيين موقوفة على المساجد الحنفية وإنما على المساجد المالكية أيضا ومنه فقد كانت الاستفادة تمس جميع فئات السكان).⁽¹⁾

أما عن التأثير الأندلسي فيذكر أبو القاسم سعد الله "أن للهجرة الأندلسية أثر كبير على المجتمع الجزائري من كل النواحي وذلك لاختلاف الفئات المهاجرة من بينهم أحفاد الملوك، الوجهاء وأبناء الشعب البسطاء وفيهم أصحاب الصنائع وأصحاب القلم فكانت مأساة الأندلس خير وبركة على مجتمع المغرب العربي⁽²⁾، كما كان للأندلسيين دور فعال في المشاركة العسكرية بالجزائر من خلال الدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية والمتمثلة في العدو الإسباني او تدخلات الدول المجاورة كالمغرب الأقصى، أو مواجهة الثورات المحلية جنبا إلى جنب مع الجيش التركي بالبلاد كما كانت مساهمته جد ايجابية في تحصين البلاد.⁽³⁾

رغم تمسك الأندلسيين في البداية بفكرة العودة إلى ديارهم إلا أنهم بمرور السنون بدؤوا يندمجون مع بقية السكان ولم يعد ينتسب منهم إلى الأصول الأندلسية مع نهاية القرن الثامن عشر إلا أشخاص قلائل، حتى أن عدد أفراد الجالية الأندلسية المسجلين رسميا في أوقاف الأندلس عشية الاحتلال الفرنسي لم يكن يتجاوز سبعين رجلا.⁽⁴⁾

(1) درقاوي منصور: الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين 10هـ-13هـ/ 16م-

19 مذكورة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 2014-2015، ص 138.

(2) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ص 35.

(3) بن يوسف مفيدة: المرجع السابق، ص 165.

(4) بن يوسف مفيدة: نفسه، ص 170.

وبالمقابل تأثر المجتمع الجزائري بأهل الأندلس تأثرا ملحوظا من ناحية الملبس والمأكّل وحتى العادات والتقاليد ومن ابرز العادات التي أتى بها الأندلسيون وأخذها عنهم الجزائريون وبقيت إلى غاية اليوم صورة الكف (الخامسة) وهي من بعض المعتقدات المسيحية لأن الكف هي كف السيدة مريم البتول وهي تحمي حسب اعتقادهم من الأرواح الشريرة ومن الشيطان الرجيم وقد تأثر الجزائريون بهذه العادة و أصبحوا يضعونها للمولود الجديد اعتقادا منهم أنها تحميها⁽¹⁾ كما انتشرت بين الجزائريين الملابس الأندلسية ولاسيما القندورة التي أصبحت لها شهرة في جميع أنحاء البلاد كما اشتهرت البدعية الأندلسية في الغرب الجزائري و الشاشية⁽²⁾ (عبارة عن قلنسوة حمراء) التي انتشرت في كل البلدان المغاربية. أما من حيث المأكولات فقد عرف المطبخ الجزائري بفعل التأثير الأندلسي والعثماني تنوعا من حيث نوعية الأكل وطريقة الطهي لا سيما ما يتعلق بالحلويات والأطباق (الطواجين) التي امتزجت فيها التقاليد الأندلسية بالأذواق التركية والعربية التي أتى بها الأتراك وحافظ عليها الحضرة.⁽³⁾

كان للأندلسيين تأثير واضح على لغة الجزائريين فحدوا من تأثير اللهجة البدوية وجعلوا سكان المدن الساحلية وخاصة بجاية و شرشال وتلمسان يتكلمون

(1) رزوق محمد: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17 م، افريقيا الشرق، ط 3، الدار البيضاء، 1998. ص 293.

(2) رزوق محمد: المرجع السابق، ص 296.

(3) بن يوسف مفيدة: المرجع السابق، ص 137.

اللهجة الغرناطية المتميزة برقة مخارج خروفها ولطافة مفرداتها التي قد ينطق القاف فيها ألفا، كما ساهموا في انتشار اللغة العربية في المناطق الأمازيغية الجبلية.⁽¹⁾

لم يكن الأندلسيون وحدهم من أثروا وتأثروا في المجتمع الجزائري فالكراغلة أيضا ربطتهم علاقات متعددة بمختلف فئات المجتمع إلا أنهم تأثروا بدرجة كبيرة بالعثمانيين سواء من ناحية اللغة أو العادات والتقاليد أو اللباس والتجهيز المنزلي، ففي مجال اللغة استعمل الكراغلة اللغة التركية كما تبنوا المذهب الحنفي ساعين بذلك للتقرب من الأتراك وقد كان كراغلة بايلك الشرق وفي مدينة قسنطينة تحديدا أكثر اندماجا في المجتمع الجزائري، حتى أن من الباحثين من يقول أن قسنطينة لم تعرف فئة خاصة بالكراغلة إلا في القرن الثامن عشر ميلادي، وقد تحول الكراغلة تدريجيا إلى وسيط مهم بين العثمانيين والأهالي.⁽²⁾

أما اليهود فقد تأثروا هم أيضا بالمجتمع الجزائري فقد تأثر اليهود بالعادات والثقافة الجزائرية سواء من حيث اللباس أو من ناحية الاحتفالات فالكثير من السلوكيات الثقافية والعادات والتقاليد التي تبنتها الطائفة اليهودية نابعة أصلا من البيئة الثقافية والعادات والتقاليد الجزائرية الإسلامية كتقديس الأولياء الصالحين والتبرك بهم وكذلك نظام الزواج والخطوبة والطلاق و أيضا تعدد الزوجات أخذه اليهود عن المسلمين.⁽³⁾

(1) نصر الدين سعيدوني: سعيدوني الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر-تونس -طرابلس الغرب) من القرن 10هـ-14هـ/ 16م إلى 19م، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 31، الكويت، 2010، ص 58.

(2) دادة محمد ومقصودة محمد: المرجع السابق، ص 16.

(3) سعد الله فوزي: المرجع السابق، ص 169.

كان اليهودي أيضا كالمسلم يستعمل البخور والجاوي والفاسوخ وعلى كتابة الحروز للأطفال الرضع لوقايتهم من العين والحسد ووضعها تحت الوسادة، اليهود وضعوا هم الآخرين السكين تحت الوسادة أو صفيحة الحصان تحت الفراش لطرد الجنون والأرواح الشريرة. وجدت أيضا أعياد مشتركة بين اليهود والمسلمين مثل عيد البوريم الأول والثاني وهو ذكرى هزيمة شارلكان واندحاره عن مدينة الجزائر والبوريم الثاني والذي جاء أيضا تحليدا لذكرى فشل حملة اسبانية مسيحية على مدينة الجزائر حملة اوريلي ويقام في 11 جويلية من كل عام.⁽¹⁾

العلاقة بين السلطة العثمانية والجماعات الإثنية في الجزائر:

لم تتعامل السلطة العثمانية مع الجزائريين على أساس عرقي أو ديني بل كانت تتعامل معهم حسب مبدأ القرب والولاء لها أو البعد والعداء لها ولهذا قسمت سكان الأرياف والذين يمثلون أكثر من 90 بالمئة من الجزائريين إلى:

قبائل مخزنية: وهي قبائل جزائرية متعاونة مع السلطة العثمانية وتعتبر همزة وصل بين السلطة والسكان كما تتحمل مسؤولية الأمن وجمع الضرائب⁽²⁾، يعرفها ناصر الدين سعيدوني بقوله: "يمكن لنا أن نعرف قبائل المخزن من حيث التكوين بأنها عبارة عن تجمعات سكانية اصطناعية متمايزة في أصولها، مختلفة في أعراقها فمنها من أقرها الأتراك على الأراضي التي وجدت عليها لتكون سنداً لهم، ومنها من

(1) نفسه: ص 170-171

(2) صغيري سفيان: العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر 1671-1830،

مذكرة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012، ص 118

أعطيت لها الأرض لتستقر عليها ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة ليؤلفوا جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية.⁽¹⁾

قبائل الرعية: شكلت هذه الأخيرة القبائل المضطهدة والتي تتحمل عبئ الضرائب الثقيلة ولم تكن تحظى بأي امتياز من السلطة الحاكمة، وقد أجبرها موقعها الجغرافي على الخضوع للأتراك فهي تقيم في المناطق التابعة لإدارة قبائل المخزن والحاميات العسكرية الموجودة في الأبراج ومدن البايك.⁽²⁾

القبائل المتحالفة: وهي القبائل التي تتعامل مباشرة مع السلطة الحاكمة وذلك انطلاقاً من بعدها الروحي والديني كقبيلة أولاد سيدي بوعبد الله باعتبارها عائلات مرابطة ولعبت دور الوسيط بين السكان والعثمانيين وحل النزاعات القبلية وتستمد هذه القبائل شرعيتها ونفوذها من نسبها الشريف.⁽³⁾

القبائل المستقلة: وهي القبائل الجبلية والصحراوية عرفها أحمد بن هطال التلمساني بقوله: "هناك أعراب راحلة ومقيمة، إلا أنها لم تنلها أيدي السلطة، ولم يكن

(1) سعيدوني نصر الدين: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر

في العهد العثماني، البشائر للنصر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2012

(2) شويتام أرزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، المرجع السابق،

ص 182-183

(3) دحماني توفيق: النظام الضريبي ببايكت الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، مذكرة

ماجستير، جامعة الجزائر 2003-2004، ص 56

ملك مصلحة ولا منفعة..." امتنعت هذه القبائل عن دفع الضرائب وساعدها في ذلك موقعها الجغرافي وتضاريسها وبعدها عن الإدارة.⁽¹⁾

وبالنسبة لباقي الجماعات الإثنية (الأندلسيين، الكراغلة، الزوج، اليهود) فقد حافظت السلطة العثمانية على نفس المبدأ الذي انتهجته مع سكان الريف فقربت المواليين وعادت وحاربت الطامحين للسلطة والمعارضين لوجودها وكان من أبرز المعارضين للسلطة العثمانية في الجزائر فئة الكراغلة التي قامت بعدة ثورات وتمردات وهذا ما جعل علاقتها بالعثمانيين متوترة في أغلب فترات الحكم العثماني⁽²⁾، أما الأندلسيون فقد تمتعوا بعلاقات طيبة مع العثمانيين خاصة في بداية الوجود العثماني للجزائر فكثيرا ما تحالف الأندلسيون والعثمانيون لصد الخطر الأجنبي عموما والاسباني خصوصا.⁽³⁾

أما اليهود فقد لاقوا كل الترحيب من السلطة الحاكمة، وذلك لاعتبارهم حسب الأتراك أجنب لا يطمعون في السلطة وهذا ما دفع الأتراك خاصة في نهاية العهد العثماني لمنحهم الكثير من الامتيازات على حساب السكان المحليين وهذا ما تسبب في الكثير من الاضطرابات أبرزها ثورة 1805م⁽⁴⁾، تجدر الإشارة إلى أن الجزائر عرف الكثير من الثورات لكنها لم تكن ضد فئة معينة بل كانت ضد السلطة

(1) بن هطال أحمد التلمساني: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي

الجزائري، تح و تق محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، ط 1، القاهرة، 1969، ص 36.

(2) نصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: الجزائر في تاريخ العهد العثماني، ص 95.

(3) بن يوسف مفيدة: المرجع السابق، ص 75.

(4) بن صحراوي كمال: المرجع السابق، ص 162.

العثمانية ماعدا ما حصل من ثورة ضد اليهود في 1805، ليس لكونهم فئة منبوذة بل بسبب ما سببوه من أذى كبير للسكان.

الختاتمة:

من خلال ما تقدم نستنتج ما يلي:

- تكون المجتمع الجزائري في العهد العثماني من عدة أعراق و أجناس.
- كان لانضمام الجزائر للدولة العثمانية دور كبير في زيادة الوافدين عليها بسبب الظروف التي كان يمر بها الحوض الغربي للبحر المتوسط.
- بدأ تواجد العنصر التركي في الجزائر مع انضمام الجزائر للدولة العثمانية ليشكل فيها بعد المصدر الوحيد لحكام الجزائر.
- شكل الأندلسيون نسبة هامة من الوافدين إلى الجزائر وقد تمكنوا من التأثير في المجتمع الجزائري في جميع المجالات (زراعة - صناعة - ثقافة)
- لم تجدد مختلف الفئات الوافدة للجزائر أي عقبات تمنعها من الاندماج في المجتمع الجزائري بل وجدوا كل الترحاب والقبول.
- لم تتعامل السلطة العثمانية مع المجتمع الجزائري من منطلق العرق أو الجنس بل حسب ولائه لها من عدمه.
- شكل المجتمع الجزائري في العصر الحديث فسيفساء إثنية وثقافية قل نظيرها.

رؤية نفسية اجتماعية للهجرة

جدلية الدينامية لهجرة الفرد

Psychosocial Perspective on Migration

The Dialectics of the Individual's Migration Dynamics

د/ ط. موشموش بدر الدين

جامعة الجزائر 2

badrelddine.mouchmouche@univ-alger2.dz

ملخص:

تمثل المهجر هاجس بالنسبة للدول المهاجر منها وبالنسبة للدول المهاجر إليها وبالنسبة لدول العبور، وأقيمت عدت دراسات وملتقيات حول المهجر، رغبة في إيجاد حل لهذا السلوك، وثم التركيز أكثر على الهجرة الغير شرعية مقارنة بباقي أنواع الهجرات، وتم تحديد عوامل للهجرة وأهمل العامل النفسي الاجتماعي، ومنه أهملت دراسة الشخصية المهاجرة، ونحن في مقالنا هذا عرضنا تصور جديد لمفهوم الهجرة، ولي أنماط الشخصية المهاجرة، لنصل إلى جدلية الهجرة والمتمثلة في كلما ازداد عدد أفراد الشخصية المعرفية التي ترغب في البقاء في وطنها ولا تنحو نحو الهجرة خارج الوطن كلما زاد عدد أفراد الشخصية السلوكية الراغبة في الهجرة الداخلية ونقص عدد أفراد الشخصية الوجدانية التي ترغب في الهجرة نحو خارج الوطن وفي أن نفسه تشوق للعيش في المدن.

كلما انخفض عدد أفراد الشخصية المعرفية التي ترغب في العيش في وطنها الأصلي وتنحو نحو الهجرة خارج الوطن، كلما تزايد عدد الشخصية السلوكية التي ترغب في الهجرة خارج الوطن، وازداد معها رغبة الشخصية الوجدانية للهجرة خارج الوطن بأي ثمن، وازدادت بالتالي الهجرة الغير شرعية وتنامت الجرائم المرتبطة بها.

الكلمات المفتاحية: عوامل الهجرة، أنماط الشخصية المهاجرة، جدلية الهجرة.

Abstract

Immigration represents an obsession for the country of immigration, it is for the country where you migrate and for the transit countries, numerous studies and forums have been organized on immigration, the desire to find a solution to this behavior, the emphasis has been placed on illegal immigration more than other types of Immigration, migratory factors have been identified and the psychological and social factor has been neglected, and in this study, I was able to visualize the dialectic of immigration, This is represented by individuals with a more cognitive personality who wish to stay in their country of origin and are not inclined to emigrate outside the homeland, individuals with a more behavioral personality who wish to emigrate internally and fewer individuals with an emotional personality who wish to emigrate abroad and that the desire to live in cities increases.

The fewer members of the cognitive personality who want to live in their country and tend to emigrate outside the countries, the greater the desire of behavioral personalities to emigrate outside the countries, and with it the desire of the emotional personality to emigrate outside the countries at any cost, so that illegal immigration increases and the crimes associated with it increase.

Key words: migration factors, migrant personality types, migrant dialectics

مقدمة

تعد الهجرة من المواضيع التي تسيل حبر ولا تزال وستبقي نضر للتغيرات الاجتماعية التي يعيشها الفرد المعاصر ونضر لكمية المعلومات التي تقصف حياته المعرفية للشخصية المعاصرة إذا أصبحت الحياة الافتراضية جزء من حياته الواقعية وبالتالي دنت المسافة بين المجتمعات وأصبح العالم قرية صغيرة.

بالاطلاع على مختلف أدبيات الهجرة وحت غالبيتها تنحوا نحو العوامل السياسية والاقتصادية في تفسير أسباب الهجرة ولكن في الحقيقة هناك عدة عوامل تستثير هذا السلوك والذي يندرج ضمن السلوك الاجتماعي.

في هذا المقال أشرت ووضعت الهجرة في قلبها الأصلي ومنه شرحت العوامل المؤدية لهذا السلوك ومن ثم استنتجت أنماط الشخصية المهاجر وعليه حددت دينامية الهجرة. والتي أرى أنها العמוד الأساسي لفهم والتعاطي بإيجابية نحو هذا السلوك. وفي الأخير وضعنا خلاصة لبحث وهي تتضمن مختلف التصورات التي من الممكن معالجة هذه الظاهرة السلوكية في بلدنا.

الإشكالية:

يشهده العالم حالة من الحركة والاستقرار، ومن بين الظواهر السلوكية التي أصبحت جد واضحة هي الهجرة وبالأخص الهجرة الغير الشرعية.

بالنسبة لي الهجرة هي سلوك اجتماعي مهما كان نوعها (هجرة شرعية أو هجرة غير شرعية) وفي الغالب هو رغبة الفرد في تحقيق بعض حاجاته ورغباته.

سواء كانت نفسية أو نفسية اجتماعية أو مادية أو كلها معا، فالفرد هنا يتنقل من موطنه إلى مكان آخر بغية الإقامة فيه بعد أن كون تصورا تاما، بأن هذا المكان الذي اختاره ويهم للاستيطان فيه يحقق له كل ما كان ناقص أو عاجز عن تحقيقه.

مما لا شك فيه أن الدولة الجزائرية مثلها مثل باقي الدول سعت ولا تزال تسعى لأجل القضاء على هذا السلوك وبالأخص الهجرة الغير الشرعية، ولكن لم تستطع القضاء عليه ولن تستطيع القضاء عليه، فهو متأصل في سلوك الفرد والتاريخ مليء بالهجرات كالهجرات الكبرى في بلاد المغرب وهجرة الأوربيين إلى العالم الجديد (القارة الأمريكية)... إلخ، وبالتالي الأصل في هذا السلوك هو أن نخفض من تكرار حدوثه لما له أثر سلبي على البلد الأصلي (المهاجر منه) الإيجابي للبلد المستضيف (المهاجر إليه).

تشير إحصائيات المنظمة العالمية للهجرة أنه هناك 281 مليون خلال سنة 2020م⁽¹⁾ وهذا السلوك في منحى تصاعدي اللهم فقط الفترة التي كانت البشرية في حالة وباء بفيروس "كورونا" حيث أغلقت كل الدول الحدود، فهل تغلق البلدان (بلدان المنبع والمستضيفة) الحدود، لا ولا أضن ذلك وبالتالي لا يمكن كبح تماما هذا السلوك.

رغم الهالة التي تقام حول هذا السلوك فإنه هناك منفعة لاقتصاديات البلدان المستضيفة خاصة ونحن نتكلم عن الهجرة الانتقائية للمهاجرين الغير الشرعيين، وهذا أيضا يشكل خطر على استقرار المجتمعات المهاجر منها.

عند تطلعنا لأدبيات الهجرة توصلنا إلى صياغة تساؤلين نرى أنها جوهرية وهما:

1. بما أن الهجرة سلوك اجتماعي فما هي العوامل التي تتحكم في هذا السلوك؟

(1) من الموقع:

2. في ظل الفروقات العمرية والعلمية والمهنية والمادية للمهاجرين توصلنا إلى تمييز أنماط شخصية لذوي هذا السلوك ومنه توصلنا إلى طرح جدليتنا الدينامية التي تتحكم فيه وعلى إثره نصل إلى لب المشكل وهو هل يمكن التحكم في هذا السلوك في مجتمعنا؟

تعريف السلوك الاجتماعي:

يقصد بالسلوك الاجتماعي هو كل ما يتصل بالفرد من مواقف وذكريات وانفعالات ومشاعر تحيط به وتؤثر في سلوكه⁽¹⁾ والهجرة بوصفها سلوك اجتماعي ينطبق عليها هذا التعريف لما يتميز به هذا الفرد الذي يقوم بهذا السلوك من حيث الموقف وكمية الانفعالات والمشاعر التي تحيط بهذا الأخير تدفعه لكي ينحوا نحو هذا السلوك، وبالتالي العوامل التي تتحكم في السلوك الاجتماعي هي نفسها التي تتحكم في الهجرة وهي:

عوامل اجتماعية:

هو من أهم العوامل المشكلة لهذا السلوك فالفرد يتشرب القيم والمعتقدات الاجتماعية المرتبطة بالهجرة كما قد يتعرض لخبرات سارة ومواقف سعيدة لا شك أنها ستؤثر في سلوكه العام وتنشئته الاجتماعية، فالشخص الذي له أحد أفراد أسرته في المهجر أو من محيط معاشه هناك هو يتتبع تطوراتهم وممكن نجاحاتهم، فإنه من الممكن أن يجذوا حذوهم ما إن تسمح الفرصة لذلك. أيضا يستحضر في ذهني حادثة وقعت في 2019م في مؤسسة تعليمية حيث كانت تشكو أستاذة اللغة الفرنسية من التشويش في الفصل والذي منعها من مواصلة الدرس، وكنت أنا معين في المؤسسة

(1) - الأزرق، مصطفى صالح. (2013). علم النفس الاجتماعي اتجاهاته النظرية ومجالات تطبيقه، دار الفكر العربي. ص 40

كمستشار التوجيه حيث تدخلت لأجل القيام بحصة إرشادية لتلاميذ، وبينما أنا مع التلاميذ نقوم بتشريح المشكل لرفع من مستوى إدراكهم تجاه المادة، وإذا بمستشار التربية المعين بالتكليف مدير للمؤسسة يدخل إلى القسم ويقول للتلاميذ: أقروا يا لولاد أقروا القرابة مليحة، أقروا أو هاجروا من لبلاد لأن لقرابة ما توكلش الخبز هنا. إن ما تلفظ به مستشار التربية هو ما يتلفظ به المجتمع حيال المتعلم (الشخصية المعرفية). والتي ستكون العمود الأساسي في جدليتنا.

في الأخير نقول أن العوامل الاجتماعية هي العوامل التي تساهم في تحديد دور ومكانة كل فرد في المجتمع. فالضغوطات الاجتماعية التي يعاني منها الفرد والتعزيز الذي يلقاه من المحيط الاجتماعي سواء الأسري أو جماعة الرفاق كلها مؤشرات دافعة للقيام بهذا السلوك.

2-عوامل اقتصادية:

الفرد هنا بصفته عضو في مجتمعه الأصلي فإن وظيفته الاقتصادية التي يؤديها (إن كانت له وظيفة) هي التي تحدد مركزه في المجتمع، ومن ثم يتأثر سلوك الاجتماعي (كالهجرة) بنوعية الوظيفة الاقتصادية ومدى مطابقة هذه الأخير بتموحيه ومستواه التعليمي فهو في ظل العولمة وما يترتب عنها، أين أصبح العالم قرية صغيرة. مع انتشار وسائط التواصل الاجتماعي سهل علي الفرد المقارنة بين مميزات المكانة الاجتماعية التي يحتلها والدور الاقتصادي الذي يقوم به في (بلده الأصلي)، وبين نفس المكانة والدور الذي سيحتله في المجتمع الآخر (المجتمع المحتمل الهجرة إليه)، وبالتالي من إمكانية استشارة هذا السلوك واردة في ظل الضغوط التي يعيشها كمورد اقتصادي فردي أو مورد اقتصادي إضافي للأسرة، تلك الأسرة التي مكانتها

الاقتصادية هشة أو تعيش حالة عدم اليقين الاقتصادي. والمثال الذي سقته حول مستشار التربية (لقراءة ما توكلش الخبز هنا) يقرب المعنى لنوعية وتأثير هذا العامل.

3-عوامل ثقافية:

أشرنا في العوامل الاقتصادية إلى العولمة باقتضاب وهنا سنشير إلى الهوة الثقافية التي بيننا كعالم ثالث وبينهم (العالم الرأسمالي)، تلك الفجوة التي تعزز بوسائل التواصل الاجتماعي إضافة إلى الأحداث الرياضية والأحداث التي تتعلق بالموضة فتوظفها تلك الوسائط والقنوات الفضائية بالتالي توصلنا إلى ما تحدث به العلامة ابن خلدون في مقدمته (تأثر المغلوب بالغالب).

يعني أن الفرد يشعر أن الثقافة التي يعيشها عاجزة ولا تحقق له الحد الأدنى من إشباع حاجاته ورغباته، مما يجعله يفكر في تغييرها أو الهجرة منها إلى ثقافة أخرى توفر له ما عجزت الأولى عن توفيرها.

4-عوامل القانونية:

نعلم أن الدولة الجزائية قد أعدت قوانين صارمة لتجريم هذا السلوك ولكن هل نجحت هذه القوانين في لجمه؟

من بين الصفات التي يتمتع بها الفرد البشري هو الفضول وهذا الدافع يكون قوى لما تكون المغريات قوية، مما يجعل الفرد لا يحسب درجة المخاطرة وبالتالي يضعف دور القانون (الردع) وهنا يستحضرني ما يتداول في فترات استعمار هذا السلوك بين الشباب (يكلني الحوت ولا هنا نموت... الخ من الشعارات)، فالفرد هنا يتمرد على القانون.

أصل في القانون، هو تنظيم كيفية تلبية حاجات ورغبات الفرد وإرساء العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، فوجود اختلال بين الواقع والتشريع القانوني، يعد من

مسببات استشارة هذا السلوك بالإضافة إلى سلوكيات أخرى ذات صلة كالجريمة المنظمة والمتاجرة بالبشر وتهريب الأموال...الخ

إن هذا العامل جد حساس وخطير جدا لدرجة سيادة الأنوميا (ألا معيارية)، وبالتالي قد يؤدي إلى تفكك الدولة إذا ما أهملت العوامل الأخرى و عولج هذا السلوك معالجة خاطئة فالهجرة الغير شرعية يعاقب عليها القانون أما الهجرة الشرعية فلا عقاب لها. وكلا المهجرتين تشكل خطر على كينونة المجتمع.

5-العوامل سياسية:

ترتبط هذه العوامل بصراعات السياسية ونزول هذه الصراعات إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، وبالتالي شعور الفرد بلا أمن وانعدام الرؤية تجاه المستقبل في مجتمعه الأصلي. فالاتجاه السياسي الذي يسوده الضبابية يزيد من احتمالية بروز هذا السلوك في ظل تأثر العوامل السالفة الذكر ولكن لماذا لم نشهد هذا الكم من الهجرة إلى الخارج لما كانت البلاد تترنح (العشرية السوداء) كما نشهده من حين إلى آخر؟

6-العوامل الدينية:

تتجسد هذه العوامل في القيم والمعتقدات الدينية التي تضغط باتجاه نمذجة السلوك الاجتماعي (الايجابي) وتدعمه وتجعله أكثر تأثير في حياة الأفراد والمجتمعات. الدولة الجزائرية لم تبخل في حث الأئمة والشخصيات الدينية (المؤثرة) في عملية التصدي لهذا السلوك (الهجرة الغير شرعية أو الهجرة -المقننة-الشرعية). ولكن السياق الاجتماعي الحالي لم يعد لرجال الدين تأثير كبير رغم ما أطلق من حملات ذهبت إلى حدود تحريم هذا السلوك (ولها دلائلها الفقهية عن ذلك)، ولكن هل وجدت هذه الفتاوي الصدى المنتظر منها؟ لا نحن لا يمكن أن نتغاضى عن التغيرات الاجتماعية التي مست المجتمع الجزائري ونظرة الشباب تجاه المسائل الدينية خاصة لما

ترتبط بتوجيه النظام السياسي، لا يمكن التغافل عن العنصرية السوداء وأسبابها، وتغير
الفكري الطارئ، وتأثيراته على التنشئة الاجتماعية

فالشباب الآن هو محصلة هذا التغير، وبالتالي قياسه للأمر التي تخص حاجاته
ورغباته لما ترتبط بالسياسة تجده في الغالب يتمرد، فما أدراك بالدين المقرن بالتوصيات
السياسية، فالعامل الديني يفقد مكانته في ظل وجود عامل سياسي قوى محفز لسلوك
الهجرة كما أسلفنا الذكر عند ذكرنا العوامل السياسية⁽¹⁾.

7-العوامل نفسية اجتماعية:

أي سلوك يصدره الفرد يمكن أن يزداد بقوة ويصبح أكثر ميلا للتكرار إذا كان
مرتبط بالحصول على مكافأة أو إذا كان يحقق للفرد حالة من حالات الارتياح أو
إشباع الرغبة أو يساعده على تجنب الألم أو التخلص من موقف محرج⁽²⁾، هنا
يستحضرني سماع الأم التي اشترت لابنها التأشير لكي يهاجر ابنها حفاظ عليه من أن
لا يقع في المخدرات في ظل حي يعج بالجريمة، وتقوم بالدعاية لسلوكها وتمنحه
تبريرات، وفي نفس الوقت تقوم بالدعاية لسلوك ابنها وتبرزه بأنه على عين الصواب.
هذا العامل مهم جدا لدرجة طرح السؤال التالي: لماذا يهاجر هذا الفرد ولا
يهاجر ذلك الفرد رغم مرورهم بنفس التجارب ورغم تأثير نفس العوامل وبنفس
الحدة؟

(1) - (الأزرق، مصطفى صالح.(2013). علم النفس الاجتماعي اتجاهاته النظرية ومجالات

تطبيقه، دار الفكر العربي، من ص 43 إلى ص 47)

(2) - عسكر، علي، الانصاري، محمد.(2009). علم النفس البيئي البعد الخفي للعلاقة بين البيئة

والسلوك، دار الحديث، ص 192

هنا نحن بصدد التحدث عن قدرة الفرد على تحمل الضغوطات والمغريات ورؤية الفرد للمستقبل ومعنى الحياة...الخ. فالفرد بقدر ما هو حريص على فرديته فإنه اجتماعي بطبعه.

نحن هنا نبعت برسالة إلى التنشئة الاجتماعية كوسيلة لمعالجة هذا السلوك من منظور المتوسط والبعيد لأفراد المجتمع.

بعد سرد مختلف العوامل التي نرى أن لها دور في بروز هذا السلوك وتفشيهِ بين مختلف شرائح المجتمع وبالأخص الشباب الذي نعتبره محرك لكل التغيرات الاجتماعية بغض النظر لنوعها وآثارها زمنيا ومكانيا.

تعتبر الدراسات حول الهجرة كلها لها هدف تصبوا إليه ونحن لنا نظرة مغايرة سنبرزها إنطاقا من جدليتنا التي سنعرضها الآن، والتي نظمناها مخالفة للدراسات الإحصائية والتصنيفات العمرية للأسباب الظاهرية. حيث توصلنا إلى تنميط شخصية الأفراد ذوي هذا السلوك. وبهذا نكون قد وضعنا تصور جديد لظاهرة ولقراءتها.

بادئ ذي بدء علينا معرفة معنى أنماط الشخصية ونقصد هنا تصنيف الأفراد وفقا لسمات بارزة أو سمات متماثلة وهذا وفق اهتمامهم أو وفق نظرة الناس إليهم⁽¹⁾. ومن خلال هذا التعريف وبعد تشريح الشخصيات التي قامت بهذا السلوك توصلنا إلى ثلاثة أنماط من الشخصية.

(1) الجباري، جنار عبد القادر أحمد. (2015). أنماط الشخصية وفق نظرية الإنيكرام وعلاقتها بالعبء المعرفي وتمايز الذات. المكتب الجامع الحديث. ص 30

أنماط الشخصية المهاجرة

الشخصية المعرفية:

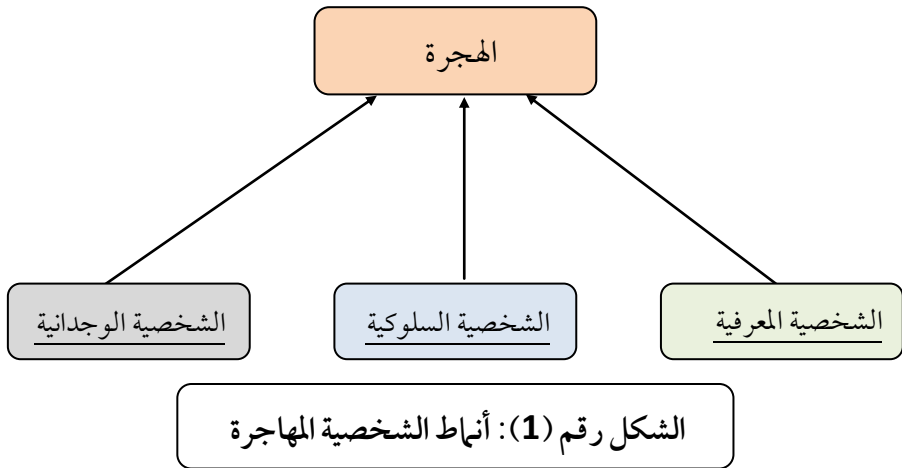
وهي الشخصية ذات المستوى الجامعي ونقصد الطلبة والباحثين والأساتذة والمفكرين الأكاديميين، تطغي على حاجاتهم ورغباتهم الطابع المعرفي ودافع الاكتشاف المعرفي وتأتي الحاجات المادية في المرتبة الثانية من اهتماماتهم ويطغي عليهم دافع التميز المعرفي والتفوق. في الغالب تكون هجرتها شرعية نظرا للمحفزات التي تعرضها البلدان المستضيفة لمثل هذه الشخصية. بل في بعض الأحيان تنشر البلدان المستضيفة قائمة لمختلف التخصصات والمهن التي تعاني العجز منها. وهذا أخطر نزيف للمجتمعات المهاجر منها وسوف نفصل هذا في جدليتنا للهجرة.

الشخصية السلوكية:

وهي كل الأفراد الذين يخوضون غمار المقاولاتية والتجارة والحرفيين الفنيين والمهنيين المحترفين والمنتجين وأرباب المصانع، يطغي عليهم دافع جني المال ألا محدود ودافع التملك ألا محدود ومن النادر أن يصلوا إلى درجة تحقيق الذات والاكتفاء بالمستوى المادي الذي وصلوا إليه، وفي الغالب تكون هجرتها شرعية.

الشخصية الوجدانية:

هو كل فرد يدفعه الفضول أو مشكل أو المشاكل الاجتماعية التي عجز عن حلها، أو لم يحاول حلها بالطريقة التي تحقق له إشباع، ويرى أن الوقت يمضي ولا حل لهذه المشاكل إلا الهجرة، وهي شخصية حاملة وحلمها في الغالب أكبر من إمكانياتها وفي الغالب ليس لها مؤهل علمي ولا مؤهل مهني ولا تقييم حجم المخاطر لسلوكها وخاصة الهجرة وهي الفئة الطاغية في الهجرة الغير الشرعية.



الحالة الأولى للهجرة:

يوضح الشكل رقم (2) أنه هناك نوعان رئيسيان للهجرة وهذا مهما كانت صفت المجتمع سواء ينتمي للعالم الأول أو العالم الثاني أو العالم الثالث أو كما يصطلح عليه بالدول النامية. هذه المهاجرتان هن الهجرة داخل الوطن أو ما يعرف في بعض الكتب بالنزوح الريفي. وهناك هجرة إلى خارج الوطن.

في الحالة الأولى يؤشر مؤشر الهجرة باتجاه الهجرة نحو داخل (النزوح الريفي) وفيها ازدياد عدد الشخصية المعرفية وهجرة هذا النمط من الريف إلى المدينة حيث يوجد التعليم العالي والمناصب العليا التي تتطلب يد عاملة مؤهلة أكاديمي بإضافة إلى وجود حالة من الرفاه الاقتصادي ومناخ اجتماعي يلبي الحاجات النفس اجتماعية لهذا النوع من الشخصية بل يستثيرها للمزيد من النشاط وبذل الجهد مادام هناك مبدأ تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية. وترتفع روح المسؤولية الاجتماعية وبالتالي احتمالية الهجرة نحو خارج الوطن ضعيفة مادام كل ما تريه هذه الشخصية وتود الوصول إليه متاح ولا قيود لي نشاطها.

وهناك نماذج عديدة وفرت الشروط لمثل هذه الشخصية وقد أدى ذلك إلى استقطاب الشخصيات المعرفية لأجل العودة إلى وطنهم الأصلي وتحقيق مشاريعهم الذاتية دون قيد أو شر ما دام يخدم مصلحة الدولة والمجتمع والأفراد كالنموذج التايواني في مطلع السبعينيات من القرن الماضي. نلاحظ أيضا تزايد هجرة الشخصية السلوكية من الريف إلى المدينة، وهذا بحث عن فرص مضاعفة ثروتها، وبالتالي المساهمة في خلق مناصب شغل للشخصية الوجدانية، ومن وراءها إمكانية تحقيق الرفاهية لهذه الأخيرة، وبالتالي إمكانية هجرتها تكون ضعيفة جدا، بل الهجرة الغير شرعية تجاه البلدان الأخرى تكون شبه معدومة، حيث كل العوامل التي تثير هذا السلوك هي غير موجودة وسفر الأفراد تجاه البلدان الأخرى هو لغرض الترفيه عن النفس والفضول وليس نية الإقامة فيها.

الحالة الثانية للهجرة:

يوضح الشكل رقم (3) أن مؤشر الهجرة هو باتجاه الهجرة نحو خارج الوطن وفيها ازدياد عدد الشخصيات المعرفية المهاجرة باتجاه خارج الوطن نوع وكما ، مما



الشكل رقم (2) الحالة الأولى للهجرة

يؤدي إلى نزيف في الرمادية وبالتالي يكون هناك عجز في التأطير الأفراد ذوي المستوى التعليم العالي وعجز في الأفراد المحتمل شغلهم مناصب عليا والتي تتطلب يد عاملة مؤهلة أكاديميا، وهذا سيؤثر على المسار المدرسي والاقتصادي والاجتماعي بل حتى النفسي حيث يصبح البلد الأصلي لا يلبي حاجات بقية الشخصيات وهما السلوكية والوجدانية ومن جهة أخرى تبرز الدعايات والإعلانات المحفزة لهجرة الشخصية المعرفية فتزيد من إثارة هذا السلوك من باب صائب قوم عند قوم فوائد وعلى إثر هذا تزداد السلوكيات السلبية للهجرة كهجرة الغير شرعية وهجرة وفي الغالب تكون من نمط الشخصية الوجدانية، وهجرة رؤوس الأموال كخطوة أولية لهجرة الشخصية السلوكية. إن هذه الوضعية هي التي توقد العوامل الأخرى المسببة في الهجرة تجاه خارج الوطن. فالفرد في الحالة الأولى للهجرة هو الرغبة في العيش في المدينة أما في الحالة الثانية فالرغبة للهجرة خارج البلد فالمدينة والريف وجهان لوضعية واحدة لا تلبى الحد الأدنى من حاجاته النفس اجتماعي والاقتصادية والاجتماعية... إلخ.



الشكل رقم (3) الحالة الثانية من الهجرة

خاتمة

يتضح لنا من خلال دراستنا هذه أن أساس الهجرة هو الشخصية المعرفية وهذا ينطبق أيضا في مجتمعنا، بحيث ما لبثت تفقد هذه الشخصية قيمتها رغم المكانة الاجتماعية التي يكفلها المجتمع وفي نفس الوقت يدفعها للهجرة، لأنه يرى فاعليتها هناك حيث تقاس الفاعلية بالقيمة المادية التي يتحصل عليها لقاء مستواه ونشاطه العلمي وهذه القيمة هي جد مهمة مقارنة ببلده الأصلي (الجزائر).

لا شك أن الدولة الجزائرية تعمل على كسب هذه الفئة من الأنماط الشخصية، وهذا بتقديم التسهيلات لإنجاز مؤسسات مصغرة وغير ذلك من التحفيزات، ولكن رؤية المجتمع غير ذلك، فالمغريات التي تقدم للشخصية المعرفية في البلدان المستضيفة أقوى بكثير.

لا شك أن الشخصية المعرفية هي تمثل نموذج مثالي لباقي أفراد المجتمع بمختلف شرائحه.

ولكن النماذج الناجحة في المجتمع والتي تمثل نموذج لأفراد المجتمع لا تتضمن هذا النموذج، لأن في تصوراتهم هناك مخرجين لنجاح الشخصية المعرفية (الشخصية المثالية) هو إما الهجرة أو إعطائها فرص أكثر للبروز والتأثير. تلك الفرص التي حتما ستغير من حركة الهجرة لكلا النمطين المتبقين.

نرى أنه من الممكن استرجاع مكانة وقيمة الشخصية المعرفية وهذا بربط الاقتصاد وتوسعه بالقيمة المادية للشخصية المعرفية، وبالتالي كلما زاد النمو الاقتصادي وتوسع نسيجه كلما زادت قيمة الشخصية المعرفية وارتفعت مكانتها وقل بالتالي رغبتها للهجرة.

قائمة المراجع:

1. الأزرق، مصطفى صالح.(2013). علم النفس الاجتماعي اتجاهاته النظرية ومجالات تطبيقه، دار الفكر العربي، القاهرة.
2. الجباري، جنار عبد القادر أحمد. (2015). أنماط الشخصية وفق نظرية الإنيكرام وعلاقتها بالعبء المعرفي وتمايز الذات.المكتب الجامع الحديث، الإسكندرية.
3. عسكر، علي، الأنصاري، محمد.(2009). علم النفس البيئي البعد الخفي للعلاقة بين البيئة والسلوك، دار الحديث، القاهرة.

المواقع الالكترونية:

- <https://www.un.org/fr/fight-racism/vulnerable-groups/migrants>

النشاط السياسي والعسكري للجبهة الجنوبية وأبعاده الاستراتيجية

The Political and Military Activity of the Southern Front and Its Strategic Dimensions

أ.د. عبد الله مقلاتي

جامعة محمد بوضياف المسيلة

ملخص:

نعالج في هذه المقالة موضوعا مهما عن النشاط السياسي والعسكري للجبهة الجنوبية وأبعاده الاستراتيجية، من خلال دراسة مختلف الأجناسات التي سطرت من طرف قيادات الثورة في الجنوب، ورد المستعمر عليها، والنتائج التي أفضت عنها هذه القواعد التي عملت كوادرات الثورة على تحقيقها من أجل إثبات أن الوطن كله رقعة جغرافية واحدة.

الكلمات المفتاحية: السياسة، المقاومة، الجنوب الجزائري، قيادات الثورة، المستعمر الفرنسي.

Abstract

In this article, we address an important topic concerning the political and military activity of the Southern Front and its strategic dimensions. This is done through the study of the various agendas set forth by the leaders of the revolution in the south, the colonial response to these agendas, and the outcomes that resulted from these strategies that the revolution's cadres worked to achieve in order to demonstrate that the entire homeland is one geographical area.

Keywords: politics, resistance, southern Algeria, revolutionary leaders, French colonizer

مقدمة:

أفضت التحضيرات والخطوات المهمة التي بادرت بها الثورة الجزائرية إلى إرساء قواعد جبهة عسكرية جديدة، وهكذا أصبحت الجبهة الجنوبية بعد عام 1961م على أتم الاستعداد لمباشرة نشاطها العسكري، ولكنها لم تقدم على ذلك لأهداف استراتيجية، إذ جاءت الأوامر من قيادة هيئة الأركان العامة تؤكد على ضرورة أخذ الاحتياطات اللازمة والتركيز على دعم النشاط السياسي لمواجهة سياسة فصل الصحراء، ولا شك أن الاطلاع على انجازات الجبهة في هذه المرحلة يؤكد على أن هذه الجبهة أصبحت تفرض نفوذها سياسيا قويا على مساحة واسعة من الصحراء تمتد من شمال مالي إلى توات وتامراست إلى بشار وتندوف، وأنها جندت العديد من الفصائل والكتائب العسكرية التي كانت منذ نهاية 1961 بانتظار أوامر الشروع في العمل المسلح.

1- النشاط السياسي للجبهة الجنوبية في الداخل:

ارتكز النشاط السياسي للجبهة الجنوبية في التوعية السياسية وتجنيد السكان لمواجهات مخططات الإدارة الفرنسية الرامية إلى فصل الصحراء، وكذا التعريف بالثورة الجزائرية وتثبيت خلايا جبهة التحرير الوطني في كل مكان، وقد أوكلت هذه المهمة إلى أعيان القبائل والمثقفين وبعض المجندين، وقد تم استقطاب القياد والعاملين مع الإدارة الفرنسية للتجنيد في صفوف جبهة التحرير الوطني ومحاربة سياسة فصل الصحراء⁽¹⁾، وقد قام هؤلاء بتشكيل لجان ومراكز مدنية مهمتها التعريف بمبادئ الثورة التحريرية وجمع الاشتراكات، وكانت هذه اللجان مهيكلة في هيئات سياسية

(1) انظر شهادة بوسعيد بوجمعة، ادرار، يوم 6 فيفري 2006.

(قسمات)، ومرتبطة بالقيادة العامة في قاو، حيث تأتيتها الأوامر والبيانات بشكل دوري، ويلاحظ على هذه التوجيهات أنها كانت تهدف إلى توحيد كلمة السكان وتجنيدهم وراء الثورة والحث على الجهاد⁽¹⁾، وكذا مواجهة السياسة الفرنسية والتبليغ عن تحركات العدو وأعدائه⁽²⁾، ويذكر محمد الشريف مساعدية أن نظام الثورة تطور بشكل سريع وأصبح يراقب كامل منطقة الجنوب الغربي، وأن خلايا جبهة التحرير الوطني كانت تنهض بمهام عدة منها التوعية السياسية وجمع أخبار العدو، وتجنيد الشباب للتجنيد، وقد تم التعويل على بعض المجندين في النشاط السياسي داخل الوطن فكانوا يقومون بتتبع تحركات العدو وشرح القضية لأهالي المنطقة⁽³⁾.

ومن أجل تسهيل مهمة عمل الخلايا السياسية وتمركز وحدات الجيش في الداخل تم إنشاء عدة مراكز سرية تابعة للثورة، وقد كلف السيد ديدي مولاي عبد الكريم بتحضير هذه المراكز والإشراف عليها بالتنسيق مع أعيان مناطق توات على طول خط الطريق الذي يربط رقان بأدرار وتيميمون⁽⁴⁾، وهكذا تم تجهيز عدة مراكز للتموين والاستراحة والتخفي، ومن هذه المراكز نذكر:

(1) يورد سالم بن ابراهيم أن الشيخ محمد بلخير كانت تصله رسائل الثورة ويقوم بخدمة اهدافها والدعوة للجهاد، سالم بن ابراهيم: نبذة عن نشأة وحياة شيخنا سيدي الحاج محمد بن الكبير رحمه الله، مخطوط خزانة كوسام، ادرار، ص 8.

(2) انظر شهادة مساعدية، بوشارب عبد السلام: الهقار أمجاد وأنجاد، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995، ص 137.

(3) انظر شهادة مساعدية، المرجع نفسه، ص 135

(4) انظر شهادة دحاج عبد القادر، مقابلة مع الباحث، ادرار 26 أفريل 2008م، ووثائق شخصية، منها وثيقة تعيينه مراقبا على مناطق توات بالملاحق

- - مركز رقان: تكفل بالإشراف عليه الحاج الصالح قدور لقصاصي.
- - مركز تيلولين: أشرف عليه الحاج عبد السلام خليلي.
- - مركز سالي: أنشأ فيه مركزين، واحد بقصر مولاي العربي خاص بالقيادة والثاني بقصر العلوشية خاص بالجنود، ويشرف على المركزين مولاي المهدي السبحمو.
- - مركز فنوغيل: يشرف عليه متوكل محمد.
- - مركز تمنطيط: ويشرف عليه عبد القادر بن سيدي أحمد ديدي.
- - مركز أدرار: يشرف عليه عبد الرحمان كابويا ويقع بمنزله داخل مدينة أدرار. وأنشأت مراكز أخرى بتيميمون وعين صالح⁽¹⁾، وكل هذه المراكز سوف تكون في خدمة جيش التحرير الوطني الذي سيدخل إلى الوطن بعد وقف إطلاق النار.

2- النشاط العسكري للجبهة الجنوبية:

كانت الجبهة الجنوبية تهدف إلى إنشاء مراكز عسكرية على طول الحدود الجنوبية الجزائرية، فبعد تحضير كامل الشروط الضرورية من تجنيد وتدريب وإحضار للأسلحة تم تكليف بعض المجموعات بالتقدم شمالا والتموقع، ووقع الاختيار على مواقع حدودية استراتيجية لمراقبة جيش التحرير الوطني بها، تكون في الغالب بمقابل المراكز الفرنسية داخل الوطن وفي موقع طبيعي حصين وبالقرب من المراكز المدنية، وهكذا وانطلاقا من مركز القيادة في قاو تم فتح ثلاث مراكز عسكرية في شمال مالي

(1) اعتمدنا مجموعة من الشهادات في إيراد هذه المراكز، ومنها شهادة كابويا عبدالرحمان. مقابلة مع الباحث، أدرار، 27 أفريل 2008.

والنيجر وبالقرب من الحدود الجزائرية، وذلك بالاتفاق مع سلطات البلدين الشقيقين، وهي مراكز كيدال وتيساليت وتينزرواتين⁽¹⁾.

- مركز كيدال⁽²⁾، أول مركز تم فتحه بمساعدة الماليين، يقع على بعد 15 كلم عن المدينة ووسط تجمع للسكان السود يدعى مرقد، أحيط المركز بسور حتى لا يلفت الانتباه، تدربت فيه المجموعات الأولى، وكان مزودا بمصالح الاتصالات والنقل والتسليح.

➤ - مركز انتدني: يتولى الإشراف على المهام العسكرية والمدنية، يقوده حميها مولود وبعده بلحاج، وبه الكتيبة الأولى.

➤ - مركز أنتكو: يشرف على التدريب والنقل، استقرت به الكتيبة الثانية ويقودها بوجمعة بوسعيد.

➤ - مركز تيساليت: يقع على الحدود المالية الجزائرية على بعد 35 كم من برج باجي مختار، وهو موقع متقدم للتموين والاتصالات، استقرت به الكتيبة الثالثة التي يشرف عليها بن سبقاق.

ويحتوي مركز القيادة في قاو على مبنى وضعته السلطات المالية تحت تصرف جيش التحرير الوطني ويتألف من جناح إدارة وسجن ومخزن⁽³⁾.

(1) انظر شهادة بن سبقاق احمد، مسجلة عام 2002 ومحفوفة بمتحف المجاهد، ادرار، وشهادة بوسعيد بوجمعة، سبق ذكرها. وشهادة مساعدة: المرجع السابق، ص 134

(2) يقع على بعد 480 كم عن قاو، و1200 كم عن باماكو

(3) ينظر شهادات مجموعة من مجاهدي الجبهة الجنوبية، مسجلة يوم 25/08/2003، ومحفوفة بمتحف المجاهد بأدرار. وشهادة مرموري محمد، مقابلة مع الباحث، نوفمبر 2003، وكذا شهادة مرابطي محمد، مقابلة مع الباحث، ادرار 26 افريل 2008.

وأنشأت بالقرب من هذه المراكز مراكز للاتصالات والتموين تعد بمثابة قواعد خلفية تزودها بالتموين والأخبار، ويشرف عليها لجان جبهة التحرير الوطني ومن هذه المراكز نذكر:

➤ - مركز أنافيف: يقع في وسط الطريق بين قاو وكيدال على بعد 250 عن كل منهما، مخصص للتخزين والتموين والاستراحة.

➤ - مركز أقمهور: يقع بالقرب من أنافيف على بعد 30 كلم، وخاص بتوقف الشاحنات والتخزين.

➤ - أقلهوك: مركز لتخزين البنزين والمواد الغذائية والأسلحة.

➤ - تيساليت: أكبر مركز للتجنيد يستغل في التخزين والتوين، ويشرف عليه بن سقاق⁽¹⁾.

وقد أنشأت بعض المراكز المدنية والعسكرية على الحدود النيجيرية، ومنها مركز أيرو، ومركز طاوا، حيث كان يشرف عليهما الحاج بدة بن قرينة وحيتو قويدر وقمامة سلكة. ويلاحظ أن النشاط داخل الأراضي النيجيرية كان محدودا ومقتصر على بضع مراكز، ويرجع ذلك إلى قلة عداد الجالية الجزائرية بهذا البلد، والحضور الفرنسي القوي به والذي لم يسمح بتوطد العلاقات مع هذا البلد كما هو الحال بالنسبة لمالي⁽²⁾. إن الوحدات العسكرية التي تم تدريبها وتجنيدتها للعمل العسكري أخذت مواقعها على طول الحدود الجزائرية الجنوبية، من النيجر إلى موريطانيا مرورا بمراكز مالي الرئيسية، وأصبحت بذلك قوة عسكرية يحسب لها حسابها، خاصة مع مضاعفة

(1) انظر شهادة بوسعيد بوجعة، سبق ذكرها.

(2) Guentari Mohamed. **Organisation Politico –Administrative et Militaire de la révolution Algérienne de 1954 –1962** ; OPU. Alger. 1994.T2. p 687. et AN A.GPRA. B 122 DOS D1- 4

التجديد وتحسين التدريبات، وفي هذا الإطار يؤكد مساعدة أن قوات الجبهة الجنوبية بسطت نفوذها على الحدود، وجندت أعدادا كبيرة من شبان توات، وخططت للقيام بعدة عمليات عسكرية، ومن هذه العمليات نذكر الهجوم على المركز الحدودي الفرنسي برج لوبريور الذي سيمى باسم الشهيد باجي مختار، والهجوم على مركز تنزرواتين جنوب تامنراست، وكذا على القاعدة العسكرية رقان، حيث تدل بعض الوثائق التي بحوزتنا أن قيادة الجبهة جمعت عنها بواسطة خلاياها كل المعلومات الضرورية والدقيقة⁽¹⁾، وهذا ما تؤكد كذا شهادة مساعدة: "وللإشارة فقد كنا أمام قاعدة عسكرية ذرية كبرى هي قاعدة رقان وكان في إمكاننا ضرب هذه القاعدة وهدمها لأننا كانت لدينا جميع المعلومات والمخططات الخاصة بها، إلا أن القيادة لم توافق على العملية وكان لنا هدف معين لا بد من إنجازه بأي شكل من الأشكال"⁽²⁾.

وقد كانت كتائب هذه المراكز العسكرية تقوم بعدة مهام منها ربط الاتصال بالجزائريين العاملين في الجيش الفرنسي لضمهم إلى صفوف الثورة، وتهريب السلاح، وتجنيب قبائل التوارق في صفوف الثورة، إذ يذكر بوسعيد بوجمعة أنه ربط اتصالا مع قائد مهاري التوارق العاملين في مركز تيمياوين، واتفق معه على القيام بانتفاضة والتخلص من الضباط الفرنسيين الثلاثة، ولكن أمره اكتشف ولولا مبادرة بن يونس بإعلامه لوقع في الأسر⁽³⁾، وقطعت مهمة تهريب الأسلحة أشواطاً مهمة، بحيث

(1) مراسلة من قيادة الجبهة الجنوبية، بعنوان "قاعدة رقان" مؤرخة في مارس 1961م، ووثائق شخصية.

(2) انظر شهادة مساعدة، المرجع السابق، ص 136

(3) انظر شهادة بوسعيد بوجمعة، سبق ذكرها.

كانت تنقل على ظهر الجمال وبواسطة شاحنات نقل البضائع⁽¹⁾، وأما بخصوص تجنيد قبائل التوارق فهي مسألة ذات أهمية قصوى شغلت بال المسؤولين، خاصة في ظل طرح فرنسا لمشروع جمهورية التوارق الصحراوية، كان المناضلون يجوبون الصحراء لجمع الشبان التوارق من أصول جزائرية أو أباءهم جزائريين وأمهاتهم ماليات⁽²⁾.

لقد علمت قيادة القوات الفرنسية بعد فوات الأوان بتركز قوات جيش التحرير الوطني في هذه المناطق، فعملت على تحسين قدراتها الدفاعية واعتماد الطيران للتصدي لأي هجوم محتمل، وهذه المعلومات بالإضافة إلى التركيز على إنجاح المهمة السياسية للجهة دعت هيئة الأركان العامة إلى طلب تأجيل العمليات العسكرية المخططة⁽³⁾، كما أن الظروف الطبيعية القاسية للصحراء والخشية من افتضاح نشاط الجبهة وقف أمام تأجيل مبادرات أخرى خطط لها دراية ومساعدة انطلاقاً من قاو، تمثلت في القيام بعمليات فدائية تستهدف الفرنسيين وأعوانهم، فقد استمعا إلى نصائح لحبيب رحماني ودحاج بخصوص الانعكاسات السلبية لمثل هذه العمليات، وقد سجل لنا بن عيشاوي محمد في شهادته أن دراية درس معه خطة عملية فدائية لكنه تراجع عنها في الغد وكلفه بالاستمرار في مهمته السياسية الأكثر جدوى⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من مختلف المبادرات العسكرية التي قامت بها الجبهة الجنوبية، والتي كانت في أغلبها دفاعية فرضها ميدان النشاط لم يتم الشروع في المبادرات

(1) انظر شهادة مساعدي، المرجع السابق، ص 136

(2) انظر دحاج عبد القادر، سبق ذكرها.

(3) انظر شهادة مساعدي، المرجع نفسه، ص 136.

(4) يتحدث بن عيشاوي في شهادته ان دراية كلفه بتنفيذ حكم الإعدام في مستوطنين فرنسيين وشخص ثالث لم يفصح عن اسمه، انظر شهادة بن عيشاوي محمد، سبق ذكرها.

الهجومية التي كانت مرسومة، ولعل هذا أدخل بعض التذمر لدى المسؤولين والمثلل لدى الجنود، مما دفع القيادة السياسية للتأكيد على ان الهدف الأساسي من إنشاء هذه الجبهة هو تثبيت النظام السياسي وتوعية سكان الصحراء لمواجهة سياسة فصل الصحراء، وكذا إثبات تواجد الثورة في أقصى الحدود الجنوبية بالشكل الذي يؤثر معنويا على الفرنسيين⁽¹⁾، وقد فرضت معركة المفاوضات إملاء هذه السياسة، وهكذا حل موعد وقف إطلاق النار فأنيطت بقيادة الجبهة الجنوبية مهام أخرى تتمثل في حماية الحدود والدخول إلى الوطن للإشراف على إنجاح المرحلة الانتقالية وتسلم السلطة من الفرنسيين

وبعد وقف إطلاق النار بادر قادة الجبهة الجنوبية بنقل وحداتهم العسكرية إلى داخل الوطن، وذلك قصد الإشراف على المرحلة الانتقالية وإدارة هذه المنطقة الصحراوية الحساسة، وساهمت الخلايا المدنية والمراكز التي أنشأت خصيصا في احتضان جيش التحرير الوطني وإخفائه، حيث وضعت وسائل الثقل ومراكز العبور تحت تصرف القيادة على طول خط المرور من برج باجي مختار إلى أدرار، ومنها إلى عين صالح وتامنراست، وتؤكد الشهادات أن مرور الوحدات العسكرية تم بشكل سري وبسرعة تطلبتها تطورات الأحداث، وقد دخل الرائد دراية احمد على رأس فرقة عسكرية وأجرى اتصالات مع قيادة الولاية السادسة، وقرر الانتقال إلى تامنراست لإنشاء مراكز نفوذ للجبهة الجنوبية وتجنيد السكان للمرحلة الانتقالية⁽²⁾، وفعلا أنشأت عدة مراكز للجيش بالقرب من تامنراست وفي منطقة تاهرت بالتعاون مع المناضلين التوارق، ومن هناك خطط لإدخال الوحدات المربطة في الحدود، وكان في

(1) ANA.GPRA. B 122. DOS. D1- 3

(2) انظر شهادة كابويا عبد الرحمان، سبق ذكرها، وشهادة بن عيشاوي محمد، سبق ذكرها.

الموعد المحدد حيث اشرف على إجراء الاستفتاء في ظروف عادية، وتسلم بنفسه السلطة يوم الخامس جويلية 1962، فكان ذلك حدثا تاريخيا في تامنراست التي دخلتها قوات جيش الجبهة الجنوبية في استعراضات عسكرية وترحيب واستقبال حار من قبل السكان⁽¹⁾، وأشرفت قيادة الجبهة الجنوبية على توجيه المناضلين والسكان للتصويت لصالح الاستقلال وتسلم السلطة بمدينة أدرار وتيميمون، وفي الثلاثين من جويلية 1962 أقيم احتفال عام لاستقبال قيادة الجبهة الجنوبية التي نقلت جنودها وعتادها إلى أدرار، فاشرف دراية ومساعدة على احتفاء مدينة أدرار، وكلف مساعدة بحضور الاحتفالات في مدينة تيميمون، وهكذا عاش سكان توات وقورارة احتفالات النصر الباهر، وقد كتب التاريخ لهذه المنطقة ان تشارك في ملحمة التحرير الوطنية وان يجند أبنائها في صفوف جيش التحرير الوطني.

3- الأدوار الإستراتيجية للجبهة الجنوبية:

على الرغم من بعد المسافة والظروف الطبيعية الصعبة وسياسة التسلط الفرنسية تمكنت الثورة الجزائرية من خوض تجربة مهمة تمثلت في إنشاء الجبهة الجنوبية، وطوال سنتين من العمل والنشاط حققت هذه الجبهة إنجازات باهرة في ميادين مختلفة لا يمكن إدراك قيمتها وأبعادها إلا بوضعها في إطار الإستراتيجية العامة التي خططت لها الثورة التحريرية، ونحاول في هذا الفصل استعراض الأدوار التي قامت بها الجبهة الجنوبية في النقاط الآتية:

1 - تأكيد البعد الإفريقي للثورة ميدانيا:

(1) انظر شهادة المجاهد زناني بكاي: مرقونة وبعنوان "دور قاعدة الجنوب في الثورة التحريرية"،

وكذا شهادة بن عيشاوي محمد القروط، مقابلة مع الباحث، أدرار، يوم 6 فيفري 2006.

لقد هدفت الثورة الجزائرية من خلال إرساء هذه الجبهة المفتوحة على البلدان الإفريقية، وخاصة دولتي مالي والنيجر المستقلتين حديثا تأكيد بعدها الإفريقي، وتجسيد مبادئ التضامن الإفريقية ميدانيا، وقد وطدت الثورة الجزائرية علاقات الصداقة والتعاون مع المناضلين الأفارقة ودعت إلى التحرر الشامل والتعاون بين الإفريقيين، وكان لها الفضل الأكبر في استقلال العديد من دول غرب إفريقيا الخاضعة للاحتلال الفرنسي عام 1960، كما سعت إلى تصدير مشروعها الثوري ودعم وتأطير مناضلي حركات التحرر الإفريقية⁽¹⁾، وهذا كله بهدف نشدان التحرر الحقيقي لإفريقيا وتعاونها ووحدتها في مواجهة الاستعمار وجميع أشكال لإمبريالية، وكان إنشاء الجبهة الجنوبية دليل قاطع على حقيقة التضامن الإفريقي وإمكانية تجسيد الوحدة الإفريقية، وقد نظر ودعا المفكر فرانس فانون لهذا المشروع، واعتبر أن الثورة الجزائرية بتجسيدها لهذا المشروع تبوّأت مكانة ريادية في تحرير وتوحيد القارة السمراء⁽²⁾، وقد حققت الجبهة الجنوبية بنجاحاتها عدة أهداف استراتيجية على الساحة الإفريقية منها:

- تعزيز تحالفاتها الاستراتيجية مع المعسكر الثوري في إفريقيا والذي كان من أقطابه سيكوتوري الذي قدم خدماته لإنجاح هذه الجبهة، ومودي بوكايتا الذي تجاوب مع المشروع وقدم له مساعدات ثمينة، وبعض قادة حركات التحرر الذين ارتبطوا بثورة الجزائر أكثر من خلال التحاقهم بمعسكراتها، ومنهم نلسن منديلا الذي تدرب بمعسكرات الجبهة الجنوبية على الحدود النيجيرية - الجزائرية.

- توطيد علاقات الصداقة والأخوة مع بلدان الجوار الصحراوي التي تربطنا بها علاقات قديمة ومتأصلة، حيث كان لتعاون الحكومتين والشعبين الشقيقين المالي

(1) GUENTARL MOHAMMED. OP CIT ;T2; P. 685=

(2) Farantz fanon: **Pour la révolution africaine**, ed francois maspero , paris , 1979 ,P185 - 186

والنيجري فضل كبير في إنجاح المشروع، وأسهم ذلك في جعل الجزائر المستقلة تبني علاقات وطيدة مع هذين البلدين الشقيقين.

- كسب تضامن الأفارقة مع دعم القضية الجزائرية، حيث كان لتواجد جيش التحرير بهذه المناطق الجنوبية بمثابة ترسيم للحدود مع مالي والنيجر وتأكيد صارم على تبعية الصحراء للجزائر ودحض للطروحات الفرنسية، وقد أسهم تنظيم جبهة التحرير الوطني والجلالية الجزائرية بهالي في تعزيز هذا التضامن بإحيائه لمهرجانات التضامن والمناصرة⁽¹⁾.

2 - مواجهة المخططات الفرنسية الرامية إلى فصل الصحراء:

اندرج إنشاء الجبهة الجنوبية في إطار استراتيجية مدروسة هدفت للرد على السياسة الفرنسية الرامية إلى فصل الصحراء، وقد ارتكزت أساسا على مد نظام الثورة إلى أقاصي الصحراء، وإدخال الأسلحة وتدريب الشبان، وفسح المجال أمام سكانها للمشاركة الفعلية في تحرير بلادهم، وفي هذا تأكيد على قوة ونفوذ جبهة التحرير الوطني، وعلى مناصرة هؤلاء السكان لأهداف ثورتهم، وتأكيد السيادة والوحدة

(1) نشير أساسا إلى موقف رئيس مالي مودي بوكايتا المؤيد للثورة الجزائرية ديبلوماسيا وعسكريا. وكذا إلى تضامن السكان المسلمين بهالي والنيجر وتقديمهم ضروبا مختلفة من الدعم للجبهة الجنوبية، ولكن ذلك لم يمنع من حدوث بعض الخلافات والصعاب الناتجة عن الاحتكاك، إذ تشير شهادات المجاهدين أن بعض المسؤولين الماليين بغاوا اهتماموا جزائريين بتجنيد الماليين، وأن هذه المشكلة حلت بإرسال لجنة تحقيق تأكدت من عدم وجود ماليين في صفوف الثورة، كما كانت القوات الفرنسية بهالي تترصد وحدات الجبهة الجنوبية إلى أن اضطر الرئيس المالي إلى طلب جلائها عن بلاده. أما السلطات النيجيرية فلم تتمكن من اتخاذ مثل هذه الإجراءات. أنظر: شهادة المجاهد دحاج عبد القادر، سبق

الترابية، وقد كسبت جبهة التحرير الوطني بفضل إرساء الجبهة الجنوبية تعاون جميع قبائل الصحراء وتجندهم لمواجهة سياسة فصل الصحراء، التوارق في تامنراست ومنهم الحاج اخاموخ الذي وقف في وجه المخططات الاستعمارية ورفض مغريات ديغول بتتويجه زعيما لجمهورية صحراوية مستقلة⁽¹⁾، ومختلف قبائل سكان توات الذين تجندوا في صفوف النظام، وفي هذا الشأن يؤكد محمد الشريف مساعدية أن جهود الجبهة الجنوبية في التعبئة والتجنيد هي التي حققت تلك النتائج الباهرة: "بهذه الجهود استطعنا أن نثبت وجودنا، ونخيب آمال فرنسا في سعيها لفصل منطقة الجنوب وجعلها (جمهورية إسلامية) على غرار جمهورية موريطانيا الإسلامية ومن ذلك أنها كلفت عقيدا يسمى (كلوزيل) وهو الذي عاش في الجنوب عند التوارق حوالي 22 سنة، وهذا العقيد تزوج من تارقية، وكان يستطيع أن يتحدث اللغة العربية واللهجة التارقية، وكان ضابط مخبرات وقد اتخذت منه فرنسا داعية لإنشاء جمهورية إسلامية لكي تصل إلى فصل الجنوب عن الشمال، وكانوا يأخذون توارق ليبيا وتوارق مالي، وتوارق النيجر والجزائر ويحاولون إقناعهم بهذه الفكرة وذلك كي يتمكنوا من السيطرة على سائر المنطقة. وكان علينا أن نحطم هذه الفكرة المغرضة وذلك بأن الجزائر جزء لا يتجزأ، وكان العمل متواصلا مع الأعيان وكبار الشخصيات الموجودة في المنطقة وعلى رأسهم الباي أخموك ولكي نقوم بهدم هذه الفكرة كان لا بد من تفهيم المواطنين بأن هذا العدو لا يريد جمهورية إسلامية وإنما يريد بث التفرقة بيننا لكي يتسنى له الوصول إلى تحقيق ما ضاع منه في الشمال، وكنا نقرع الحجة بالحجة ونفضح موقف المستعمر الغاصب ونواياه الخبيثة، التي كان يتفنن في نسجها"⁽²⁾.

(1) PATRICK (C R) , OP CIT ; P: 249=

(2) انظر شهادة مساعدية: المرجع السابق، ص 137-138

وبفضل جهود مناضلي الجبهة الجنوبية أجهضت الثورة التحريرية محاولات المستعمر الرامية لفصل الصحراء الجزائرية، وتم التأكيد بوضوح أن سكان الجنوب الصحراوي ليسوا متعاطفين مع جبهة التحرير فحسب بل منخرطين فيها ومشاركين في تحرير وطنهم.

4- إحياء النظام بمناطق أقصى الجنوب

عانت مناطق الصحراء النائية من مشكلة اكتشاف التنظيم وصعوبة إعادة إحيائه من جديد، وذلك لما تتميز به مناطق الصحراء من خصوصيات طبيعية لا تسمح بالنشاط العسكري والسياسي، ونظرا لأهمية هذه المناطق في ظل التخطيط لمشروع فصل الصحراء كان لا بد من إعادة النظام وبشكل مدروس، فكان إنشاء الجبهة الجنوبية في في عمق الصحراء الإفريقية وإعادة ربط الاتصال بمناضلي أدرار وتيميمون انجازا مهما لم تلفت إليه أنظار الإدارة الفرنسية إلا بعد فوات الأوان، وخطوة رائدة مضت قيادة الثورة في تجسيدها رغم المشاق والصعاب، وهكذا فتحت الجبهة الجنوبية مراكزها للتجنيد والتدريب وجلبت الأسلحة وشكلت الكتائب والفرق العسكرية وبثت النظام على نطاق واسع، وتشير الشهادات والوثائق أن نضام جبهة التحرير الوطني أعيد إحياءه بأدرار منذ عام 1960، وذلك بفضل جهود مبعوثي قادة الجبهة الجنوبية، وقد لعب التجار المتنقلون بين أدرار ومالي دورا أساسيا في تعميم النظام وتشكيل الخلايا والتنسيق وإيصال المؤونة كما نهضوا بمهمة إدخال السلاح.

وهكذا أنشئت الخلايا واللجان السياسية في مدينة أدرار وقصور توات، وكانت تتشكل غالبا من أعيان القصور وعلمائها وتنهض بمهام الدعاية ونشر الوعي الثوري بين السكان وتحذيرهم من دسائس السياسة الفرنسية، كما تقوم بجمع

الاشتراكات والتبرعات وإرسالها إلى القيادة بقاء، وتتكفل بالتجنيد والاستعلام⁽¹⁾، وبذلك تمكنت الثورة الجزائرية من إرساء دعائمها في توات وتوحيد السكان وتجنيدهم وراء أهدافها التحررية وقد كانت تحث في تعليماتها وبياناتها على كلمة الشعب ونبذ التفرقة ونصرة المجاهدين والتصدي لدسائس العدو، واعتمدت في ذلك على العلماء والوجهاء الذين نهضوا بمهمة المحافظ السياسي وحثوا على الجهاد في سبيل الله وقد كانت لدعوة الشيخ محمد ابن الكبير بنصرة الثورة أثرها على سكان توات، وأنشئت في المناطق التواتية العديد من المراكز والخلايا المدنية، وقد أحصت الشهادات والوثائق شبكة المراكز الموزعة وفق الشكل الآتي⁽²⁾:

➤ - مركز زاوية كتته: الحاج صديق عبد القادر.

➤ - مركز سالي: مولاي عبد الله السي حمو.

➤ - مركز تيطاوين: العزاوي

➤ - مركز انزجير: الحاج عبد الرحمن.

➤ - مركز تسابيت: عائلة خيضاوي.

➤ - مركز أولاد أنقال: الحاج محجوب.

➤ - مركز أدغا: حمادي البركة.

➤ - مركز بودا المنصور: الحاج سالم.

(1) انظر شهادة اقوجيل عبد القادر، مقابلة مع الباحث، ادرار، 20 جانفي 2003.

، وشهادة محمد الشريف مساعدي: المرجع السابق، ص 136،

(2) نعتد أساسا شهادات كل من: كابويا عبد الرحمان، سبق ذكرها. واقوجيل عبد القادر، سبق ذكرها. ولقصاصي الحاج عبد السلام، رقان 13 فيفري 2006، ووثائق عائلتي السي حمو وديدي محمد، محفوظات شخصية.

- - مركز بني لو: الحاج عبد الله.
- - مركز تمنطيط: عبد القادر بن سيدي أحمد ديدي.
- - مركز فنوغيل: متوكل محمد
- - مركز رقان: الحاج الصالح، قدور القصاصي، مولاي احمد الرقاني، مولاي الناجم...إلخ.
- - مركز اولف: مولاي عبد الرحمن، سيدي الوافي، محمد القايد، أولاد مولاي سعيد.

وهكذا أعدت منطقة توات لتحتضن الثورة وتساهم في دعم ومؤازرة الجبهة الجنوبية، كما وصل تنظيم الجبهة الجنوبية الى عين صالح وتامنراست، وبذلك خضعت مناطق توات وتامنراست إلى تنظيم سياسي وعسكري محكم نقل الثورة إلى أعماق الصحراء، واثبت وجود في أبعد نقطة من الصحراء، وتبين أن طريق مالي والنيجر هو أنجع طريق لإعادة إحياء نظام الثورة كونه الأقرب إلى توات وتامنراست من منافذ الشمال وبعيد عن المراقبة الفرنسية التي لا يمكنها أن تحرس حدود الصحراء الواسعة، وقد خدم تواجد هذا النظام ووحدات الجبهة الجنوبية إستراتيجية الثورة التحريرية في مراقبة المرحلة الانتقالية، والإشراف على مراسيم تسلم السلطات في الموعد المحدد، وإدارة شؤون المنطقة في ظل الاستقلال والحرية، وقد أشرفت قيادة الجبهة الجنوبية على تشكل النظام السياسي والإداري الجديد، فعينت مكتبا إداريا لإقليم أدرار وتيميمون يتكون من السادة:حمو نيكلو، مولاي الطيب، حمو كابوية، مولاي المهدي سيحمو، قلوب الشيخ، وولد الطالب بحوص، وعين الشيخ محمد بن

لكبير مسؤولاً عن خلية المجلس الشعبي⁽¹⁾، ودخلت منطقة توات في مرحلة جديدة من تاريخها وهي تنعم بالسيادة الوطنية.

5- إيجاد منافذ جديدة للاتصال بالداخل

لقد أناطت قيادة الثورة للجبهة الجنوبية مهمة ربط أقاليم الجنوب بشمال الوطن وإيجاد منافذ جديدة للتموين والاتصال⁽²⁾، خاصة وأن منافذ المناطق الشمالية قد سدت من جهة الشرق والغرب بخطي شال وموريس المحكمين، وأن قيادة الثورة مصممة على نقل وحدات الحدود إلى الداخل، وعليه كان السعي حثيثاً لإيجاد منافذ ولو كانت في أقصى الجنوب⁽³⁾، وفعلاً عول على الجبهة الجنوبية بعد أن أرسلت قواعدها أن تقوم بمهام جسورة، منها ربط الاتصال بينها وبين مناطق الداخل وتقديم المساعدة للولايتين الخامسة والسادسة، ونقل الأسلحة⁽⁴⁾، وقد تمكنت بفعل شبكات اتصالاتها وخطوط النقل أن تمد اتصالاتها إلى مناطق توات وتامراست وبيشار وتندوف، وقدمت كثير من المساعدة والدعم للولاية السادسة التي بدأت تنشط في منطقة الجنوب، واستطاعت أن تدرب عدة فرق وترسل بها إلى الداخل لتنشط بطريقة سرية في مهام تنظيمية، وأما مهمة تمرير الأسلحة والمؤونة فقد قامت الجبهة الجنوبية بمبادرات مهمة، خاصة بعد نجاح إنزال باخرة سلاح بكوناكري الغينية وإدخال

(1) وثيقة مرسلة إلى قيادة الجبهة الجنوبية تتضمن الهيكلية الإدارية لمنطقة أدرار، وثائق شخصية

(2) تشير الدلائل أن الجبهة الجنوبية أنشأت لتأدية مهام جد استراتيجية ومنها فك الخناق عن مناطق الشمال وإيجاد مناطق بديلة، وفي هذا الإطار كلفت فرقتين بربط الاتصال بين مركز بوذنيب إلى غاو عن طريق الصحراء الإسبانية والموريطانية.

(3) PATRICK (C R). **OP CIT** P: 249.

(4) هذا ما تكشف عنه الشهادات دون تفصيل أنظر شهادة المجاهدين بن شكشك التافي ومولاي الشيخ بن مولاي، مسجلة ومحفوظة بمتحف المجاهد أدرار.

السلاح إلى غاو، ويذكر مساعدية أنه أوجدت عدة وسائل لإدخال الأسلحة إلى الداخل، منها النقل بواسطة الجمال وشاحنات التجار، "تحصلنا على باخرة كاملة من الأسلحة في غينيا وقمنا بنقلها من هناك إلى الحدود الجزائرية المالية عبر الجبال وبالطبع لم يعلم بذلك إلا نحن الخمسة فقط أو بعض المسؤولين الماليين، وكانت هذه الأسلحة تحمل على الأكثاف حتى تصل إلى المخابئ السرية في الحدود الجزائرية، وبعدها تنقل إلى الداخل إما عن طريق قوافل الجمال وكانت تحمل كميات قليلة ولكنها مأمونة الوصول، أو عن طريق الشاحنات التي تحمل محمولات ضخمة داخل براميل الزيت أو المازوت أو براميل الماء مع عمل جيوب لهذه البراميل، ثم فك الأسلحة ووضعها بداخلها، وقد دربنا الشباب على فك الأسلحة وتركيبها بسرعة بارعة، وكذلك كنا نحمل الأخشاب الضخمة بحجة دفع العربات عليها في الرمال، ونقوم بتجويدها وملئها بالذخيرة، ثم نضع عليها الزيت ونضربها بالمناجر ونضعها في الرمال ونطليها بالمازوت الأسود فتصبح وكأنها قديمة، وهكذا كانت تصل الأسلحة والذخيرة إلى كل المراكز والقواعد التي أصبحت مخازن مهمة للأسلحة والذخيرة"⁽¹⁾. ويبدو أنه كان بإمكان هذه الجبهة أن تلعب دورا رئيسيا في تزويد ولايات الداخل بالأسلحة لولا وقف إطلاق النار.

6 - التأثير النفسي على العدو من خلال إحكام القبضة على الحدود

دلت نجاحات الجبهة الجنوبية على قوة الثورة التحريرية وشمولييتها وقدرتها على التعبئة والتنظيم، وقد حضرت مخططا عسكريا شاملا يستهدف المراكز الاستعمارية الحدودية في ادرار وتامراست، ولكن قيادة الثورة العليا لم توافق على

(1) انظر شهادة محمد الشريف مساعدية، المرجع السابق، ص 136

تنفيذ هذه العمليات إلى أن حان وقف إطلاق النار، ويذكر المجاهد دحاج عبد القادر أن محمد الشريف مساعدي نسق العمل مع المخبرين في مراكز العدو ببرج باجي مختار وتيناوين وتانزروفت وعين قزام من أجل تنفيذ هجومات على هذه المراكز، ولولا إعلان وقف إطلاق النار لتم الهجوم عليها⁽¹⁾، ويذهب المرحوم محمد الشريف مساعدي إلى أبعد من ذلك عندما يؤكد أنه كان بإمكان وحدات الجبهة الجنوبية المدربة تدمير قاعدة رقان العسكرية النووية والتخلص منها لأنه: "كانت لدينا جميع المعلومات والمخططات الخاصة بها، إلا أن القيادة لم توافق على العملية، وكان لنا هدف معين لا بد من إنجازه بأي شكل من الأشكال"⁽²⁾، ولا شك أن من بين الأهداف الرئيسية لهذه الجبهة هي استعراض قوات جيش التحرير الوطني أمام السكان، وذلك لدفع المترددين لمناصرتها، ورفع معنويات المناضلين من جهة، وللتأثير على معنويات الفرنسيين من جهة أخرى من خلال إحاطتهم بجبهات عسكرية تكون نتائجها النفسية أكبر من نتائجها العسكرية.

7- ترسيم الحدود وحمايتها من الإطماع الخارجية:

تفطنت جبهة التحرير الوطني لضرورة حماية الصحراء من الأطماع الأجنبية، وقد مهدت السياسة الفرنسية لظهور هذه الأطماع، فكانت تونس تصر على منحها منطقة البورمة الغنية بالبترول بحجة أنها تابعة لتونس، والمغرب يخلق مشاكل عويصة بترديده لحقه التاريخي في الصحراء وادعائه بأن موريطانيا وتندوف أراضي مغربية، وخوفا من نمو هذه الأطماع كان جيش الحدود حريص على حماية الوحدة الترابية وحراسة الحدود، ومن المهام الأساسية التي أوكلت للجبهة الجنوبية المراقبة على طول

(1) أنظر شهادة المجاهد دحاج عبد القادر ، سبق ذكرها.

(2) أنظر شهادة مساعدي: المرجع السابق، ص 136

الحدود الجنوبية حراسة الحدود والاستعداد لتسلم السلطات من الفرنسيين، حتى لا تتكرر مبادرة بورقية بإرساله للقوات التونسية للاستعلاء بالقوة على منطقة العلامة الحدودية الكيلومترية رقم 233، وفعلا كانت الجبهة الجنوبية بنظامها المدني ووحداتها العسكرية الحريص الأمين على تراب السيادة الوطنية، وقد أشرف قادتها على تسليم السلطات في الموعد المحدد لانسحاب الفرنسيين من منطقة تامنراست وادرار، في حين سجل فراغ في مدينة تندوف استغله المغرب في محاولته السيطرة بالقوة على هذه المنطقة وفرض الأمر الواقع على الجزائريين، وقد كان قادة الجبهة الجنوبية يتخوفون من هذه النوايا السيئة خاصة وأن حملة المغرب بضم موريطانيا كانت تثير كثير من التخوف، ومعها ازداد الحرص على حراسة الحدود الشمالية، ويؤكد مساعدية أن خلايا نظام الجبهة أصبحت تراقب كامل الحدود الجزائرية الموريطانية: "تطور التنظيم حتى أصبحنا نراقب الحدود الموريطانية في الوقت الذي كانت صراعات بين المغرب وموريطانيا، وكنا نعتبر قوة حاسمة لها وزنها في هذه المنطقة، وقد تمكنا بسرعة من بسط يد جيش التحرير على طول البلاد وعرضها بما جندناه من الشباب الذي يعتبر السند الأقوى لجيش التحرير الوطني"⁽¹⁾، ونظرا لأهمية الدور الذي أصبحت تقوم به الجبهة الجنوبية خططت قيادة الثورة لتحويلها إلى ولاية سابعة تشرف على القسم الجنوبي من الصحراء⁽²⁾.

(1) انظر شهادة مساعدية، المرجع السابق، ص 135

(2) كان مخططا أن تقسم إلى ثلاثة مناطق هي: المنطقة الأولى وتشمل منطقة تندوف والحدود الجزائرية مع كل من المغرب الصحراء الغربية وموريطانيا، والمنطقة الثانية وتشمل منطقة الحدود مع مالي والنيجر، والمنطقة الثالثة وتشمل منطقة الهقار والحدود الجزائرية الليبية، انظر قنطاري محمد:

خاتمة

ويتضح لنا مما سبق بيانه عن نشاط الجبهة الجنوبية وأدوارها ما يلي:
إن الجبهة الجنوبية التي أنشأتها الثورة الجزائرية عام 1960 قامت بنشاط سياسي مهم مهد لبداية النشاط العسكري وتكوين مراكز حدودية تمتد من مالي والنيجر إلى أقصى مناطق الصحراء الجزائرية.

لقد نهضت الجبهة الجنوبية بتحقيق أهداف استراتيجية داخلية وخارجية، منها أساسا نشر الثورة وتعميم النظام والاستعداد للمجابهة مع العدو في أقصى الجنوب الجزائري، وكذا تأكيداً بعد التضامن الإفريقي عملياً ومواجهة السياسة الفرنسية الشرسة في إفريقيا، وقد أثمرت مبادرة إنشاء الجبهة الجنوبية نجاحات كبرى تمثلت في دعم حضور الثورة الجزائرية في أقصى الجنوب الصحراوي وأتاحت الفرصة لسكان توات للمشاركة في تحرير وطنهم، والتأكيد على قوة وشمولية الثورة على كامل التراب الوطني وعلى بعدها الإفريقي من أجل تجسيد تضامن حقيقي وتكريس الوحدة الإفريقية في ميدان المعركة.

إن إنشاء الجبهة الجنوبية هدف إلى خدمة استراتيجية الثورة في مرحلتها الأخيرة، المتسمة بازدياد قوة الصراع وظهور مشروع التقسيم، وكان يعول كثيراً عليها في التصدي لمشروع فصل الصحراء، وذلك من خلال تجنيد السكان وبث الدعاية واثبات حضور جيش التحرير الوطني في تلك المناطق الصحراوية النائية.



المرجع السابق، ص 185، وشهادة الطيب فرحات، مقابلة مع الباحث، الجزائر العاصمة، 1 نوفمبر

.2001

مقتطفات وانطباعات من كتابي "الثورة الجزائرية في عامها الأول والمثقفون الجزائريون والثورة" لمحمد العربي الزبيري

Excerpts and impressions from my book "The Algerian Revolution in its First Year and Algerian Intellectuals and the Revolution" by Muhammad Al-Arabi Al-Zubairi

د. فاتح بلعمري محاضر — أ —

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

fateh.belamri @univ-msila.dz

ملخص:

يبدو أن الثورة الجزائرية ملهمة الكثير في التأليف والكتابة، لأنها بعبارة صريحة وواضحة ثورة ضد الظلم والاستعباد، وعلى وجه الخصوص إذا ظهرت وثائق جديدة وبانت تصريحات واعترافات عديدة، لكن - في اعتقادنا - هناك من الكتابات من تبقى ملاذ الدارسين والباحثين عموما والمؤرخين خصوصا، ومن هذه الزاوية الأخيرة ارتأينا التعريف بكتابين في غاية الأهمية الأول موسوم ب: الثورة الجزائرية في عامها الأول والثاني تحت عنوان المثقفون الجزائريون والثورة للمجاهد والمؤرخ محمد العربي الزبيري، الذي عايش اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر العظيمة من جهة، ومن جهة أخرى فالكاتب أيضا باحث متميز في الشأن التاريخي. من هذا المنطلق، فمن هو محمد العربي الزبيري؟ ماهي إسهاماته في مجال الكتابة التاريخية؟ ما هي مضامين الكتابين وما هي الأفكار والآراء التي صرح بها؟ فيم تكمن القيمة العلمية والتاريخية لهذين التأليفين؟ هذا ما نود التعرف عليه.

الكلمات المفتاحية: الثورة الجزائرية، محمد العربي الزبيري، 1954-1692.

Abstract

It seems that the Algerian revolution has inspired a lot of writing and writing, because it is, in frank and clear terms, a revolution against injustice and slavery, especially if new documents appear and many statements and confessions are revealed, but - in our belief - there are some writings that remain a refuge for scholars and researchers in general and historians in particular, and among these are In the last corner, we decided to introduce two very important books, the first titled: The Algerian Revolution in its First Year and the second under the title The Algerian Intellectuals and the Revolution by the mujahid and historian Muhammad al-Arabi al-Zubairi, who lived through the outbreak of the great November 1st Revolution on the one hand, and on the other hand the writer is also a distinguished researcher in historical affairs. From this standpoint, who is Muhammad Al-Arabi Al-Zubayri? What are his contributions to the field of historical writing? What are the contents of the two books and what are the ideas and opinions expressed? What lies in the scientific and historical value of these two works? This is what we would like to know.

Keywords: The Algerian Revolution, Muhammad Al-Arabi Al-Zubayri, 1692-1954

مقدمة:

كثيرة هي المؤلفات والدراسات، الشهادات والمذكرات التي تناولت الثورة الجزائرية، ولتزال هذه الأخيرة ميدانا خصبا للتأليف والكتابة في جوانبها المتعددة وزواياها المختلفة، لكن المميز فيها هي تلك التي تبحث عن الحقيقة التاريخية سواء الكتابات الجزائرية الوطنية، أو المغاربية، أو الأفروآسيوية أو حتى الكتابات الأجنبية المتنوعة، وعن الصنف الأول (الكتابات الجزائرية الوطنية) ارتأينا أن نعرف بكتابين في غاية الأهمية لصاحبهما محمد العربي الزبيري "الثورة الجزائرية في عامها الأول". و"المثقفون الجزائريون والثورة".

من هذا المنطلق، فمن يكون العربي الزبيري؟ ماهي إسهاماته في مجال التاريخ عموما والثورة الجزائرية على وجه الخصوص؟ ما هي مضامين الكتابين؟ وماهي الكنوز المعرفية التي تضمنها التأليفين؟ ماهي مصادر المؤلف في ذلك؟ وفيما تكمن قيمتهما التاريخية والعلمية التي نحسبها جديرة بالذكر.

ولعل المقام يفرض علينا ذكر أسباب اختيار هذا المؤلف من جهة وتأليفه من جهة ثانية، فعن المؤلف هو شاهد عيان للكثير من الأحداث والوقائع التي مرت بها الثورة الجزائرية، كما أنه باحث أكاديمي متمرس ومتميز في مجال الكتابة في التاريخ، وله رؤى خاصة ونظرات عميقة لما حدث أيام الثورة الجزائرية، وعن تأليفه الثورة الجزائرية في عامها الأول والمثقفون الجزائريون والثورة موضوع هذه الدراسة نتعرف عليها من خلال ما سنذكره من مقتطفات وانطباعات بعد اطلاعا عليها ودراستنا لهما، أملين المنفعة والفائدة لمن ينشدها مستدلين ببعض آراء المؤرخين والكتاب في شخص محمد العربي الزبيري.

أولا - التعريف بمحمد العربي الزبيري:

ولد في الجزائر سنة 1360هـ/ 1941م، عمل موظفا وشغل العديد من المناصب، والتي منها رئيسا لاتحاد الكتاب الجزائريين، ورئيس منتدى الفكر والثقافة وهو عضو جمعية الدراسات والبحوث⁽¹⁾، حاصل على أربع شهادات دكتوراه؛ الأولى كانت دكتوراه الحلقة الثالثة سنة 1972 حول موضوع التجارة الخارجية في الشرق الجزائري قبل الاحتلال 1792-1830⁽²⁾، الثانية كانت حول كتاب المرأة لحمدان بن عثمان خوجة⁽³⁾، ثم شهادة دكتوراه دولة حول الجزائر في عهد حسين داي ودكتوراه فلسفة في التاريخ.⁽⁴⁾

أي أنه عندما اندلعت الثورة الجزائرية المباركة كان عمر الزبيري 13 سنة، فمن المؤكد أنه عاش بعض أحداثها ووقائعها، ويتضح بأنه رجل أكاديمي له باع في الكتابة والتأليف، حيث خط يراعه العديد من المؤلفات التي لها علاقة وطيدة بتاريخ الجزائر عموما والثورة الجزائرية على وجه الخصوص.

ثانيا - إسهامات محمد العربي الزبيري في مجال التاريخ والثورة الجزائرية:

ألف محمد العربي الزبيري العديد من الكتب ومنها نذكر:
1. - مقاومة الجنوب الجزائري للاحتلال الفرنسي.

(1) -<https://shmela.ws.auther> (17/01/2022) 10:00

(2) محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، وكان المشرف عليه الأستاذ أبو القاسم سعد الله، فيها أكثر من 350 صفحة وهي ثرية بالمصادر والوثائق العربية والأجنبية.

(3) حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الرغاية، الجزائر، 1982.

(4) <https://torjomanpedia.com> (17/01/1022)10:33

2. -مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث.⁽¹⁾
3. -الثورة الجزائرية في عامها الأول.⁽²⁾
4. -الثورة الجزائرية في عامها الثاني.
5. -الغزو الثقافي في الجزائر.
6. -المثقفون الجزائريون والثورة.
7. -إيديولوجية الثورة الجزائرية.
8. -الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر.
9. -الكفاح المسلح في عهد أحمد باي.
10. -حمدان بن عثمان خوجة⁽³⁾ رائد الكفاح السياسي.
11. -المرآة لحمدان بن عثمان خوجة (ترجمة).
12. -لمحة تاريخية عن الدولة الجزائرية. د شلر (ترجمة).
13. -مذكرات أحمد باي.⁽⁴⁾
14. -تاريخ الجزائر المعاصر.⁽¹⁾

(1) محمد العربي الزيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، الشركة الوطنية النشر والتوزيع، الجزائر، 1972.

(2) محمد العربي الزيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1404هـ - 1984م.

(3) حمدان بن عثمان خوجة مصدر مهم في مجال الطب والتداوي موسوم ب: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1986.

(4) أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ترجمة: محمد العربي الزيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

ثالثا-أقوال بعض المؤرخين والكتاب في شخص محمد العربي الزبيري⁽²⁾، والتي

نقتبس منها:

- حمدي (عميد كلية الإعلام بالجزائر): " اعتبر محمد العربي الزبيري مثقفا عضويا متواجدا في كل المستويات، مضيفا أنه شخصية إشكالية فهو صحفي من مؤسسي جريدة الشعب سنة 1963".

- محمد بوعزارة: " المجاهد والمؤرخ العربي الزبيري رجل يسكنه التاريخ ومناضل لم تأت به السياسة للنضال، بل جاء به الجهاد وحب النضال وليس نضال السياسة من أجل السياسة، بل من أجل التاريخ".

- محمد الأمين بلغيث: " الكاتب العربي الزبيري كاتب أكاديمي متميز سرقة السياسة، حيث أكاديميته ظهرت من خلال مؤلفاته".

- محمد أرزقي فراد: " الأديب العربي الزبيري مثقف وليس متعلما فقط، مارس وظيفة النقد في المجتمع من أجل تحريك الأوضاع للأفضل".

- بورقعة: قال فيه بأنه ذو شخصية عنيدة، متمسك جدا بمبادئه ووفي وفاء تام للشوايت الوطنية ومبادئه".

- أحمد صالح حرز الله: "العربي الزبيري رجل المواقف الكبيرة".

- لزهري بديدة: العربي الزبيري "قدم دروسه بالمجان للطلبة الجزائريين".



(1) محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، ج2، منشورات إتحاد الكتاب العرب، 1420هـ / 1999م.

(2) <https://www.elhiwar.dz> feature (17/01/2022)10:26

رابعا-التعريف بالكتاب الثورة الجزائرية في عامها الأول (مضامينه ومقتطفات

من فصوله):

طبع لأول مرة سنة 1404هـ الموافق سنة 1984م، بدار البعث بقسنطينة، وهو من الحجم المتوسط، يحتوي على 262 صفحة، ولعل المقام يفرض علينا أن نذكر حكمة الكتاب التي وردت فيه قبل الإهداء وهي:

"إن الذي لا يدرس الماضي لا يمكن أن يفهم الحاضر، ومن ثمة فهو لا يستطيع بناء المستقبل، لأن عملية البناء والتشييد تعتمد أساسا على الواقع المعاش". وعليه يبدو أن الثلاثية متلازمة دراسة الماضي وفهم الحاضر لبناء المستقبل.

كما يفرض علينا أن نذكر بإهداء الكتاب إلى أرواح شهداء ثورة نوفمبر العظيمة، ومنهم: ديدوش مراد⁽¹⁾، مصطفى بن بولعيد⁽²⁾، العربي بن مهيدي⁽¹⁾ وزينغود يوسف⁽²⁾، وإلى كل هؤلاء وما أكثرهم، وإلى كل الشرفاء الأحياء على قلتهم.

(1) ديدوش مراد: (13/01/1927-18/01/1955) من مسؤولي المنظمة الخاصة، عينته حركة انتصار الحريات الديمقراطية نائبا لـبوضياف بين 1952-1954 قصد تنظيم فرنسا، عين على رأس المنطقة الثانية، استشهد وعمره 28 سنة في معركة بوكركر على مقربة من مدينة زينغود يوسف الحالية. محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المرجع السابق، ص 119. للمزيد عن شخصية ديدوش مراد وأعماله الثورية ينظر: عبد الله مقلاتي، "الشهيد مراد ديدوش ودوره في التحضير للثورة وقيادتها"، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، المجلد 01، العدد 04، ص ص 256-273.

(2) مصطفى بن بولعيد: من أسرة ثرية، كان مقاولا ناجحا وفي نفس الوقت مناضلا وطنيا بارزا، ارتقى سلم المسؤوليات إلى أن أصبح عضوا باللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، عين على رأس المنطقة الأولى حيث مسقط رأسه، ألقى عليه القبض في فيفري 1955، وضع في السجن واستطاع الفرار والالتحاق بالثورة من جديد في الأوراس، استشهد يوم 27 مارس 1956

بسبب انفجار جهاز إرسال ملغم. محمد العربي الزيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المرجع السابق، ص 119). للمزيد عن شخصية مصطفى بن بولعيد ينظر: بوعزة بوضرساية، "لقاء الراحل فانسون مونتاي بالشهيد مصطفى بن بولعيد عام 1955 من الاستنطاق إلى الاستجواب"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المجلد 02، العدد 02، ص ص 172-180.

- عبودة رشيدة ومليكة لطوشي، "مصطفى بن بولعيد والثورة التجريبية"، مقاربات، المجلد 02، العدد 03، ص ص 17-31.

(1) العربي بن مهيدي: من أعظم مفكري الثورة ومنظريها، درس التمثيل ومارس السياسة منذ سن المراهقة في إطار حزب الشعب ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، كان عمره ثلاثين سنة عندما اندلعت الثورة، عين على رأس المنطقة الخامسة، ساهم في مؤتمر الصومام، ألقى عليه القبض في مدينة الجزائر يوم 15 فيفري 1955، ثم أعدم شنقا في شهر مارس من نفس السنة، قال للتعذيب بيجار: "إنكم تتحدثون عن فرنسا من دانكارك إلى تامنراست، وإني لأتنبأ لكم بميلاد الجزائر من تامنراست إلى دانكارك" يقول المؤرخون أنه كان أعظم رجال الثورة. محمد العربي الزيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المرجع السابق، ص 122. للمزيد حول شخصية العربي بن مهيدي ينظر: عبد الله مقلاتي، "الشهيد محمد العربي بن مهيدي حكيم ومنظر الثورة الجزائرية"، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، المجلد 02، العدد 03، ص ص 261-284.

- عبد الحميد مهري، "شهادة حول الشهيد العربي بن مهيدي"، المصادر، المجلد 8، العدد 13، ص ص 325-332.

(2) زيغود يوسف: أحد أبطال الثورة في الحركة الوطنية وثورة التحرير، عرف بثورته الجاحمة ومواقفه الوطنية المخلصة، شارك في المنظمة الخاصة وفي التحضير للثورة، تولى قيادة منطقة الشمال القسنطيني إثر استشهاد قائدها ديدوش مراد في جانفي 1955. محمد العربي الزيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المرجع السابق.

للمزيد حول شخصية زيغود يوسف ينظر: عبد الله مقلاتي، "دور الشهيد زيغود يوسف في الثورة التحريرية"، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 02، العدد 3، ص ص 77-95.

وإنه لمن المفيد الإشارة إلى الأسباب التي أدت إلى تزييف تاريخ الثورة الجزائرية التي ذكرها محمد العربي الزبيري في مستهل كتابه، وهي الأسباب الوطنية المتمثلة في التشكيلات السياسية المتعددة التي لم تكن لها نفس النظرة للكفاح ولا نفس التطلعات لمستقبل البلد، بينما الأسباب الاستعمارية فتجسدت في وسائل الإعلام وأقواها وكذلك استغلال الخلافات والصراعات الداخلية بين الأشقاء الجزائريين، في حين كانت الأسباب الإيديولوجية متجلية في إصدار الكتب المتخصصة المعتمدة على مصادر غالطة أو مكذوبة، و نشر المذكرات المطعمة والمقالات والدراسات الموجهة.⁽¹⁾

*مضامين الكتاب: تضمن تسعة فصول وهي كالتالي:

-الفصل الأول: السياسة الفرنسية في الجزائر قبل اندلاع ثورة نوفمبر.

الفصل الثاني: الوضع الاقتصادي والثقافي والاجتماعي في الجزائر قبل اندلاع ثورة نوفمبر.

الفصل الثالث: السياسة الوطنية في الجزائر قبل اندلاع ثورة نوفمبر.

الفصل الرابع: السياسة الفرنسية اتجاه ثورة نوفمبر.

الفصل الخامس: لمحة سريعة عن سير أحداث الثورة في عامها الأول.

الفصل السادس: موقف الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري من ثورة نوفمبر في عامها الأول.



- أحمد مسعود سيد علي، "مسيرة الشهيد زيغود يوسف من خلال شهادة لخضر بن طوبال"، مجلة

أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 07، العدد 01، ص ص 349-360.

(1) محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المرجع السابق، ص ص 15-19.

الفصل السابع: موقف الحزب الشيوعي الجزائري من ثورة نوفمبر في عامها الأول.

الفصل الثامن: موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من ثورة نوفمبر في عامها الأول.

الفصل التاسع: موقف الحركة الوطنية الجزائرية من ثورة نوفمبر في عامها الأول.

- ملاحق: تضمنت القانون الأساسي لنجم شمال إفريقيا، البرنامج السياسي لنجم شمال إفريقيا، القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، منشور الحزب الشيوعي الجزائري يوم 03/05/1945، منشور حزب الشعب الجزائري على إثر نفس الأحداث، القانون الجزائري 20 سبتمبر 1947، القانون الداخلي للمنظمة الخاصة ونداء الفاتح من نوفمبر 1954.

*مقتطفات مختارة من فصول الكتاب: من فصول الكتاب التسعة اخترنا بعض الفقرات التي تعبر عن قنوات وآراء محمد العربي الزيربي، دون أن نعلق عليها ومنها:

1- "...على الرغم من ظهور نشاطات الحركة الوطنية، فإن الاحتفال بمرور مائة عام على سقوط "دار الجهاد"⁽¹⁾ قد تم تحت شعار "الجزائر الفرنسية" التي بات

(1) دار الجهاد: أطلق الأتراك على مدينة الجزائر اسم المحروسة ودار الجهاد، وكان لهذا الاسم معنى في تطور عمران المدينة نحو الدفاع والتحصين ضد الغارات المسيحية التي ما فتئت تهاجم من حين لآخر مدينة الجزائر، لذلك كثرت بها الأبراج في العهد التركي وزيد من تشييد أسوارها وتمتين قوتها الدفاعية بصفة عامة. للمزيد ينظر: حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل سنة 1830، ط 1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص 219.

من المستحيل فصلها عن الوطن الأم، بل أن رجال الدولة سواء في فرنسا أو في الجزائر لا يحلو لهم الحديث إلا عن العمالات الفرنسية الثلاث فيما وراء البحار وسوف يتطور هذا المفهوم ليصبح أثناء الثورة "فرنسا من دانكارك إلى تامنراست".⁽¹⁾

-2- "...الجزائر بلد زراعي، هذه حقيقة قديمة قدم التاريخ، لا تحتاج إلى تدعيم، ولكن الجديد في الأمر هو أن مؤرخي الاستعمار يدّعون بأن المعمرين الفرنسيين هم الذين استصلحوا الأراضي وصيّروا تربتها طيبة".⁽²⁾

وللإشارة أيضا فقد تحدث الكاتب عن الصناعة والتجارة، دون أن يهمل الواقع الاجتماعي والثقافي للجزائر قبل اندلاع الثورة.

-3- "إن الذي يدرس تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر ويطلع على الفضائح المرتكبة ويقرأ لأمثال جول كامبون⁽³⁾، الذي يؤكد بأن فرنسا صيرت الشعب الجزائري غبارا تذروه الرياح، لا يسعه إلا أن ينحني خاشعا أمام ثورة نوفمبر الخالدة...والحقيقة أن ثورة الفاتح من نوفمبر سنة 1954 قد دخلت التاريخ من

(1) محمد العربي الزيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المرجع السابق، ص 23.

(2) نفس المرجع، ص 39.

(3) جول كامبون: Jules Cambon (1845 / 4 / 5 - 1935 / 9 / 19)

ديبلوماسي فرنسي وشقيق بول كامبون، كان حاكما للجزائر بين 1891-1897، سفير فرنسا لدى الولايات المتحدة الأمريكية بين 1897-1902، سفير فرنسا لدى إسبانيا بين 1902-1907، سفير فرنسا لدى ألمانيا بين 1907-1914، ثم رئيسا بين 1929-1935، ترك العديد من المؤلفات منها نذكر:

-LE DIPLOMATE

- Le gouvernement général de L'Algérie (1891-1897)

- La politique radical-socialiste en Algérie (avec Yves Guyot)

[https:// areqinet.net](https://areqinet.net).(18/1/2022) 16:26.

أبوابه الواسعة، وأنها استطاعت أن تحيي العظام وهي رميم وأن تخلق من العبيد المستضعفين مجتمعا جديدا...⁽¹⁾

4- "... استقبال الجالية الأوروبية في الجزائر لنبا اندلاع الثورة بأنواع مختلفة

من الفهم والإدراك، وهي: - الثلة الحاكمة على مختلف المستويات...، - الموظفون التنفيذيون في أجهزة القمع المستعملة...، - المثقفون اليمينيون واليساريون..."⁽²⁾

5- "... أن فكرة الكفاح المسلح قد ولدت - كما سبقت الإشارة إلى ذلك -

في أذهان مناضلي الحركة الوطنية الذين لجأوا لتكوين المنظمة الخاصة التي عني المشرفون عليها بتدريب أعضائها عسكريا، وبتكوينهم سياسيا وعقائديا لمواجهة الاستعمار الفرنسي في جميع الميادين."⁽³⁾

6- "... وعلى الرغم من التطور الملحوظ الذي حققه عباس⁽⁴⁾ لأسباب

متعددة أهمها الخوف من الموت والطمع في المسؤولية واليأس من فرنسا الاستعمارية،

(1) محمد العربي الزيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المرجع السابق، ص 53.

(2) نفس المرجع، ص ص 87-113.

(3) نفس المرجع، ص ص 117-118..

(4) فرحات عباس: 1899/08/24 - 1985/12/24 ولد فرحات عباس الذي كان رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958، وكان أول رئيس للمجلس الوطني التأسيسي للجزائر المستقلة، في بلدة الشحنة التي تقع في بلدية الطاهير، ولاية جيجل، في إحدى ولايات الجزائر بشمال شرق البلاد وافته المنية في مسكنه الواقع في القبة بالجزائر العاصمة، دفن في مربع الشهداء في مقبرة العالية، قال: " لا أشعر بأنني أحياء إلا في الجزائر ولا أتمنى أن أموت إلا في بلادتي". فرحات عباس، غدا سيطلع النهار، ترجمة حسين لبراش، دار الجزائر للكتب، 2012.

فإن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري قد وقف في هذه السنة الأولى موقفا سلبيا من ثورة نوفمبر العظيمة..."⁽¹⁾

-7- "...لقد كان الحزب الشيوعي الجزائري منذ الوهلة الأولى يعرف أن أحداث ليلة الفاتح من نوفمبر هي بداية الثورة، ولكنه كان من الصعب عليه الاعتراف بذلك علنا ثم الانضمام تحت لواء الجهاد وذلك لأسباب متعددة...، وأسباب ذلك هي:

- إن انضمام قيادة الحزب الشيوعي إلى الثورة معناه الاعتراف بالزعامة للحركة الوطنية.

- الشيوعيون يرون أن الثورة لا يمكن أن تقع إلا نتيجة الصراع الطبقي.
- الحزب الشيوعي الجزائري مكوّن من أغلبية أوروبية ترفض الاتجاه الوطني العامل لأجل الاستقلال..."⁽²⁾

-8- "...ومما لا شك فيه أن معظم أعضاء جمعية العلماء إنما بدأوا يؤمنون بضرورة الكفاح المسلح فقط عندما اقترب الموت من الأبواب، وعندما تأكدوا من أن الثوار عازمون على الضرب إذا اقتضى الحال، ليمنعوا أيا كان من عرقلة المسيرة الطبيعية للثورة، وإذا كان أعضاء الجمعية قد شرعوا في التقرب من أجهزة جبهة التحرير الوطني ابتداء من الأشهر الأخيرة لسنة 1955..."⁽³⁾

(1) فرحات عباس، غدا سيطلع النهار، مرجع سابق، ص 162.

(2) نفس المرجع، ص ص 165 - 177.

(3) نفس المرجع، ص 191.

9- "...وعلى الرغم من أن وضع الحركة الوطنية يختلف كل الاختلاف عن وضع التشكيلات السياسية الأخرى، فإنه لا يسعنا إلا أن نؤكد بأن موقفها كان سلبيا من الثورة في عامها الأول..."⁽¹⁾

خامسا: التعريف بكتاب المثقفون الجزائريون والثورة (مضامينه ومقتطفات

منه):

الناشر لهذا الكتاب هو المتحف الوطني للمجاهد، طباعة المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الرويبة، الجزائر في سنة 1995، والكتاب يحتوي على 187 صفحة، وهو مقسم إلى قسمين، الأول تناول فيه الكاتب محمد العربي الزبيري خمس نماذج من المثقفين الجزائريين في فترة ما قبل الثورة، بينما القسم الثاني أدرج فيه أربع نماذج من المثقفين الجزائريين، واستعان بصور للنماذج المختارة في بدايات الحديث عنها وهذه النماذج مرتبة في قسمين كما ذكرنا تضمنت مضامين الكتاب وهي كالتالي:

***القسم الأول: فترة ما قبل الثورة**

-النموذج الأول وهو: مفدي زكرياء

-النموذج الثاني وهو: محمد العيد آل خليفة

-النموذج الثالث وهو: محمد السعيد الزاهري

-النموذج الرابع وهو: الشيخ البشير الإبراهيمي

-النموذج الخامس وهو: محمد الذيب

***القسم الثاني: فترة الكفاح المسلح**

-النموذج الأول وهو: مفدي زكرياء

(1) فرحات عباس، غدا سيطلع النهار، مرجع سابق، ص 203.

-النموذج الثاني وهو: فرانتز فانون

-النموذج الثالث وهو: مالك حداد

-النموذج الرابع وهو: أحمد الطيب معاش

*مقتطفات مختارة من كتاب المثقفون الجزائريون والثورة

-عن مفدي زكرياء يقول محمد العربي الزبيري: "مما لا ريب فيه أن مفدي زكرياء هو النموذج الحي للمثقف الحقيقي الذي جمع بين صفات العالم ذي الباع الطويل في شتى فنون المعرفة والمناضل السياسي المحنك ذي المبادئ الثابتة والإرادة الحديدية..."

-عن محمد العيد آل خليفة يقول المؤلف: "... إن اختيار محمد العيد كنموذج... ليس صدفة، بل لأنه متعمد لثلاثة أسباب على الأقل، أحدهما لأنه شاعر مثل مفدي زكرياء... وثانيهما لأنه كان في نفس سنه تقريبا... وثالثهما لأن الشاعرين مرا بنفس المراحل التعليمية وقالوا الشعر الجيد الذي نال إعجاب العارفين قبل سن الرشد القانونية..."

-عن محمد السعيد الزاهري يقول الكاتب: "... تدل كتابات الزاهري وأشعاره على تحكم كبير في اللغة العربية وتشبع بالأيديولوجية الوطنية، كما أنها تسمح للدارس المتمعن أن يستخلص بأنه إلى جانب عدد قليل من المناضلين العاملين واحد من الرواد الذين أرسوا قواعد حركة نجم شمال إفريقيا في الجزائر..."

-عن الشيخ البشير الإبراهيمي يذكر الزبيري: "... لقد كان الشيخ البشير الإبراهيمي يقدر قيمة الشباب حق قدرها ويدرك أنه الطاقة الخلاقة التي سيكون عليها الاعتماد للنهوض بالمجتمع الجزائري والخروج به من حالة الركود والتبعية إلى حالة اليقظة والوعي الذي يسبق التغيير..."

-عن محمد الذيب يقول المؤلف: "... عندما بدأ نشاط نجم شمال إفريقيا السياسي ينتشر ليعم مختلف أنحاء البلاد كان محمد الذيب طفلا صغيرا، لكن ذلك لم يمنعه من تتبع الأحداث التي كانت مدينة تلمسان مسرحا لها... لقد اختار محمد الذيب العلم كسلاح والكتابة كميدان حتى أمكن القراء من المشاركة في آلام وطنه وآماله..."

أما القسم الثاني والذي استهله أيضا بالحديث عن مفدي زكرياء، فقد قال فيه ما يلي: "...الذي انتزع عن جدارة لقب شاعر الثورة بفضل ما كان له من تفاعل مع الأحداث وما كان لشعره من جودة فنية وقدرة فائقة على التعبير الصادق عن البطولات الرائعة وعلى النفاذ إلى نفوس الجماهير الشعبية عامة ونفوس المناضلين المجاهدين بصفة خاصة..."

-عن فرانتز فانون يقول الزيري: "... هناك لحظات في تاريخ الإنسان من الصعب جدا نسيانها، لأنها تطبع حياته بختم البقاء والخلود، وتصير منعطفًا حاسمًا تتغير بمقتضاه كثير من المفاهيم وتطرح القضايا عارية بعيدة عن تأثير الآخر، وتعالج المشاكل بشجاعة الأنا المتحرر من عقدة النقص والعنصرية والاستغلال، هذه اللحظات قد عاشها فرانتز فانون سنة 1956..."

-عن مالك حداد يقول المؤلف: "... لكنه فضل أن يكون الأديب الذي يحترق لينير طريق الجماهير والذي يعيش هموم شعبه فيعبر عنها بكل ما أوتي من إمكانيات ويبدل كل ما في وسعه لنشر الوعي الذي لا بد منه للارتقاء إلى مستوى الثورة..."

-وعن أحمد الطيب معاش يقول الزيري: "... يعتبر أحمد الطيب معاش عينة من نوع خاص من المثقفين الجزائريين الذين صنعتهم جبهة التحرير الوطني ذلك أنه

بالإضافة إلى إسهاماته الشعرية في النضال من أجل تجسيد إيديولوجية الثورة على أرض الواقع، قد حمل السلاح مع مطلع سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف..."

سادسا- الانطباعات المستخلصة من كتابي "الثورة الجزائرية في عامها الأول"

"المثقفون الجزائريون والثورة" بين قيمتهما العلمية ومكانتهما التاريخية:

*نستجج الدقة في نقل المعلومات والمعارف والآراء، وهذا ما يعطي الكتابين الميزة العلمية من جهة والأكاديمية من جهة ثانية.

*الصراحة في إبداء الرأي والتعليق على بعض الأحداث والوقائع خدمة للحق والحقيقة، مثل قول أحمد توفيق المدني بأنه أول من أطلق شعار جمعية العلماء: الجزائر وطني، العربية لغتي والإسلام ديني، وهذا ما أنكره الزيري.

ورد الزيري على فرحات عباس الذي قال "إننا كنا مع الثورة منذ البداية"، بما يلي: "ربما كان ذلك بقلبه دون لسانه وقلمه، لكن في هذه الحالة من يساعد على تحويل الادعاء إلى حقيقة".

*الكتاب غني بالإحالات والهوامش والتعريف بالشخصيات الوطنية وبعض الأماكن، كما أنه يحتوي على تعريف عديدة لأمریات وقوانين ورسائل كان لا بد من التعريف بها.

*الكتاب غني وثري بالمصادر والمراجع؛ سواء العربية أو الأجنبية، والتي منها نذكر: (الموسوعات الأوربية الحديثة مثل لاروس الكبير، ألستر هورن تاريخ حرب الجزائر، إيف كوريار في كتاب عهد الفهود، جون كانبون في كتبه المتعددة، الجرائد مثل: جريدة صدى الجزائر لسنة 1954-1955، جريدة المغرب بتاريخ 11/2/1954، البصائر 304 و306 لسنة 1955، الشهاب عدد أبريل 1636، دون أن ننسى كتاب فرحات عباس تشريح حرب ومحمد حربي في تأليفه جبهة

التحرير الوطني سراب وواقع...، أحمد توفيق المدني في كتابه هذه هي الجزائر وهذا ما يزيد في قيمة الكتاب علميا وتاريخيا.

* من الأفكار التي يتبناها الكاتب: الريادة في الثورة ليس كالاتحاق بركبها.

* الشعب هو الذي أشعل فتيل الثورة ضرب من التزييف، بل طليعة معينة هي التي حملت على عاتقها هذا الأمر.

* شعار "سلاحنا نفتكه من عدونا" في بدايات الثورة، حينما صعب الحصول على الأسلحة لمواجهة القوات الفرنسية المتزايدة بعد 1954.

* الكاتب يمجّد الثورة الجزائرية تمجيّدا عظيما، ويكن كل الاحترام، التبجيل، التقدير والوفاء للطليعة الثورية.

* يفتخر ويعتز بإنجازات الشهداء ويتنقّد بشدة ما آلت إليه الأوضاع بعد الاستقلال.

* عدم تقدير الوقت معظلة يلي بها الشعب الجزائري بلاء كبير.

خاتمة:

وإذ نحن نعرف بهذا الكاتب محمد العربي الزيري وبكتاييه الثورة الجزائرية في عامها الأول والمثقفون الجزائريون والثورة، غرضنا لفت الانتباه إلى أحد أعمدة الكتابة التاريخية في الجزائر، وبالأخص في الثورة الجزائرية بمنظار علمي وأكاديمي لا يقل أهمية عن الكثير من كتابنا المتميزين ودراساتهم الأصيلة.

الكتاب-الثورة الجزائرية في عامها الأول- متوسط الحجم في شكله، لكن معلوماته ومعارفه ثقيلة ودسمة، إذ وجدناه غني بأفكار صريحة وأخبار مستقاة من أفواه ثوار مجاهدين لا زالوا على قيد الحياة، ومن وثائق نجت من أيدي المستعمرين والجلادين والغاصبين (على حد ذكر الناشر).

وفي الأخير، نضم رأينا المتواضع في شخص "محمد العربي الزيري" وكتابه "الثورة الجزائرية في عامها الأول" إلى آراء المؤرخين والكتاب الذين ذكرناهم آنفاً بأن الزيري قام من قامات التاريخ الوطني التي نعتر ونفتخر بها، وعلى الباحثين قراءة تأليفه المتعددة، وعلى وجه الخصوص المثقفون الجزائريون والثورة للتعرف على أفكاره وتميزه في ميدان الكتابة التاريخية، وهذا ما نتركه كوصية للقارئ الكريم.

العمارة الدينية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني

المؤثرات والجماليات

Religious Architecture in the Middle Maghreb During the Zayani Era -The Effects and The Aesthetics-

ط. د. خيرة بوصوار

جامعة البليدة 2 -علي لونيسي -الجزائر

ek.boussouar@univ-blida2.dz

ملخص:

تعالج هذه الدراسة العمارة في المغرب الأوسط على العهد الزياني في شقها الديني، هذه التي تميزت عند المسلمين بمسحة إسلامية، وبما أن الدولة المرينية كان لها نصيبا في الحكم تحلل الفترة الزيانية، فقد شهدت المنطقة تنافسا كبيرا بينهما طبقت آفاقه في هذا المجال، بحيث سعت كل منهما جاهدة لتخلد اسمها هناك، فهي على أنواعها؛ المساجد، الزوايا، أدّت دورا دينيا روحيا، وآخر تربويا تعليميا. ومع رصد هذا الإرث الحضاري المتميز، تتجلى لنا مدى خصوصيته، متأثرا باللمسة الفنية الأندلسية ممتزجة بأصالته، لا من حيث شكل البناء، ولا من حيث الأشكال الزخرفية المنحوتة عليها؛ فسواء النباتية منها، الهندسية أو الكتابية، قد أعطتها لمسة جمالية خاصة. يمكن في الأخير أن تعدّ حضاريا في مصاف أمصار المغرب وحتى المشرق.

الكلمات المفتاحية: العمارة الدينية، المغرب الأوسط، العهد الزياني، التأثير

الأندلسي، الزخرفة.

Abstract:

This study deals with the architecture in the Middle Maghreb during the Zayani era in its religious aspect, which was distinguished by an Islamic tinge among Muslims, since the Marinid state had a share in governance during the Zayan period, the region witnessed great competition between them where its prospects were applied in this field, so that each of them strived to immortalize its name there, as it is of all kinds; mosques, small mosques, it played a religious, spiritual role, and another educational role. With the observation of this distinct cultural heritage, it becomes clear to us the extent of its specificity, influenced by the Andalusian artistic touch mixed with its originality, neither in terms of the form of the building, nor in terms of the decorative forms carved on it, whether botanical or geometric or written, has given it a special aesthetic touch. In the end, it can be considered civilized in the ranks of the Maghreb and even the Levant.

Key words: Religious architecture, Middle Maghreb, Zayaniera, Andalusian influence, decoration.

مقدمة:

لقد عاش المغرب الإسلامي، ومنذ الفتوحات الإسلامية فترات حاسمة في التاريخ، وخاصة وإذا اعتبرنا أنه كان منقسماً إلى أقاليم جغرافية، كان كل إقليم يعبر عن نفسه بقيام دولة ترسم حدوده، ولا سيما المغرب الأوسط منه الذي عرف قيام دول عبر تاريخه، كانت آخرها الدولة الزيانية، هذه التي رغم أنها لم تنهأ يوماً، ولم تعرف وجهاً للاستقرار السياسي طيلة ثلاثة قرون مكثتها، خاصة وإذا أخذنا موقعها الجغرافي بعين الاعتبار، من حيث توسّطها بين قوتين لا يستهان بكليهما، إلا أنه لا تزال آثارها المعمارية تحمل اسمها واسم منافستها المرينية. من هذا المنطق اقترحنا معالجة الإشكالية الآتية: كيف استطاعت هاته الدولة أن تحلّف لنا إرثاً معمارياً في ظل غياب الاستقرار الذي يعتبر شرطاً من شروط الرقي والازدهار؟ وما هو حظ الجانب الديني منها؟ وإلى أي مدى ساهم التنافس الزياني المريني في تعمير المنطقة؟ وهل حافظت العمارة الدينية من حيث زخرفتها على طابع الأصالة أم تأثرت بعوامل خارجية؟ وبالإجابة على هذه الإشكالية نكون قد سلطنا الضوء على فترة هامة من تاريخ بلادنا في وقت مضى.

أولاً: البنية العمرانية الدينية بالمغرب الأوسط:

العمارة لغة: هي ما يعمر به المكان، وأَعْمَرَهُ بمعنى جعله أهلاً، ومكان عامِرٌ ذو

عِمَارَةٍ⁽¹⁾

(1)- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت 711هـ)، لسان

العرب، مج 4، (دط)، دار صادر، بيروت، (دت)، ص: 602، 604.

أما اصطلاحاً؛ فهو حسب ابن خلدون: «التنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشيرة، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش»⁽¹⁾، وأيضاً يقصد به البنيان، وما يُعَمَّرُ به البلد ويحسّن حاله بفضل الفلاحة والصناعة والتجارة، وكثرة الأهالي⁽²⁾. ولا شك أن العمارة الدينية قد أدت دوراً لا يستهان به في سبيل نشر الإسلام، وتثبيت جذوره بالمنطقة، وهي على أنواع:

أ. المساجد:

يمثّل المسجد رمزاً من رموز الإسلام، فهو بيت الله الذي ورد ذكره في مواضع عدة من القرآن الكريم، فلا يكاد يخلو مصر من الأمصار من ذلك المبنى الراقي، والمغرب الأوسط كغيره من الأمصار عُمِّرت على أرضه العديد من المساجد، وخاصة مع القرون الأخيرة من العصر الوسيط. ومن المساجد التي تحمل أسماء الزيانيين بالمنطقة نجد:

1. المسجد الجامع بأفادير: يعود تأسيسه إلى عهد دولة الأدارسة، لما تمّ لهم فتح تلمسان سنة 173هـ / 789م⁽³⁾، وحظي بعناية من طرف أول سلاطين بني زيان يغمراسن الذي قام ببناء صومعته⁽¹⁾.

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ / 1406م)، مقدمة ابن خلدون، مر:

سهيل زكار، (دط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1431هـ / 2001م، ص: 53.

(2) - شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 1425هـ /

2004م، ص: 627.

(3) - ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي

الشأن الأكبر، ج 4، مر: سهيل زكار، (دط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،

1421هـ / 2000م، ص: 17. ابن الخطيب لسان الدين ذي الوزارتين (ت 776هـ / 1374م)،

2. المسجد الأعظم بتاقرارت: أسّسه يوسف بن تاشفين المرابطي سنة 437هـ/

1045م، عند تأسيسه للمدينة تلمسان⁽²⁾، موقعه وسط المدينة غرب قلعة المشور⁽³⁾، تتمثل الإضافات الزيانية له في المئذنة التي شيدها السلطان يغمراسن⁽⁴⁾؛ على شكل برج مربع كبير بداخله برج أصغر حجما تعلوه قبة صغيرة على رأسها جمور عليه كرات نحاسية⁽⁵⁾. وأيضاً توسيع بيت الصلاة والصحن، وإضافة القبة الثانية، ويبدو متأثراً بالعمارة الأندلسية في التيجان التي تشبه تيجان مسجد قرطبة⁽⁶⁾، كما شهد المسجد إضافات أخرى ترجع إلى فترة أبي حمو موسى الثاني؛ كخزانة الكتب التي أهداها للجامع، بناء على ما جاء



تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تح: أحمد مختار العبّادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، (دط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م، ص: 192.

(1)-R.P.Gthéry. O.P, TelmcenEvocation sur son Passé, edition, ENAG, Alger, 2011, p p: 65, 66.

(2) - بالأعرج عبد الرحمن، علاقات دول المغرب الإسلامي بدول الممالك سياسياً وثقافياً بين القرنين السابع والتاسع هجريين (7 - 9هـ / 13 - 15م)، رسالة دكتوراه، المغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1434هـ / 2013م، ص: 149.

(3) - بوعزيز يحيى، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، (دط)، منشورات ANEP، الجزائر، 2011م، ص: 111.

(4)-R.P.Gthéry.O.P, opcit, p: 66.

(5) -بوطارن مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، (دط)، مؤسسة كنوز، الجزائر، 2011م، ص ص: 118، 119.

(6) - فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، (دط)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص: 146.

منقوشا على اللوحة الخشبية يمين المحراب⁽¹⁾؛ التي تحمل اسمه وتاريخ الانتهاء من الإنشاء 760هـ / 1359م، ومكتبة يعود تاريخها إلى عهد ابنه الأمير أبي زيان (797-802هـ / 1394-1399م)⁽²⁾.

3. مسجد جزائر بني مزغنة "المسجد الكبير": هو الآخر شيده يوسف بن تاشفين المرابطي بين سنتي (475-490هـ / 1082-1096م)⁽³⁾، بُنيت مئذنته على قاعدة شبه مربعة من طرف السلطان الزياني أبي تاشفين ما بين سنتي (722-723هـ / 1322-1323م)⁽⁴⁾.

4. المسجد الكبير بندرومة: وهو من المكاسب الأثرية القليلة للمرابطين بالمنطقة، تم بناؤه على يد يوسف بن تاشفين⁽⁵⁾، ويقع بحي التريبعة غرب المدينة⁽⁶⁾،

(1) _ وهو التجويف الموجود في جدار القبلة على يمين المنبر. ينظر: بيلول جمال، المصطلحات المعمارية المدنية (عربي، فرنسي، أمازيغي)، أفريقيا الشرق، المغرب، (دط)، 2014م، ص: 113.

(2) - دحماني صبرينة، «المساجد المرابطية» دراسة تنميطية"، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتعاتنروبولوجية وذاكرة، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ج2، 2011م، ص: 482.

(3) - منصوري محمد، «مقارنة بين مسجدين مرابطين الجامع الكبير بندرومة والجزائر»، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجيا وذاكرة، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ج1، ط1، 2011م، ص ص: 586-588.

(4) - بن حموش مصطفى، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولوكس والوثائق العثمانية، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2007م، ص: 21.

(5) - Mohamed benamarDjebbare: *Nedroma et sesgrandennoons*, Dar essabil, 2011, p: 28.

(6) - ميدون عز الدين، ندرومة مدينة الفن والتاريخ، ط1، دار السبيل للنشر والتوزيع، (دمن)، 2011م، ص: 16.

تمثلت الإضافات الزيانية له في الصومعة؛ التي اتخذت شكل برج مربع، يتكون من طابقين؛ الثاني أقل حجماً من الأول، ووسط البرج سلماً يؤدي إلى سطحه⁽¹⁾.

5. مسجد أبي الحسن التنسي: وشيّدَه السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ / 1296م⁽²⁾ لذكرى الأمير الزياني أبي عمر إبراهيم بن أبي يحيى يغمراسن، حسبما جاء في الكتابة الموجودة على جدار القبلة⁽³⁾، وفيما بعد نسب إلى أحد مشاهير العلماء تولى التدريس به؛ هو ابن يخلف التنسي⁽⁴⁾. ويقع شرق جنوب المسجد الكبير، يتميز بصغر حجمه، قاعة صلاته مربعة⁽⁵⁾، تتكون من ثلاث بلاطات⁽⁶⁾، وستة سوارى من الرخام الأبيض⁽⁷⁾،

(1) - بوطارن، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 77، 78.

(2) - ابن خلدون يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد (ت 780هـ)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج 1، تح: ألفرد بل، بير فونطانة الشرقية، (د. ط)، الجزائر، 1321هـ / 1903م، ص: 119.

(3) - لعرج عبد العزيز محمود، «جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعة تلمسان الكبير وسيدي بلحسن»، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، أعمال ملتقى دولي بتلمسان، ج 1، 2011م، ص: 219.

(4) - بالأعرج عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 149.

(5) - فيلاي، المرجع السابق، ج 1، ص: 147.

(6) - وهي الممر العمودي على جدار القبلة. ينظر: الحداد محمد حمزة إسماعيل، دراسة المصطلحات الفنية للمعمارة الإسلامية، ط 3، زهراء الشرق، القاهرة، 2008م، ص: 43.

(7) - إبراهيمي نصر الدين، تلمسان الذاكرة، ط 2، منشورات شالة، الأبيار (الجزائر)، 2010م، ص: 169. بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص: 145.

وتيجان تجمع بينها أقواس على شكل حذوة الفرس، ومغطى بسقف من خشب الأرز، وله ثلاثة أروقة، محرابه على شكل تجويف خماسي الأضلاع تعلوه قبة صغيرة مئمنة، ومئذنته في الجهة الجنوبية وتتألف من طابقين مربعي الشكل⁽¹⁾.

6. مسجد أولاد الإمام⁽²⁾: شُيّد من طرف السلطان أبي حمو موسى الأول عام 710هـ / 1310م⁽³⁾، وأضيف إلى المدرسة⁽⁴⁾، واجهات مئذنته على شكل معين وسطها دعامة⁽⁵⁾. أما قاعة صلاته فتتألف من ثلاث بلاطات وثلاثة

(1) - شاوش الحاج محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ج1، (دط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011م، ص: 187. بوطارن، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص ص: 151، 152.

(2) - هما الأخوان؛ عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن الإمام المكنى بأبي زيد، وأخوه أبو موسى عيسى، من الفقهاء العظام، حضيا بمكانة خاصة لدى السلطان أبي حمو موسى الأول، وتخرج عليهم العديد من العلماء، توفي أبو زيد سنة 743هـ، أما أبو موسى فتوفي سنة 749هـ بالطاعون. ينظر: التنبكتي أبو العباس أحمد بابا (ت 1036هـ / 1627م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، ط1، طرابلس، 1989م، ص ص: 245 - 247.

(3) - فيلاي، المرجع السابق ج1، ص: 147.

(4) - بوشقيف محمد، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14/ 15م)، رسالة دكتوراه، التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1432هـ / 2011م، ص: 49.

(5) - هي المساند والأكتاف؛ مختلفة الأشكال، تستند عليها أسقف العماير. ينظر: بيلول، المرجع السابق، ص: 53.

أساكيب⁽¹⁾، أو سعتها البلاطة التي تلي المحراب، وهذا الأخير على شكل تجويف خماسي تنتهي أضلاعه بإفريز عريض تستند عليه سبعة عقود زخرفية مفصّصة، وله قبة مزخرفة بتماثيل مدلاة في جوانبها تعلوها قبة صغيرة، ولديه ثلاثة أبواب؛ الأول في الجدار الشمالي يفتح على صحن المدرسة، والثاني يؤدي إلى درج المئذنة، والثالث في الجدار الشرقي يؤدي إلى قاعة الصلاة، كما سُقِفَ المسجد بثلاثة سقوف جمالونية مغطاة من الداخل بصفوف من ألواح منتظمة ومتراصة⁽²⁾.

7. مسجد إبراهيم المصمودي: ويعتبر إضافة إلى ملحقاته من المنشآت التي شيدها السلطان أبو حمو موسى الثاني تكريماً لوالده أبي يعقوب يوسف⁽³⁾، أما عن نسبته لهذا الشيخ فكانت بعد وفاته سنة 804هـ / 1401م بحيث دفن بجواره⁽⁴⁾. يقع جنوب غرب قلعة المشور، قاعة صلاته مربعة، مكونة من أربع بلاطات، وخمسة أروقة⁽⁵⁾، وانتصبت فيه ستة عشر سارية يعلوها قبتان، ومغطى بسقف خشبي، وبه صحن مربع تتوسطه نافورة، أما المئذنة فموقعها

(1) - وهي الممرات الموازية لجدار القبلة، تمتد من الجدار الشرقي إلى الغربي. ينظر: الحداد محمد، المرجع السابق، ص: 43.

(2) - شاوش الحاج، المرجع السابق، ص: 198. بوطارن، العماثر الدينية في المغرب الأوسط، ص: 165 - 172.

(3) - خالدي رشيد، دور علماء المغرب الأوسط في ازدهار الحركة العلمية في المغرب الأقصى خلال القرنين (7 - 8هـ / 13 - 14م)، مذكرة ماجستير، تاريخ المغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1432هـ / 2011م، ص: 29.

(4) - فيلاي، المرجع السابق ج 1، ص: 147.

(5) - شاوش، المرجع السابق، ج 1، ص: 212.

في الجزء الشمالي الغربي، تتكون من برجين، وخلف الصحن نجد مدخل يؤدي إلى مساحة تعادل مساحة المسجد على يسارها باب يؤدي إلى الشارع⁽¹⁾. هذا وكما دأب المرينيون مثلهم مثل الزيانيين على الاهتمام ببناء المساجد وتجديد جوانبها، ومن أهم مآثرهم نجد:

1. مسجد المنصورة: بني هذا المسجد بأمر من السلطان يوسف أبي يعقوب سنة 702هـ / 1302م أثناء حصاره الطويل على تلمسان وبنائه لمدينة المنصورة⁽²⁾، وهو أكبر مسجد شيده المرينيون في المغرب الأقصى والأوسط. شكله مستطيل، تتكون قاعة صلاته من تسع بلاطات، وثلاثة عشر أسكوبا⁽³⁾، ويتوسط حائط القبلة محراب شكله مضلع يشبه جامع قرطبة، بني بالآجر والطابية، وزود بنافذتين، ومدخلان يربطان قاعة الصلاة بغرفة الجنائز، هذه التي - إلى جانب وظيفتها الجنائزية - يرجح أنها كانت حجرة استراحة

(1) - بوعزيز، المرجع السابق، ص: 130، 131. بوطارن، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص ص: 186، 187.

(2) - ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (كان حيا ما بين 710هـ - 731هـ / 1310 - 1331م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، (دط)، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص: 387.

(3) - أبو رحاب محمد السيد، «ملاحم تخطيط العماير الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط "دراسة أثرية مقارنة"»، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، ج 1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، 2011م، ص ص: 147 - 149. بكاي هوارية، العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا، رسالة ماجستير، تاريخ المغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2008م، ص ص: 244، 245.

للسلطان أو الإمام، أما رواق القبلة فينقسم إلى جزأين؛ الأول منه يلي الحائط مباشرة، على جانبيه الأيمن والأيسر ثلاث بلاطات موازية للحائط، ويمثل الجزء الثاني المساحة التي تمتد من الجزء السابق إلى الصحن، ويتكون من ثلاثة عشر بلاطة؛ الوسطى منها أكثر اتساعاً، وتستند العقود في هذا الجزء على ستة صفوف من الدعامات موازية لجدار القبلة، مُشكّلة بذلك ستة أساكيب؛ يحوي كل منها اثنا عشر دعامة⁽¹⁾، أما مئذنته فبنيت بالحجارة المهدّبة، لها ممراً حلزونياً للصعود لشرفة المؤذّن⁽²⁾، وينفرد هذا المسجد بميزة خاصة؛ هي كثرة الأبواب وعددها ثلاثة عشر⁽³⁾.

2. مسجد سيدي الحلوي الشوزي: أمر بتشيدده السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان عام 754هـ / 1353م⁽⁴⁾. ويقع شمال تلمسان، يتكون من قاعة صلاة مربعة الشكل، تضم ستة عشر سارية؛ بعضها من الرخام، والآخر من أعمدة خشبية⁽⁵⁾، وجدرانها ملساء ماعدا المحراب مزين بنقوش⁽⁶⁾. صحنه مربع الشكل به أروقة مغطاة، وصهريج للوضوء وميضأة بها العديد من

(1) - لـعرج عبد العزيز، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ط2، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، 2011م، ص ص: 134 - 139.

(2) - براهيم، المرجع السابق، ص: 180.

(3) - شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ص: 127.

(4) - المرجع نفسه، ص: 260.

(5) - بوغزيز يحيى، المرجع السابق، ص ص: 137، 138. براهيم، المرجع السابق، ص: 181.

(6) - لـعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ص: 137.

المشكاة⁽¹⁾، أما مئذنته فمزينة من جهاتها الأربع بأشكال من الفخار، وله ثلاثة أبواب؛ شرقي وغربي، وجوفي وهو الرئيسي، وهو بهذا الوصف يشبه مسجد العباد⁽²⁾، وهو كما قال النميري: «من أجمل الجوامع، قد أحكمت فيه أنواع الصنائع»⁽³⁾.

3. مسجد أبي مدين بالعباد: تم تشييده بأمر من السلطان عبد الله علي بن أبي سعيد عثمان عام 739هـ / 1338م⁽⁴⁾، واقرن باسم هذا الولي لأنه أنشئ بالقرب من ضريحه⁽⁵⁾. شكله مستطيل، وقاعة صلاته تشتمل على خمس بلاطات وثلاثة أساكيب؛ الرئيسية منها تتقدم المحراب⁽⁶⁾ مباشرة، وتضم عشرين سارية مربعة،

(1) - وهي الكوة، وهي أيضا الحديدية التي تعلّق عليها القناديل، وتسمى الفتيلة غير النافذة. ينظر: نَوّار سامي محمد، الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم، (دط)، دار الوفاء، الإسكندرية، (دت)، ص: 169.

(2) - شاوش الحاج، المرجع السابق، ص: 260. الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ / 1213م) - (869هـ / 1465م)، ط2، دار القلم، الكويت، 1408هـ / 1987م، ص: 322.

(3) - النميري ابن الحاج أبو القاسم برهان الدّين إبراهيم بن عبد الله (ت بعد 774هـ)، فيض العباب وإفاضة قَدّاح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قسنطينة والزّاب، در: محمد بن شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص: 488.

(4) - فيلاي، المرجع السابق، ج1، ص: 147.

(5) - براهيم، المرجع السابق، ص: 194. الحريري، المرجع السابق، ص: 322. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، مج2، ط1، دار الرّشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1398هـ / 1978م، ص: 159.

(6) - ينظر: الملحق رقم: 02.

غطّي بقبة مقرنصة، وبه صحن مكشوف تتوسطه نافورة، تحفّ به أربعة أروقة، أما مئذنته⁽¹⁾ فتتكون من طابقين مربعين⁽²⁾، وله مدخل فخّم به مدرّج ومغطّي بظلّة له مصراعين⁽³⁾ عليه صفائح نحاسية، إضافة إلى باين جانبيين مفتوحان على قاعة الصلاة، وغطّي بسقف مطلي بالجبس⁽⁴⁾.

4. المسجد العتيق بمستغانم: لم يُذكر عنه إلا اسم مؤسّسه السلطان أبو الحسن وسنة تأسيسه 742هـ / 1341م، والأوقاف التي خصّصت له لتسيير شؤونه كالدكاكين والأفران⁽⁵⁾.

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على العناية الفائقة التي أولاها السلاطين لاهتمام بالمساجد، والحرص على أن تظهر في أجمل صورة تخلّد أسماءهم في صفحات التاريخ. على أن هذه العناية لم تقتصر على السلاطين فحسب، إنما تجاوزتهم إلى العلماء والمتصوفة، بل وحتى إلى عامة الناس، ومنها المسجد الذي يقع بقرية عين الحوت شمال تلمسان؛ الذي تم تأسيسه خلال ق 9هـ / 15م، وأخذ اسم مؤسسه سيدي عبد الله بن منصور الحوتي، ويتكون من قاعة صلاة على شكل مستطيل، وإلى جانب

(1) - ينظر: الملحق رقم: 01.

(2) - أبو رحاب، المرجع السابق، ص: 131. بوروبة لطيفة، «نماذج من الزخرفة الهندسية في عمارة جامعي أبي مدين والحلوي»، العمارة والآثار الإسلامية، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، ج 1، ص ص: 236، 237.

(3) - وهما دفئا الباب المنصوبتان رأسيا إلى جانب بعضهما على فتحة الباب. ينظر: نوار سامي، المرجع السابق، ص: 169.

(4) - براهيم، المرجع السابق، ص: 194. بوروبة لطيفة، المرجع السابق، ص: 236.

(5) - بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص ص: 51، 52.

المحراب نجد منبر، واحتوى على صحن مساحته تعادل مساحة قاعة الصلاة، أما منارته فهي مربعة الشكل⁽¹⁾. أيضا المسجد الواقع في سوق البرادعين المنسوب إلى الشيخ السنوسي، وما يميّزه أن قاعة صلاته بنيت في الطابق العلوي على شكل مستطيل، يضم أربع سوارى، محرابه في الجدار القبلي منه، منارته مربعة الشكل، لها باب يربطها بقاعة الصلاة⁽²⁾، غير أنه يُجهل تاريخ تأسيسه واسم مؤسسه، لكن أغلب الظن أنه بني في الفترة التي عاش فيها الشيخ السنوسي خلال ق 9هـ / 15م.

وهناك مساجد أخرى لم تحظ باهتمامات المؤرخين، فلم يُذكر عنها سوى أسماؤها وبعض المواصفات العامة؛ منها مسجد سيدي البناء⁽³⁾ في سوق منش الجلد (الخرّازين)، بُني هو الآخر خلال ق 9هـ / 15م، ويشتمل على قاعة صلاة مربعة الشكل تقوم فيها ستة سوارى، ومنارته مربعة أيضا، أما الصحن فيتوسطه حوض للوضوء⁽⁴⁾. مسجد تافسة؛ وينسب إلى سيدي عبد الله بن جعفر، أنشئ خلال ق 6هـ / 12م، ويرجح أنه شهد إضافات أو تعديلات ترجع إلى هذه الفترة، فقاعة صلاته مربعة تشبه في شكلها المساجد المرينية، أما مئذنته فهي مربعة تكاد تطابق المآذن

(1) - بوعزيز، المساجد العتيقة، ص ص: 169، 170.

(2) - بوعزيز، المرجع السابق، ص ص: 246، 247. شاوش الحاج، المرجع السابق، ص: 216.

(3) - هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان بن البناء الأزدي المراكشي العددي، توفي سنة

721هـ / 1321م. ينظر: ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب (كان حيا سنة

708هـ): الوفيات، تح وت: عادل نويهض، ط4، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت،

1430هـ / 1983م، ص: 343.

(4) - شاوش الحاج محمد بن رمضان، المرجع السابق، ص: 214. بوعزيز يحيى، المرجع السابق،

ص: 151.

الزيانية، والشيء المميّز فيه هو احتواءه على محرابين؛ الأول يتقدم بيت الصلاة، والثاني بالجدار المطلّ على الصحن⁽¹⁾.

كما أن هناك العديد من المساجد التي لم يسعنا المقام للتعريج عليها، فلا تكاد تخلو مدينة أو قرية من هذا المعلم الديني باعتباره مكانا للعبادة، إضافة إلى دوره الثقافي والاجتماعي وقتذاك.

ب. الزوايا:

الزاوية هي مؤسّسة ذات طابع ثقافي، ديني، اجتماعي، فإلى جانب كونها مركزا لإقامة الصلوات كانت لها مهام أخرى، وهو ما عرف في المشرق باسم "الربط" أو "الخوانق"، وهو في تعريف ابن مرزوق؛ المكان الذي يلتزم المتصوفة فيه العبادة، أما في المغرب فتعرف بـ "الزوايا"؛ وهي المرافق المعدّة لإرفاق الواردين، وإطعام المحتاجين⁽²⁾. وكانت تقام مثلها مثل الكتاتيب من قبل المتطوعين ورجال الصوفية، والقائم عليها يعرف بالناظر؛ وهو مكلف بتلقين الأتباع أسرار الطريقة، إلى جانب الوعظ والإرشاد⁽³⁾.

لم تمدنا المصادر بشكلها المعماري، إلّا أنه في العموم يوحي بالتقشف والزهد، وكانت تجمع بين هندسة المسجد والمنزل، إلّا أنها قصيرة الجدران والقباب، قليلة

(1) - بوطارن، العماير الدينية في المغرب الأوسط، (دط)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص: 80.

(2) - ابن مرزوق أبو عبد الله محمد الخطيب (ت 781هـ)، المسند الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماربيا خيسوسبغيرا، تق: محمود بوعيادة، (دط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ/ 1981م، ص: 411، 413.

(3) - بكاي هوارية، المرجع السابق، ص ص: 56، 57.

النوافذ، وتشتمل على مرافق هي؛ مسجد لأداء الصلوات يكون في الأغلب بدون مئذنة⁽¹⁾، وأبنية يسكنها الإمام، المؤذن والناظر، وبيوتا أخرى لسكنى الطلبة الغرباء وعابري السيل، وغرفة للطبخ، إلى جانب مدافن لأولياء الله الصالحين، وغالبا ما يدفن بها الولي الذي أقامها، وينصب له ضريح بها يصبح مزارا للتبرك فيها بعد⁽²⁾. وتزامن وجودها بالمغرب الأوسط مع ق 6هـ/ 12م؛ أولها زاوية طولقة، ثم أخذت في الانتشار ما بين القرنين 8 و9هـ/ 12 و13م⁽³⁾، حيث دأب الزياني و المرينيون كغيرهم على الاهتمام بإنشاء الزوايا والرباطات، ومن أهمها:

1. زاوية أبي عبد الله؛ وأنشئت في عهد يغمراسن بن زيان على يد الشيخ أبي عبد الله، لذا أخذت اسمه، والذي ألزم كل من دخل زاويته بالتقيد بأخلاق السلف الصالح، والالتزام بالسنة النبوية⁽⁴⁾.

2. زاوية سيدي أبي الحسن؛ وشيّدتها السلطان أبو سعيد عثمان⁽⁵⁾.

(1) - سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج 1، ص: 270.

(2) - قريان عبد الجليل، التعليم بتلمسان في العهد الزياني، ط 1، ج 1، سور، المحمدية (الجزائر)، 1432هـ/ 2011م، ص: 180، 181. شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 80.

(3) - جاب الله طيب، «دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري»، معارف، ع 14، 2013م، ص: 138.

(4) - بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن "دراسة تاريخية حضارية" (633- 681هـ/ 1235-1282م)، (دط)، الألفية، الجزائر، (دت)، ص: 316.

(5) - قريان عبد الجليل، المرجع السابق، ص: 179.

3. زاوية العباد؛ وهي من إنشاء السلطان المريني أبي الحسن، وتنسب إلى الولي الصالح أبي مدين شعيب،⁽¹⁾ وكان يشرف عليها أبي عبد الله بن أبي مرزوق.⁽²⁾

4. زاوية سيدي الحلوي؛ أنشأها السلطان أبو عنان⁽³⁾، وهي ملاصقة للمسجد، لها قبة من أروع القباب حسب تعبير النميري: «المنفسحة الأرجاء اللابسة حلل السنا والسناء المزدانة بالقبة التي يحسد ارتفاع سمكها السماك، وتتمنى الإقعاد بصدرها الأملاك، وتخنع لجلال مبناها الأفلاك»⁽⁴⁾.

5. زاوية أبي يعقوب؛ وأنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده⁽⁵⁾، وأضيفت لها المئذنة مع أواخر العهد الزياني، أو بداية العهد التركي⁽⁶⁾. وهناك أسماء أخرى لبعض الزوايا ذكرت دون أي تفصيل عنها مثلها مثل المساجد؛ على سبيل المثال: زاوية الحسن بن مخلوف (أبركان) بالقرب من المدرسة

(1) - بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص: 62. ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج 7، ص: 368.

(2) - بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ص: 317.

(3) - فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج 1، ص: 149. براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 219.

(4) - النميري، المصدر السابق، ص: 488.

(5) - فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، ج 1، ص: 149.

(6) - حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزياني "حياته وآثاره"، ط 1، بني مرابط، (دمن)،

1432 هـ / 2011 م، ص ص: 240، 241.

الجديدة التي جدّدها السلطان أبو العباس أحمد العاقل⁽¹⁾. زاوية "الشيخ السنوسي".
زاوية "ابن البناء". زاوية "الشيخ العشّاشي" بشلف. "زاوية سيدي الذيب"، زاوية
"أحمد الغماري". زاوية "عين الحوت"⁽²⁾، زاوية "الثعالبي"⁽³⁾ وزاوية "الشيخ
الزواوي"⁽⁴⁾ بالجزائر⁽⁵⁾.

ورغم بساطة هذه المؤسسات فإنّها ساهمت وبقدر كبير في نشر العلم في أوساط
المجتمع، بحيث مكّنت من أراد المزيد من الدراسة خوض غمار الرحلة العلمية
للاستزادة والتحصيل.

ثانيا: الفن الزخرفي بالعمائر الدينية:

يعود الفن الزخرفي إلى الحضارات القديمة؛ كالفينيقيين، المصريين والساسانيين،
وكانت آنذاك الزخرفة الآدمية والحيوانية هي الشائعة⁽⁶⁾، ولكن بعد مجيء الإسلام

(1) -التنسي محمد بن عبد الله (ت 899هـ/ 1494م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من
نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان)، تح وتعل: محمود آغا بوعياذ، (دط)، موفم للنشر،
الجزائر، 2011م، ص ص: 248، 249.

(2) - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،
1998م، ص: 265.

(3) - قريان عبد الجليل، المرجع السابق، ص: 179.

(4) - هو محمد بن يعقوب بن يوسف المنجلاقي الزواوي المكّني أبو عبد الله، عرف بالزواوي نسبة
إلى قبيلة من البربر، تولى القضاء ببجاية. ينظر: التنبكتي: نيل الإبتهاج، ص ص: 389، 390.

(5) - عموره عمار، الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة "ما قبل التاريخ إلى 1962م")،
ج 2، (دط)، دار المعرفة، الجزائر، 2009م، ص: 40.

(6) - بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 62. قرقوتي حنان، تخطيط المدن (العمارة والزخرفة)،
المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1427هـ/ 2006م، ص: 109.

أخذت الزخرفة منحى جديدا؛ أخذت تركز فيه على العناصر النباتية، الهندسية، الكتابية، وتبتعد عن تصوير كل ما هو حي لتحريمه في الشرع الإسلامي. ومما هو ملاحظ أن الدول التي عمّرت على أرض المغرب الأوسط اهتمت بزخرفة شتى أنواع البنايات، لا سيما الدينية منها، ومع تزايد الهجرة الأندلسية إلى المنطقة زاد تأثر السلاطين بأساليبهم الفنية، ومن بين الزخارف التي زينت عمائر المغرب الأوسط نجد:

1. الزخرفة النباتية⁽¹⁾:

ويظهر هذا النوع من الزخرفة في مختلف المنجزات المعمارية الزيرية التي خلّفت موروثا حضاريا تناوبت فيه مع المرينيين، ومن هذه المنشآت نجد؛ مسجد أبي الحسن الذي مزجت فيه بين الهندسية والكتابية، مما شكّل تحفا فنية رائعة، مثلا: لفظ الجلالة "الله"، كذلك المراوح النخيلية بأنواعها؛ بسيطة أو مزدوجة أو حتى ثلاثية⁽²⁾،



رزقي نبيلة، الزخرفة الحصية في عمائر المغرب الأوسط والأندلس (القرن 7هـ - 8هـ / 13 - 14م)، رسالة دكتوراه، علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بالقائد، تلمسان، 2015م، ص: 86.

(1) - تتكون من عناصر نباتية كالأوراق والأزهار والأغصان، البتلات والبراعم، تعتمد في تشكيلها على الخصائص الهندسية؛ كالتناظر والتشابه والتناسب، وهو ما يعرف بالآريسم "التوريق"؛ هذا الفن يختص به المسلمون دون غيرهم. ينظر: بوسماحة حسن، فن الزخرفة، ط1، أوراق للنشر والتوزيع، سوق أهراس، 2012م، ص: 94. لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان (669هـ - 869هـ / 1269م - 1465م)، ط1، الملكية، (دم)، 2007م، ص: 203.

(2) - مهتاري فائزة، «الزخارف في المساجد الزيرية والمرينية بتلمسان»، مجلة

RevisitaArgelina، Num: 01، Otono 2015، ص: 25.

بالإضافة إلى السيقان الحلزونية والمنحنية، والأوراق الثلاثية الفصوص، والزهيرات الرباعية⁽¹⁾. كما يلاحظ وجود زخرفة نباتية بيزنطية استخدمت في تزيين المسجد، يظهر فيها التأثير الأندلسي المتمثل في مسجد قرطبة⁽²⁾.

وتقريبا كل المنشآت الزبانية زينت بنفس الزخرفة⁽³⁾ إلا بعض الاختلافات البسيطة، إذ احتوى مثلا مسجد أولاد الإمام زخارف نباتية تمثلت في مراوح نخيلية بسيطة، ضمت أوراقا نباتية خماسية الفصوص، ومن العناصر المكونة أيضا للزخرفة النباتية نجد المحارة التي تتفرع منها مراوح نخيلية، كما هو موجود في مسجد إبراهيم المصمودي⁽⁴⁾، كما يلاحظ أيضا وجود كيزان من الصنوبر تتخللها سيقان نباتية، وجدت هذه الزخرفة على بنىقات⁽⁵⁾ العقود الثلاثية التي تعلو المحراب، وهي تشبه الزخارف المرينية على واجهة الباب الرئيسي في مسجد العباد، المشابهة لزخارف قصر الحمراء بالأندلس⁽⁶⁾.

(1) -بوطارن مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 156.

(2) - موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ط 1، دار السيل، الجزائر، 2012م، ص: 168، 170.

(3) - ينظر: الملحق رقم: 03.

(4) -بوطارن مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 173. مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص ص: 24، 25.

(5) - وهي المساحة المثلثة المحصورة بين عقدتين متجاورين، إذ يحتوي عقد على بنيتين على جانبيه. ينظر: بيلول جمال، المرجع السابق، ص: 24.

(6) -بوطارن مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص ص: 173، 174.

ومن النماذج المرينية التي احتوت هذا النوع من الزخرفة نذكر مسجد العباد⁽¹⁾، والذي اشتمل على زخارف نباتية متمثلة في سيقان رفيعة تنتهي بمروحة نخيلية ملتوية على شكل علامة استفهام، واستخدم هذا النوع من الزخرفة في تزيين المساحات العليا المجاورة لنوافذ المحراب⁽²⁾، وبعض الزخارف الجصية المتقاطعة والمتناظرة التي زينت أحد جدران المسجد⁽³⁾، كما استخدم الفنان المريني المراوح النخيلية القصيرة والكبيرة لملء الفراغات في الزخارف الجصية الأخرى، وبعض الأشكال مثل كيزان الصنوبر لتزيين تيجان عمودي المحراب⁽⁴⁾.

ومن العناصر النباتية التي شاع استعمالها لدى الميرنيين هي المراوح البسيطة التي تتكون من ورقة واحدة أو فصّ، وهذا ما نجده على جدران سَقِيفَة مدخل العباد، وعلى عقود بيت الصلاة⁽⁵⁾، والشيء الملفت للانتباه في هذا المسجد هو القبة المقرنصة التي تعلو المحراب، ومثلتها فوق سقيفة المدخل الرئيسي، واللذان تعبّران على مدى رقي الفن المريني الواضح فيه اللمسة الأندلسية.

وإن المتتبع للزخارف النباتية المستعملة عند كل من الزيانيين والمرينيين يجد تشابها كبيرا بينهما، يحتوي كل منهما على المراوح النخيلية وكذا كيزان الصنوبر

(1) - ينظر: الملحق رقم: 04.

(2) - المرجع نفسه، ص ص: 215، 216.

(3) - موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 157.

(4) - بوطارن مبارك، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 217.

(5) - لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان، ص: 206.

والمحارة، مع مبالغة كليهما في تزيين المحارب⁽¹⁾، أيضا اشتراكهما في استعمال بعض الزخارف البيزنطية. أما فيما يخص الاختلاف بينهما فالواضح هو عناية المرينيين بمدخل منشآتهم عناية خاصة، على سبيل المثال مدخل مسجد العباد، في حين نجد هذا الأمر محتشما في المنشآت الزيانية، هذا ودون أن ننسى استعمال الزيانين لبعض العناصر النباتية التي لا تتوفر في الزخارف المرينية؛ ومنها عناقيد العنب المستعملة منذ فترة المرابطين.

2. الزخرفة الخطية:

وتستعمل فيها الخطوط العربية المشهورة كالنسخ، الثلث، الديواني والفارسي، وخاصة الكوفي المورق والمزهر، وكذا الهندسي والمظفر⁽²⁾، أما عن الخطوط التي انتشرت في المغرب الأوسط فيمكن حصرها في الخط المغربي؛ وهو تَلِين للخط الكوفي اليباس وتخفيف بعض حروفه المثقّلة، وكذا الخط الأندلسي المميّز باستدارة الحروف وإطالة أواخرها، فتتداخل كلماته ويظهر التناسق بين الحروف، ومع دخول الموحدين عرف خط جديد؛ هو خط النسخ الموحدي، هذا الذي تجذّر خلال العصرين الزياني

(1) - واختلف جمهور العلماء في ذلك؛ فهناك من يقول أنها بدعة مستحسنة، استنادا على نهي الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله: «اتَّقُوا هَذِهِ الْمَذَابِحَ»؛ فيقصد هنا المحاريب، بينما يرى آخرون أنها بدعة مكروهة. ينظر: الكنتي باي بن سيدي عمر الوافي، السنن المبين في شرح أحاديث أصول الدين، إ:ع: مالك كرشوشو حيمد الكنتي، ج 4، ط 1، مركز الإمام الثعالبي للدراسات والنشر والتراث، الجزائر، 1432 هـ / 2011 م، ص: 215.

(2) - بوسماحة حسن، المرجع السابق، ص: 106.

والمريني، وظلّ هو الخط الغالب سواءً في المخطوطات أو الكتابات التأسيسية في المنشآت المعمارية⁽¹⁾.

ومن بين الزخارف الكتابية التي زيّنت العماير الدينية حينذاك تلك العبارات الدينية، والآيات القرآنية التي استُعملت في تزيين واجهاتها، منها مسجد أبي الحسن المكتوب على محرابه عبارة "الملك الدائم لله" بالخط الكوفي، وكذا كلمة "اليُمن" التي رسمت بشكل تناظري، وزيّنت بها بنىقات العقود، هذا ودون أن نتجاهل ذلك النص التأسيسي المكتوب على لوحة رخامية على الجدار الغربي، جاء في الكتابة العمودية اليمنى: «بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً»، وفيما يقابلها من الجهة اليسرى: «أبي يحيى يغمراسن بن زيان في سنة ستة وتسعين وستماية من بعد وفاته رحمه الله». أما الكتابة الأفقية العليا: «بنى هذا المسجد للأمير أبي عامر إبراهيم ابن السلطان»، أما وسط الإطار والجهة السفلية منه، فتضمّن الكتابة التي تبيّن الأملاك الموقوفة على المسجد، منقوشة بخط كوفي متقن وجميل تتشابه معه زخارف نباتية مكوّنة من زهور وأوراق ملتوية، نجد مثلتها في إفريز المحراب⁽²⁾، ومن هذه الزخارف الملفّقة للنظر عبارة: "ولا غالب إلا الله"⁽³⁾ بأعلى واجهة محراب مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، المكتوبة بخط كوفي مزهر ومورق،

(1) - معزوز عبد الحق، شواهد القبور في المغرب الأوسط، ط 1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص ص: 250 - 267.

(2) - بورويبة رشيد، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، (دط)، موفم للنشر، الجزائر، 2011م، ص: 77. مبارك بوطارن، العماير الدينية في المغرب الأوسط، ص: 159 - 161.

(3) - ينظر: الملحق رقم: 06.

وبعض العبارات الموجودة على جدران الضريح كـ "العز لله"، "الملك لله" و"الشكر لله" داخل إطار هندسي جميل⁽¹⁾.

ودون أن ننسى المآذن التي أضيفت من قبل الزينيين للمساجد المرابطية؛ التي زادت بها جمالا، من خلال العقود المفصصة التي تزيّنها، وكذا الزخارف التي حملتها جنباتها، ومنها مثذنة مسجد ندرومة، والتي احتوت لوحة من المرمر، تُبَيِّن على الحائط الشمالي للمسجد⁽²⁾، جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد، بني هذا الصامع أهل ندرومة بأموالهم وأنفسهم، وكل احتساب الله، وانبت في خمسين يوما، وبناها محمد بن عبد الحق بن عبد الرحمن الشيعي في عام تسعة وأربعين وسبع مائة، رحمة الله عليهم أجمعين»⁽³⁾. أما من الناحية الفنية فهي أقل جمالا إذا ما قورنت بالنقوش التأسيسية الأخرى الزيانية أو المرينية، وهذا طبيعي لأن المثذنة بنيت بمبادرة من السكان⁽⁴⁾. ومنها أيضا مثذنة مسجد المشور، والتي اشتملت على لوحات كتابية من الزليج تضمّنت عبارات منقوشة بالخط الأندلسي، منها: «اليمن والإقبال، اليمن والإقبال، يا ثقتي، يا أملي أنت الرجا، أنت الولي، اختم بخير عملي»، يظهر فيها التأثير الأندلسي مباشرا، إذ هي نفس العبارة تقريبا الموجودة على أحد تيجان قصر الحمراء⁽⁵⁾.

(1)- مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص: 26.

(2)- بورويبة رشيد، المرجع السابق، ص: 57.

(3)- ميدون عز الدين، المرجع السابق، ص: 27.

(4)- بورويبة رشيد، المرجع السابق، ص: 58.

(5)- موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ط 1، دار السيل، الجزائر،

2012 م، ص: 212.

أما فيما يخص الزخرفة الخطية التي تفنّن الفنّان المريني في توقيعها على مبانيهم، فعلى سبيل الذكر نجد ذلك النص التأسيسي بمئذنة جامع المنصورة، والمكتوب بالخط النسخي المغربي الأندلسي، وإن كانت جلّ هذه الكتابة قد انمحت إلا أنه يظهر وضعها على أرضية نباتية⁽¹⁾. ومن المساجد التي لا تزال قائمة بزخارفها الرائعة مسجد أبي مدين، ذلك الصرح الديني الذي قلّ نظيره في المغرب، والذي احتوى العديد من الزخارف، اكتفينا بهذه؛ ومنها النص التأسيسي المكتوب على الفسيفساء داخل إطار مستطيل يعلو المدخل بخط أندلسي مزين بزخرفة نباتية⁽²⁾، وصيغتها: «الحمد لله وحده أمر بتشيد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن مولانا أبي سعيد عثمان ابن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق، أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعمهم الله به»⁽³⁾. كما نقش أيضا على واجهته بالخط الكوفي عبارة: "بركة محمد"⁽⁴⁾. ومنها أيضا تلك الأشرطة المستطيلة التي تزيّن جدران سقيفة المدخل، والمكتوبة بالخط الكوفي على أرضية من الزخارف النباتية؛ منها: "الحمد لله على نعمائه"⁽⁵⁾، ومن الجهة اليسرى بشكل عمودي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، وعلى يمينه سورة الإخلاص، وفوقه بشكل أفقي البسملة، بالإضافة إلى الكتابة الموجودة في الجهة اليسرى للبلاطة الوسطى المقابلة للمحراب والمثبتة على

(1) - لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان، ص: 274.

(2) - المرجع نفسه، ص: 81.

(3) - بورويبة رشيد، المرجع السابق، ص: 81.

(4) - براهيم نصر الدين، المرجع السابق، ص: 194. بورويبة لطيفة، المرجع السابق، ص: 236.

(5) - شلحاي ريمة، الزخارف الجدارية في الآثار الزيانية والمرينية في المغرب الأوسط، مذكرة

ماجستير، الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2011م، ص: 84.

لوحة من الرّخام بخط أندلسي، وجاء تبصيغة: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما، الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين"⁽¹⁾.

أما الكتابات المنقوشة على مسجد سيدي الحلوي فقد انمحي جلّها، إلا بعض منها الموجودة على بنىقات العقد جاء فيها كلمة: "البركة"، وزيّنت المساحات التي حولها بمراوح نخيلية فيها البسيطة ومزدوجة الفصوص⁽²⁾، إضافة إلى الكتابة التأسيسية التي نقشت بالخط الأندلسي على شريط ضيق يعلو قوس المدخل، وهذا نصها: «الحمد لله وحده أمر بتشيد هذا الجامع المبارك، مولانا السلطان أبو عنان فارس... مولانا السلطان أبي الحسن علي بن مولانا السلطان أبي... عثمان ابن مولانا أبي يوسف ابن عبد الحق أيد الله نصره عام أربع وخمسين وسبع مائة»⁽³⁾. إلى جانب ما هو مكتوب بخط النسخ على تاجي عمودي المحراب في ثلاث أشرطة يحيط بها شريطين من الأشكال الهندسية، جاء في الكتابة التي على التاج الأيمن: «جامع ضريح. المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس. أمير المؤمنين»، وعلى التاج الأيسر: «جامع ضريح. الشيخ الولي الرّضي الحلوي. رحمة الله عليه»⁽⁴⁾. فكانت هذه الكتابات جميلة تبرهن على مدى تمكّن الفنان المريني في هذا المجال.

ومن خلال المقارنة بين الزخرفتين الزيانية ونظيرتها المرينية، نجد أنّ هناك تشابها كبيرا بينهما لاستخدامهما نفس الخطوط تقريبا، وحتى بعض العبارات نجدها

(1)- بورويبة رشيد، المرجع السابق، ص: 83.

(2)- شلحاوي ريمة، المرجع السابق، ص: 97.

(3)- وليم وجورج مرسية، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، تر: مراد بلعيد وآخرون، ط1، الأصالّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1432هـ/ 2011م، ص ص: 402، 403.

(4)- لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان، ص: 277.

متكررة، منها على سبيل الذكر: "العز لله"، "الملك لله"، "الحمد لله"، غير أن بعضها جاء مقلوبا على الجدران المرينية، ما فسّر عند أهل الاختصاص على أن الفنان المريني يسعى من وراء ذلك لجلب انتباه الملاحظ⁽¹⁾. وأما من حيث الاختلاف بينهما، فإن الزخارف الكتابية الزيانية نجدها تتناوب ما بين الخط الكوفي بنوعيه المورق والمزهر والخط الأندلسي، أما المرينية ففي معظمها جاءت بالخط الأندلسي.

3. الزخرفة الهندسية⁽²⁾:

أما الزخرفة الهندسية فهي كغيرها شغلت اهتمام الفنان المغربي عموما سواء في تلك الفترة أو الفترات السابقة، وحيث نخصّ بالذكر المرحلة الأخيرة من تاريخ الفترة الوسيطية؛ فلأن الفن الزخرفي آنذاك قد بلغ مرحلة النضج، إذ سعى الفنانون لابتكار أشكالاً جديدة أكثر دقة وإتقاناً.

ومن أهم العماثر الزيانية التي عرفت الزخرفة الهندسية، مسجد أبي الحسن، من كونه لا يزال قائماً إلى اليوم، وإن كانت زخارفه قد زالت، ومع هذا سنحاول تسليط الضوء على الجزء المتبقي منها، فقد احتوى أشكالاً هندسية اجتمعت مع النباتية والكتابية، كالأفاريز الهندسية التي تحوي بعض الأشكال من كلا الزخرفتين، ومن العناصر الهندسية ما جاء خالياً من الزخارف الأخرى، وهذا قلّ ما نجده في العمارة الزيانية، ومنها الأطباق النجمية، وهناك بعض الأشكال الهندسية الأخرى التي تتقاطع فيما بينها مشكّلةً مربعات ومعينات تستخدم في الغالب كإطار للزخرفة

(1) - مهتاري فائزة، المرجع السابق، ص: 29.

(2) - وتقوم أساساً على خطوط منحنية ومنكسرة، وأشكال هندسية كالربع، المثلث والدائرة، وما ينشّق عنهم من أشكال نجمية وغيرها، يسعى الفنان لتشبيك هاته الأشكال للحصول على أشكال جديدة أكثر تناسقا وتناسبا تشد نظر الملاحظ لها. ينظر: بوسماحة حسن، المرجع السابق، ص: 14.

الكتابية، نجد جلّها في واجهة المحراب. أما مدخل المسجد فقد زيّن بدوائر تتقاطع فيما بينها مشكلة أقواسا تحيط بعقد المدخل، وحتى النوافذ⁽¹⁾، هاته الأخيرة التي زيّنت بنجمات سليمانية مشتقاتها متراسة، وكذلك الأمر بالنسبة للمئذنة التي زخرفت بأشكال هندسية من الزليج، قوامها معينات متقاطعة مع بعضها البعض، تتوسطها معينات أصغر حجماً، ونفس الشكل أيضا نجده في صومعة مسجد أولاد الإمام⁽²⁾. وما يمكن قوله عن الزخرفة الإسلامية بأنواعها الثلاث خلال الفترة المدروسة أنها إحدى مراحل الإبداع الفني تشدّ انتباه الزائر لها، كما أن الخطيّة منها ناهيك عن منظرها الجمالي، فإنها تعتبر وسيلة لحفظ الأحداث التاريخية، من خلال تلك النصوص التأسيسية التي تحتويها.

(1) - موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 49. بوطارن

مبارك، العماثر الدينية في المغرب الأوسط، ص ص: 161، 162.

(2) - موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ص: 36، 37، 75.

خاتمة:

من خلال ما سبق التطرق إليه يمكننا القول أن الدولة الزيانية رغم الظروف السياسية الصعبة التي عاشتها، فقد عمّرت أزيد من ثلاثة قرون، أعطت الجانب الحضاري حقّه من الاهتمام، لا سيما الجانب المعماري منه، فالصراع الزياني المريني على المغرب الأوسط بقدر ما خلف آثارا سلبية على المنطقة بقدر ما انعكس ذلك إيجابيا عليها، بل إنّ الكثير من المنجزات تحمل بصمات مرينية هناك.

والمنشآت الدينية منها، والتي إلى جانب مهمتها الدينية أدت دورا لا يستهان به في تطوير الجانب الفكري بها فأصبح بالمغرب الأوسط حواضر علمية، كتلمسان التي كانت تشد إليها الرحال لأجل طلب العلم، فساهمت في تخريج الكثير من العلماء.

والشيء الملاحظ في العمارة الدينية المغرب أوسطية هو تأثرها بالفن الأندلسي، لا من حيث البناء فحسب، بل حتى من حيث النحت والزخرفة المطبّقة عليها، فكلا من الفنان الزياني والمريني أبدوا تأثرا واضحا بالحضارة الأندلسية، وهذا ما يفسّر عدم اختلاف منشآتهم كثيرا إلا في بعض النقاط التفصيلية. وعلى الرغم من أن الكثير من هذه المنشآت قد اندثر لعبث يد الإنسان والطبيعة، لكن والله الحمد قد حفظها لنا التاريخ في بطون أمّهات المصادر، وهذا طبعا لا يقلل شيئا من قيمتها. كما أن بعضها الآخر لا يزال صامدا يتحدى عوامل الدهر ليشهد على أن أصحابها قد بلغوا مبلغهم في هذا المجال، وبهم حملت المنطقة معنى اسم الحضارة والتطور، وعدّت من ضمن أمصار العالم الإسلامي ككلّ.

الملاحق:



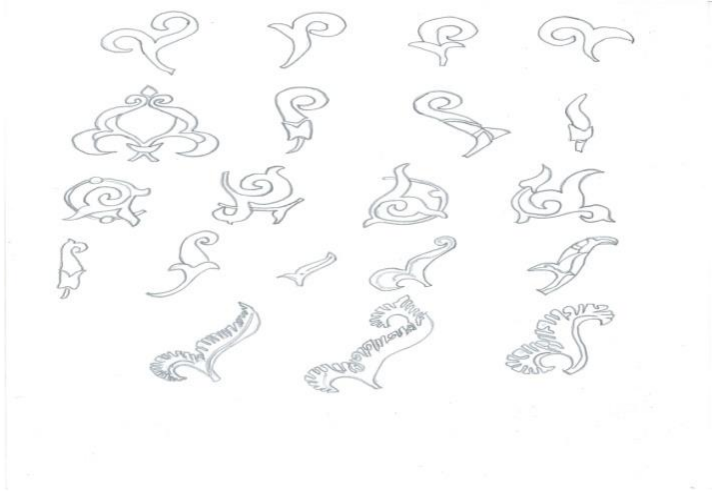
الملحق (01): مئذنة مسجد العباد

من تصوير الطالبة.



الملحق (02): القبة المقرنصة لمحراب مسجد العباد.

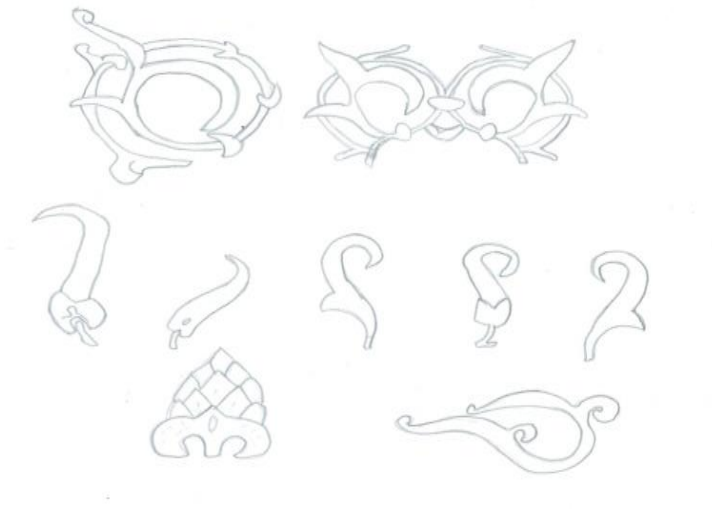
من تصوير الطالبة



الملحق (03): نماذج من الزخرفة النباتية الزيانية.

من رسم الطالبة

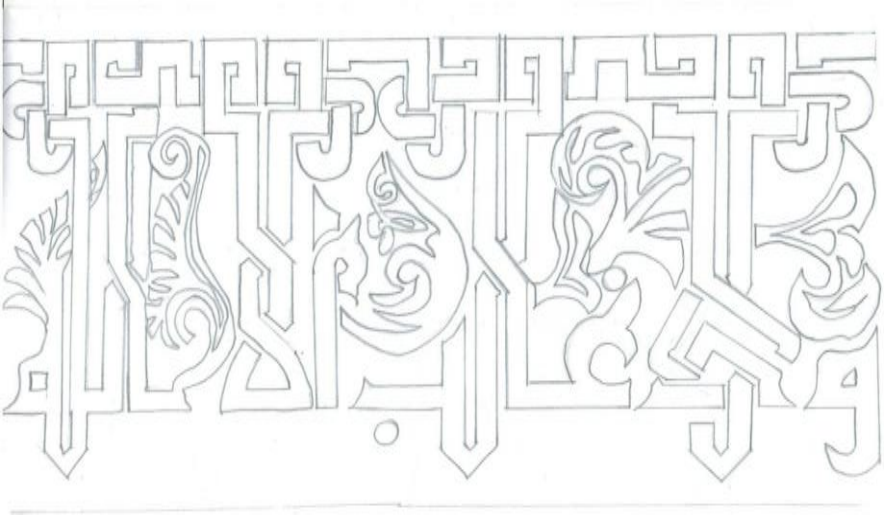
عن: موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 52، 53.



الملحق (04): نموذج من الزخرفة النباتية المرينية بمسجد العباد

من رسم الطالبة

عن: موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 52، 53.



الملحق (05): عبارة "لا غالب إلا الله" بالخط الكوفي بمسجد سيدي إبراهيم المصمودي.

من رسم الطالبة

عن: موساوي عبد المالك، فن الزخرفة في العمارة الإسلامية بتلمسان، ص: 194.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

1. الدكالي محمد بن علي، الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين، تح: محمد أبو الشعراء، ط2، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996م.
2. ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت 617هـ / 1221م)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد توفيق، ط2، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1997م.
3. ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (كان حيا ما بين 710-731هـ / 1310-1331م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، (دط)، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
4. الكتتي باي بن سيدي عمر الوافي، السنن المبين في شرح أحاديث أصول الدين، إع: مالك كرشوشو حيمد الكتتي، ج4، ط1، مركز الإمام الثعالبي للدارسات والنشر والتراث، الجزائر، 1432هـ / 2011م.
5. المكناسي أحمد بن القاضي (ت 1025هـ)، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، (دط)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.
6. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت 711هـ)، لسان العرب، مج4، (دط)، دار صادر، بيروت، (دت).
7. ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني (ت ما بين 1025-1028هـ)، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مر: محمد بن أبي شنب، (دط)، المدرسة الثعالبية، الجزائر، 1326هـ / 1908م.

8. ابن مرزوق أبو عبد الله محمد الخطيب (ت781هـ)، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، درا وتتح: ماريا خيسوسبغيرا، تق: محمود بوعباد، (دط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ/ 1981م.
9. النميري ابن الحاج أبو القاسم برهان الدين إبراهيم بن عبد الله الغرناطي (ت بعد 774هـ)، فيض العباب وإفاضة قدّاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب، در وإع: محمد بن شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
10. العبدري أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود (ت بعد 700هـ/ 1300م)، رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كوري، تق: شاكر الفحام، ط2، دار سعد الدين، دمشق، 2005م.
11. القلصادي أبو الحسن علي (ت 891هـ)، رحلة القلصادي، تح: محمد أبو الأجفان، (دط)، الشركة التونسية لتوزيع، تونس، 1978م.
12. ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب (كان حيا سنة 708هـ): الوفيات، تح وتتع: عادل نويهض، ط4، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1430هـ/ 1983م.
13. التنبكتي أبو العباس أحمد بابا (ت 1036هـ/ 1627م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إش وتق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، ط1، طرابلس، 1989م.
14. التنسي محمد بن عبد الله (ت 899هـ/ 1494م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان)، تح وتتع: محمود آغا بوعباد، (دط)، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.

15. ابن الخطيب لسان الدين ذي الوزارتين (ت 776هـ / 1374م)، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تح: أحمد مختار العبّادي ومحمد إبراهيم الكتّاني، (دط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.
16. ابن خلدون يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد (ت 780هـ)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج1، تح: ألفرد بل، (د ط)، بير فونطانة الشرقية، الجزائر، 1321هـ / 1903م.
17. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ / 1406م)، مقدمة ابن خلدون، مر: سهيل زكار، (دط)، دار الفكر، بيروت، 1431هـ / 2001م.
18. // // ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج4، مر: سهيل زكار، (دط)، دار الفكر، بيروت، 1421هـ / 2000م.
- ب-المراجع باللغة العربية:
19. بوطارن مبارك، العماثر الدينية في المغرب الأوسط، (دط)، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011م.
20. بوسماحة حسن، فن الزخرفة، ط1، أوراق للنشر والتوزيع، سوق أهراس، 2012م.
21. بوعزيز يحيى، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، (دط)، منشورات ANEP، الجزائر، 2011م.
22. بورويبة رشيد، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، (دط)، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.

23. بوخالفة عززي، شواهد الإحسان في مآثر المحروسة تلمسان، ط¹، (ددن)، (د م ن)، 2011م.
24. بيلول جمال، المصطلحات المعمارية المدنية (عربي، فرنسي، أمازيغي)، (دط)، أفريقيا الشرق، المغرب، 2014م.
25. بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن "دراسة تاريخية حضارية" (633-681هـ/1235-1282م)، (دط)، الألفية، الجزائر، (دت).
26. براهيم نصر الدين، تلمسان الذاكرة، ط²، منشورات شالة، الأبيار (الجزائر)، 2010م.
27. وليم وجورج مرسية، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، تر: مراد بلعيد وآخرون، ط¹، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1432هـ/2011م.
28. الزركلي خير الدين، الأعلام، ج¹، ط¹⁵، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.
29. حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزياني "حياته وآثاره"، ط¹، بني مرابط، (دمن)، 1432هـ/2011م.
30. الحداد محمد حمزة إسماعيل، دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، ط³، زهراء الشرق، القاهرة، 2008م.
31. بن حموش مصطفى، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولوكس والوثائق العثمانية، ط¹، دار الأمة، الجزائر، 2007م.

32. الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ / 1213م) - (869هـ / 1465م)، ط2، دار القلم، الكويت، 1408هـ / 1987م.
33. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، مج2، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1398هـ / 1978م.
34. لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرينية بتلمسان (669هـ - 869هـ / 1269م - 1465م)، ط1، الملكية، (دم)، 2007م.
35. موساوي عبد المالك، تطابق فن الزخرفة بين تلمسان والأندلس، ط1، دار السبيل، الجزائر، 2012م.
36. // //، دور الزخرفة في الحياة الحضارية في تلمسان، ط1، دار السبيل، (دمن)، 2011م.
37. ميدون عز الدين، ندرومة مدينة الفن والتاريخ، ط1، دار السبيل، (دمن)، 2011م.
38. معزوز عبد الحق، شواهد القبور في المغرب الأوسط، ط1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م.
39. نوّار سامي محمد، الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم، (دط)، دار الوفاء، الإسكندرية، (دت).
40. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
41. عموره عمار، الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة "ما قبل التاريخ إلى 1962م")، ج2، (دط)، دار المعرفة، الجزائر، 2009م.

42. فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج1، (دط)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.
43. فريد محمود الشافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، (دط)، (ددن)، (دمن)، (دت).
44. قريان عبد الجليل، التعليم بتلمسان في العهد الزياني، ط1، جسور، المحمدية (الجزائر)، 1432هـ/ 2011م.
45. قرقوتي حنان، تخطيط المدن (العمارة والزخرفة)، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1427هـ/ 2006م، ص: 109.
46. شاوش الحاج محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ج1، (دط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011م.
47. شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 1425هـ/ 2004م.
- ت-الدوريات والمجالات:
48. جاب الله طيب، «دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري»، معارف، ع14، 2013م.
49. دهماني صبرينة، «المساجد المرابطية» دراسة تنميطية"، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتعاثروبولوجية وذاكرة، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ج2، 2011م.

50. لعرج عبد العزيز محمود، «جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجامعي تلمسان الكبير وسيدي بلحسن»، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، أعمال ملتقى دولي بتلمسان، ج1، 2011م.

51. مهتاري فائزة، «الزخارف في المساجد الزيانية والمرينية بتلمسان»،

مجلة **Revisita Argelina**، Num: 01، Otono 2015.

52. منصوري محمد، «مقارنة بين مسجدين مرابطين الجامع الكبير بندرومة والجزائر»، ندرومة مدينة عبد المؤمن مجتمع أنثروبولوجيا وذاكرة، جم وإع: عز الدين ميدون، دار السبيل، الجزائر، ج1، ط1، 2011م.

53. أبو رحاب محمد السيد، «ملامح تخطيط العمار الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط "دراسة أثرية مقارنة"»، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، ج1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان، 2011م.

ث - رسائل الدكتوراه والمذكرات:

54. بالأعرج عبد الرحمن، علاقات دول المغرب الإسلامي بدول الممالك سياسيا وثقافيا بين القرنين السابع والتاسع هجريين (7 - 9هـ / 13 - 15م)، رسالة دكتوراه، المغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1434هـ / 2013م.

55. بوشقيف محمد، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14/ 15م)، رسالة دكتوراه، التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1432هـ / 2011م.

56. بكاي هوارية، العلاقات الزبانية المرينية سياسيا وثقافيا، رسالة ماجستير، تاريخ المغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2008م.

57. رزقي نبيلة، الزخرفة الجصية في عمائر المغرب الأوسط والأندلس (القرن 7هـ - 8هـ / 13 - 14م)، رسالة دكتوراه، علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بالكايد، تلمسان، 2015م.

58. شلحاي ريمة، الزخارف الجدارية في الآثار الزيانية والمرينية في المغرب الأوسط، مذكرة ماجستير، الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2011م.

59. خالدي رشيد، دور علماء المغرب الأوسط في ازدهار الحركة العلمية في المغرب الأقصى خلال القرنين (7 - 8هـ / 13 - 14م)، مذكرة ماجستير، تاريخ المغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1432هـ / 2011م.

باللغة الأجنبية:

60. Mohamed

benamarDjebbare:Nedromaetsesgrandenoois, Dar
essabil, 2011.

61. R.P.Gthéry. O.P, TelmcenEvocation sur son Passé, edition, ENAG, Alger, 2011.

**أهمية مرافق المياه ومنشآتها بالمدينة المغربية من خلال
نوازل كتاب المعيار للونشريسي (ت914هـ/1508م)**

**The Importance of Water Facilities and Their
Infrastructure in Moroccan Cities through the Legal Cases
in the Book of Al-Mi'yar by Al-Wansharisi (d. 914 AH /
1508 CE)**

د. هشام بن سالم

قسم التاريخ والجغرافيا، المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة

أ. زبير سالمي

العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس

ملخص:

نعالج في هذه المقالة موضوعا مهما عن أهمية مرافق المياه ومنشآتها بالمدينة المغربية من خلال نوازل كتاب المعيار للونشريسي (ت914هـ/1508م)، فاستخلاصنا من خلالها أبرز مظاهرها والأقضية التي ارتبطت بها وأنواعها المختلفة، وكيفية تعامل الساكنة معها ومع أبرز ما طرأ عليها.

Abstract:

In this article, we address an important topic regarding the significance of water facilities and their infrastructure in Moroccan cities through the legal cases presented in the Book of Al-Mi'yar by Al-Wansharisi (d. 914 AH / 1508 CE). We aim to extract the most prominent aspects, the related legal rulings, and their various types, as well as how the residents interacte

مقدمة:

شكلت نوازل كتاب المعيار المغرب للنشر في عند الكثير من الباحثين معينا جديدا ينهلون منه في بحوثهم العلمية في الميدان التاريخي وعلى الخصوص الفترة الإسلامية الوسيطة من تاريخ الغرب الإسلامي، نظرا للخصوصية التي يختص بها هذا الكتاب ذا الطابع الفقهي، الذي ألفه النشر في بمنهجية علمية قائمة أساسا على نص النازلة الفقهية التي سئل عنها عالم من العلماء وأجاب عنها، ومست جميع فعاليات المجتمع المغربي في العصر الإسلامي الوسيط، مما جعل الباحثين يقبلون عليه لسد ثغرة كبيرة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والعلمي والعمراني، نظرا للبعد الواقعي الذي تتميز بها نوازل كتاب المعيار المغرب، وابتعادها عن المؤثرات الإيديولوجية والسياسية والذاتية، واحتوائها على عدد كبير من المصطلحات ذات الصلة الوثيقة بالنوازل التي عاينها الفقهاء بشكل مباشر وغير مباشر، وأضحى بالتالي دراسة نوازل كتاب المعيار المغرب من الجانب التاريخي، يعد من الأهمية بمكان، عند رواد المدرسة التاريخية الجزائرية التي قطعت أشواطاً كبيرة في إمطة اللثام عن تاريخ الجزائر السياسي والإداري والعسكري، وسعت لبلورة توجه جديد ينقب في مختلف المظان والنصوص التاريخية وتفحصها وقراءتها، من أجل كتابة التاريخ الحضاري بكل أبعاده، يتتبع جميع حواضر الجزائر التي صنعت حضارتها وبت مجدها الزاهر.

وعلى ضوء ذلك تبوأ تاريخ المغرب الأوسط في الفترة الإسلامية الوسيطة مكانة كبيرة ومنزلة علي اضمن تاريخ المغرب الإسلامي، نظرا للعمق التاريخي والحضاري لهذه الإقليم، الذي كان له نصيب وافر في نسج معالم هذا التاريخ والتأثير في أحداثه، منذ الفتح الإسلامي إلى غاية نهاية دولة بني زيان، فاتجهت إليه أنظار الباحثين الجزائريين، في إطار الدراسات العليا الجامعية في تخصص التاريخ الوسيط،

واستطاعوا تقديم دراسات في تاريخه السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والعلمي والعمراني، وتاريخ العلاقات بينه وبين الأقاليم الأخرى، غير أن ذلك لم يشف غليل الباحثين في تجلية هذه المجالات التي اضطلعت بتأديتها والتأثير فيها، نظر الغموض كثير من الوقائع والأحداث وقلة المادة الخبرية المصدرية التي تسلط الضوء عليها، فكان لابد من البحث والتفتيش والتنقيب على مصادر جديدة تساهم في بلورة صورة واضحة لتاريخ هذا الإقليم، وهو ما تم بالفعل عندما اكتشفت كتاب المعيار، وبالتالي ازدادت أهميته في الآونة الأخيرة، بحكم تأليفه في القرون المتأخرة من العصر الإسلامي الوسيط للغرب الإسلامي عموماً والمغرب الأوسط خصوصاً، واحتوائه على نوازل في جميع المجالات التي تخدم البحث التاريخي، كما له علاقة مباشرة بحاضرة تلمسان التي كانت عاصمة الدولة الزيانية والمغرب الأوسط، ومركزاً للعلماء المالكية والمذهب المالكي، بالإضافة إلى كثرة المستجدات التي طرأت وحدثت ووقعت في المجتمع الزياني، كل ذلك فتح الباب لآفاق جديدة للبحث التاريخي المتعلق بتاريخ تلمسان الحضاري، وساهم في إضافة لبنة أخرى في صرح التاريخ الحضاري للجزائر خلال الفترة الإسلامية.

وانطلاقاً من ذلك، تعدّ المدوّنات النّوازلية من أهم وأجل ما اختصت به المدرسة المالكية وبلاد المغرب الإسلامي من مصنّفات وتآليف، وذلك نظراً لما عكف عليه العديد من العلماء والمفتين وقضاة المغرب الإسلامي من تسجيل الفتاوى والأقضية، والتي تنوّعت على اختلاف المواضيع التي عالجتها، والأغراض التي ألّفت من أجلها، حيث تعدّ هذه النّوازل عبارة عن تقييدات يومية لما يطرأ على حياة الناس من مستجدّات، والتي حظيت بقسط وافر وأهمية بالغة في الإنتاج الفقهي المالكي ببلاد المغرب الإسلامي، فانتشرت بشكل كبير في الفترة الأخيرة من العصر الوسيط،

كونها تمثل سجلات إدارية وقضائية، حفظت بين ثناياها تقارير ووثائق القضاة وفتاوى الفقهاء، خاصة بعدما شهدت المنطقة أوضاعا سياسية واقتصادية واجتماعية خاصة، استدعت بثّ العلماء رأيهم فيها، مستندين على الفقه المالكي، الذي يعدّ مرجعية أهل المغرب وأسس وحدته.

لذا انبرى ثلّة من العلماء والفقهاء لتقييد هذه الفتاوى والأقضية حتى لا يضيع نفعها من جهة، وحتى تكون مرجعا لمن يخلف من الفقهاء، إذ برز هذا النوع من التّأليف في عموم بلاد المغرب الإسلامي، بعدما برز فيه من التّراكم الفقهي والقضائي أقصى مداه، فظهرت نوازل ابن رشد والبرزلي وابن الحاج والمازوني والونشريسي..... وكلها تعبّر عن أهميّة التدوين النّوازلي.

ومّا لا يخفى على أيّ باحث في هذا المجال، ما للمدوّنات والنّوازل الفقهية من أهمية في إبراز هذه الأهمية، وإعادة كتابة التّاريخ بمصادر كانت تعدّ دفيئة مقارنة بكتب التاريخ العام، حيث أضحت كتب النّوازل من آكد المصادر المعتمدة، بما حوته من إشارات واضحة في مختلف المجالات: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، دون التّطرق إلى المسائل الفرعية لأبواب الفقه، متجاوزة قضايا الافتراض، الأمر الذي جعل منها مصدرا تاريخيا مهمّا، يعطيه بعدا من المصداقية التي تكون أقلّ قوة في مصادر التاريخ العام، التي لا تتجنب في كثير من الأحيان توجيه أقلامها لغرض معيّن.

ومن هنا تبرز أهمية القضايا التي تضمنتها كتب النوازل، ومن أهمها قضايا المياه التي تعدّ من أهم القضايا التي شغلت حيّزا معتبرا في مدونات النّوازل الفقهية المتعلقة ببلاد المغرب الإسلامي، وذلك لكون هذا الأخير يشكو شحا في هذا العنصر الحيوي، وعادة ما استدعت هذه النّدرّة إلى نشوب نزاعات حول مسائل قسمة المياه وصراعا

حول أحقيتها، الأمر الذي حتمّ ظهور قضايا مستجدة تستدعي النظر والبحث في هذه المسائل، لذا كان لزاماً أن يعمل الفقهاء على تنظيم هذه القضايا، درء لهذه الصّراعات، خاصّة مع تطور العمارة الإسلامية التي عجّت بالمرافق والمنشآت العمرانية، والتي بالعادة ما يطرأ الضرر بشأنها، فلم تغفل هذه المدونات أحكامها وتنظيمها، ومن أهم كتب النوازل التي عنت بالموضوع، "المعيار المعرب..." لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، حيث نجد معظم الجزء الثامن يعالج مسائل المياه من حيث قضاياها ومنشآتها، على أنّ مدونة المعيار لم تحصر هذه القضايا في هذا الجزء بعينه، بل نجد العديد من الإشارات التي تتقاطع فيها المسائل الأخرى مع قضايا المياه.

ومن هذا المنطلق نستطيع طرح الإشكال العام التالي: "كيف استطاعت كتب النوازل الفقهية، ومدونة المعيار على وجه الخصوص درء الضرر ورفع الحرج عن الساكنة بحواضر المغرب الإسلامي المتعلق بمنشآت المياه، من خلال فقه العمران المستند إلى مستجدات الناس اليومية؟

ولمعالجة هذا الإشكال، لابد لنا من استعراض أهم المنشآت المائية كالأبار المنزلية وما تعلق بها من اقتسام مائها، أو ما تعلق بحريم البئر أو مسألة بيع مائها أو تحبيسها، والأمر ينسحب على الموأجل والميازيب والأحواض والوديان، ومن هو الأحق بالانتفاع منها، ومسألة الأعالي والأسافل وقضية كنس الواد بالحواضر، كما تطرح مسائل الضرر كقضية ملحّة من خلال بعض القضايا، كمسألة ضرر المراحيض على الأرصفة أو ضرر تصريفها بالأرصفة وسابلة الناس، وغيرها من القضايا التي حفل الجزء الثامن من مدونة المعيار بسردها واستعراضها -كما أسلفت-، لكن قبل هذا لابد لنا من استعراض المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها العنوان؛ كالتعريف

بالونشريسي ومؤلفه، وتعريف النوازل وأهميتها، كمفاهيم توضيحية قبل الولوج إلى معالجة الموضوع.

1. التعريف بالونشريسي:

عاش الونشريسي في عصر عرف العديد من الأحداث والوقائع، المصاحبة للفوضى والاضطراب التي عاشتها المنطقة عموماً، فالدول التي أعقبت دولة الموحدين لم تكن بأحسن حالا منها، حيث شهدت هذه الدول حالة من الصراع المستشري والضعف المزمن الذي أدى إلى سقوطها النهائي والمحتم، ففي هذه الظروف ولد أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي في حدود سنة 834هـ⁽¹⁾ في العام الذي ولي فيه أبو العباس العاقل عرش الدولة الزيانية بتلمسان، حيث اعتبرت هذه الأخيرة منشأ الونشريسي وعن علمائها نهل أصناف العلوم، وامتاز هذا العصر بظهور ثلة لا يستهان بها من علماء في شتى الفنون العلمية وخاصة العلوم الشرعية⁽²⁾، ولقد أطنب المترجمون في مصنفاتهم الكثيرة عن الحديث عن حياته وسيرته، وإجمالاً فهو العالم العلامة حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة، كان مشاركاً في فنون العلم

(1) - بلشير عمر، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأوسط والأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع / 12-15 م من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، 2010، ص 18.

(2) - عفيفة خروبي، أصول أبي العباس الونشريسي من خلال المعيار المعرب، الجزائر، القافلة للنشر والتوزيع، 2011، ص 95.

وضروبه المختلفة، عرف بفصاحة اللسان والقلم⁽¹⁾، يضاف لهذا أنه كان مفتيا ومدرسا للفقه، حيث درّس المدونة وفرعي ابن الحاجب⁽²⁾، وأيضا تخرّج على يديه عدد كبير من العلماء، ولا ننسى مؤلفاته التي اشتهر بها ورفعت مكانته العلمية عاليا أشهرها: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب⁽³⁾، وتشير كتب التراجم إلى وقوع نكبة له ما سلطان زياني سكت الونشريسي عن تسميته⁽⁴⁾، وهذا يدل على دماثة أخلاقه، وعلى إثر هذا الحادثة انتقل أبو العباس إلى فاس بعدما عاش بتلمسان أربعين سنة، وكان لهذا الانتقال الأثر البارز في حياته العلمية، حيث تتلمذ على يد علمائها⁽⁵⁾، ونهل من مكتباتها واشتغل بالتدريس في

(1) - التبنكتي بابا أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، إشراف عبد الحميد عبد الله هرامة، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 1989م، ص135.

(2) - ابن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام في مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م، ص157.

(3) - الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، الجزء 01، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1981م، ص د-ه.

(4) - خروبي، المرجع السابق، ص134.

(5) - محمد بن هو، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، تلمسان، كنوز للطباعة والنشر، 2011، ص56.

مدارسها خاصة المدرسة المصباحية⁽¹⁾، كما عرف بالورع والتواضع، بدليل حضوره مجالس الشيوخ بفاس رغم علو قدره ومكانته العلمية⁽²⁾.

2. أهمية مدونة "المعيار المغرب" للونشريسي:

ومن أبرز المدونات النّوازلية التي حفلت بقضايا المياه، كتاب "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب" لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، الذي يعدّ أشهر كتبه، -ويكاد يزعم العديد من الدارسين- أنّه المرجع المصدري النّوازلي الأهمّ لبلاد المغرب الإسلامي عموماً، ويبرز هذا لما حواه هذا المصنّف من فتاوى المتقدّمين والمعاصرين لزمن الونشريسي، حيث جمع هذه الفتاوى من الدّواوين وكتب الأقضية رغم كونه لم يتقلّد منصباً رسمياً يسهّل عليه هذه المهمة المصنيّة⁽³⁾، كما دلّت كثرة نسخه الموزعة في خزائن المخطوطات على أهميته، من خلال عناية الفقهاء والنّساخ لهذا المصنّف الضّخم، ولهذا فقط تفتنّ الباحثون العرب والمستشرقين لأهمية الكتاب، وعملوا على إخراجها والانبراء لدراسته وتحقيقه، سواء كطبعة حجرية ابتداءً، أو بحوث مستلة منها، أو كرسائل وأطاريح جامعية فيما بعد، أو فيما يخصّ فرق البحث المخبرية، أو المنشورات والمقالات العلمية.

ومما يلاحظ على مدونة المعيار من ناحية الأهمية، أنّها طالت جلّ أبواب الفقه - إن لم نقل كلّ - حيث ضمت بين طياتها 33 باباً من أبواب الفقه، كمسائل الطهارة، والصلاة، والجنائز والزكاة والصيام والجهاد والأيمان والندور، والمزارعة والمغارة

(1) - أبو القاسم سعد الله، من فتاوى الونشريسي، مجلة الوعي، عدد خاص بتظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011، ص 46.

(2) - ابن القاضي، المصدر السابق، ص 80.

(3) - أبو القاسم سعد الله، المقال السابق، ص 47-48.

والمساقفة..... وغيرها من الأبواب التي يضيق المقام في سردها كاملة، حيث بلغت أجزاء الكتاب اثنا عشر مجلدا عدا الفهارس، كما تفرّعت عن هذه الأبواب عديد المسائل في مختلف الضروب من عبادات ومعاملات، إذ حازت هذه الأخير حصة الأسد من بين المسائل، كونها مستجدة والمقصودة بسؤال الخاصّة والعامة، والتي مسّت عديد المجالات كالأحوال السّياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، مما يتيح لمتصفح ودارسه الإمام بالعديد من المعلومات في باب الفقه وإشكالاته، ومعرفة أهم المشاكل التي ألت بحياة الناس، حيث يبرز لنا كتاب الونشريسي تتبع الحالة العامّة للمغرب الإسلامي، وأهم المشاكل التي عصفت به، خاصّة في شقيها الاجتماعي والاقتصادي، وهذا ما دلّ على أهمية هذا المؤلف لدى الفقهاء والمعتنين بالنّوازل، خاصّة وأتّه يأخذ من أعلام الفقهاء ومشاهير العلماء بالمغرب الإسلامي.

3. مفهوم النوازل الفقهية:

تعدّ بلاد المغرب الإسلامي رائدة المصنفات الفقهية النوازلية بلا منازع⁽¹⁾، ذلك أنّ بلاد المغرب تميزت بهذا النوع من المؤلفات عن غيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى⁽²⁾، والتي صدرت عن جماعة من المفتين والقضاة، وتبين الحكم فيها استنادا إلى المذهب المالكي الذي يعتبر مرجعية هذا البلد. فما هو مفهوم النوازل الفقهية؟

(1) - عبد القادر عزوز، النوازل الفقهية في الغرب الإسلامي، أعمال الملتقى الخامس حول المذهب المالكي بعنوان المدرسة المالكية الجزائرية، عين الدفلى 14 - 16 أفريل 2009، ص 600.

(2) - عفيفة خروبي، المرجع السابق، ص 590.

لغة: النّوازل جمع نازلة مشتقة من فعل نزل، قال ابن المنظور حول مفهوم النازلة: بأنها الشديدة والمصيبة تنزل بالناس⁽¹⁾، أما ابن فارس فهو يرى أنها من نزل أي بالنّون والزّاي واللام، تدلّ على هبوط الشيء ووقوعه، وعلى هذا فالنازلة هي: الشّديدة من شدائد الدّهر تنزل⁽²⁾، أما المعجم الوسيط فيذكر لنا أنّ النّازلة: المصيبة الشديدة وجمعها نازلات ونوازل⁽³⁾، أمّا اصطلاحاً: فهي تلك القضايا والمسائل التي استجدّت في حياة النّاس، يريدون أن يستجلّوا حكم الشّرع فيها، فيلجؤون إلى أهل العلم والعلماء والقضاة، شريطة أن تكون هذه القضايا حدثت فعلاً ووقعت أصلاً، بعيدة عن فقه الافتراض⁽⁴⁾، كما يعتبر محمد حجي، وهو من ابرز الباحثين الذين تكلموا عن معنى النّوازل بأنها: " مسائل وقضايا دينية ودنيوية يتعرض لها المسلم، حيث يود أن يعرف حكم الله فيها، أي أنّ كل فرد تعرض لمصيبة أو شدة ما، ويعجز عن تصرف ولا يعرف حكمها من الناحية الشرعية، يلجأ إلى أحد الفقهاء ليرشده ويفتي له فيما يفعل، وهو كذلك ما تعرض له الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ، فما كان على هؤلاء سوى الرجوع إلى نصّ في الكتاب أو السنّة فإذا وجدوه وقفوا عنده وإلا

(1) - ابن المنظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، ج 6، دار الكتب العلمية، بيروت، د_ت، ص 724.

(2) - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مج 5، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ص 417.

(3) - المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، مصر، 2004، ص 915.

(4) - القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، ج 1، دار نكتة الحياة، بيروت، ص 466.

اجتهدوا"⁽¹⁾، ومن هذا نفهم أن النّوازل هي جزء من الحياة اليومية للناس، سواء كانت المسألة مكررة أو نادرة الحدوث، أم أنّها كانت قديمة أم مستجدة، نزلت كدواء شافي لحيرة الناس وبلسم يلطّف ويخفّف من روعتهم، اقترنت بالفقه المالكي في شكل أسئلة مباشرة أو مراسلات توجه إلى العلماء⁽²⁾، كما أن مصطلح النوازل لم يظهر إلا ببلاد المغرب الإسلامي، قبل أن يعمم هذا المصطلح على الأقطار الإسلامية الأخرى⁽³⁾.

إضافة إلى مصطلح النّوازل هناك مرادفات أخرى لها نفس المعنى للنّوازل مثل: الفتوى فيذكر عن الفتوى: الجواب عمّا يستشكل من المسائل الشرعية وجمعها فتاوى⁽⁴⁾، والإفتاء هو الإخبار بالحكم الشرعي وهناك من يسميها مسائل من أصل كلمة مسألة، وهي بمعنى القضية التي برهن عليها⁽⁵⁾، وهناك من ينعتها بالأجوبة مثل الأسئلة والأجوبة، للداودي (ت 307 هـ) والمسائل المسطرة في النّوازل الفقهية للحسن بن علي بن باديس القسنطيني المعروف بابن القنفذ (ت 809 هـ)، والأجوبة لأبي الحسن بن محمد القابسي (ت 403 هـ)، إضافة إلى هذا نجد في باب القضاء

(1) - محمد حجي، نظرات في النوازل الفقهية، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة الجديدة، ط 1، الدار البيضاء، 1999، ص 11.

(2) - عبد القادر عزوز، المرجع السابق، ص 599.

(3) - زهير عبد الرحمن قران، إسهامات علماء توات في مجال النوازل الفقهية، أعمال الملتقى الخامس حول المذهب المالكي بعنوان المدرسة المالكية الجزائرية، عين الدفلى 14-16 أفريل 2009، ص 175.

(4) - المعجم الوسيط، مصدر السابق، ص 673.

(5) - نفسه، ص 411.

والأحكام بما يتعلق بالقضايا والمعاملات مثل مصنف أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي البرزلي (ت 842هـ) المعنون بـ: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام.

كما أنّ المدونات النّوازية تنقسم إلى أنواع، كالنّوازل العامّة وهي التي حوت بين طياتها أحكام الفقهاء والقضاة إجمالاً، شملت أغلب أبواب الفقه⁽¹⁾، يقابل هذا النوع من النّوازل، النّوازل الخاصة وهي التي أبدى فيها الفقهاء رأيهم في مسألة واحدة من نفس الموضوع⁽²⁾، كقضية خلع ملوك الطوائف، ومسألة يهود توات⁽³⁾، وهي مسائل تجلت كمراسلات استشار فيها العلماء بعضهم البعض، كما تميّز من هذه الأنواع، النّوازل التي اختصت بأجوبة عالم واحد كأجوبة سحنون، وفتاوى عlish، وأحكام ابن سهل، ومسائل ابن القدّاح⁽⁴⁾، كما ظهرت نوازل الأقطار كفتاوى علماء غرناطة، وأجوبة فقهاء القرويين⁽⁵⁾.

4. أهمية المياه بالمغرب الإسلامي:

أقر الإسلام بالأهمية البالغة للمياه، وهذا ما نلمحه من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والتي جعلت الماء على رأس ضروريات الحياة، قال عز من قائل: "وجعلنا من الماء كل شيء حي"⁽⁶⁾، هذه الأهمية جعلت للماء تشريعات

(1) - زهير عبد الرحمن قزان، المرجع السابق، ص 191.

(2) - نفسه، ص 179.

(3) - عبد القادر عزوز، المرجع السابق، ص 599.

(4) - زهير عبد الرحمن قزان، المرجع السابق، ص 175.

(5) - نفسه، ص 175.

(6) - سورة الأنبياء، الآية 30.

وأحكام دقيقة، أعطت لكل ذي حق حقه من ملكية للمياه ابتداء، ثم تشريعات في حكم استعماله وطرق استغلاله، فاعتمد الفقهاء هذه التشريعات في فض النزاعات والصراعات الحاصلة بين الناس حول المياه وقضاياها المندرجة بين دقات كتب النوازل التي تضمنت قسما معتبرا منها، وانبرى ثلة من العلماء للإجابة عنها، فعلى سبيل المثال نذكر نوازل العلمي الذي تناول قضايا المياه في الجزء الثاني في أزيد من 54 صفحة⁽¹⁾، أما المهدي الوزاني فقد أدرج القضايا في أزيد من 57 صفحة ناهيك عن مسائل الطهارة⁽²⁾، وهذا الإمام الباجي اعتنى بالموضوع في كتابه المنتقى في جزئه السادس تحت عنوان: "القضاء في المياه"⁽³⁾، أما المعيار -وهو محل الدراسة- فقد تناول الموضوع باستفاضة في الجزء الثامن سواء ما تعلق بقضايا المياه أو المرافق.

5. أنواع ملكية المياه:

نظرا للأهمية البالغة لهذا الموضوع، صنّف هذا النوع من المباحث الفقهية بكتب النّوازل، تفاديا للمنازعات التي غالبا ما كانت تنشب بين ساكنة المغرب الإسلامي، فالشريعة أثبتت هذا الحق، ولم تقيده إلا بقيد عدم الضرر والتّعدي على حق الغير، وهذا الأخير بدوره يستند إلى ملكية المياه وأشكال الحيازة، والتي لا تعدو في مجملها أن تكون ثلاث أنواع:

(1) - محمد علي بن الصديق، أهمية الماء في القرآن والسنة، مجلة دعوة الحق، العدد 392، ماي 2009،

الرباط، ص 21.

(2) - نفسه، ص 21.

(3) - نفسه، ص 21.

1. المياه المشتركة:

فالماء في أصله مشترك بين الناس بدليل قوله ﷺ: "المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلاً والماء والنار"⁽¹⁾، والمراد هنا الماء غير المتملك كمياه الأمطار والعيون والأنهار⁽²⁾، أما إذا بذلت جماعة مجهودا في إقامة المنشآت عليه، كإنشاء القنوات، ورفع السواقي، أو كنس الوادي... ففي هذه الحالة يكون الماء مشتركا فيما بينهم، ولا يسمح لغيرهم الانتفاع بهذه المياه، أو إنشاء منشآت تضر بمنشآتهم، والماء بينهم على حظوظ⁽³⁾، فمن تملك حظا فهو يعد مالا من أمواله، والشركة في المياه تطال جميع مصادر المياه، كالأنهار⁽⁴⁾ والعيون والقنوات والسواقي⁽⁵⁾، وخاصة مياه السيول التي لا ملك لأحد فيها، فحكمها أن ينتفع منها الأعلى فالأعلى⁽⁶⁾، كما أن الأقدمية وبذل الجهد في إجراء المياه تعدّ حقا في حيازتها، فالقوم: "الذين رفعوا ساقية من النهر... ليس لغيرهم أن يدخلوا معهم ولا أن يسقوا به أرضهم"⁽⁷⁾، فحق التملك

(1) - سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1950، حديث رقم: 4771.

(2) - محمد علي بن الصديق، المرجع السابق، ص 14.

(3) - بلبشير عمر، المرجع السابق، ص 199.

(4) - فاطمة بلهوارى، وسائل الري في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، مجلة دعوة الحق، العدد 392، ماي 2009، الرباط، ص 52.

(5) - كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال وفتاوى المعيار للونشريسي، مكتبة الإسكندرية للكتاب، 1996، ص 59.

(6) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 10، ص 274.

(7) - نفسه، ج 8، ص 12.

والاشتراك في منفعة الماء، يتمخض عن جملة من الواجبات كإقامة السدود ومدّ القنوات، وكنس الأودية، وترميم القناطر، والتي تستوجب نفقة المتفعين⁽¹⁾، وهذا ما يجعل الجماعة تتمتع بأحقية الانتفاع والدفاع عن حقها المشترك ضدّ أي دخيل خارج المجموعة⁽²⁾، فمن قام بواجب الإصلاح يكون أولى بما زاد من ماء في مجرى الواد، دون من لم يساهم في الإصلاح⁽³⁾، ومن ترك حظاً فالجماعة أولى به من غيرهم⁽⁴⁾، كما عرف أهل بلاد المغرب نظام المناوبة في الانتفاع بالمياه، فتتفع جماعة معلومة من المياه بتوقيت محدّد ارتضوه عرفاً⁽⁵⁾، ومثال ذلك نظام أهل تلمسان الذين اقتسموا ساعات النهار فيما بينهم⁽⁶⁾، ويسقط الحق عمّن ترك الحرث في الموسم⁽⁷⁾، ولا يحق له التصرف في حظه إلا إذا تملك أصل المنبع أو العين بالشراء أو نبعت في أرضه، ففي هذه الحالة يكون الماء ملكاً له يستطيع التصرف فيه كيفما شاء⁽⁸⁾، أما العيون المشاعة فقد عرف أهل المغرب الاشتراك فيها، خاصة في حالة وجود العديد منها بناحية واحدة، فيختص كل جماعة بعين ويسقون منها الأعلى فالأعلى⁽⁹⁾.

(1) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 350.

(2) - بلبشير عمر، المرجع السابق، ص 200.

(3) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 5.

(4) - بلبشير عمر، المرجع السابق، ص 200.

(5) - خالد عزب، مشكلة المياه وحلولها في التراث الإسلامي، دار القدس للبحوث والطباعة والنشر، القاهرة، 1995، ص 17.

(6) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 5، ص 111.

(7) - كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 59.

(8) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 5، ص 12.

(9) - نفسه، ج 8، ص 40.

2. الملكية الخاصة:

أوضحت لنا بعض نوازل الونشريسي بأن المياه تكون في العديد من الحالات ملكية يختص بها الأفراد، ولهم حرية التصرف فيها، ككراء القواديس بغرض الشرب أو الانتفاع⁽¹⁾، كما يجوز بيعه أو هبته أو منعه إذا اقتضى الأمر⁽²⁾، والأمر في هذا لم يسلم من مقال، فقد اختلف في الأمر بنصوص تدل على السماح في اعطاء فضلة الماء⁽³⁾، ولا يمكن اعتبار ملكية المياه ثابتة إلا إذا أثبت المالك ذلك بواسطة رسوم عدلية تقرّ الشراء أو إرث أصل الماء⁽⁴⁾، ولذا لا يجوز الانتفاع بهذه المياه إلا بموافقة صاحبها⁽⁵⁾، وعلى أصحاب السواقي التي بمحاذاة أرضه استئذانه في استغلال فضلة المياه التي تبقى عن استغلاله⁽⁶⁾، كما لا يجوز إحداث ساقية تضر بالسواقي القديمة نظرا للضرر الذي تحدثه بالمنتفع الأقدم⁽⁷⁾، خاصة إذا كان ماؤها يجري لسقي جنات وإجراء أرحية، مما يؤدي هذا الإحداث إلى أنقاص قوة تدفق المياه التي تزود الأرحية بالطاقة الكافية⁽⁸⁾، فمسائل الضرر من أهم القضايا التي بذل فيها الفقهاء والقضاة وسعهم

(1) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 273.

(2) - محمد بن عميرة، الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005، ص 281.

(3) - سياب خيرة، المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي 7هـ-10هـ، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2014، ص 146.

(4) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 412.

(5) - نفسه، ج 2، ص 66.

(6) - بلبشير عمر، المرجع السابق، ص 199.

(7) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 379.

(8) - نفسه، ج 8، ص 396.

كي يمنعوه عن الناس⁽¹⁾، ولذا ركزوا على المعايير المحددة للقسمة، والتي بدورها تختلف باختلاف الغرض من المياه: كالطحن والري والشرب⁽²⁾.

3. مياه الحبس (الأوقاف):

هذا النوع من المياه خاضع في ملكيته لنظام الوقف أو الحبس، وهو بدوره ينقسم إلى نوعين هما:

- **الأوقاف العامة:** وهي التي يأذن ناظر الأوقاف للمتفع بها بواسطة حيازة أو كراء، سواء كان الانتفاع بشكل مؤقت أو دائم⁽³⁾.
- **الأوقاف الخاصة:** وهي نوع من الأوقاف التي يخص فيها ناظر الأوقاف شخصا بعينه بحق الانتفاع بالماء، والذي يكون في العديد من الأحيان انتفاعا معقبا، وذلك بأن يضمن للذرية هذا الحق⁽⁴⁾.

مسؤولية أصحاب المياه:

بالنظر إلى أهمية الماء وتنافس الناس حول استغلاله، خاصة في المناطق التي تشهد شحا وندرة في هذا العنصر الحيوي، فإنه ينجم عن هذا المغنم مغرم المسؤولية التي قد يسببها سوء استعماله، فإذا أضرّ الماء بسبيل أو ضيعات وجب قطعه⁽⁵⁾، كما أن صاحب الماء إذا أرسله في أرضه فخرج إلى أرض جاره فالمسؤولية هنا موقوفة على

(1) - بلبشير عمر، المرجع السابق، ص 199.

(2) - سياب خيرة، المرجع السابق، ص 147.

(3) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 408.

(4) - بلبشير عمر، المرجع السابق، ص 201.

(5) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 387.

التقدير كمسؤولية النار، فإذا قَدَّر أنَّ أرض الجار لا تسلم فهو ضامن⁽¹⁾، كما أنَّ مالك الزَّرع إذا قطع الماء عن الثَّمار فهلك فلا شيء على المشتري، لأنَّه اشتراها على ضمان البائع، وهو السبب فيما لحق من ضرر، فقطع المياه عن المحصول لا يشبه سواه من الجوائح⁽²⁾، ولذا اعتبر الشَّرع زكاة الزَّرع المروية مختلفة عما تروى بماء السَّماء، نظرا للجهـد الإضافي المبذول في النَّوع الأول⁽³⁾.

كما أنَّ استغلال المياه يستوجب على أصحابها مسؤوليات إضافية، كمسؤولية إصلاح مجاريها وتطهيرها وعدم إحداث القنوات وصرف المياه النَّجسة بها⁽⁴⁾، وتقع المسؤولية الأكبر على الميسورين من أهل البلد⁽⁵⁾، فإن تعذر ذلك فالإصلاح لازم بمن يحتاج الماء كأصحاب الفنادق والحمامات والدباغات أو من حمل قادوسا لداره أو صهريجه⁽⁶⁾، فالمسؤولية تقع على من يستغل الماء الأولى فالأولى، وهم أحقُّ بالانتفاع بما زاد من ماء حتى يعوضوا نفقاتهم⁽⁷⁾.

مظاهر النزاع على المياه:

بالرغم من وجود نظام شرعي محكم بشأن توزيع المياه وتقسيمه، إلا أنَّ النوازل الفقهيَّة أسفرت عن وجود واقع تخلَّله العديد من المنازعات والخصومات بشأن المياه،

(1) - محمد بن عميرة، الموارد...، المرجع السابق، ص 283.

(2) - نفسه، ص 283.

(3) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 5، ص 11.

(4) - نفسه، ج 8، ص 27.

(5) - بلبشير عمر، المرجع السابق، ص 207.

(6) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 29.

(7) - نفسه، ج 8، ص 5.

خاصة ما تعلّق بالنشاط الفلاحي والري، كرّس هذا الواقع النّدرية وتذبذب التّساقط وسنوات القحط التي تحتاج بلاد المغرب من الفترة إلى الأخرى، الأمر الذي جعل هذا العنصر مشاحا بين الناس، ولذا حرص الفقه من خلال كتب النوازل على إيجاد قيود ترتب استعمال الناس، تفاديا للنزاع، والتي تقوم على ثلاث أساسيات هي:

- الشركة في المياه.
- الأخذ بالعرف في القسمة.
- نفي الضرر لحماية مصلحة الشركاء.

بالعادة ما نجد النزاع حول ضفاف الأودية بين أهل الضياع أصحاب العلو والأسفلين، مما يغلب على أهل العلو الإستثار بالمياه واستيفاء النصيب الأكبر، مما يجعل الأسفلين لا يتناولون المياه بقدر حاجتهم⁽¹⁾، فإن ثبت أن الماء متملك فهو بينهم على حظوظ⁽²⁾، كما تحفظ مصلحة الشركاء استنادا إلى طبيعة النشاط⁽³⁾، ومما فاقم هذا المشكل، هو عدم إيجاد توقيت زمني دقيق يقضي بتقسيم المياه بحظوظ عادلة تضمن القدر الوافي والمرضي للأطراف والشركاء في المياه، حيث نصادف بعض النوازل التي تبين الاختلاف البين لاستغلال المياه، والتي تصل في بعض الأحيان إلى مرة في الشهر⁽⁴⁾، ولذا كان يعتمد البعض إلى كسر سدود المياه لإرسال الماء في حالة الحاجة الملحة⁽⁵⁾.

(1) - كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 60.

(2) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 10، ص 274.

(3) - نفسه، ج 9، ص 290.

(4) - نفسه، ج 8، ص 403.

(5) - نفسه، ج 8، ص 403.

وأكثر المشاكل ما كان متعلقا بادعاء حيازة الماء استنادا إلى طول مدّة الانتفاع به، فالأسبقية وتملك أصل المنيع تؤدي إلى ملكية المياه⁽¹⁾، وليس طول مدّة الانتفاع⁽²⁾، كما أن إحداث السواقي الجديدة بجوار القديمة ممنوعة إلا بموافقة أصحابها، لما تجره من ضرر على مصالحهم وجناتهم، أما إن خرجت المياه من أرض مملوكة جاز لأهل القرى الانتفاع بها⁽³⁾.

1. طرق تأمين المياه بالمدينة الإسلامية:

تعد المعلومات المتوفرة عن موضوع تأمين المياه وتخزينها بالمدينة الإسلامية شحيحة بالنسبة لكثير من المواضيع، فبالكاد نجد مصادرا متخصصة في مسائل المياه، باستثناء كتب الرحلة والجغرافيا والنوازل التي تفيدنا عن هذا الموضوع، والتي نجد هذا الموضوع في معترض الحديث عن التّجمعات السّكنية، وخاصة المدن التي تشهد شحّا وندرة في المياه الدائمة: كالوديان والعيون واستغلال المياه الجوفية، ونتف متعلقة بالتّقنيات المستخدمة في توصيل المياه إلى المدينة الإسلامية، لذا نجد في كثير من الأحيان إشارات لوجود أحواض مياه أو موأجل تعمل على تأمين المياه الدائم بهذه المناطق، كما فرّق الناس بين الاستعمال العام الذي اعتمدوا فيه على الوديان والتساقط، وبين الإستهلاك الذي اعتمدوا فيه على الآبار والعيون والفقارات⁽⁴⁾، كما اتبع أكثر من نظام في آن واحد بالمدينة الواحدة للحفاظ على هذا العنصر الحيوي وترشيد استغلاله:

أ. الآبار:

(1) -الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 14.

(2) - نفسه، ج 8، ص 418.

(3) - نفسه، ج 10، ص 304.

(4) - محمد بن عميرة، الموارد...، المرجع السابق، ص 105.

تعددت الآبار بالمغرب الإسلامي على غرار باقي مناطق العالم الإسلامي، استغلالا للمياه الجوفية، فبالإضافة إلى آبار المنازل، نجد أخرى متعلقة بالنشاط الفلاحي كالري وسقاية المواشي⁽¹⁾، وقد انتشرت هذه الآبار خاصة في المناطق التي تشح فيها العيون وتبعد بها الوديان، كما أن هناك من يفرق بين مصطلح البئر: وهي ذات العمق المعتبر، في حين أن الحاسي: هو البئر ذو الحفرة السطحية⁽²⁾، ومن أنواع الآبار المذكورة في المعيار:

❖ بئر الدار:

نظرا لحاجة الدور الملحة إلى المياه، فإن الناس كانت تعتمد إلى حفر الآبار بوسط الدار، رفعا لخرج التنقل إلى العيون أو الأنهار المجاورة للمدن، خاصة بالمناطق التي تشهد وفرة في المياه الجوفية، غير أن المسألة ليست بهذه البساطة، فقد اعترض المسألة أمر اقتراب البئر المحدث من القديمة أو بعدها منها، وهو ما يسمى في الفقه الإسلامي بحريم البئر⁽³⁾، ومعناها المسافة والحد الأدنى الذي لا يجوز انتهاكه وإحداث بئر جديدة به، وهو يختلف حسب نوعية الأرض من حيث الصلابة واللين⁽⁴⁾، ففي هذه الأخيرة يكون الضرر أكبر من النوع الأول، ولذا قد جعلوا حريم بئر الدار خمسين ذراعا⁽⁵⁾، أي حوالي ثلاثين مترا⁽¹⁾.

(1) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، المرجع السابق، ص 106.

(2) - محمد بن عميرة، الموارد...، المرجع السابق، ص 220.

(3) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، المرجع السابق، ص 107.

(4) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 466.

(5) - الذراع ما بين طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى، وهي عند الفقهاء أربعاً وعشرين

أصبعا مضمومة سوى الإبهام، ابن منظور، المصدر السابق، ج 2، ص 1063.

وقد أدى استحداث الآبار بالدور إلى أضرار أخرى مع مراعاة حريم البئر، فنجد ببعض النوازل حالات مثل رشح ماء البئر القديمة في البئر المحدثه⁽²⁾، أو انهدام البئر القديمة نتيجة عدم مراعاة المسافة بينهما، فإن ثبت هذا بشهادة العدول، فإن البئر الجديدة تردم⁽³⁾، لما سببته من ضرر ببئر الجار، كما أن أحقية استغلال ماء البئر ملحقة بكراء الدار، فإن كان بالبئر نجاسة فوتت على المكثري حق الاستغلال، فإنه يسقط من ثمن الكراء بقدر الانتفاع⁽⁴⁾.

❖ البئر المشتركة:

كما رأينا في النوع الأول أنها آبار -بالعادة- مملوكة لمالك واحد، فإن هذا النوع عي تلك التي يشترك فيها أكثر من واحد، يسقون منها دون مشاحة بينهم⁽⁵⁾، وفي حالة وقع بين الشركاء خصومة، فعليهم أن أن يقتسموا الماء بالتراضي⁽⁶⁾، لأن مسألة تقسيم مياه البئر أمر مستعصي اختلف الفقهاء حول إمكانيته⁽⁷⁾، باعتبار البئر وحدة عضوية يستحيل تقسيمها⁽⁸⁾، ولذا ارتأى بعض الفقهاء أن يضرب حائط على رقبة البئر يكون



- (1) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الوئشريسي، المرجع السابق، ص 108.
- (2) - الوئشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 466.
- (3) - نفسه، ج 8، ص 431.
- (4) - نفسه، ج 8، ص 285.
- (5) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الوئشريسي، المرجع السابق، ص 107.
- (6) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال كتب النوازل، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، قسم الآثار، جامعة الجزائر 2، 2011، ص 264.
- (7) - الوئشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 121.
- (8) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الوئشريسي، المرجع السابق، ص 107.

لكل واحد من الشريكين الجزء الذي يلي داره، وذهب آخرون إلى جعل الانتفاع على يوم معلوم، ينتفع الشريك من البئر انتفاعاً جزافياً⁽¹⁾.

ب. المأجل:

هو الموضع الذي يستخدم لاجتماع مياه الأمطار⁽²⁾، أو هو الموضع الذي يجتمع فيه الماء⁽³⁾، والذي بالعادة ما يكون بسطح المنزل⁽⁴⁾ قصد الاستفادة منه، ويكون هذا النوع من منشآت المياه بالمنازل والمساجد والحمامات⁽⁵⁾، والتي كانت تحول عن طريق المجاري والسواقي⁽⁶⁾، كما كان يملء المأجل أحياناً من ماء العيون أو الأنهار بواسطة القواديس أو القنوات⁽⁷⁾.

وإذا سبق أن بني مأجل فلا يجوز لمن أحدث ساقية أن يرد الماء حتى يمتلئ المأجل⁽⁸⁾، وإذا كان المأجل من ملاحق الدار، وعمد صاحبها إلى كرائها، فالمنفعة تكون للمكتري باعتباره اكترى الدار بجميع لواحقها⁽⁹⁾، بينما يرى المازري بأن الأمر متوقف على عرف البلد⁽¹⁰⁾، ومن ذلك أنه لا يحق لصاحب الطابق العلوي أن يقطع

(1) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 121.

(2) - محمد بن عميرة، الموارد...، المرجع السابق، ص 276.

(3) - ابن منظور، المصدر السابق، ج 3، ص 487.

(4) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 428.

(5) - بن هو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، المرجع السابق، ص 132.

(6) - محمد بن عميرة، الموارد...، المرجع السابق، ص 279.

(7) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 38.

(8) - نفسه، ج 8، ص 426.

(9) - الونشريسي، المعيار...، المصدر نفسه، ج 8، ص 430.

(10) - نفسه، ج 8، ص 429.

الماء عن صاحب السفلى مادام ينتفع به⁽¹⁾، أما إذا كان هذا المأجل بالمسجد فالنفع يكون به عامًّا للناس خاصة أيام الحر⁽²⁾، على ألا يؤدي هذا الاستعمال مبتذل لحرمة المسجد⁽³⁾، ضار ولا يختص به الإمام أو المؤذن دون عامة الناس⁽⁴⁾ حتى في حالة تجبيسه، فيبقى المأجل على شرط الوقف إن كان مرصودا لسقيا الناس ومنافعهم، إلا إذا سبب ضررا بالمسجد فيمنع العامة من ذلك⁽⁵⁾.

كما يمكننا أن نعتبر أن الصهاريج والجباب والأحواض⁽⁶⁾ تعد من منشآت حفظ المياه بالمدينة الإسلامية، إلا أن إشاراتها خافتة بمدونة المعيار، لذا آثرت الإشارة إليها دون إغفالها بالجملة.

2. وسائل توصيل المياه بالمدينة الإسلامية:

ليس كافيا أن تؤمّن المدينة الإسلامية مصادرا دائمة للمياه، إذ لا بد لها من وسائل لتوصيلها إلى الدور وإلى المرافق الأخرى كالفنادق والحمامات والأرحية... وهنا نرى أن الناس قد استعانت بطرق لتوصيل هذه المياه، والتي تختلف إن كانت مصادرها مرتفعة عن المدينة أو منخفضة عنها أو موازية لها، ومن أعم الوسائل نجد:

(1) -الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 428.

(2) - نفسه، ج 7، ص 340.

(3) - نفسه، ج 8، ص 440.

(4) - محمد بن عميرة، الموارد...، المرجع السابق، ص 279.

(5) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 7، ص 55.

(6) - محمد بن عميرة، الموارد...، المرجع السابق، ص 276.

أ. الميازيب:

جمع ميزاب وهو أنبوب من معدن أو حجر ناتئ يكون بأعلى البناء، دوره صرف الماء الذي يتجمع على السطح⁽¹⁾، والذي يصرف بالعادة إلى المأجل قصد تخزين هذه المياه به، ومن هنا كانت تنشب نزاعات حول أحقية الانتفاع بمياه الأمطار عن طريق الميزاب، ولذا أفتى بعض الفقهاء بأن عدم اشتراط المنفعة من صاحب الطابق السفلي يسقط عنه حق المطالبة بمنفعة المياه، ما دام صاحب العلو منتفعا به⁽²⁾، أما إن اشترط هذا الحق، وأراد صاحب العلو إحداث غرفة، مما يترتب عليه نزع الميزاب، فإنه يحق لصاحب السفلى أن يشهد على الأول وجود ميزاب وأن يبقى على إجراء الميزاب في مأجله، حتى لا تنقطع منفعته⁽³⁾، إلا إذا صرف الميزاب في زقاق ضيق أو تضرر به المارة أو الجدران، فمثل هذه الحالة يقطع ضرره بإزالته⁽⁴⁾.

ب. القنوات:

القناة هي الرمح الأجوف الذي يستخدم لصرف الماء⁽⁵⁾، ولها وظائف عديدة كجلب المياه توزيعه بين الأحياء وصرف النجاسة خارج المدينة... وغيرها من الأدوار⁽⁶⁾، مما تؤدي أحيانا بطول الاستعمال إلى انسداد مسالكها، والذي ينجم عنه

(1) - بن هو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الوئشريسي، المرجع السابق، ص 109.

(2) - الوئشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 482.

(3) - نفسه، ج 8، ص 432.

(4) - نفسه، ج 8، ص 431.

(5) - الألفبائي، المرجع السابق، ص 678.

(6) - بن هو محمد، المرجع السابق، ص 111.

تصريف مياهها خارج القناة والذي يسبب عرقلة بالطريق من أثر الطين⁽¹⁾، كما أشارت نازلة إلى تغطية التجار لقناة جراء استحداثهم حوانيت، مما نتج عنه تأذي الناس والدواب من البلل الحاصل، فأجيب عن المسألة أن تعاد القناة إلى ما كانت عليه ما دام ضرر الناس ثابت⁽²⁾، فمصلحة الناس أولى من مصلحة شريحة لا تملك وحدها حق الطريق.

أما إن كانت القناة تصرف المياه النجسة، فلا شك أن ضررها أكبر من قنوات صرف المياه الطاهرة، لذا وجب الاحتياط في صنعها حتى لا تتسبب في إذاية المسلمين، خاصة حرص عدم صرفها بالمياه التي ينتفع بها الناس، كالعيون والوديان، فإن ثبت ذلك وجب قطع القناة⁽³⁾، خاصة إذا كانت مخصصة ابتداء لإجراء المياه الطاهرة، ثم صارت مصرفاً للنجاسات، فيجب قطع النجاسة عنها، إلا في حالة عدم إفساد المياه ولم يتضرر منها أحد فإنها تبقى على حالها⁽⁴⁾ أما إن تسببت في الأضرار للناس، فإنها تقطع مهما كان نوع الضرر⁽⁵⁾، لأن المدن الإسلامية رصدت أماكن مخصوصة لصرف المياه النجسة، والتي بالعادة ما تكون خارج أسوار المدينة⁽⁶⁾، بحيث تكون أرضاً مهملة لا منفعة لأحد فيها، فإن ثبت أنها مملوكة لشخص صرفت في مكان آخر⁽⁷⁾،

(1) -الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ص 111.

(2) - نفسه، ج 9، ص 61.

(3) - نفسه، ج 9، ص 62.

(4) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، المرجع السابق، ص 112.

(5) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 405.

(6) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، المرجع السابق، ص 112.

(7) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 9، ص 406.

بحيث لا يجر ضررا على الناس، ولا تصرف أعلى الواد حتى لا تسبب ضررا على أصحاب المزارع⁽¹⁾.

ج. السواقي:

لا يختلف هذا المرفق عن القناة في الوظيفة إلا بما يتعلق بالمياه المراد جلبها وبساطة صنعها مقارنة بالقنوات، فالسواقي كانت تستخدم لجلب المياه قصد استخدامها في الري والأرحية المائية ودار الدباغة والسقي، وأحيانا للحمامات والشرب⁽²⁾... وغيرها من المنافع.

ونتيجة لجلب الماء من أماكن بعيدة، كانت هذه السواقي تستلزم مرورها بمحاذاة أراضي مملوكة لأصحابها، مما يستلزم استغلال بعض هذا الماء، والذي كان يتم عن طريق هذا الشرط، ولكثرة المستغلين من أصحاب المزارع، فأحيانا كان هؤلاء يأخذون حصصا أكثر من الجالبين، ولذا وجب ضمان شرب معلوم وحصّة مكفولة لهم حتى لا يلحق بعم الضرر⁽³⁾، كما يجوز لهم أن يمنعوا من يستحدث شيئا من المنشآت التي تحتاج إلى مياه، كاستحداث حمام⁽⁴⁾، كما يحق لأصحاب الأرض أن يمنعوا إحداث ساقية لإجراء الأرحية، فإن فرغوا من إحداثها وقام عليهم صاحب الأرض جاز لهم أخذ مصاريف إنشائها⁽⁵⁾.

(1) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 27.

(2) - البرزلي ج 4، ص 416.

(3) - بن هو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، المرجع السابق، ص 113.

(4) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 408.

(5) - بن هو محمد، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، المرجع السابق، ص 114.

ومن السواقي من كانت تستخدم لصرف المياه القدرة، ومن ذلك ساقية صرف مياه دار دبغ الجلود، والذي يمكن أن يصرف في مجرى الفضلات المعلوم، حتى وإن أراد البعض منع صاحب الغسالة من صرفه، لأن فضلات دار الدباغة أشبه بفضلات الدور⁽¹⁾، ويستخلص كذلك من هذا أن هذه المهن يفضل أن تقام بأطراف المدن حتى يقطع ضررها.

3. المنشآت العامة ومنشآت المائية:

هناك عدة مرافق عامة بالمدينة الإسلامية كان يقوم عصبها على المياه، وسنقتصر على ذكر أهم المنشآت التي ورد ذكرها في مدونة المعيار المعرب للونشريسي وأهمها:

أ. الحمامات:

يعد من المنشآت العامة الضرورية في المدينة الإسلامية، حيث انتشر هذا النوع من المنشآت في جل المدن الإسلامية بشكل كبير⁽²⁾، وبما أن قوامها وعصبها الأساس هو الماء، فقد اعترضت أصحابها عدة مسائل، كالمسألة السابقة المذكورة في السواقي، فعلى صاحب الحمام أن يجلب مياه برضا أصحاب الجنات، حتى وإن كانت الساقية محدثة بأرضه إذا كانت الساقية على نفقاتهم، فهذا لا يمنع أن يكون الماء على حظوظ ترضي الجميع⁽³⁾، أما السواقي المتعلقة بصرف مياه الحمام، فإن كانت هناك ما يضر الناس، فعلى صاحب الحمام إصلاحها وترميمها، فإن عفى رسمها واندرت الساقية فليس له أن يحدثها من جديد⁽⁴⁾.

(1) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 280.

(2) - بن هو محمد، الدكتوراه، ص 333.

(3) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 408.

(4) - نفسه، ج 8، ص 410.

ب. الأرحية المائية:

تعد هذه الأرحية نوعاً من أنواع الرحى التي استخدمها الإنسان في طحن الحبوب ومختلف الغلات باعتبارها أقوات الناس، ولذا فقد كانت تقام أرحية الماء على ضفاف الوديان أو تجلب السواقي لها بغرض تحريكها⁽¹⁾.

وبما أن هذا النوع مختص بعنصر الماء، فكان من الطبيعي أن تنشأ مسائل متعلقة بهذه المنشأة، كمن أحدث ساقية بأرض رجل دون علمه، فله أن يمنع إجراء سواقيهم شريطة تعويض ما أنفقوه من مال⁽²⁾، فهو بناء على وجه شبهة، وبالعادة ما كانت تشيد السدود لها لضمان إجرائها بشكل دائم، والتي كانت تستقي ماءها من الوديان⁽³⁾، فكلما كثرت الأرحية كثرت السدود، فإذا أحدث أحدهم سدا فعليه مراعاة مبدأ عدم الإضرار بمن يليه من السدود، وألا يغير موضع سدّه بحيث يضعف إجراء المياه للسدود الموالية، إلا أن يطول الزّمان الموجب لا سقوط حق الدعوى⁽⁴⁾، وفي حالة تعطل رchy قديمة واستغلال صاحب الحديثة لماء القديمة، فإن معاودة تجديد الأولى يكفل له نصيبه من الماء إن كانت هذه الرchy قائمة، وعمل على تجديدها في وقت يحفظ له حقّه، أما إن اندثرت هذه الرchy بالجملة فلا مقال لصاحب الرchy القديمة⁽⁵⁾، ولا اعتبار لادعاء قلة الفائدة بين الأرحية المتجاورة⁽⁶⁾، كما كانت هذه

(1) -الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 395.

(2) - نفسه، ج 8، ص 407.

(3) - بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال كتب النوازل، المرجع السابق، ص 364.

(4) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 381.

(5) - نفسه، ج 8، ص 381.

(6) - نفسه، ج 9، ص 22.

السدود تجرّ ضررا على أصحاب المهن الأخرى كناقلي الأخشاب بالواد، فحل النزاع هنا متوقف على مبدأ الأسبقية، فإذا كان إنشاء السدود أقدم، فلا تمرير الأخشاب إلا برضا أصحاب الأرحية⁽¹⁾.

4. مرافق المياه أخرى بالعمائر المدنية:

كذلك هي كثيرة في العمائر الدينية والقصور والسكنات، ولكن اقتضب لنا المعيار بعضا منها استنادا إلى النوازل التي وردت على الفقهاء بشأنها:
أ. الميضأة:

هي مرفق من مرافق المسجد، حيث تعدّ المكان المخصص للوضوء، فمنها ما كان يبنى داخل المسجد ومنها كان منفصل عنها⁽²⁾، والأولى أن تقام خارج المسجد إن كان هذا يسبب حرجا بسبب البلل أو النجاسة التي يسببها استخدام الميضأة من قبل الناس⁽³⁾، وهذا الذي جعل الشيوخ يندبون للناس الوضوء في بيوتهم، تفاديا لإحداث الضرر بالنسبة⁽⁴⁾.

ب. المرحاض:

كثيرا ما كان يحتاط فقهاء في هذه المواضع التي تحمل العذرة والنجاسة، ولذا اعتمدت معايير فقهية لإنشائها، كعدم موافقة المرحاض لاتجاه القبلة، كما أنّ هناك معايير معمارية تمنع ضررها على الناس، كإنشاء المرحاض بموضع يخالف اتجاه الرياح كي لا تؤذي الناس بالروائح المنبعثة منها، كما يمكن لمن يتضرر بالمرحاض أن يمنع

(1) -الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 9، ص 52.

(2) - بن هو محمد، العمران والعمارة من خلال كتب النوازل، المرجع السابق، ص 140.

(3) -الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 443.

(4) - نفسه، ج 6، ص 9.

استخدامه⁽¹⁾، سواء كان ساكنا بنفس السكنى أو كان جار أنشئ المرحاض بجواره⁽²⁾، فيتأذى برائحة المرحاض، خاصة إذا كان الزقاق ضيقا، أما إن كان واسعا جاز لأصحاب البيوت إخراج مراحيضهم خارج أصل الدار إذا كانت لا تضر بالسابلة ولا بالجيران⁽³⁾، كما أن تنظيف هذه المراحيض كانت تؤذي الجيران في العديد من الأحيان، ومن ذلك ما ورد في نازلة عن رجل اشترى دارا فيها مرحاضا للجار، وكانت عادته أن ينظف مرحاضه إزاء دار الجار، فمنعه هذا الأخير، نظرا للنجاسة والروائح التي انبعثت منه، فكان الجواب أن من حق المشتري أن يمنعه أو يرخص له ما دام يمتلك البيت، ولا اعتبار لعادة الجار القديمة مع جاره الأول⁽⁴⁾، كما يجوز لمن اشترى دارا أن يجري تفل مرحاضه في قناة الحي أو إعادة تجديد القناة القديمة ما دامت لم تعمل على الإضرار بأهل الزنقة التي يجري تفلها فيها⁽⁵⁾، ما دام أنه تملك أصل الدار بجميع مرافقها، بشرط ألا يصرف النجاسة بأعلى النهر بحيث ينجس الماء، أما إن صرفه في أسفل الواد فلا حرج في ذلك⁽⁶⁾.

(1) - الونشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 8، ص 440.

(2) - نفسه، ج 9، ص 59.

(3) - نفسه، ج 8، ص 440.

(4) - نفسه، ج 8، ص 456.

(5) - نفسه، ج 9، ص 32.

(6) - نفسه، ج 8، ص 27.

الختاتمة:

وختاتما يمكن القول أن لمياه أهمية بارزة في مجتمع المغرب الإسلامي باعتباره عصب الحياة، زاد من هذه الأهمية نقص هذا العنصر الحيوي ومشاحته بين الناس، ولذا عمد الفقهاء النوازيون على تنظيم استعماله وترشيده بين الناس من خلال أجوبتهم، ومن هنا نستنتج ما يلي:

- تنوعت مصادر المياه بالمغرب الإسلامي من حيث مصادرها وأشكالها، فوجدت مياه الأمطار والوديان والعيون والجداول والآبار.
- يعدّ موضوع المياه مستهل كتب الفقه عموما من خلال أبواب الطهارة، وكذا شغل حيزا معتبرا من خلال كتب النوازل الفقهية، فحرصت كتب النوازل إعطاء كل ذي حق حقه، اعتبارا أن التشريع في هذا الوقت كان يستند إلى الشريعة في العصر الوسيط.
- أوضحت لنا كتب النوازل، ومدونة المعيار على وجه الخصوص أهمية قضايا المياه، حيث أفردت لها عددا معتبرا من النوازل التي طالت جل قضاياها المياه ومرافقه المعروفة، التي استندت إلى الفقه المالكي في أجوبتها.
- كانت الأجوبة قائمة على العرف ومبدأ عدم الضرر والأسبقية في الاستغلال، ولا اعتبار في هذا للأقدمية، كما قامت بعض الأحكام على مبدأ التراضي كآلية للتوفيق بين الناس.
- هناك مياه غير متملكة يسقي منها الأعلى فالأعلى، ومياه متملكة تكون بين أصحابها على حظوظ إن كانت مشتركة أو محبسة، وإن كانت خاصة فهي لصاحبها لا يحق للناس مشاركته فيها إلا برضاه، وجاز له بيعها وكراؤها، وعليه إثبات ملكيتها بواسطة العقود العدلية في حالة النزاع عليها.

- يقع على عاتق أصحاب المهن التي تحتاج إلى مياه مسؤولية إصلاح منشآت المياه وكنس الوديان، ونفقة الترميم والإصلاح، وهم أولى بما زاد في الوديان من مياه.
- اختلفت الأحكام بشأن منشآت المياه باختلاف أنواعها بين المنشآت بالمدن وخارجها، وباختلاف الوظائف التي تؤديها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر،

1950

أولاً: المصادر:

1. ابن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام في مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م.

2. التنبكتي بابا أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، إشراف عبد الحميد عبد الله هرامة، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 1989م.

3. القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، ج1، دار مكتبة الحياة، بيروت.

4. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجة جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981.

ثانياً: المراجع:

1. خالد عزب، مشكلة المياه وحلولها في التراث الإسلامي، دار القدس للبحوث والطباعة والنشر، القاهرة، 1995.
2. عفيفة خروبي، أصول أبي العباس الونشريسي من خلال المعيار المعرب، الجزائر، القافلة للنشر والتوزيع، 2011.

3. كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال فتاوى المعيار للنشر، مكتبة الإسكندرية للكتاب، 1996.

4. محمد بن حمو، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، تلمسان، كنوز للطباعة والنشر، 2011.

5. محمد حجي، نظرات في النوازل الفقهية، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة الجديدة، ط1، الدار البيضاء، 1999.

ثالثا: الملتقيات والمجلات:

1. أبو القاسم سعد الله، من فتاوى الونشريسي، مجلة الوعي، عدد خاص بتظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011.

2. زهير عبد الرحمن قزان، إسهامات علماء توات في مجال النوازل الفقهية، أعمال الملتقى الخامس حول المذهب المالكي بعنوان المدرسة المالكية الجزائرية، عين الدفلى 14-16 أفريل 2009.

3. عبد القادر عزوز، النوازل الفقهية في الغرب الإسلامي، أعمال الملتقى الخامس حول المذهب المالكي بعنوان المدرسة المالكية الجزائرية، عين الدفلى 14-16 أفريل 2009.

4. فاطمة بلهوارى، وسائل الري في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، مجلة دعوة الحق، العدد 392، ماي 2009، الرباط.

5. محمد علي بن الصديق، أهمية الماء في القرآن والسنة، مجلة دعوة الحق، العدد 392، ماي 2009، الرباط.

رابعاً: الرسائل والأطروحات:

1. بلبشير عمر، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأوسط والأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع / 12-15م من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، 2010.
2. بن حمو محمد، العمران والعمارة من خلال كتب النوازل، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، قسم الآثار، جامعة الجزائر 2، 2011.
3. سياب خيرة، المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي 7هـ-10هـ رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2014.
4. محمد بن عميرة، الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005.

خامساً: القواميس:

1. ابن المنظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، ج6، دار الكتب العلمية، بيروت.
2. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مج 5، تحقيق و ضبط: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.
3. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، مصر، 2004.

التأثير الأندلسي على العمارة الجزائرية

The Andalusian influence on the Algerian Architecture

د.ة. سامية بن قويدر

جامعة الجزائر - 2 -

samiakerpic@gmail.com

ملخص:

تهدف الأبحاث المتعلقة بالمحافظة على التراث الثقافي العقاري إلى دراسة أصوله بهدف جرده وتسجيله بخصائصه ومميزاته دون أي تحوير، لفهم هذا النوع من التراث الثقافي أولا والمحافظة على خصوصياته بالشكل الذي يستحقه وترميمه لاحقا بالفكر الذي جاء به. لذلك سنحاول من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على التأثير الأندلسي على العمارة الجزائرية كتيار من التيارات الحضارية العديدة المؤثرة، لفهم التمازج الثقافي بين البلدين باعتبار التراث الثقافي المعماري بصمة راسخة على مر التاريخ، وشاهدا ماديا يسهل استقراؤه مهما بعد الزمن، تاركين مظاهر هذا التأثير لدراسات أخرى بشكل أعمق.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، الجزائر، تأثير، عمارة.

Abstract:

The purpose of the researches concerned with the preservation of the cultural and real-estate heritage consists in studying its origin in order to record it and save it with its features without any change, to understand this kind of cultural heritage firstly, and preserve its specificity in its deserved manner, and its restoration later with its inherent thought. Therefore, we will try in this study to highlight the Andalusian influence on the Algerian architecture as one of the multiple influencing civilization currents, and grasp the cultural models of the two countries since the architectural cultural heritage is a well-established imprint throughout history, and a material witness easily examined whatever its oldness, and it is up to other studies to study deeply the manifestations of this influence.

Keywords: Al-Andalus-Algeria -influence- architecture.

مقدمة:

وصلت العمارة في الأندلس إلى أوج رقيها وازدهارها بفضل التطور الحضاري الذي عاشته في العصر الوسيط، والذي يمكن ملاحظته في التحكم في تقنيات البناء بصفة كبيرة بفضل الإبداع الكبير الذي وصل إلى أوجه هناك، إلى درجة إطلاق ابن خلدون مصطلح "صناعة البناء" على الهندسة المعمارية الأندلسية نظرا لوصولها مرحلة التمكن فنيا وعلميا. يمكن ملاحظة هذا التطور المعماري في الابتكارات الخاصة بالمياه والري، وكذلك في هندسة الحدائق وتصميم المباني والتحكم في النسب والحسابات الذي ارتقى إلى أوجه فيما يخص التلاعب بين الكتل والفراغ، دون أن ننسى الزخارف على اختلاف أنواعها سواء الخاصة بالحصص أو الزليج وغيرها، مما يثبت الرقي الذي وصل إليه الأندلسيون في هذا المجال.

برز التأثير الأندلسي على العمارة الجزائرية في مختلف المراحل التاريخية سواء في العصر الوسيط أو العثماني، والذي بقي راسخا في ذاكرة الأمة الجزائرية إلى يومنا هذا، من خلال شواهد مادية عقارية دالة على هذا التأثير. لذلك سنسلط الضوء في هذا البحث على هذا التأثير الحضاري الأندلسي المتمثل في جلب نماذج أندلسية معمارية تعتبر أساس بناء وواجهة هذه الحضارة، كذلك من خلال التركيز على تواجد العنصر الأندلسي كتركيبة إثنية هامة بالجزائر، قدمت بشكل هجرات كبرى متتالية يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل وفقا لأحداث هامة وقعت بالأندلس، ليستقروا في مدن ساحلية جزائرية في الغالب نظرا لقربها، أين رسخوا وجودهم فيها من خلال بصمات تبرز هذا التأثير، كبناء مدن جديدة أو تجديد وتعمير أخرى مخربة ومهدمة، أو بناء أحياء خاصة بهم في المدن الكبرى المكتظة أو في ضواحيها. بناء عليه يمكن فهم هذا التأثير بشكل أفضل عن طريق ملاحظة نماذج خاصة متمثلة في بعض المنشآت الكبرى

المبنية من طرفهم، أو في الأفكار العامة التي أدخلوها والتي كانت ابتكارات خاصة بهم - متمثلة بالخصوص في هندسة المياه والحدائق والزخارف المتنوعة على مواد مختلفة -، امتزجت مع الطابع المحلي لتكوّن لنا هذا الشراء الثقافي والحضاري، الذي يمكن استقراؤه من خلال هذه العمارة على مر التاريخ.

للوصول إلى الأهداف المرجوة من هذا البحث فضلنا طرح الإشكال المحوري التالي: فيما تمثل التأثير الأندلسي على العمارة الجزائرية؟ وماهي الظروف التي أدت إلى هذا التأثير؟

تتفرع من هذا الإشكال الرئيسي إشكاليات أخرى فرعية متمثلة في: في أي عصر تم هذا التأثير؟ وماهي المدن التي عرفت هذا التواجد الأندلسي؟ وكيف برز هذا التأثير في كل مدينة؟ وغيرها من الأسئلة التي يمكن طرحها للخروج بنتائج من هذه الدراسة.

1- أهمية الدراسات الحضارية والإثنية في العمارة:

يتمثل الهدف الأساسي من تناول هذا العنصر في ربط العمارة الجزائرية بالجانب الحضاري والإثني، الذي اخترنا له كنموذج فئة الأندلسيين للتعريف والتمهيد لهذا الموضوع، كون التأثير المعماري ناجم عن تأثير الأندلسيين البارعين في هذا المجال بشكل أكبر، حيث نقلوا معهم أفكارهم التي طوروها في بلاد الأندلس وطبقوها في المغرب الأوسط. يكتسي هذا النوع من الدراسات المتعلقة بمجال العمارة أهمية بالغة كونه يمتلك خلفية حضارية، باعتبار العمارة واجهة الحضارة ودليلا وشاهدا ماديا على رقيها وتطورها، كما يمكن من خلالها قراءة نمط حياة شعب هذه الحضارة، حيث تتناسب العمارة طرديا مع الحضارة فكلما وصلت الحضارة إلى أوج ازدهارها كلما تميزت العمارة بالبذخ والزخارف والرفاهية، وبالتالي ترتبط ارتباطا وثيقا معها. لفهم

ذلك وجب تعريف الحضارة الذي يرتبط مصدر مصطلحها المتمثل في "الحضر" ب
الاستقرار في حيز حضري متمثل في المدينة، التي تكون مزدهرة في مختلف
المجالات⁽¹⁾، لذلك يكون الحضرة خلاف البادية. يمكن كذلك تسمية الحضارة المشتقة
من مصدر الحضرة بالحى العظيم⁽²⁾، وذلك لارتباطها الوثيق بالإقامة والمكوث
والتمدن⁽³⁾، حتى في اللغة الأجنبية تدعى الحضارة بـ "Civilization" والتي هي
من أصل إغريقي "civites" وتعني المدينة في الأساس⁽⁴⁾.

ترتبط الحضارة بالجانب الاجتماعي باعتباره أساس دراستها، كونها معتمدة في
قيامها على الأجناس المتممين إليها، وعلى تركيبهم وطبقاتهم الاجتماعية⁽⁵⁾، وكذلك
الاحتكاك مع المجتمعات الأخرى والتبادلات فيما بينهم، والتنظيم المرتكز على بناء
المدن أيضا⁽⁶⁾، الذي يأخذ بعض الأفكار المعمارية من المجتمعات المجاورة والمعاصرة
له، وكذلك من الاقتباس عن الحضارات التي سبقتها وهو معروف في كافة العماير⁽⁷⁾.

(1) - عبد المجيد (بن يكن)، " الحضارة العربية الإسلامية وتفاعلها مع الحضارة الإنسانية"، مجلة التراث، المجلد: 1، العدد: 32، 2019، ص. 59.

(2) - ابن منظور، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، 1405هـ، ص. 197.

(3) - بدران (بن لحسن)، " مفهوم الحضارة. دراسات تحليلية مقارنة عابرة للثقافات"، مجلة أنثروبولوجيا، المجلد: 7، العدد: 2، 2021، ص. 166.

(4) - المرجع نفسه، ص. 161.

(5) - عبد المجيد (بن يكن)، المرجع السابق، ص. 61.

(6) - بدران (بن لحسن)، المرجع السابق، ص. 172.

(7) - عبد المجيد (بن يكن)، المرجع السابق، ص. 63.

بناء عليه ولفهم المجتمعات المنشأة للحضارة وجب معرفة فئاتها المكونة لها، والتي سنركز على الأعراق المكونة لهفي بحثنا هذا، والتي تحددها الدراسات الإثنوغرافية المهمة بوصف الجماعات الثقافية، وهي خاصة بالدراسة الوصفية لأساليب حياة الأعراق والمجتمعات والشعوب بالتحديد، مما يساهم في فهم سلوك أعراق الفئات المكونة للمجتمع الواحد بشكل أفضل⁽¹⁾. تركيزنا على الجانب الإثنوغرافي جاء لكون مصدر هذا المصطلح إغريقي متكون من كلمتين "إثنو" (Ethno) التي تعني عرق أو شعب، و"غرافيا" (Graphy) وتعني وصف، وبهذا تُعرّف الإثنوغرافيا على أنها وصف لأعراق الشعوب بغرض معرفة ثقافتهم ونمط حياتهم، وكذلك مقارنة لمجتمعات وثقافات الشعوب والإنسان بشكل عام، وهو ما يساعدنا في فهم أهمية الأعراق بالنسبة للحضارة والبناء معا، وبالتالي يفسر لنا التأثير الأندلسي على العمارة الجزائرية بشكل أوضح.

تتشترك المجموعة العرقية الواحدة في مجموعة من الصفات كنمط الحياة والسلوك واللغة واللهجة وطريقة التفكير، وكذلك العادات والتقاليد والقيم وغيرها من العناصر الهامة التي تجمع بينهم⁽²⁾. لذلك يساعد هذا النوع من الدراسات في معرفة أصول نشأة الحياة الاجتماعية، وفهم المجتمعات الحالية المركبة من عدة أعراق

(1) - الزهرة (بوجفجوف)، "المقاربة الإثنوغرافية في المجتمعات الافتراضية: توجه بحثي معاصر في الفضاء الاتصالي الجديد"، المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي، المجلد: 9، العدد: 2، 2022، ص. 278.

(2) - حياة (خميس)، "المنهج الإثنوغرافي واستخداماته في الأبحاث الأنثروبولوجية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد: 9، العدد: 2، 2022، ص. 809.

عبر مراحل زمنية ساهمت في الربط فيما بينهم⁽¹⁾، حيث يتم تحليل المجموعات الإثنية أي العرقية بهدف وصفها في مختلف المجالات، التي اخترنا منها مجال الأشغال والممارسات الخاصة بالحرف الصناعية⁽²⁾، التي يتميز ويبرع فيها عرق إثني ما عن غيره. تمتاز التجمعات العرقية ببنية اجتماعية متجانسة، مرتكزة على مجموعات حرفية في مجالات معينة اكتسبوها عبر الزمن وزاولوها في بيئتهم الواحدة⁽³⁾، حيث تحوز هذه المجموعات العرقية مهارات ومعارف مشتركة وتصورات اجتماعية، وكفاءات وتقنيات قائمة على الأعراف تمثل الدلالات الحقيقية للارتباط بالهوية الثقافية⁽⁴⁾.

يدخل ضمن هذه المهارات العمارة التي تربط المجتمع بالحضارة⁽⁵⁾، والتي تحمل المعنى الاجتماعي الحقيقي للسكان، حيث تنتظم المدن وترتبط بالجانب الاجتماعي بصفة كبيرة⁽⁶⁾. تنشأ العمارة نتاج تفاعل الأمة عبر تاريخها الحافل لذلك تعتبر دليلاً مادياً بارزاً على رقي وتطور هذه الحضارة⁽⁷⁾، فالحضارة مرتبطة بال عمران والمدنية والمدينة والتمدن، أين تستقبل المستقرين بها وتجمعهم للقيام والنهوض بأمهم

(1) - المرجع نفسه، ص. 810.

(2) - نفسه، ص. 809.

(3) - الزهرة (بوجفجوف)، المرجع السابق، ص. 279.

(4) - قانون رقم 98 - 04 مؤرخ بـ 15 جوان سنة 1998: متعلق بحماية التراث الثقافي، المادة:

67.

(5) - بدران (بن لحسن)، المرجع السابق، ص. 168.

(6) - المرجع نفسه، ص. 166.

(7) - عبد المجيد (بن يكن)، المرجع السابق، ص. 62.

(1)، عن طريق تطوير علومهم وصناعاتهم وغيرها من منتجات الحضارة، التي تظهر في الطابع العمراني الذي يتطور بتطورها (2). فالحضارة متمثلة في الأساس في الاستقرار والإقامة والاستيطان والسكن والبقاء في الحيز ذاته، الذي يُشترط فيه التمدن للتنظيم (3).

2- الأندلسيون:

قبل الحديث عن التأثير المعماري الأندلسي سنتكلم فيما يلي عن الأندلسيين أولاً، والذين نقصد بهم المسلمين الذين ربطهم تاريخ مشترك مع سكان المغرب العربي، وهم الأشخاص الذين عاشوا في اسبانيا، واتخذوا تسميتهم من الأندلس التي بدورها اتخذت تسميات عدة على مر تاريخها، بداية مع اسم إيبيريا نسبة للإيبيريين الذين عاشوا بها، وبعدها أخذت تسمية اسبانيا التي أطلقها الرومان عليها، وبعدهم الوندال الذين سموها وانداليسيا (Vandalisia) في أوائل القرن 5م، وهو الاسم الذي اشتق منه العرب تسميتها المتمثلة في الأندلس عند فتحها، والذي بقي مستخدماً لفترات طويلة خصوصاً عند المسلمين، وأما أنداليسيا (Andalucia) فقد صار مستخدماً للدلالة على جنوب شبه الجزيرة فقط بعد أن كان يطلق عليها كاملة (4).

أما تسمية المورسكيين فقد اشتقت من مصطلح "مور" أو "مورو"، الذي أطلقه الأسبان على فاتحي الأندلس المسلمين، أخذوا عن كلمة موريتانيا التي أطلقها

(1) - بدران (بن لحسن)، المرجع السابق، ص. 166.

(2) - المرجع نفسه، ص. 168.

(3) - نفسه، ص. 172.

(4) - عبد المجيد (البغدادي)، "أسباب انتشار اللغة العربية وسيطرتها في الأندلس"، مجلة القسم

العربي، المجلد: 14، العدد: 24، 2017، ص. 274.

الرومان على سكان شمال إفريقيا، ومن قبلهم الإغريق الذين أطلقوا تسمية مورويس (Mauros) على السكان الأصليين في غرب إفريقيا الشمالية⁽¹⁾، وبالتالي يُقصد بها سكان المغرب العربي. لقد استخدم هذا المصطلح في العهد العثماني للدلالة على سكان الجزائر، كما أطلق كذلك على مسلمي الأندلس المهاجرين بعد سقوط غرناطة. أما مصطلح "موريسكي" أو "موريسكو" بالإسبانية فهو تحقير وتصغير لكلمة "مور"، التي جاءت للدلالة على المور الباقين بالأندلس بعد سقوط مدينة غرناطة، والذين اعتنقوا المسيحية ظاهرا بما يعرف بالتقايا أو التقية، بهدف اتقاء شر محاكم التفتيش التي من أهدافها طرد المسلمين من الأندلس المدعين اعتناق المسيحية⁽²⁾.

يمكن تحديد فترة إطلاق هذا الاسم على الأندلسيين بإسبانيا منذ إصدار الملكة إيزابيلا مرسوما سنة 1502م⁽³⁾، والمتضمن لبند يقضي باعتناق الأندلسيين المسيحية والسماح لهم بالبقاء أو ترحيلهم إن تشبثوا بدينهم، وكل من تنصر وبقي أطلق عليه اسم موريسكي⁽⁴⁾، وبالتالي يُطلق هذا المصطلح على الأندلسيين ما بعد سقوط غرناطة فترة العهد العثماني في الجزائر من طرف الإسبانين، وليس في العصر الوسيط كونه لم

(1)- Barrucand (M.).Bednorz(A.) ; **L'architecture maure en Andalousie** ,P.L.M , Italie , 1995 , p.18

(2) أحمد توفيق (المدني)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص. 45.

(3) - جمال الدين(علوان). حكيم (بن الشيخ)، الهجرات الأندلسية وتأثيراتها الفنية على الجزائر (العمارة والموسيقى أنموذجا ما بين القرنين 15-19م)، مجلة المعيار، المجلد: 27، العدد: 4، 2023، ص.ص. 842-859، ص. 846.

(4) - المرجع نفسه، ص. 847.

يوجد قبلا، حيث ارتبط هذا المصطلح تحديدا بمن ادعوا المسيحية حماية لأرواحهم، إضافة إلى صفة التصغير كلاحقة لربطهم بالموريين المعروفين بسكان المغرب العربي.

3- هجرة الأندلسيين:

ستتناول بالحديث فيما يلي هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط، التي تميزت بكونها منقسمة إلى ثلاثة مراحل امتدت منذ العصر الوسيط وإلى غاية العهد العثماني، وكذلك سنذكر بعض المناطق الرئيسة لاستقرارهم كما يلي:

3-1-1 مراحل هجرة الأندلسيين:

مثل التواجد الأندلسي في الجزائر رافدا بشريا أثرى التراث الحضاري المحلي وأضاف عنصرا جديدا للتركيبة البشرية، التي تمازجت مع السكان المحليين وأعطت طابعا حضريا جديدا، حيث ساهمت في بناء مدن جديدة وفي ازدهار مدن أخرى⁽¹⁾. لذلك سنذكر فيما يلي مراحل هجرة الأندلسيين إلى الجزائر -كونه هام في فهم تطور المدن الجزائرية- كما يلي:

3-1-1 المرحلة الأولى: نقصد بها الهجرات التي قامت في العصر الوسيط

قبل سقوط غرناطة، بسبب الصراعات المسيحية مع المسلمين التي كانت أولاهما مع سقوط مدينة طليطلة سنة 1085م⁽²⁾، كذلك ومع قيام الدولة الموحدية واتحاد الضفتين أصبحت هجرة الأندلسيين سهلة بفضل الطلب المتزايد عليهم نظرا لعلمهم وخبرتهم بهدف الاستفادة منهم، وبمرور الوقت ومع ضعف هذه الدولة وتكالب

(1) - عبد القادر (كركار)، "الهجرة الأندلسية إلى الجزائر وأثرها في الحفاظ على التوازن الديموغرافي في العصر الحديث"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد: 7، العدد: 2، 2023، ص. 662.

(2) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 843.

المسيحيين على المسلمين في الأندلس، اضطُر الأندلسيون إلى الهجرة إلى المدن الجنوبية أو ضفاف شمال إفريقيا عند سقوط كل مدينة بالأندلس بالتوالي، إلى أن سقطت مدينة قرطبة سنة 1236م، والتي عرف سقوطها هجرة جماعية واسعة في ذلك العصر⁽¹⁾.

3-1-2- المرحلة الثانية: تدخل هذه المرحلة والمرحلة الموالية لها في العهد

العثماني بالجزائر معا، ونقصد بالمرحلة الثانية هنا الهجرات التي وقعت بسقوط غرناطة سنة 1492م، ويمكن إدخال الفترة التي كانت قبيل سقوطها مع سقوط مالقة 1487 م وألميرية 1488 موبسطة ووادي آش سنة 1489م، حيث استمرت هذه المرحلة بسقوط المدن الواحدة تلو الأخرى إلى غاية إصدار قرار النفي النهائي، الذي اعتبر بداية للمرحلة الثالثة. لقد أصدرت الملكة إيزابيلا بعد سقوط غرناطة مرسوما مؤرخا بـ12 فيفري سنة 1502م⁽²⁾ يقضي بالتنصير أو الترحيل، بما معناه ترحيل المسلمين الذين رفضوا الدخول في الدين المسيحي⁽³⁾، مما أدى إلى هجرة عدد كبير من الأندلسيين نحو الجزائر، حيث كانت الإيالة ترسل سفنها لنقلهم جراء ذلك، والتي يمكن ذكر العديد من الأمثلة عليها كسنة 1569م التي تم فيها إرسال مجموعة سفن عُيِّن على رأسها صالح رايس لنقل 5600 أندلسي، وكذلك سنة 1570م التي تم فيها نقل ما يقارب 30 ألف أندلسي، وبعدها سنة 1591م التي تم فيها نقل عدد معتبر من الأندلسيين، وبقيت حملات السفن هذه مستمرة لنقل المهاجرين إلى غاية المرحلة الثالثة⁽⁴⁾.

(1)- جمال الدين(علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 844.

(2)- نفسه، ص. 846.

(3)- نفسه، ص. 847.

(4)- نفسه، ص. 849.

3-1-3 المرحلة الثالثة: تتمثل هذه المرحلة في آخر مرحلة من مراحل الهجرة

والتي حُددت بتاريخ 1609م، تم فيها اعتبار الأندلسيين الباقين خونة وجواسيس وخطر على اسبانيا، وبالتالي تم طردهم بعد كشف أمر اعتناقهم الظاهري للمسيحية، بداية من مدينة فالنسيا أكبر المدن المستقطبة للمورسكيين، أين تمت مباشرة التهجير وإلى غاية التهجير النهائي بتاريخ 22 سبتمبر سنة 1609م⁽¹⁾.

3-2-3 مناطق استقرار الأندلسيين:

استقطبت غالبية المدن الساحلية الجزائرية أو تلك القريبة منها عددا كبيرا من مهاجري الأندلس، نظرا لقربها من اسبانيا وسهولة ربطها بالسفن بين الضفتين⁽²⁾، مثل مدينة البليدة والقلعة والقل ودلس وشرشال، وكذلك بجاية وهران وتلمسان ومستغانم والمرسى الكبير وارزيو وغيرها من المدن⁽³⁾. لقد عرفت مدينة بجاية استقطابا كبيرا لهم منذ العهد الحفصي، حيث احتضنت العديد من المهاجرين منذ المرحلة الأولى⁽⁴⁾. أما مدينة تلمسان فقد كانت من أهم الوجهات بالنسبة للأندلسيين بسبب قربها من الأندلس منذ المرحلة الأولى، وكذلك لمعرفة أهلها بتمكن الأندلسيين في مجال العمارة خصوصا في العهد الزياني. من بين الهجرات الكبرى التي عرفتها تلمسان تلك التي كانت في عهد السلطان عبد الواحد بن أبي عبد الله ثم أبو العباس أحمد، وهما حاكمان زيانيان شجعا على الهجرة لدرجة تخصيص حي للحرفيين وأصحاب الأموال والتجار للإقامة والتجارة فيه، والذي أخذ نفس تسميتهم حيث

(1) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 847.

(2) - عبد القادر (كركار)، المرجع السابق، ص. 658.

(3) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 849.

(4) - المرجع نفسه، ص. 844.

سمي بدرب الأندلس. كذلك نذكر هجرة أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل عم سلطان غرناطة، الذي هاجر إلى تلمسان واستقر بها قبل سقوط غرناطة.

من بين أهم المدن المستقبلية للمهاجرين كذلك نذكر مدينة الجزائر، التي كان بها عدد الأندلسيين كبيرا إلى درجة منحهم أراضي بضاحية المدينة، خُصصت لبناء حي فيها سمي بحي الثغرين المعروف بتاغارة حاليا⁽¹⁾، نسبة إلى سكان مناطق الثغور بالأندلس⁽²⁾. تغيرت تركيبة مدينة الجزائر البشرية مع قدوم الأندلسيين إليها ما جعلهم يمتلكون مكانة هامة مع السكان المحليين، وذلك بداية من سنة 1492م بالخصوص، تلتها هجرات متعاقبة كثيرة أخرى⁽³⁾. نذكر كأمثلة على ذلك الهجرات المتعاقبة سنة 1609م، والتي تنقل فيها إلى هذه المدينة قرابة 25 ألف مهاجر من الأندلس⁽⁴⁾، وكذلك سنة 1612م التي تنقل فيها لمدة قدرت بشهر واحد فقط ما يفوق 3800 مهاجر، مما يدل على أهمية هذه المدينة بالنسبة للأندلسيين.

كذلك ومن بين المدن الهامة المستقطبة للأندلسيين نذكر مدينة وهران، التي هاجر إليها كثيرون نظرا لقربها من إسبانيا. نذكر كمثال على ذلك هجرة سنة 1612م التي استقطبت وهران فيها لوحدها 22 ألف أندلسي، وهجرات أخرى عديدة

(1) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 845.

(2) - عبد القادر (كركار)، المرجع السابق، ص. 659.

(3) - عائشة (غطاس)، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830. مقارنة اجتماعية -

اقتصادية، منشورات ANEP، الجزائر، ص. 21.

(4) - عبد القادر (كركار)، المرجع السابق، ص. 659.

خصوصا من مدينة فلنسيا التي هاجر منها 15 ألف فلنسي بسبب قرب هذه المدينة من وهران، ولكون عدد سكانها الموريسكيين فيها كبير جدا⁽¹⁾.

بالنسبة لمدينة شرشال فقد استقر بها الآلاف من الأندلسيين في العهد العثماني⁽²⁾، وقاموا بتجديدها بعد أن كانت خالية في مناطق واسعة منها. أما مدينة القليعة فقد قام الأندلسيون بإنشائها سنة 1550م⁽³⁾ في عهد حسن باشا أين استقرت بها 300 عائلة أندلسية تقريبا. كذلك الحال بالنسبة لمدينة البليدة التي بُنيت مثلها مثل القليعة كأول مدينة أندلسية في الجزائر سنة 1535م⁽⁴⁾.

4- التأثير المعماري الأندلسي على المدن الجزائرية:

برز التأثير الأندلسي على العمارة الجزائرية في العديد من المدن الساحلية، أين ظهر ذلك في القصور وزخرفة المساجد وغيرها من المظاهر التي يمكن الاستشهاد بها⁽⁵⁾. نذكر من بين المدن التي برز فيها هذا التأثير المعماري بصفة كبيرة مدينة تلمسان، بداية من العصر الوسيط وبالتحديد منذ العهد المرابطي والزياني، وذلك من خلال استخدام المهندسين المعماريين المهرة من الأندلس لإنجاز المشاريع المعمارية الكبرى وتزيين القصور وتصميم البساتين وإعطائها اللمسة الفنية الأندلسية. كأمثلة على ذلك نذكر تشييد الكثير من قصور تلمسان التي تميزت بالجمال والروعة، والتي بناها

(1)- جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 849.

(2)- عبد القادر (كركار)، المرجع السابق، ص. 658.

(3)- جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 849.

(4)- عبد القادر (كركار)، المرجع السابق، ص. 658.

(5)- ناجي (لخصر)، "عوامل تأثر المرابطين بالحضارة الأندلسية- فن العمارة أنموذجا"، مجلة

الوحدات للبحوث والدراسات، المجلد: 15، العدد: 1، 2022، ص. 531.

السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين اللذان طلبا من السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بإرسال أمهر الحرفيين من الأندلس المتميزة بالريادة في صناعة البناء، لبناء القصور والمنازل والبساتين التي لا يوجد لها مثل⁽¹⁾، لتصبح بذلك شبيهة بغرناطة وإشبيلية في هندستها المعمارية⁽²⁾.

لقد تأثرت المساجد التلمسانية كغيرها من المعالم بالنمط الأندلسي وبشكل واضح، حيث أنجزت زخارفها من طرف حرفيين أندلسيين، ولعل جامع سيدي بلحسن أبرزها، حيث احتوي على مظاهر عمرانية كثيرة مشابهة للفن المعماري الأندلسي خصوصا في زخارفه. نذكر من بين الأمثلة الكثيرة على ذلك أيضا الجامع الكبير، الذي تميز محرابه بكونه مشابه لمحراب جامع قرطبة، إضافة إلى سقفه وأعمدته المستوحاة من تصميمات أندلسية كذلك⁽³⁾، وبالتحديد من قرطبة والتي تظهر في تفصيلاته وتخطيطه الفني الراقي، وفي مآذنه المربعة وقبابه ذات الأضلع المتقاطعة⁽⁴⁾. بالنسبة للزوايا نجد أيضا التأثير الأندلسي الذي كان واضحا فيها، حيث عكف الأندلسيون على إنشاءها كزاوية أبي مدين التي تحولت إلى مدرسة فيما بعد، والتي يبرز فيها التأثير الأندلسي بشكل كبير من خلال النقوش والزخارف والكتابات بالخط الأندلسي⁽⁵⁾. أما فيما يخص الأحياء السكنية نذكر تسمية حي كامل بحي "بني سلطان

(1) - عبد الرحمان (ابن خلدون)، ديوان مبتدأ الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج. 7، دار الفكر، بيروت، 2000، ص. 190.

(2) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 850.

(3) - المرجع نفسه، ص. 852.

(4) - ناجي (لخضر)، المرجع السابق، ص. 531.

(5) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 852.

أندلس" نسبة إلى سلاطين غرناطة بتلمسان، الذي عاش فيه أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل وأحفاده جيلا بعد جيل، لدرجة تسمية حييهم بالسلطين نظرا لأصولهم الملكية الغرناطية⁽¹⁾. كذلك قام الأندلسيون بالتجمع في قرى خارج المدينة بنفس مواصفات القرى الأندلسية، تفاديا للاكتظاظ مع تزايد الهجرات⁽²⁾.

بدأ التأثير المعماري الأندلسي في مدينة الجزائر كذلك منذ العهد الوسيط، بداية مع بناء الجامع الكبير الذي كان التأثير به واضحا لدرجة اعتباره نموذجا عن جامع قرطبة، حيث يمكن ملاحظة انعكاس الفكر المعماري فيه خصوصا في السقف والأقواس وزخارف محرابه النباتية كذلك⁽³⁾. أما في العهد العثماني فقد كانت هذه المدينة أكثر المدن استقطابا للأندلسيين باعتبارها قاعدة الحكم منذ ذلك العهد، والتي استقر بها العديد من المهاجرين الذين تميزوا حسب أقاليمهم الأصلية، نذكر كمثال على ذلك تسمية حي تاغارة خارج باب جديد نسبة إلى الثغريين من ثغور الأندلس⁽⁴⁾. فيما يخص العمارة الحربية نجد تقنيات عسكرية جديدة ابتدعها مهندسون أندلسيون بنفس خصائص العمارة العسكرية الأندلسية، برزت في الميناء وبرج تمنفوست بمدينة الجزائر في أواخر القرن 16 وبداية القرن 17م⁽⁵⁾، كذلك برج الفنار المبني على إحدى الجزر المقابلة للمدينة على قاعدة صخرية، وتم استخدامها كمناورة

(1) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 845.

(2) - نفسه، ص. 851.

(3) - ناجي (لخضر)، المرجع السابق، ص. 531.

(4) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 851.

(5) - ناجي (جلول)، التحصينات الساحلية العثمانية في إيالة تونس من القرن 16 إلى القرن 19م، ج.

1، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 1995، ص. 20.

لإرشاد السفن ليلاً⁽¹⁾. نذكر أيضا حصون أخرى مثل الحصن المبني خارج باب الواد، وبطارية مبنية في أعلى مكان بالمدينة تعرف بطبانة الأندلسيين⁽²⁾، ودار البارود كذلك المنجزة من طرف الأندلسيين وذلك أواسط القرن 17م⁽³⁾.

لقد نشأت مع هجرة الأندلسيين إلى مدينة الجزائر حركة عمرانية كبيرة لاستيعاب العدد الهائل من السكان، خصوصا مع قدوم مهندسين بارعين في مجال العمارة، نذكر من أهمهم المعلم الأوسطة موسى وابنه علي بن موسى⁽⁴⁾. لقد حرك وفود المهندسين البارعين مشاريع البناء الهامة، وبالتحديد المنشآت المائية التي اهتم بها الأندلسيون كثيرا، خصوصا مع وفرة المياه في ضواحي المدينة، حيث تم إنشاء القنوات بها لتزويد المدينة بمياهها. كما قاموا بامتلاك العديد من الجنات في ريف هذه المدينة، بهدف استصلاح أراضيها وغرسها وسقيها، عن طريق العديد من الابتكارات المعمارية المتعلقة بالري والمعروفة بالأندلس⁽⁵⁾.

(1) - هجيرة (غراف). حمدادو (بن عمر)، "القضية الأندلسية في الأسطوغرافيا الإسبانية وتداعيات تفاعل السلطة العثمانية معها على الواقع العسكري لأبالة الجزائر"، مجلة عصور الجديدة، المجلد: 10، العدد: 3، 2020، ص. 228.

(2) - هجيرة (غراف). حمدادو (بن عمر)، المرجع السابق، ص. 229.

(3) - نفسه، ص. 230.

(4) - مصطفى (بن حموش)، المدينة والسلطة في الإسلام. نموذج الجزائر في العهد العثماني، ط. 1، دار البشائر، دمشق، 1999، ص. 197.

(5) - اندريه (باكار)، المغرب والحرف التقليدية الإسلامية في العمارة، تر. سامي جرجس، دار أتولي 74 للنشر، فرنسا، 1981، ص. 89.

إضافة إلى التأثيرات في المدن الكبرى عمد الأندلسيون إلى إصلاح وإعادة بناء وتجديد المدن والقرى المدمرة أو الخالية تقريبا، مثل مدينة شرشال التي أعاد بناء منازلها مهاجرو غرناطة وزرعوا الأراضي بها وجددوا القلاع فيها وأقاموا التحصينات لحمايتها⁽¹⁾. لقد تم إنجاز المباني الأندلسية في شرشال في الفترة الممتدة ما بين 1492 - 1516م، بشكل منتظم الفراغات وموجه نحو جدران المدينة الرومانية، وممتد على المحور التجاري بشكل مستقيم، مما جعل طُرقها الكبرى منتظمة ومتفرعة إلى غاية المساكن⁽²⁾. عمل الغرناطيون ثورة عمرانية بشرشال حيث أعادوا بناء عدد كبير من مبانيها المنجزة بالتدريج في السهل، كما قاموا بتطوير الزراعة داخل الأسوار القديمة واهتموا بالتشجير كذلك بدرجة كبيرة⁽³⁾، مما يبرز تميز الأندلسيون بمهاراتهم الحرفية والزراعية التي أدت إلى انتعاش المدينة، مما أدى إلى ازداد عدد ديارها إلى قرابة 5 آلاف دار⁽⁴⁾.

على غرار شرشال عرفت المدن الساحلية الأخرى نهضة عمرانية غير مسبوقة بعد استقرار الأندلسيين فيها كتنس ودلس وجيجل وغيرها من المدن الأخرى، وكذلك مدينة وهران واريو ومستغانم، التي عرفت تجمع الأندلسيون في أحياء خاصة بهم، لدرجة توسعهم خارج بعض المدن نظرا لاكتظاظها⁽⁵⁾، مما أدى إلى إنشاء

(1) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 850.

(2) - يمينية (تسكورت)، أثار مدينة شرشال المادية واللامادية، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2023، ص. 51.

(3) - المرجع نفسه، ص. 33.

(4) - نفسه، ص. 34.

(5) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 850.

القرى الشبيهة بالقرى الأندلسية مثل ما حدث في التوسعات الغربية لمدينة وهران. أما مدينة بجاية فقط تميزت بالاحتكاك بالأندلسيين منذ العصر الوسيط في عز ازدهارهم، والذين قاموا ببناء قصورها على نمطهم⁽¹⁾، بشكل مزخرف بالفسيفساء والجص والخشب المنقوش، ومختلف أنواع الزخارف على مختلف المواد. نجد كذلك من بين الأمثلة الدالة على التأثير الأندلسي بصفة كبيرة الزاوية المبنية من طرف أبو الفضل قاسم بن محمد القرطبي ببجاية⁽²⁾.

لم يكتفي الأندلسيون بالاستقرار في المدن الكبرى أو التوسع في ضواحيها أو القيام بإصلاح وتجديد مدن أخرى، بل تعداه إلى إنشاء المراكز الحضرية الجديدة مثل مدينة البليدة، التي بنيت من طرفهم بمحاذاة المدينة القديمة خزرونة من طرف سيدي أحمد الكبير سنة 1535م، بعد أن خصص لهم خير الدين بربروس أراضيها، الذين امتدوا وتوسعوا فيها بمرور الوقت وبنوا فيها مختلف المعالم الهامة مثل المسجد المعروف بالمسجد التركي إلى يومنا هذا⁽³⁾. كذلك مدينة القليعة الدال اسمها على الطابع الحربي المعروف عند الأندلسيين، لكونه تصغير لكلمة قلعة وهي عادة معروفة عندهم، إضافة إلى استخدام مصطلح قلعة قبل اسم المكان الذي بُنيت فيه المدينة في العديد من المناطق⁽⁴⁾، ويرجع السبب إلى اهتمامهم بالجانب العسكري بصفة كبيرة،

(1) - المرجع نفسه، ص. 851.

(2) - نفسه، ص. 852.

(3) - نفسه، ص. 851.

(4) - عبد العزيز (سالم)، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1986، ص. 156.

حيث تميزت مدنها بطابعها العسكري لغرض دفاعي للحماية من المسيحيين⁽¹⁾. لقد أخذت مدينة القليعة تسميتها من الأندلسيين، وكذلك بُنيت على أيديهم بطابع عمراني أندلسي وبتصميم حدائق رائع شبيه بفكرهم كونها عُرِفَتْ وازدهرت في فترة هجرتهم إليها⁽²⁾.

(1) - نفسه، ص. 155

(2) - جمال الدين (علوان). حكيم (بن الشيخ)، المرجع السابق، ص. 851.

خاتمة:

خرجنا من بحثنا هذا بعدة نتائج أهمها أن الارتباط بالأندلسيين كان منذ العصر الوسيط، فترة ازدهار الأندلس ووصولها إلى قمة الرقي الحضاري، والذي نجم عنه في بعض الفترات اتحاد الأندلس مع المغرب العربي، مما عزز التلاحم بينهم لفترة طويلة استمرت إلى غاية سقوط غرناطة مع بداية العهد العثماني بالجزائر، والذي عرف استقبالا لعدد كبير من المهاجرين الأندلسيين. لقد برز التأثير الأندلسي في الجزائر في عدة جوانب نذكر من ضمنها العمارة، والتي يمكن ملاحظتها من خلال مظاهر عمرانية عديدة ركزنا فيها في هذه الدراسة على بعض المدن، التي توسعت بشكل كبير مع هجرات الأندلسيين في العهد العثماني وإنشاء مدن جديدة أخرى، أدت إلى حركة عمرانية كبرى برز فيها النمط الأندلسي، من خلال التصاميم والزخارف وهندسة المياه والحدائق كذلك وغيرها من المظاهر، التي يمكن تخصيص بحوث أخرى معمقة لفهمها أكثر في كل مدينة نظرا لأهمية هذه الدراسات. لم يكن هذا التأثير المعماري الأندلسي على المباني الجزائرية مجرد تأثير عادي بل دلّ على تمازج ثقافتين ابتداءً مع الاتحاد والترابط الحضاري ما بينهما في العهد الوسيط، وزاد أكثر مع تغير التركيبة السكانية للجزائر مع وفود أعداد هائلة، غيرت في طبيعة المجتمع الجزائري وأضافت ثقافة وفكرا بنائيا هاما إلى العمارة الجزائرية، من منبع راقى وصل إلى أوج ازدهاره في الأندلس مازالت تقنياته وإبداعاته وابتكاراته تُدرّس إلى غاية يومنا هذا، والذي يمكن تخصيص أبحاث أخرى تتعمق في مظاهر التأثير المعماري في الجزائر، بهدف تصنيفها كتراث ثقافي مادي عرف تمازجا حضاريا منقطع النظير.

قائمة المصادر والمراجع:

-باللغة العربية:

- ابن منظور، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، إيران، 1405هـ.
- أحمد توفيق (المدني)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492-1792، دار البصائر، الجزائر، 2007.
- الزهرة (بوجفجوف)، " المقاربة الإثنوغرافية في المجتمعات الافتراضية: توجه بحثي معاصر في الفضاء الاتصالي الجديد"، المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي، المجلد: 9، العدد: 2، 2022، ص.ص.: 276-288.
- اندريه(باكار) ، المغرب والحرف التقليدية الإسلامية في العمارة، تر.: سامي جرجس، دار أتولي 74 للنشر، فرنسا، 1981.
- بدران (بن الحسن)، " مفهوم الحضارة. دراسات تحليلية مقارنة عابرة للثقافات"، مجلة أنثروبولوجيا، المجلد: 7، العدد: 2، 2021، ص.ص.: 158-175.
- جمال الدين(علوان). حكيم (بن الشيخ)، الهجرات الأندلسية وتأثيراتها الفنية على الجزائر (العمارة والموسيقى أنموذجا ما بين القرنين 15-19م)، مجلة المعيار، المجلد: 27، العدد: 4، 2023، ص.ص.: 842-859.
- حياة (خميس)، "المنهج الإثنوغرافي واستخداماته في الأبحاث الأنثروبولوجية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد: 9، العدد: 2، 2022، ص.ص.: 276-288.
- عائشة (غطاس)، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830. مقارنة اجتماعية-اقتصادية، منشورات ANEP، الجزائر.

- عبد الرحمان (ابن خلدون)، ديوان مبتدأ الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج.7، دار الفكر، بيروت، 2000.
- عبد العزيز (سالم)، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1986.
- عبد القادر (كركار)، "الهجرة الأندلسية إلى الجزائر وأثرها في الحفاظ على التوازن الديموغرافي في العصر الحديث"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد: 7، العدد: 2، 2023، ص.ص.: 806-823.
- عبد المجيد (البغدادى)، "أسباب انتشار اللغة العربية وسيطرتها في الأندلس"، مجلة القسم العربي، المجلد: 14، العدد: 24، 2017، ص.ص.: 273-284.
- عبد المجيد (بن يكن)، "الحضارة العربية الإسلامية وتفاعلها مع الحضارة الإنسانية"، مجلة التراث، المجلد: 1، العدد: 32، 2019، ص.ص.: 56-72.
- قانون رقم 98 - 04 مؤرخ بـ 15 جوان سنة 1998: متعلق بحماية التراث الثقافي، المادة: 67.
- محمد الطيب(عقاب) ، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، الجزائر، 2000.
- مصطفى (بن حموش)، المدينة والسلطة في الإسلام. نموذج الجزائر في العهد العثماني، ط. 1، دار البشائر، دمشق، 1999.
- ناجي (لخصر)، "عوامل تأثر المرابطين بالحضارة الأندلسية-فن العمارة أنموذجا-"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المجلد: 15، العدد: 1، 2022، ص.ص.: 523-534.

- ناجي (جلول)، التحصينات الساحلية العثمانية في إيالة تونس من القرن 16 إلى القرن 19م، ج. 1، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات، تونس، 1995.

- هجيرة (غراف). حمدادو (بن عمر)، "القضية الأندلسية في الأسطوغرافيا الإسبانية وتدايعات تفاعل السلطة العثمانية معها على الواقع العسكري لأيالة الجزائر"، مجلة عصور الجديدة، المجلد: 10، العدد: 3، 2020، ص.ص.: 215 - 234.

- يمينه (تسكورت)، آثار مدينة شرشال المادية واللامادية، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2023.
- باللغة الأجنبية:

- Barrucand (M.).Bednorz(A.) ; **L'architecture maure en Andalousie**, P.L.M, Italie , 1995

مظاهر الفن المعماري لمساجد الجزائر العثمانية بين النمطين العثماني والأندلسي

Architectural Features of Algerian Ottoman Mosques between Ottoman Style and Andalusian Style

ط. د. فتحي سماعيل

جامعة محمد بوضياف المسيلة

أستاذ متعاقد بالملحقة الجامعية قصر الشلالة

جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص

تبرز دراستنا هذه فن العمارة الديني الذي دخل على الجزائر في العهد العثماني خاصة تصميم المساجد، فقد تدفقت على الجزائر في العهد العثماني تأثيرات معمارية متنوعة، امتزجت فيها الفنون المعمارية العثمانية بنظيرتها الأندلسية، لتبصم على نمط معماري جديد متعدد الألوان طغى على معظم تصاميم مساجد الحواضر الجزائرية، ونسلط الضوء على بعض المساجد لمختلف المدن الجزائرية والتي بنيت بنمط العمارة الدينية العثمانية أو الأندلسية.

الكلمات المفتاحية: العمارة الدينية، الفن المعماري العثماني، الفن المعماري

الأندلسي، المساجد

Summary

Our study highlights the religious architecture that emerged in Algeria during the Ottoman period, particularly the design of mosques. During this time, Algeria experienced a flow of diverse architectural influences, blending Ottoman and Andalusian styles to create a vibrant new architectural pattern that dominated the designs of mosques in various Algerian cities. We focus on several mosques built in the Ottoman or Andalusian religious architectural styles across different Algerian cities.

Keywords: Religious architecture, Ottoman architectural art, Andalusian architectural art, mosques.

مقدمة:

عرفت الجزائر منذ القدم تعاقب عدة حضارات خلفت مؤثرات مادية بقيت شاهدة عليها وعلى مستوى تقدمها الحضاري، واتسمت الفترة العثمانية بتنوع حضاري كبير، امتزج فيه الموروث العثماني والأندلسي بالموروث المحلي للبلاد، ويعد العمران إرث مادي تزر به الجزائر ويعبر عن الحقب التاريخية التي عاشتها الجزائر على مر العصور، وساهم العثمانيون والأندلسيون في تطوير العمران والاهتمام به، وبرزت لمستهم الفنية في العمارة التي شملت المنشآت الدينية والحضارية والعسكرية. وتجلت البصمة الفنية المعمارية العثمانية والأندلسية في العمارة الدينية، خاصة المساجد عبر أغلب الحواضر الجزائرية في العهد العثماني، فبقيت آثارهم شاهدة على براعتهم الهندسية في النمط المعماري المعتمد.

من هذا المنطلق نطرح الإشكالية التالية: فيما تجلت التأثيرات المعمارية العثمانية والأندلسية في المساجد الجزائرية؟

حاولنا معالجة الإشكالية في محورين رئيسيين:

1- اهتمام العثمانيون والأندلسيون بالعمارة والفن المعماري

2- المساجد

1- اهتمام العثمانيين والأندلسيين بالعمارة والفن المعماري

تعد المعالم الأثرية والمظاهر المعمارية لجميع الشعوب تلك الذاكرة الجامعة للأمة وماضيها، والجزائر حافلة بالشواهد الأثرية التي تروي تاريخها في مختلف الحقب والعصور، ومنها ما تعود للعهد الروماني والبيزنطي والفترة الإسلامية والعهد العثماني إلى غاية الاحتلال الفرنسي.

أ. العمارة والفن الزخرفي

وهي تلك الفنون الزخرفية التي تزين العماائر المختلفة أو تزيين التحف المنقولة المصنوعة من الفخار والخزف أو النسيج والخشب والعاج ومن المعادن والزجاج والجلد والورق، مع الجمع بين الدقة والإتقان في الصنع والروعة والجمال، ويعتمد الفنان على عنصرين في الزخرف، أولهما الأشكال الهندسية من مضلعات ودوائر وأشكال نجمية، وثانيهما الأشكال النباتية من أوراق مختلفة وزهور متعددة، كما استخدم الخط العربي بأنواعه المختلفة في كتابة الآيات القرآنية والحكم والأشعار.⁽¹⁾

ب. فن العمارة العثمانية

والعمارة العثمانية تصدرت الحضارة العثمانية، إذ استندت إلى المعارف التقنية الضرورية وليست مجرد دعامة للزخرفة، والفن المعماري العثماني فن إمبراطوري فحيث يقيم السلطان تبنى الآثار الأكثر أهمية، وقد عرف الفن العثماني مؤثرات عدة بيزنطية إيطالية وفارسية.⁽²⁾

والعثمانيون في بداية حكمهم لم يولوا اهتماما كبيرا بالعمارة لانشغالهم بالجهاد البحري والتصدي للإسبان، لكن مع نهاية القرن السابع عشر اهتم الحكام وأعيان

(1) - صادق خشاب: تأثير الفن الزخرفي الأندلسي على نظيره المغاربي "نموذج تلمسان"، رسالة ماجستير، إشراف: عبد الحميد حاجيات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2001/200، ص 41.

(2) - روبري مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ج 2، تر: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، ص ص 351، 352.

مدينة الجزائر بالفن المعماري وجمالية المباني وزخرفتها، وهذا يعكس حالة الترف التي ميزت تلك الفترة خاصة فترة الدايات.⁽¹⁾

ت. فن العمارة الأندلسية

عند الحديث عن أنواع وطرز العمارة في أصقاع المعمورة، يتبادر إلى ذهن المرء مباشرة صور عديدة لروائع عمارة المسلمين في الأندلس التي لبثوا فيها زهاء ثمانية قرون يشيدون فيها الصروح المعمارية، التي لا تزال من أكبر الشواهد على عظمة حضارتهم في قارة أوروبا.⁽²⁾

يذكر الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه الإسلام والحضارة الإنسانية مقولة مشهورة للمستشرق أدوين هول Edwin Hole عن جانب الثقافة من حضارة الإسلام في الأندلس "أن الدولة الإسلامية قد صنعت الخوارق في ترقية العقول والأذواق"،⁽³⁾ لقد أصبح الفن في الأندلس مقياسا هاما ضمن مقاييس الحضارة الإسلامية، واستطاعت الأندلس أن تثبت مكانتها الفنية في تاريخ الفن العربي الإسلامي، وذاع صيتها في المشرق والمغرب الإسلاميين وأوروبا بفضل مهارة فنانيها،

(1)- معمر شعشوع: العمارة والتراث بالجزائر خلال العهد العثماني "قصور وحمامات مدينة الجزائر أنموذجا"، المجلة المغاربية للمخطوطات، ع1، ديسمبر 2016، ص ص 100، 101.

(2)- بن سهيلة ثاني سيدي محمد: المؤثرات الحضارية الأندلسية على الهوية الثقافية في الجزائر - تلمسان أنموذجا-، أطروحة دكتوراه، إشراف: طالب أحمد، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013/2014، ص 93.

(3)- عباس محمود العقاد: الإسلام والحضارة الإنسانية ومقالات أخرى، ط2، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2006، ص 29.

(1) وزخرفة العماائر المدنية والدينية وحتى العسكرية أهم شاهد نقف عليه في زماننا إذ من خلالها تمكنا من معرفة مهارة وتفوق الفنان الأندلسي الذي برع في زخرفة جدران قصور الملوك والأغنياء والمساجد بأشكال هندسية وزخارف رائعة.⁽²⁾

وكان لحضور الأندلسيين واستقرارهم بالجزائر تأثير بارز في مجال العمارة، حيث عرفت الجزائر نهضة عمرانية ترسمت ملامحها ابتداء من القرن الخامس عشر، فقد تمكن الأندلسيون من إدخال نمط العمارة الأندلسية في المناطق التي استقروا بها مثل تنس ودلس والقلعة وشرشال وجيجل،⁽³⁾ وتمكنوا من إضفاء بصمتهم المعمارية حتى أصبحت نموذجا متبعا خاصة في طريقة بناء المساجد والبيوت وقنوات الري.

ويمكن أن نستشف أبرز مميزات العمارة الأندلسية من خلال:

-المبالغة ببسط مساحات الجوامع والقصور عند تصميمها يرافق ذلك ارتفاع

وسمك جدرانها.

-الاهتمام برفع أسقف المساجد وعمارتها على عقود وأعمدة رخامية جميلة، مع

الاهتمام برواق القبلة والبلاطة الوسطى على وجه الخصوص، إلى جانب غرس صحن

المسجد بأنواع الأشجار المثمرة والاستفادة منها كالظل للمصلين

-الاهتمام برفع منارات المساجد، وذلك حتى يصل صوت المؤذن إلى أقصى

مسافة ممكنة، إضافة إلى اعتبارها معلما يهتدي بها الناس إلى البلدان.

(1)- صادق خشاب: مرجع سابق، ص 38.

(2)- نفسه: ص 41.

(3)-ناصر الدين سعيدوني: دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر،

ط 2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 59.

- تصميم الدور الأندلسية انطلاقا من فناء مركزي تطل عليه وحدات المنزل السفلية والعلوية، بحيث يخدم الفناء كمتنفس للمنزل مع استخدامه لمزاولة العديد من الأنشطة العائلية.

- الاهتمام بالزخارف الداخلية الكتابية والنباتية والهندسية، مع الحرص على تغطية الأسقف والقباب بالقرميد.

- الحرص على استخدام المياه كعنصر جمالي إلى جانب استخداماته الوظيفية.

- بناء المنازل على أزقة ضيقة كي تستجيب لأهداف اجتماعية وأمنية شتى كالإهتمام الأسري والتكاتف الاجتماعي والأمني.⁽¹⁾

2- مظاهر الفن المعماري للمساجد بين النمط العثماني والنمط الأندلسي:

يمكن إبراز أهم المظاهر التي تميز مساجد الجزائر العثمانية بين النمطين العثماني

والأندلسي في هذا الجدول:

المظاهر الفنية المعمارية	النمط العثماني	النمط الأندلسي
التخطيط المعماري	تصميم المساجد ذات القبة الكبيرة لاستقبال أعداد كبيرة من المصلين	تصميم يميل إلى التخطيط المستطيل مع استخدام الأروقة لخلق المساحات
الأقواس	مدببة تستخدم في النوافذ والأبواب	مستديرة لإضافة لمسة جمالية
الزخارف	تستخدم النقوش والكتابات الإسلامية الغنية بالألوان	تستخدم الأشكال الهندسية والنباتية، والفسيفساء
المآذن	مرفوعة ورفيعة مع وجود شرفات	مربعة الشكل أو مثمثة في

(1)-بن سهلة ثاني سيدي محمد: مرجع سابق، ص 94.

متعددة	بعض الأحيان، ومزينة	
السقف	خشبية مزخرفة	قباب كثيرة مزخرفة ومعقدة
المحراب	بديعا ومزخرفا بشكل كبير	بسيط وشكل أنيق
التفاصيل الفنية	تستخدم الألوان الغنية والمواد الفاخرة مثل الرخام	المزج بين الفنون الإسلامية المختلفة

2- المساجد

تعد المساجد من المظاهر والمنشآت المعمارية التي تنصدر عمارة أي مدينة من المدن الإسلامية، فهي جوهر العقيدة الإسلامية لأهل المدينة، وتميزت الجزائر بكثرة المساجد وهذا لدورها الديني، الاجتماعي، والثقافي،⁽¹⁾ والاهتمام بالمساجد كانت ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم، فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدينة بدون مسجد، فقد كانت المساجد ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية وهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة، إذ حوله كانت تنشر المساكن والأسواق والكتاتيب.⁽²⁾

والملاحظ على حواضر الجزائر خلال العهد العثماني كثرة مساجدها،⁽³⁾ وتختلف الإحصاءات عن عدد المساجد في المدن الجزائرية، وهناك بعض المدن لا تكاد المصادر

(1)- أشرف صالح محمد سيد: المراكز الثقافية في دار السلطان (الجزائر) أواخر العصر التركي، مجلة أماراباك، ع7، الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، ص 64.

(2)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 246.

(3)- رشيدة شدرى معمر: المراكز التعليمية في الجزائر العثمانية 1518-1830م، مجلة معارف، ع20، جوان 2016، ص 94.

تذكر لها إحصاء، فيذكر هايدو أن مدينة الجزائر تعد حوالي مائة مسجد منها سبعة رئيسية،⁽¹⁾ ويحصى فونتير دي باردي (Venture D.P) اثني عشر مسجدا جامعا كبيرا، وعددا من المساجد الصغيرة،⁽²⁾ أما قسنطينة فحسب الورثياني الذي زارها في القرن 18م، فوجد بها خمسة جوامع خطبة،⁽³⁾ في حين أحصى بها فيرو Feraud في عهد صالح باي 75 مسجدا وجامعا،⁽⁴⁾ وفي الغرب الجزائري فقد أحصى إيميرت Emerit بتلمسان 50 مسجدا أغلبها صغيرة،⁽⁵⁾ وانقسمت المساجد من حيث التأسيس والإنشاء إلى ثلاثة أنواع وهي:

1- ما أسسه الحكام كالخلفاء والأمراء والولاة كجزء من عملهم لخدمة المجتمعات الإسلامية وكسب عطف الرعية.

2- ما أسسه الأثرياء وكبراء القوم للتقرب إلى الله واستمالة بعض فئات المجتمع وشيوخ الدين.

3- ما أسسته الهيئات والجمعيات الخيرية الدينية والاجتماعية.⁽⁶⁾

(1)- أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 247.

(2)- VENTURE DE PARADIS: Alger au 18ème siècle, E. Fagnan, Alger, 1898, p157.

(3)- الورثياني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تح: محمد بن أبي شنب، فونتانا، الجزائر، 1907، ص 685.

(4)- FERAUD (CH.): «Les anciens établissements religieux Musulmans de Constantine», in R.A N°10, 1868, p130.

(5)- EMERIT (M): L'Algérie a L'époque d'Abd-eL Kader, La Rose, Paris, 1951, p82.

(6)- محمد حاج سعيد: مساجد القصبة في العهد العثماني تاريخها، دورها، وعمارتها، رسالة ماجستير، إشراف: عبد العزيز شهبي، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1، 2014 / 2015، ص 44.

وأغلب المدن الجزائرية كانت تشمل على مسجد يطلق عليه اسم المسجد الكبير الذي اشتهر بين الناس إما لقدمه أو لسعته، وعلى الأغلب لقدمه فيكون قد بني في وسط المدينة القديمة أثناء نموها، والمسجد الكبير هو أهم المساجد في المدينة، فمدينة الجزائر مثلا كان بها المسجد الأعظم أو المسجد الكبير الذي يعود تأسيسه إلى ما قبل العهد العثماني.⁽¹⁾

والفن المعماري للمساجد خلال الفترة العثمانية تميز بتعدد الألوان نتيجة التأثيرات الأندلسية والعثمانية، والتي ظهرت على المآذن وفي شكل قاعات الصلاة والمحراب والمنابر وفي السقف.⁽²⁾

أ- المساجد العثمانية

اجتهد الكثير من الحكام العثمانيين في تشييد المساجد والاعتناء بها، وهذا الموقع هذه الصروح في نفوس الأهالي، وسميت الكثير من المساجد على هؤلاء الحكام، فمن خلال سجلات البايك نجد قائمة لشخصيات سياسية كانت أو عسكرية قاموا ببناء مساجد خدمة للدين والعلم من جهة، وللشهرة من جهة أخرى، فنذكر مثلا مساجد مدينة الجزائر: جامع شعبان خوجة، جامع خضر باشا، جامع علي بجين، جامع عبدي باشا، جامع حسن باشا ميزمورطو، مسجد رمضان باشا.⁽³⁾

(1) - صبرينة لنوار: مساجد مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (القرنين 17-18)، مجلة كلية التربية

الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، ع34، العراق، 2017، ص121.

(2) - سعاد فويال: المساجد الأثرية لمدينة الجزائر، دار المعرفة، 2010، ص25.

(3) - صبرينة لنوار: مرجع سابق، ص120.

والنمط العثماني ظهر منذ القرن الخامس عشر في الهندسة المعمارية للمساجد وهو مستمد من الأشكال البيزنطية بالقسطنطينية، فالمساجد من هذا النوع تمتاز بقبة ضخمة فوق الصحن ومساحته الداخلية واسعة.⁽¹⁾

تميزت مساجد العثمانيين بالأناقة ودقة البناء عكس مساجد الأهالي التي كانت متواضعة ومبنية بالجبس أو الحجر، وقائمة على عرصات ضخمة وصوامع منخفضة، ومفروشة بالحصير أو الزرابي البسيطة مع إضاءة قليلة، في حين المساجد العثمانية اتسمت بالجمال واستعمال الزليج والرخام في العرصات والمحراب، وقناديل الزيت والثريات والزرابي والزخرفة والنقوش على الجدران، واستعمال الفسيفساء وزخرفة النوافذ والأبواب، والعناية بالعيون والإضاءة والنظافة.⁽²⁾

1. مسجد الجامع الجديد

بناه الأتراك وخصصوه بالمذهب الحنفي، تم بناءه سنة 1660م من طرف بنائين ومهندسين أتراك وجزائريين على نمط المساجد التركية في إسطنبول فهو يشبهها تمام الشبه،⁽³⁾ كانت له منارة عالية ترى عن بعد من البحر، وله محراب مغطى بالفسيفساء، وكان ناصع البياض، فخم المنظر، له قباب مدورة عديدة، وكانت قاعدته على رمال شاطئ البحر، يندھش القادم من المرسى لمراه، لكن بعد الاستعمار غير الفرنسيون اسمه الى جامع الصيد البحري، واستولوا على أوقافه الكثيرة، وغيروا واجهته البحرية بعد أن مدوا شارع الإمبراطورية الموازي لسيف البحر، وغطته عن

(1)-سعاد فويال: مرجع سابق، ص 156.

(2)- صبرينة لنوار: مرجع سابق، ص 122.

(3)-أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الكويت، 1985، ص 208.

الأنظار وحجبت عنه الشمس وأصبح عبارة عن دهاليز مظلمة، بعد أن أغلقوا أيضا بابه الجنوبي الغربي، والباب الذي كان يفتح نحو البحر.⁽¹⁾

تبلغ مساحة الجامع الجديد 1371م²، وطول منارته 30 مترا،⁽²⁾ وقبته المركزية على ارتفاع 24 متر،⁽³⁾ ومنبره مكون من الرخام الأبيض المنقوش وهو من الصنع الرفيع وكان مأخوذ من مسجد السيدة، ودخله مزخرف ملون بألوان مختلفة، فمحرا به مزين بالخزف البديع، وفي مقصورة الشيخ المفتي مصحف مزخرف أهدها أحد السلاطين العثمانيين إلى باشا الجزائر في القرن السابع عشر ميلادي،⁽⁴⁾ والساعة الموجودة الآن على المئذنة كانت مئذنة قصر الجنيّة تم نقلها وتركيبها على مئذنة الجامع الجديد.⁽⁵⁾

2. مسجد علي بتشين

تم بناؤه سنة 1623م، كان مسجدا بديعا جميل الشكل، متقن الصنع،⁽⁶⁾ يعد من أهم مساجد تلك الفترة، كان علي بتشين من رياس البحر خلال القرن الحادي

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص ص 33، 34.

(2) - نفسه: ص 34.

(3) - مريم رزاق بكرة، آمال علوان: دور المساجد في التفاعل الثقافي في المجتمع الجزائري إبان العهد العثماني، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج7، ع4، ماي 2022، ص 368.

(4) - نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها الى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، بئر توتة، الجزائر، 2006، ص 163.

(5) - مريم رزاق بكرة، آمال علوان: مرجع سابق، ص 368.

(6) - أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 209.

عشر الهجري / السابع عشر ميلادي، وقام ببناء هذا المسجد من ماله الخاص، والذي حمل اسمه، وكان يقع في نهج باب الواد وسيدي إدريس حميدوش.⁽¹⁾

ولهذا المسجد قاعة صلاة ذات شكل مربع، تعلوه قبة مركزية واسعة تشبه طراز المسجد العثماني،⁽²⁾ وترتكز على أربعة دعائم غليظة مبنية وموضوعة على زوايا القاعة المركزية ويحيط بجوانبها الثلاثة أروقة بسيطة مغطاة بعشرين قبة صغيرة، وأما مئذنة المسجد فقد بقيت من الطراز المغربي الرباعي وهي تعلو عينا عرفت باسم عين الشارع.

حوّل المسجد إلى صيدلية مركزية للجيش الفرنسي بعد الاحتلال، وفي عام 1842م حوّل إلى كنيسة اشتهرت بكنيسة نوتردام دي فيكتور، ثم بعدها حوّل إلى كاتدرائية عام 1845م.⁽³⁾

3. جامع كتشاوة

ويعد من أشهر الجوامع التاريخية الجزائرية، تم بناءه في العهد العثماني سنة 1021هـ/ 1612م، وهو يمثل تحفة معمارية عثمانية نادرة وفريدة من نوعها، وهو يقع في الساحة المسماة حاليا ساحة ابن باديس، كان يحمل اسم كتشاوة التي تعني بالتركية سوق الماعز نسبة إلى السوق التي كانت تقام في الساحة.

شكل الجامع كان مربعا، ومظهره آنذاك عبارة عن قبة واسعة ذات ثمانية جوانب تحيط بها من ثلاث جهات أروقة بسيطة، قوام هذه الأروقة أربعة أعمدة رخامية مستديرة مزال معظمها يدعم جناحي المسجد حاليا وفي الجانب المواجه لحدار

(1)-أشرف صالح محمد سيد: مرجع سابق، ص 66.

(2)-نفسه: ص 66.

(3)-محمد حاج سعيد: مرجع سابق، ص 61.

القبة يوجد رواق مزدوج،⁽¹⁾ وأظهر الزباني إعجابه بهذه القبة كثيرا فوصفها في كتابه الترجمانة الكبرى بقوله: "...وجعل لهذه القبة سراجيب بأنواع البلور الذي لم ير في عصر من العصور، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، ودار بهذه القبة قبة على شكل منمنق كأنهن جدول موفق، من ثنائي وثلاثي ورباعي، وخماسي وسداسي وسباعي، ومقربص ومشجر وقاطع ومقطوع ومسطر، وداخل وخارج وبخاريات، وقصاعي وانصاف ترنجيات، وفوق ذلك من الاسباغ كل لون غريب، بتدبير أهل الحل والعقد والتجريب، وكتبوا أسماء الله وءاياته، وانبياءه وخلفائه، تعظيما بالذهب الابريز والتجريب، وليس الخبر كالعيان..."⁽²⁾

ووصف الزباني المنبر بقوله: "وجعل لهذا المسجد منبرا من الرخام الشفاف، مؤلف من سبعة أصناف، من مرمر وجزع، وزبرجد وودع، وفيروزج وفاروز، كأنه اللواء المشروز، أبدع فيه كل خارط صنعة الخرط، وكل ناقش زاد على الشرط، وكل مسطر حقق ما سطر، وكل مشجر أبدع فيه ما شجر، فهو كالأمير والتاج على رأسه..."، وأضاف في وصف للجدران وقاعته: "...وكسا جدرانه بالزليج والفرغري والصيني، وفوقه الجبص الفائق المعدني، وجعل في كل جهة رواشن تسطع منها الأنوار مضيئات، وسلاسل مموهة القنادل والثريات، وجعل تحت كل روشن ساعة على كرسي كالعروس، يطرب لسماعها جوامع النفوس..."، ويضيف في مقارنته بمساجد أخرى فيقول: "...فجاز بلطافة شكله ضخامة المساجد والمدارس، وجاز

(1)- محمد حاج سعيد: مرجع سابق، ص 69.

(2)- أبو القاسم الزباني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تح: عبد الكريم الفيلاي،

دار نشر المعرفة، الرباط، 1991، ص 377.

برقة صنعتته أنوار الزارع والغارس، فلو رأته السليمانية بالقسنطينة لسلبها، ولو كلمته
ءاية صوفية ما أجابها، ولو قابله الجامع الأزهر، لتعجب من حسنه وانبهر، ولو
ناظرته مساجد الشام وحلب، لاعترفوا بفضلها واقرؤا بعجب، ولو سمعت بتشبيده
بيعة الاشبونة لتهدمت...".⁽¹⁾

جامع سيدي لخضر بقسنطينة

وهو أحد منجزات العثمانيين في الشرق الجزائري، سمي بسيدي لخضر نسبة
لأحد رواد هذا المسجد، فقد اعتكف فيه طويلا حتى مات وضريحه مزال موجودا به
إلى الآن.

أمر ببناء المسجد حسن باي سنة 1126هـ/ 1743م، وتاريخ إنشائه مسجل
على اللوحة التأسيسية القائمة على مدخل الجامع، ويتكون من خمس بلاطات عمودية
وستة أساكيب، وله محراب في غاية الروعة، ومئذنته فهي من الطراز المضلع، مثمنة
الشكل من القاعدة إلى القمة وتتصب في الركن الشمالي الغربي من المسجد وارتفاعها
16.50 متر، وبنيت المئذنة وفق طراز معماري جديد غير مألوف في العمارة الجزائرية
الإسلامية من قبل، بل ابتكار عثماني في العمارة الجزائرية.⁽²⁾

4. مسجد الباشا بوهران

أسسه الباشا حسن داي الجزائر بعد فتح وهران سنة 1207هـ/ 1792م، وهو
المسجد الوحيد من المساجد العثمانية الذي سلم من أيدي الاستعمار الفرنسي

(1)- القاسم الزياني: الترجمة الكبرى في أخبار المعمورة...، مرجع سابق، ص 377، 378.

(2)- عبد الكريم عزوق: تطور المآذن في الجزائر، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2006،

التخريبية، أو التحويل إلى كنيسة،⁽¹⁾ يتكون بيت الصلاة من خمس بلاطات وسبعة أساكيب تتميز البلاطة الوسطى بأنها أكثر البلاطات اتساعاً وتحمل قبة مركزية على نمط قبة جامع القيروان، ويحيط بها اثنتا عشرة قبة صغيرة، وللمسجد محراب مزخرف بزليج حديث تتقدمه قبة أصلية تزدان بتريعات من الزليج العثماني، ويحتوي الجامع على دعائم مربعة وأعمدة مزدوجة تحمل عقود بيت الصلاة، ومدخل الصلاة يؤدي إلى غرفة مربعة مسقفة بقبة، وتنتهي هذه الغرفة بصحن المسجد الذي تتوسطه نافورة مستحدثة، ويتخذ الصحن شكل نصف دائرة، ويفتح في الصحن باب يفضي إلى بيت الصلاة.

أما المئذنة فتتربع في الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد وتتكون من قاعدة مثمثة يعلوها بدن مثنى الشكل من القاعدة إلى القمة، تشتمل واجهاته على أربعة قطاعات زخرفية، وهي تختلف عن طراز مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة الحالية من الزخارف.⁽²⁾

ب- مساجد أندلسية بالجزائر

1. الجامع الكبير تلمسان

يعود بناء هذا الجامع إلى الفترة الوسيطة، وارتأينا أن نذكره في بحثنا هذا لقيمته الكبيرة، ولأنه يمثل بدايات الفن المعماري الأندلسي بالجزائر، فقد شيده يوسف بن تاشفين المرابطي، وأعاد بناءه وتزيينه ابنه علي بن يوسف سنة 530هـ/ 1135م،

(1) - مبروك مهريس: المساجد العثمانية بوهراوان ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2009، ص 37.

(2) - عبد الكريم عزوق: مرجع سابق، ص 102.

وأدخل عليه لمسة فنية أندلسية أبدع فيها المهندسون والمعماريون⁽¹⁾ الذين جلبهم الأمير علي حتى صار تحفة معمارية،⁽²⁾ وتمثلت هذه اللمسة الأندلسية خاصة في محراب المسجد الذي يشبه محراب جامع قرطبة شبها كبيرا، كذلك في الكتابات والزخارف والسقف الخشبي والقبة، فنجد طرز الكتابة التي تغطي محراب جامع تلمسان مثل التي تظهر على محراب جامع قرطبة، إضافة إلى البائكة الزخرفية من العقود ثلاثية الفصوص التي تعلو عقد محراب جامع قرطبة في نفس موضع واجهة محراب جامع تلمسان، والظاهر تأثر مهندس جامع تلمسان بجامع قرطبة حتى في التفاصيل الصغيرة.⁽³⁾

ويبلغ طول بيت الصلاة 49.50م وعرضه 25م ويتألف من 13 بلاطة تتجه عموديا على جدار القبلة ويمجدها 12 صفا من الدعائم المربعة، أما مئذنته فهي مربعة الشكل تتألف من طابقين تزدان بزخارف متماثلة، يبلغ ارتفاعها 28.70م.⁽⁴⁾

(1)- أرسل السلطان الغرناطي أبو الوليد (713-725هـ/ 1313-1325م) شريحة كبيرة من الأندلسيين المهندسين والبنائين واليد العاملة الفنية، الى مدينة تلمسان في إطار التعاون الفني والاقتصادي والعسكري، الذي كان سائدا بين تلمسان وغرناطة، فاستعملهم أبو حمو وابنه أبو تاشفين في بناء القصور والمنازل الفخمة والبساتين النظرة. بن سهلة ثاني سيدي محمد: مرجع سابق، ص 219.

(2)- عبد العزيز فيلاي: تلمسان في العهد الزياني، ج 1، موفم للنشر، الجزائر، 2002، ص 146.

(3)- السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)، ج 2، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص 59.

(4)- عبد الكريم عزوق: مرجع سابق، ص 53، 56.

2. المسجد الكبير "مسجد مائة عرصة" بـشرشال

وهو أكبر مساجد مدينة شرشال وعرف بالمسجد الجامع وله أهمية كبيرة في المدينة، تم تشييده سنة 981هـ/1573م من طرف أبي عبد الله محمد بن سي عياد الأندلسي قاضي غرناطة، يعد تحفة فنية من الطراز الرفيع على النمط الأندلسي، فقد وصفه الرحالة الألماني هاينريش: "...بناية المسجد القديم رائعة إلى أبعد حد، فصاحونه الثلاثة تقوم على مائة عمود، ودعائمه لا تخلو من قيمة فنية، إلا أن معبد الإسلام هذا قد حول -للأسف الشديد- إلى مستشفى عسكري..."، استعاد المسجد وظيفته الأصلية للعبادة في أكتوبر 1985م.⁽¹⁾

3. مسجد عبد الرحيم

يعرف بمسجد الحمامات لوقوعه بين حمامي نهج باب الجديد بالقرب من ضريح سيدي محمد شريف، وشيد هذا المسجد رجل أندلسي اسمه مصطفى بن محمد الأندلسي يلقب بابن الكرومية سنة 1089هـ/1678م، ويقع هذا المسجد عند زاوية التقاء نهجي دامفروفييل وأبديرام شارع ياسف مقران حاليا، في القصبة العليا، وتم تجديد هذا المسجد سنة 1255هـ/1839م في عهد الاستعمار الفرنسي رغم أن المعروف عن الاستعمار الفرنسي هو هدم المساجد.⁽²⁾

(1) -بحيري يامنة: الموروث الحضاري العثماني في شرشال في النصف الثاني من القرن 19م وبداية القرن 20م من خلال وثائق المحاكم الشرعية، مجلة قضايا تاريخية، ع8، 2017، ص 68.

(2) -محمد حاج سعيد: مرجع سابق، ص 97.

خاتمة

ختام ورقتنا البحثية هذه مجموعة من النتائج التي نوجزها في عدة نقاط على الشكل التالي:

شهدت الجزائر عبر العصور تعاقب عدة حضارات عليها خلفت موروثا ماديا كانت العمارة جزءا أساسيا منها، استطاعت من خلالها ان تعكس مستوى التقدم الحضاري لها.

اتسمت الفترة الحديثة (1518-1830م) في الجزائر بتنوع اجتماعي كبير، إذ مع تواجد العنصر العثماني وتوافد الأندلسيين على البلاد تغيرت تركيبة المجتمع الجزائري، وانعكس على كل مجالات الحياة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. إن التفاعل بين الأفراد والمجموعات السكانية خلق نسيج عمراني كثيف ومتنوع بالجزائر، أثر في النمط العمراني العثماني امتزج فيه الفن المعماري العثماني والأندلسي والمحلي.

تميز الفن المعماري في الجزائر بنمطيه العثماني والأندلسي وخاصة العمارة الدينية بكل وحداتها من مساجد ومآذن وزوايا وقباب بالبراعة والأناقة وجمالية البناء، وتجلّى تأثيره في الجزائر بشكل بارز في المساجد إذ تجسد في ذلك التزاوج الفني المميز، مما يخلق تجربة معمارية فريدة تحمل في طياتها تاريخا طويلا من الثقافة والفن.

قائمة المراجع

المصادر

- أبو القاسم الزياتي: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تح: عبد الكريم الفيلاي، دار نشر المعرفة، الرباط، 1991.
- الورثيلاي: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تح: محمد بن أبي شنب، فونتانا، الجزائر، 1907.

المراجع

- روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ج2، تر: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992.
- أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الكويت، 1985.
- محمد طيب عقاب: قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة للنشر والتوزيع، 2007.
- عباس محمود العقاد: الإسلام والحضارة الإنسانية ومقالات أخرى، ط2، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2006.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- ناصر الدين سعيدوني: دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الاندلسي بالجزائر، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر.
- سعاد فويال: المساجد الأثرية لمدينة الجزائر، دار المعرفة، 2010.
- نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها الى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، بئر توتة، الجزائر، 2006.

-عبد الكريم عزوق: تطور المآذن في الجزائر، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2006.

-مبروك مهريس: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2009.

-عبد العزيز فيلاي: تلمسان في العهد الزياني، ج1، موفم للنشر، الجزائر.
-السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية،
عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)، ج2، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

المقالات

-معمر شعشوع: العمارة والتراث بالجزائر خلال العهد العثماني "قصور
وحمامات مدينة الجزائر أنموذجا"، المجلة المغاربية للمخطوطات، ع1،
ديسمبر 2016.

-أشرف صالح محمد سيد: المراكز الثقافية في دار السلطان (الجزائر) أواخر
العصر التركي، مجلة أماراباك، ع7، الأكاديمية الأمريكية للعربي للعلوم والتكنولوجيا.
-رشيدة شجري معمّر: المراكز التعليمية في الجزائر العثمانية 1518-1830م،
مجلة معارف، ع20، جوان 2016.

- صبرينة لنوار: مساجد مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (القرنين 17-
18)، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، ع34،
العراق، 2017.

- مريم رزاق بعرة، أمال علوان: دور المساجد في التفاعل الثقافي في المجتمع
الجزائري إبان العهد العثماني، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج7،
ع4، ماي 2022.

-بحيري يامنة: الموروث الحضاري العثماني في شرشال في النصف الثاني من القرن 19م وبداية القرن 20م من خلال وثائق المحاكم الشرعية، مجلة قضايا تاريخية، ع8، 2017.

الرسائل الجامعية

-صادق خشاب: تأثير الفن الزخرفي الأندلسي على نظيره المغربي "نموذج تلمسان"، رسالة ماجستير، إشراف: عبد الحميد حاجيات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2001/200.

-بن سهلة ثاني سيدي محمد: المؤثرات الحضارية الأندلسية على الهوية الثقافية في الجزائر -تلمسان أنموذجا-، أطروحة دكتوراه، إشراف: طالب أحمد، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013/2014.

-محمد حاج سعيد: مساجد القصبة في العهد العثماني تاريخها، دورها، وعمارتها، رسالة ماجستير، إشراف: عبد العزيز شهيبي، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1، 2014/2015.

المراجع الأجنبية

-VENTURE DE PARADIS: Alger au 18ème siècle, E. Fagnan, Alger, 1898, p157.

-FERAUD (CH.):«Les anciens établissements religieux Musulmans de Constantine»,in R.A N°10, 1868, p130.

-EMERIT (M): L'Algérie a L'époque d'Abd-eL Kader, La Rose, Paris, 1951, p82.

المئذنة في العمارة الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني

The minaret in the religious architecture of Algeria during the Ottoman era.

الأستاذ الدكتور موشموش محمد

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

mohamed.mouchmouche@univ-msila.dz

الأستاذ الدكتور سعيد بوزرينة

المركز الجامعي نور البشير بالبيض

s.bouzrina@cu-elbayadh.dz

الملخص بالعربية:

كانت الجزائر العثمانية قد شيدت مجموعة ضخمة من المساجد والزوايا في مختلف مدنها الكبرى والحوضر، فإنّ هذه المباني الدينية - المساجد والزوايا - قد حظيت بإقامة مآذن لها، غير أنّ كثيرا من هذه المباني والمآذن امتدت لها يد الاستعمار البربرية بالتدمير إبان الاحتلال.

وقد جمعت هذه المآذن بين طرازين، المحلي والوافد، فالطراز المآذن المحلية هو طراز المآذن المربعة كالجامع الجديد وزاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي بمدينة الجزائر وزاوية سيدي احمد بن يوسف بمليانة، بينما المآذن ذو الطراز الوافد نجد فيه نموذجين: النموذج الأولى هو طراز المآذن المثلثة كالجامع صفر بن عبد الله بمدينة

الجزائر والجامع الباشا بوهراڻ وزاوية باش تارزي بقسنطينة، والنموذج الثاني هو طراز المآذن الأسطوانية كالجامع سيدي الكتاني بقسنطينة وجامع الباي بعنابة. الكلمات المفتاحية: العمارة الدينية، المساجد والجوامع والزوايا، المآذن المربعة، المآذن المثمنة، المآذن الأسطوانية.

Summary in English:

Ottoman Algeria had built a huge group of mosques and angles in its various major cities and metropolises, these religious buildings - mosques and zawiyas - had the privilege of erecting minarets, but many of these buildings and minarets extended to them the hand of barbaric colonialism with destruction during the occupation.

These minarets combined two styles, the local and the expatriate. The local minarets are the square minarets, such as the New Mosque, and the corner of Sidi Abd al-Rahman al-Tha'albi in Algiers and the Zawiyat of Sidi Ahmed bin Yusef in Miliana. Ben Abd Allah in Algiers, the Bacha Mosque in Oran and the Zawiya Bash Tarzi in Constantine, and the second model is the style of cylindrical minarets, such as the Sidi El Kettani Mosque in Constantine and the Bey Mosque in Annaba.

Keywords: religious architecture, mosques, mosques and angles, square minarets, octagonal minarets, cylindrical minarets.

مقدمة:

تميزت عمارة المساجد عن بقية العمائر الدينية في الفترات التاريخية بتنوع العناصر الوظيفية تخطيطا وبناء وفنا، ومن أهم العناصر التي نالت الحظ الوافر في بناء المساجد نجد المئذنة وذلك رغم تخلف ظهورها عن بقية العناصر، حيث اهتم الأمراء وعامة الناس ببنائها وتزينها، ثم اختلفت من حيث التخطيط من فترة تاريخية إلى أخرى ومن دولة إلى دولة إسلامية أخرى كذلك مشرقا ومغربا، وفي الفترة العثمانية بالإضافة إلى الطراز المحلي ظهر طراز جديد اصطلح على تسميته بالطراز الوافد، وكذلك امتزج الوافد مع المحلي في بعض المساجد الجزائرية، وسف نحاول من خلال هذا البحث أن نتطرق إلى أنواع الطرز البنائية للمئذنة بالجزائر خلال العهد العثماني ومواقع تواجدها في العمارة الدينية (المساجد والزوايا).

تعريف المئذنة وتأصيلها:

أذن بشيء إذنا وأذانه: علم، أذننا لأمر أذنه به: اعمله، والأذان: اسم مصدر من التأذين، والأذنين: النداء إلى الصلاة، والإعلام بوقتها بوجه مخصوص ومعروف⁽¹⁾. والمئذنة هي البناء المرتفع الذي يرتقي إليه المؤذن ليعلن عن أوقات الصلوات الخمس عند المسلمين ويدعوهم إلى أدائها، مستعملا عبارات معينة بشكل ما اصطلح على تسميته بـ "الأذان"

الأذان لغة: الإعلام وهو اشتقاق من الأذن بفتحتين، وهو الاستماع، قال الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾⁽¹⁾، أي إعلام. كما يقول عز وجل: ﴿.. أَذِّنْكُمْ

(1) ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، تحقيق عامر احمد حيدر، ط1، دار الكتب العلمية،

بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003 م، ج9، ص610، 609.

عَلَى سَوَاءٍ... ﴿٢﴾ أَي أَعْلَمْتَكُمْ فَاسْتَوِينَا فِي الْعِلْمِ، وَشَرَعَا: الْإِعْلَامُ بِوَقْتِ الصَّلَاةِ
بِالْفَافِ مَخْصُوصَةً.

أَمَّا فَضْلُهُ فَقَدْ رَوَى لَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عِدَّةُ أَحَادِيثٍ فِي هَذَا الْبَابِ،
وَمِنْ بَيْنِهَا مَا قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ فَضْلِ الْأَذَانِ: "لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ
الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا..."، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَغْفِرُ لِلْمُؤَذِّنِ مَنْتَهَى أَذَانِهِ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلَّ رَطْبٍ
وَيَابَسٍ سَمِعَهُ". أَمَّا سَبَبُ مَشْرُوعِيَّتِهِ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "كَانَ
الْمُسْلِمُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ، فَيَتَحِينُونَ الصَّلَاةَ لَيْسَ يَنَادِي لَهَا، فَتَكَلِّمُ يَوْمًا
فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخَذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بَوَقَا
مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يَنَادِي
بِالصَّلَاةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا بِلَالُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلَاةِ"(3).



(1) سورة التوبة الآية 3.

(2) سورة الأنبياء الآية 109.

(3) للمزيد من التفاصيل، أنظر: -بن عودة حسين العوايشة، الموسوعة الفقهية الميسرة في
فقه الكتاب والسنة المطهرة، ط1، ج2، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن
1423 هـ / 2002 م، ج1، ص 359. كذلك: -ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري
البصري (توفي: 218 هـ/ 833 م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السيقا، إبراهيم الأبياري عبد
الحفيظ شليبي، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت، ج2، ص 154، 155. كذلك: -
ابن كثير إسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: علي محمد معوض عادل أحمد عبد الموجود،
ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003 م، ج2، ص 243.

إذا بحثنا في المصطلحات والأسماء التي أطلقت، أو استعملها المؤرخون المسلمون للدلالة على المكان الذي يرفع منه الأذان في المساجد، لوجدنا عدة أسماء اختلفت حسب البيئة الجغرافية، حيث استعمل مؤرخو العرب كلمة صومعة للدلالة على برج البيعة، التي يعيش فيها زهاد النصاري.⁽¹⁾

وقد شاع استخدام أهل المغرب الإسلامي لكلمة الصومعة للدلالة على المئذنة، وما تزال كلمة صومعة هي المصطلح الشائع في بلدان المغرب الإسلامي حتى وقتنا هذا⁽²⁾.

والواقع أن هناك ارتباك كبير في استخدام هذه الألفاظ الأربعة: صومعة، ومنارة، ومئذنة، فقد استعمل الإدريسي، وابن عذارى كلمتي صومعة ومنارة في آن واحد⁽³⁾.

ولكي نفسر معنى كلمة منارة يستلزم الأمر تفسير كلمة منار، وهذه اللفظة الأخيرة مشتقة من فعل أثار أي أشعل وأضاء، وبالتالي فإن كلمة منار تعني المكان الذي ينبعث منه النور، أو تشتعل فيه النار، ثم أفضى الأمر بهذه الكلمة أن أطلقت على المنائر والمحارس، أو الأبراج المرتفعة لإرسال الإشارات عن طريق إشعال النار للمراقبة، وهداية من ضل بهم السبيل، وقد أستخدم مؤرخو وجغرافيو المغرب في

(1) للمزيد من التفاصيل أنظر: -محمد موشموش، الفكر العمراني الإسلامي وأثره على المدينة وعمايتها: "مدينتي تلمسان والجزائر نموذجا"، رسالة دكتوراه في آثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2015، 2016م، ص 243، 244.

(2) - نفسه.

(3) بن بلة خيرة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، الجزائر، 2007/2008، ص 276.

أوصافهم نفس هذا اللفظ للدلالة على نفس المعنى الذي ذكرناه، فقد أطلق البكري على منار سوسة اسم منار، وأطلقها الرحالة ابن بطوطة وابن جبير على منار الإسكندرية، ومن ذلك أنّ كلمة منار كان المقصود بها التعبير عن برج عال مرتفع توقد فيه النيران لإرسال الإشارات، أو لهداية الضالين، ويغلب الظن أن هذه الكلمة انتقل إلى المآذن لا لمشايتها لأبراج الفناات كما يدعي بتلوتيرش، وإنما لأن من وظائف المئذنة إرسال الإشارات والمراقبة والهداية كما هو الحال في منار رباط سوسة والمنستير⁽¹⁾.

لم يكن لمسجد الرسول ﷺ بالمدينة مئذنة، فإن أول مؤذن هو بلال رضي الله عنه ولقد كان يصعد فوق أعلى بيت في المدينة للنداء للصلاة، ويعتقد أيضا أنه كان في بيت عبد الله بن عمر رضي الله عنه، دعامة مربعة تقع جنوب المسجد وأن بلالا رضي الله عنه كان يتسلق هاته الدعامة وينادي للصلاة لا نعلم بالتحديد تاريخ ظهور المئذنة في العمارة العربية الإسلامية ولكن من الممكن جدا أنها ظهرت في سنة 88هـ/ 706م، عندما أعيد بناء مسجد المدينة من طرف الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك⁽²⁾.

لقد ذهب العلماء في أصل المآذن من الوجهة المعمارية، مذاهب عديدة، فقل إنَّها مشتقة من أبراج الكنائس، أو من أبراج الحراسة والمراقبة، أو من الفناات القديمة، أو من بعض أبراج العبادة في الهند والعراق⁽³⁾.

(1) بن بلة خيرة... (مرجع سابق).

(2) فريد الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، مج 1، القاهرة، 1970، ص 634.

(3) زكي محمد حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص 144.

ذهب رأي بتلر بأن منار الإسكندرية هو النموذج الذي اتخذ للمآذن المصرية، وأن منائر المساجد المصرية كما يذكر وتصميمها وتباين رسومها مستلهمة من منارة سوستراتوس، فهي برج قاعدته مربعة عند الأرض ويستدير شكلها ثم يعلوها عند القمة⁽¹⁾.

وكان رأي كريزول معبرا عن شكل المآذن بالطابق المربع فالمثلث والمستدير، وأن مآذن هذا النوع قد تطورت بالتدرج من عناصر لا علاقة لها بنظام منار الإسكندرية، ويعتقد كريزول أيضا أن أقدم المآذن الإسلامية بسوريا، تشبه الأبراج المسيحية المربعة التي كانت قائمة في سوريا قبل الفتح الإسلامي، كما هو الحال في أبراج المعبد الوثني بدمشق، مستندا في ذلك على قول المقدسي الذي ذكر فيها أن مآذن سوريا تتميز بأنها مربعة كلها⁽²⁾.

ويرى الدكتور عبد العزيز سالم أن عبد الرحمن الداخل الذي أسس دولة بني أمية بالأندلس هو أول من أدخل المآذن السورية في المساجد الأندلسية، فقد بنى ابنه الهاشم مئذنة مربعة بجامع قرطبة عام 796 م، وبنى عبد الرحمن الأوسط مئذنة جامع اشبيلية القديم، مما يثبت أن المآذن الإسلامية الأولى سواء في الشام أو المغرب والأندلس اشتقت من الأبراج السورية.

أما فريد الشافعي فقد اعتمد على نصوص تاريخية لمعرفة أصل المئذنة وتاريخ ظهورها، وقد ذكر أن أقدم ما ذكر عن مآذن المساجد، ما جاء في الكتاب فتوح البلدان

(1) عبد العزيز سالم، المآذن المصرية - نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى نهاية الفتح العثماني، مؤسسة شياب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ص 706.

(2) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 807.

للمؤرخ البلاذري المتوفى سنة 245هـ / 859م عن مئذنة جامع البصرة إذ روى أنه بنيت المنارة بالحجارة لجامع البصرة في سنة 45هـ / 665م وذلك عندما هدم الجامع الأول وأعيد بنائه من جديد في عهد معاوية بن أبي سفيان⁽¹⁾.

وتعتبر مئذنة جامع القيروان المتميزة بخصائص إسلامية، ناضجة من حيث التكوين المعماري وأسلوب البناء، وليس فيها شيء يمكن نسبته إلى طراز معين سابق على الإسلام إلا عنصر واحد هو عقد شكل حدوة الفرس وهذه الخصائص العربية الإسلامية الواضحة⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر، فأغلب الظن أن جميع مآذن العالم الإسلامي في العصر المبكر كانت تتبع تكوينا معماريا مشتركا ومشابها لمئذنة جامع القيروان أو قريبا منها، والمئذنة عنصر إسلامي تطلب عمله الدين الجديد وحتمته تقاليده وفرض شكلا خاصا في تصميمه⁽³⁾.

فالمئذنة المثلثة هي من بين أبرز العناصر المعمارية التي دخلت من تركيا على عمارة المساجد والزوايا الجزائرية بعد التخطيط المعماري، وذلك من حيث تخطيطها وتركيبها وزخارفها.

وإذا كانت الجزائر العثمانية قد شيدت مجموعة ضخمة من المساجد والزوايا في مختلف مدنها الكبرى والحوضر، فإن هذه المباني الدينية قد حظيت بإقامة مآذن لها، غير أن الكثير منها امتدت لها يد الاستعمار البربرية بالتدمير الكلي إبان الاحتلال.

(1) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 637.

(2) نفسه، ص 638.

(3) نفسه، ص 649.

وقد جمعت المآذن بين طرازين، المحلي والوافد، والمعروف أنّ طراز المآذن المحلية هو طراز المآذن المربعة والذي تعد مئذنة جامع القيروان بشكلها المربع وطوابقها الثلاثة المسلوقة إلى الأعلى النموذج الأصيل له⁽¹⁾.

أمّا الطراز الوافد من تركيا، فقد شمل معظم المساجد والزوايا في مختلف مناطق الجزائر وخاصة مدنها الكبرى، تتمثل في المآذن المئذنة، مظهره العام الخارجي، يتكون من طابقين، طابق سفلي مضلع ينتهي بذروة على شكل طنف، غير أنّ بعض المآذن الأخرى ربما تكونت من برجين سفليين ذي شكل مثنى يتوجها جوسق، ومآذن أسطوانية مخروطية.

أقسام المئذنة:

تشكل المئذنة معماریا عموما من قاعدة وبدن حوله شرفة أو أكثر، وجوسق تعلوه قبيبة، أمّا من الداخل فهي تشكل من نواة مركزية يلتف حولها سلم صاعد: القاعدة: القسم الذي يرتفع فوقه جسم المئذنة، والجزء السفلي الذي تركز عليه المئذنة، حيث تكون أساستها صلبة عميقة في الأرض حتى تتمكن من تحمل الثقل الناتج عن الطوابق التي تعلوها، وغالبا ما تأخذ الشكل المربع⁽²⁾.
البدن: جسم المئذنة الأساسي، وتختلف أشكال مقطعه بين المربع والمثلث والمستدير.

الطبقة: أقسام البدن المتوضعة فوق بعضها، وتتعدد مقاطعها وارتفاعها.

الشرفة أو المطاف: الموضع الذي يطوف فيه المؤذن أثناء الآذان.

(1) أحمد فكري، مسجد القيروان، القاهرة، 1936، ص 112.

(2) سيف علي سعيد، مآذن مدينة صنعاء، ب.ت.، ص 145.

النافذة: فتحة في البدن كعنصر زخرفي.

الكوة: فتحة صغيرة في البدن يمر منها الضوء والهواء، ولها أشكال متعددة.

الدرايزين: السياج المحيط بالشرفة، وقد يكون من الخشب أو الحديد أو

الحجر.

المظلة أو ساترة المؤذن: الغطاء الواقى من الشمس والمطر فوق الشرفة.

رأس المئذنة: القسم الذي يعلو المظلة: وهو يأخذ شكلان، إمّا مستدير أو

مضلع، ويتألف من العناصر التالية:

الجوسق: يعرف برقبة المئذنة وعنقها، وهي تسمية فارسية تعني القسم الذي

يعلو المضلة ويحمل القبة أو القلنسوة أو الذروة وغيرها، وقد يحمل أعمدة، فحينئذ

يعرف باسم الجوسق المعمود⁽¹⁾، أو شكل الصنوبرية أو الذروة الصنوبرية، كما تحمل

التفاحات، ويحمل أيضا القلنسوة المخروطية، وأيضا القبة التي تتواجد فوق الجوسق

وتحمل الذروة الصنوبرية.

التفاحات: الكرات المعدنية التي ترفع فوق الذروة والقلنسوة أو القبة وتحمل

الهلال.

الهلال: فوق الذروة، وقد يكون كامل الإستدارة أو مقطوع الدائرة.

الحربة: عنصر زخرفي على شكل الحربة، يستعمل بديلا عن التفاحات أو

الهلال.

العناصر الزخرفية:

الأقواس: تعلق النوافذ والعمد وتأخذ أشكالا متعددة.

(1) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص 278 - 280.

النوافذ: صماء أو مفتوحة أو زخرفية.

الشريفة: عنصر زخرفي على شكل شرفة صغيرة تتوضع في البدن.

الحشوة: على شكل غائر أو هيكل مفرغ مملوء بسطح أو بنقش بارز.

الحنية: عنصر مقوس غائر كالمحراب.

الشريط الزخرفي: نطاق من الزخارف يحيط بالبدن.

الشريط الكتابي: نطاق من الكتابات المنقوشة وغالبا قرآنية النصوص.

القرص الزخرفي: عنصر تزييني على شكل فرص بارز أو غائر أملس أو

مزخرف قد يكون منفردا أو ضمن حشوة.

نماذج من المآذن في الجزائر خلال العصر العثماني:

جمعت المآذن في الجزائر العثمانية بين طرازين، المحلي والوافد:

طراز المآذن المحلية:

والمعروف أنّ هذا الطراز هو طراز المآذن المربعة⁽¹⁾، نجد هذه النموذج في كل

من الجامع الجديد وزاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وزاوية سيدي احمد بوقبرين

بمدينة الجزائر، وزاوية سيدي أحمد بن يوسف بمليانة.

مئذنة الجامع الجديد بمدينة الجزائر:

تقع المئذنة في الركن الشمالي الشرقي، يبلغ ارتفاعها 29.50 م وهي مربعة

الشكل، تتبع في ذلك نفس النظام السائد في المآذن المغربية، وهي مكونة من قسمين،

قسم يضم بدن المئذنة، والقسم الآخر يضم رأسها وهي مؤخرة المئذنة، فبدنها يتكون

من أربعة أجزاء، ويفصل كل جزء عن الآخر بروز الجزء الأسفل يضم باب المئذنة من

(1) أحمد فكري، مسجد القيروان، القاهرة، 1936، ص 112.

فوق السطح وهو خال من الزخرفة، فرأس المئذنة يتكون من الجوسق، ذو المسقط المربع، ويتوج باثنتي عشرة شرفة، ويعلوه قبيبة، تتوجها ثلاث تفافيج معدنية. وبعد عمليات الرّدم التي قامت بها الإدارة الفرنسية هناك أصبح ارتفاعها 25 م فقط. كما وضعت أثناء ذلك ساعة كبيرة على المئذنة سنة 1853 مصنعت في مصانع واغنر Wagner وأنّ الأهالي قد عارضوا بشدة إصاق الساعة بالمئذنة وأظهروا مشاعر هائجة⁽¹⁾ (صورة 1)



صورة 1 / الجامع الجديد - المئذنة المربعة

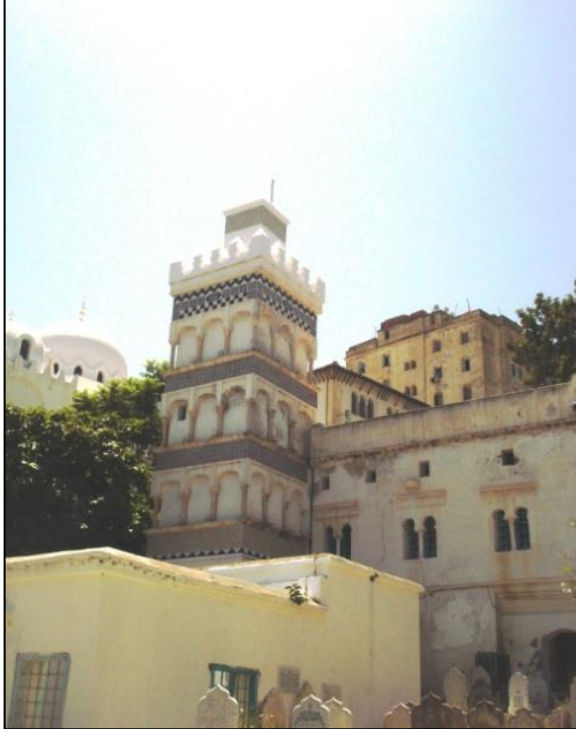
مئذنة زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي بمدينة الجزائر:

توجد مئذنة زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالركن الشمالي الشرقي، يبلغ ارتفاعها 18.12 م وهي من المربع للطراز المغربي التقليدي، تستند على قاعدة مربعة، وبدن ورأس، تزدان المئذنة بصفوف من البلاطات الخزفية ذات الزخارف والألوان.

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م، ج5،

مئذنة زاوية سيدي احمد بوقبرين:

تأخذ مئذنة زاوية سيدي محمد الشكل المربع، ذات ارتفاع 21 م، كما تحتل موقع الركن الشمالي الغربي، وتنقسم هذه المئذنة إلى قسمين رئيسيين هما: بدن المئذنة ورأس المئذنة. (صورة 3)



صورة 2 / زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي – المئذنة المربعة

مئذنة زاوية سيدي أحمد بن يوسف:

تحتل مئذنة مسجد زاوية سيدي أحمد بن يوسف الركن الشمالي الغربي، يبلغ ارتفاعها 19.12 م حيث تأخذ الشكل المربع، تستند على قاعدة مربعة، وعلى بدن

وجوسق، حيث ينتهي البدن بشرافة هرمية الرأس فوق كل زاوية بين الضلعين مما نتج عنه ثمان شرفات. (صورة 4)

المئذنة المثلثة والأسطوانية:

مآذن الطراز الوافد من تركيا، والذي لم يسبق وأن عرفت بها الجزائر قبل الدخول العثماني، وهو من التأثيرات المعمارية والفنية العثمانية بالجزائر. فقد شمل معظم المساجد والزوايا في مختلف مناطق الجزائر وخاصة مدنها الكبرى، تتمثل في المآذن المثلثة والمآذن الأسطوانية.

المآذن المثلثة:



صورة 3 / زاوية سيدي محمد بوفيرين - المئذنة المثلثة صورة 4 / زاوية سيدي

أحمد بن يوسف

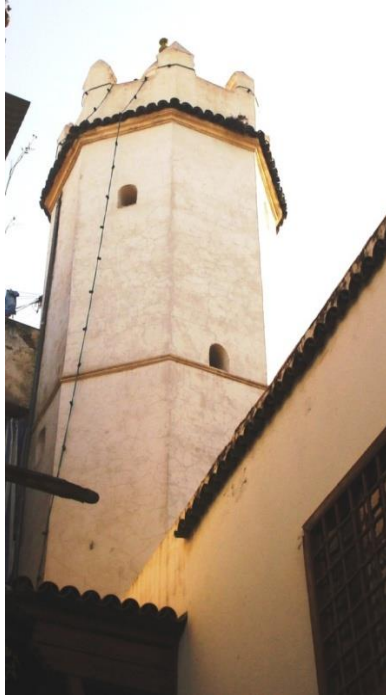
مظهرها العام الخارجي، يتكون من طابقين، طابق سفلي مضلع ينتهي بذروة على شكل طنف، غير أنّ بعض المآذن الأخرى ربما تكونت من برجين سفليين ذي شكل مثنى يتوجها جوسق مثل مئذنة جامع صفر بن عبد الله وجامع القصبة البراني وزاوية سيدي محمد شريف بمدينة الجزائر، وفي الغرب مئذنة جامع الباشا بوهران، ومئذنة جامع الباي محمد الكبير بمعسكر المعروف بمسجد عين البيضاء، ومئذنة باش تارزي بقسنطينة.

جامع صفر:

تحتل المئذنة الشمال الشرقي من الجامع بأضلعها الثمانية التي يبلغ عرض كل ضلعها 1م21 وهي خالية من النوافذ إلاّ من فتحات صغيرة جعلت للتهوية والإضاءة وتنتهي هذه الأضلاع بشرفات مسننة، وارتفاع المئذنة عن مستوى فتحة

الشرفة المسننة إلى سطح بيت الصلاة يقدر بـ 10م50، أمّا ارتفاعها من مستوى فتحة الشرفة المسننة إلى مستوى سطح رواق الصحن فيقدر بـ 11م40 سم، وجوسق المئذنة مقسم إلى ثلاثة أجزاء، حيث ينتهي الجزء الأخير بعمود مثبت به ثلاث تفافيح. (صورة 5)

- جامع البراني:



صورة 5 / جامع صفر (بدن المئذنة المثلثة)

نلاحظ على يمين المدخل وبزاوية معينة المثانة شاخحة في السماء تتصل بجزء من
الواجهة الشرقية، بلغ ارتفاعها 8.5 م، ذات شكل مثنى، يقدر طول كل ضلع
منها 1.44 م، بدنها يتخللها بعض الفتحات الصغيرة مستطيلة الشكل، ونجد فوقها



مباشرة شريطا من البلاطات
الخزفية بحيث وضعت بطريقة
تتناوب فيها القطع البيضاء مع
القطع الخضراء لتشكّل لنا زخرفة
شطرنجية بالإضافة إلى الزخرفة
النباتية قوامها زهرة القرنفل
المحوّرة. (الصورة 6).

صورة 6 / جامع البراني - المثانة المثمنة

زاوية سيدي محمد شريف بمدينة الجزائر:

توجد المئذنة بالركن الشمالي الشرقي، وبدنها من النوع المثلث، يبلغ ارتفاعها 9.5 م ويبلغ عدد درجات سلمها 17 درجة، ويتخلل أضلاعه بعض المزاغل التي يزينها من أعلى إفريز من البلاطات الخزفية باللونين الأسود والأبيض، ويتهيء البدن بشرافة هرمية الرأس فوق كل زاوية بين الضلعين مما نتج عنه ثمان شرفات. (صورة 7).



صورة 7/ زاوية سيدي محمد شريف (المئذنة المثلثة)

الجامع الباشا بوهران:

تحتل مئذنة جامع الباشا بوهران الزاوية الشرقية الجنوبية لبيت الصلاة، يبلغ ارتفاعها 32 م، وهي منفصلة عن المسجد، تتكون من قاعدة مثمنة، وبدن مثنى، ويتهى البدن برأس المتمثل بالجوسق الذي أخذ نفس شكل المثنى، ويفصل بين كل المجموعة - قاعدة، بدن، وجوسق - شريط من البلاطات الخزفية المتناوبة الألوان بين الأبيض والأخضر. (صورة 8)



صورة 8 / جامع الباشا بوهران (المئذنة المثمنة)

جامع عين البيضاء بمعسكر:

تقع هذه المئذنة بالزاوية الشرقية الجنوبية من بيت الصلاة، بلغ ارتفاعها 30.40م، وهي بقاعدة مربعة وبدن ثماني الأضلاع، يبلغ عدد دراجات سلمها 62 درجة، أما رأس المئذنة فهو يتكون من جوسق ثماني الأضلاع، تعلوه قبة مثمنة بتفاحات وهلال. (صورة 9)



صورة 9 / جامع عين البيضاء بمعسكر -

المئذنة المثمنة - عن: بن بلة.

زاوية باش تارزي بقسنطينة:

تأخذ مئذنة زاوية باش تارزي الشكل المثلث، تقع في الركن الشمالي الغربي،
يبلغ ارتفاعها 16.12 م، ذات قاعدة وبدن مثلث، وتنتهي بجوسق رشيق به
شرفة. (صورة 10)



صورة 10/ زاوية باش تارزي بقسنطينة (المئذنة المثلثة)

المآذن الأسطوانية:

وجود المئذنة الأسطوانية، تشبه المآذن العثمانية الموجودة في تركيا المعروفة برؤوسها التي تشبه رؤوس أقلام الرصاص، أو رمحية الشكل وهي غير مجسدة في الزوايا بالجزائر، بل نجدها في المساجد كمئذنة جامع سيدي الكتاني بقسنطينة، وجامع صالح باي بعنابة. (صورة 11)

مئذنة جامع سيدي الكتاني بقسنطينة

تقع مئذنة سيدي الكتاني في الزاوية الشمالية الشرقية، ذات قاعدة مثمنة،



وبدن أسطواني، ينتهي بدنها بشرفة دائرية، وبدرابزين محرم، رأس المئذنة رمحي الشكل، يذكرنا برؤوس المآذن العثمانية التي تشبه رؤوس أقلام الرصاص.

صورة 11 / سيدي الكتاني بقسنطينة

— المئذنة — عن: بن بلة

جامع صالح باي بعنابة:

تقع مئذنة جامع الباي بعنابة الزاوية الشمالية الغربية من بيت الصلاة، يبلغ ارتفاعها 16 م، ويتكون سلم المئذنة من 59 درجة. وهي تقوم على قاعدة مضلعة من النوع الخارجي، أمّا بدنها فهو من النوع الأسطواني، يعلوها جوسق ينتهي بقببية مخروطية الشكل، تشبه المآذن العثمانية المعروفة برؤوسها التي تشبه رؤوس أقلام الرصاص، أو رمجية الشكل. (صورة 12)



صورة 12 / جامع صالح باي بعنابة (المئذنة) عن: خيرة بن بلة،

المرجع السابق.

هذا الجدول يبين ما يلي (1):

المبنى	تاريخ التأسيس	أشكال المآذن	ارتفاع	موقع المآذن
جامع صفر بمدينة الجزائر	490هـ / 1534م	مثمثة	16.75 م	الركن الشمال الشرقي
الجامع الجديد بمدينة الجزائر	1070هـ / 1660م	مربعة	25 م	الركن الشمالي الشرقي
جامع البراني بمدينة الجزائر	1234هـ / 1818م	مثمثة	8.5 م	بالركن الشمال الشرقي
جامع الباشا بوهرا	1206هـ / 1792م	مثمثة	32 م	الزاوية الشرقية الجنوبية
جامع عين البيضاء بمعسكر	1195هـ / 1780م	مثمثة	30.40 م	الزاوية الشرقية الجنوبية
جامع سيدي الكتاني	1190هـ / 1776	أسطوانية	14.80 م	الزاوية الشمالية الشرقية

- (1) سعيد بوزرينة، المنشآت الدينية المؤرخة بالكتابات التذكارية خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار العثمانية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2010/2011، ص 56 - 103. وانظر أيضا: بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص 276 - 295.
- أنظر أيضا: سعيد بوزرينة، الزوايا في الجزائر خلال العصر العثماني، رسالة الدكتوراه في الآثار العثمانية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2015/2016، ص 134 - 154.

بقسنطينة				
جامع صالح باي بعنابة	1206 هـ / 1792 م	أسطوانية	16 م	الزاوية الشمالية الغربية
زاوية سيدي محمد شريف بمدينة الجزائر	984 هـ / 1542 م	مثمثة	9.5 م	بالركن الشمالي الشرقي
زاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر	1108 هـ / 1696 م	مربعة	18.40 م	الزاوية الشمالية الشرقية
زاوية سيدي احمد بمدينة الجزائر	1602 هـ / 1791 م	مربعة	21 م	الركن الشمالي الغربي
زاوية سيدي أحمد بن يوسف بمليانة	1192 هـ / 1774 م	مربعة	19.12 م	الركن الشمالي الغربي
زاوية باش تارزي بقسنطينة	1221 هـ / 1806 م	مثمثة	16.12 م	الركن الشمالي الغربي

➤ تميزت المآذن بالارتفاع المتوسط والقليل نسبيا، وتعتبر مئذنة جامع الباشا

بوهرا أن أكثر ارتفاعا، ومئذنة جامع البراني أقل ارتفاعا.

➤ موقع المآذن بالجوامع والزوايا بمدينة الجزائر كلها بالركن الشمالي الشرقي إلا

زاوية سيدي احمد بوقبرين بالركن الشمالي الغربي، وموقع المآذن بالجوامع

والزوايا بالغرب الجزائري كلها بالركن الشرقي الجنوبي.

➤ امتدت المباني - الجوامع والزوايا - بمختلف أشكال مآذنها "المربعة والمثمنة والأسطوانية" على طول مراحل الحكم العثماني بداية من جامع صفر 490هـ / 1534م، إلى جامع البراني بمدينة الجزائر 1234هـ / 1818م.

الختاتمة:

➤ إن دراسة المآذن في الجزائر خلال العهد العثماني جعلنا نستنتج النقاط التالية:

➤ وجدنا ثلاثة أنواع من المآذن في الجزائر خلال العصر العثماني، وهي المربعة التي ميّزت الجامع الجديد وزاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وزاوية سيدي احمد بوقبرين بمدينة الجزائر، وزاوية سيدي أحمد بن يوسف بمليانة، والمثمّنة (المضلعة) استعملت في جامع صفر بن عبد الله وجامع القصبة البراني وزاوية سيدي محمد شريف بمدينة الجزائر، وفي الغرب مئذنة جامع الباشا بوهرا، ومئذنة جامع الباي محمد الكبير بمعسكر المعروف بمسجد عين البيضاء، ومئذنة باش تارزي بقسنطينة، والأسطوانية التي ميزت مئذنة جامع سيدي الكتاني بقسنطينة، وجامع صالح باي بعنابة.

➤ دمج المعماري الجزائري بين الأساليب والتقاليد المغربية الذي يعرف بالطراز المحلي وبين الأساليب المعمارية التي جلبها العثمانيون والذي يسمّى بالطراز الوافد، حيث نجد تعايشا بين الطرازين جنبا إلى جنب، كزوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي له تخطيط من الطراز الوافد في قاعة الضريح، والطراز التقليدي المحلي المغربي يظهر في عنصر المئذنة المربعة، وأيضا جامع سيدي الكتاني ذو التخطيط من طراز التقليدي المحلي المغربي والمئذنة الأسطوانية من طراز الوافد.

➤ استخدام البلاطات الخزفية على نطاق واسع في المئذنة، كشریط من البلاطات الخزفية المتناوبة الألوان بين الأبيض والأخضر الذي يفصل بين كل المجموعة - قاعدة، بدن، وجوسق في مئذنة جامع الباشا بوهرا، وإفريز من البلاطات

الحزفية باللونين الأسود والأبيض في أعلى بدن مثذنة زاوية سيدي محمد شريف
بمدينة الجزائر.

قائمة المصادر والمراجع:

1. -ابن كثير إسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: علي محمد معوض عادل أحمد عبد الموجود، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003م.
2. -ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، تحقيق عامر احمد حيدر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424 هـ / 2003م.
3. -ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري البصري (توفي: 218هـ / 833م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السيقا، إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت.
4. -ابن عودة حسين العوايشة، الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1423 هـ / 2002م.
5. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
6. فريد الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، مج1، القاهرة، 1970م.
7. -زكي محمد حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، 1981م.
8. عبد العزيز سالم، المآذن المصرية - نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى نهاية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية.
9. -خيرة بن بلة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، الجزائر، 2007 / 2008م.

10. - سعيد بوزرينة، المنشآت الدينية المؤرخة بالكتابات التذكارية خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار العثمانية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2010/2011 م.
11. سعيد بوزرينة، الزوايا في الجزائر خلال العصر العثماني، رسالة الدكتوراه في الآثار العثمانية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2015، 2/2016 م.
12. محمد موشموش، الفكر العمراني الإسلامي وأثره على المدينة وعمارتها: "مدينتي تلمسان والجزائر نموذجا"، رسالة دكتوراه في آثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2015، 2016 م.

معالم عمران المدن الأوراسية والزابية في العصر الوسيط

من خلال المصادر العربية

Architecture of Eurasian and Zabian cities in the Middle Ages through Arab sources

أ. خديجة طاهر منصور

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)

taharmansour.khadidja@univ-oran1.dz

ملخص:

تهدف دراستنا لموضوع معالم عمران المدن الأوراسية والزابية من خلال بعض المصادر العربية إلى البحث عن الآثار المادية وتقديم صورة واضحة عن المعالم العمرانية الكبرى في المنطقة عن طريق تدارس نماذج من النصوص الإخبارية والمدونات الجغرافية، وتندرج هذه الورقة البحثية ضمن مسار الدراسات التاريخية المعمارية لمنطقة الزاب والأوراس في الحقبة الوسيطة.

عرف الإقليمان محلّ الدراسة تحولاً جذرياً في عمران المدن بعد أسلمة المنطقة، حيث انعكس الوجود الإسلامي على الوجه العمراني للمدن الأوراسية والزابية من حيث هيكلتها وجمالياتها.

من أهم النتائج التي أكّدت عليها المصادر العربية هي كثرة العمارة وتنوعها في منطقة الأوراس والزاب خلال العصر الوسيط.

كلمات مفتاحية: عمران المدن، الأوراس، الزاب، العصر الوسيط، المصادر

العربية.

Abstract:

Our study of the subject of history of architecture of Aurasian and Zabian cities through Arab sources aims to search for material monuments and provide a clear picture of the main urban landmarks in the region through news texts and geographical blogs.

One of the most important results confirmed by the Arab sources on which our study relied was the abundance of material monuments and the diversity of architecture in the Aures and Zab region during the Middle Ages.

Keywords: Architecture; Aures; Zab; Medieval history; Middle Maghreb.

مقدمة:

شهد إقليم الأوراس والزاب الاستقرار البشري منذ ما قبل التاريخ، وفي التاريخ القديم ازدهرت عمارة المدن في هذين الإقليمين المتكاملين جغرافيا وعمرانيا. من بين المصادر التي احتفظت بصورة واضحة وجليّة عن التراث الأثري في المنطقة فيما يخص عمران المدن الأوراسية والزابية في الحقبة الوسيطة هي المصادر العربية التاريخية والجغرافية المشرقية والمغربية.

إنّ هدف الكُتب الجغرافية المسالكية والممالكية وصف لمظاهر العمران ومعالم المدن والطرق والمسالك، وهي من أكثر المصادر غنى بالمعلومات حول إقليمي الأوراس والزاب خاصة الكتب التي اعتمد مؤلفوها على التشخيص المباشر (مصادر الرحلة)، وكذلك أمهات الكتب التاريخية الأصلية (النصوص الإخبارية) التي ساهمت في وصف جغرافية العمران في المنطقة من خلال التأريخ لتطورات الأحداث وسرد تفاصيل العمليات العسكرية والحربية التي كانت أرض الأوراس والزاب مسرحاً لها خلال القرون الوسطى.

اخترنا البحث في "معالم عمران المدن الأوراسية والزابية في الفترة الوسيطة من خلال المصادر العربية"، ونسعى إلى محاولة الإجابة على الإشكالية التالية: ما قيمة المادة العلمية العمرانية الموجودة في المصادر العربية التاريخية والجغرافية التي تخصّ بلاد الأوراس والزاب في العصر الوسيط؟ وللإجابة على هذه الإشكالية نطرح السؤالين التاليين:

- متى بدأ تعمير إقليميّ الأوراس والزاب؟ وماهي الأسباب التي ساهمت في قيام العمران في هذه المنطقة؟ وما أنواع المعالم العمرانية الموجودة فيهما، وإلى أي فترة

تعود؟، وهل حفظت لنا المصادر العربية كل معالم العمران -القديمة والوسيطه - في المدن الأوراسية والزابية؟

من خلال مقالنا هذا نسعى إلى تقديم الصورة العمرانية للمدينة الأوراسية والزابية حيث أننا نستدل بنماذج من النصوص عن: المدن وتصميمات المباني والآثار، وأنواع المعالم والمنشآت التي تميزت واشتهرت بها المنطقة، من: مرافق عامة كالحمامات والأسواق، وكذلك الطرق، والأسوار والحصون، وغيرها.

أولاً: العمران وتاريخ تمدن الأوراس والزاب:

يُعتبر ابن خلدون (ت 808هـ / 1405م) مؤسس علم العمران، وهو يرى أن الانسان مدني بطبعه، ولا بد له من الاجتماع، والاجتماع: هو العمران، والعمران: هو المدينة، بقوله: "أي لا بدّ لهم من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران وبيانه"⁽¹⁾.

يعود تمدن الأوراس والزاب وكثرة العمارة بهما إلى العهود القديمة السابقة للإسلام، وبعد الفتح الإسلامي استحدثت المدن الجديدة -الاسلامية، وفق شروط تأسيس وهيكله عمارة المدينة الإسلامية، كما تظهرت وتزيّنت المدن القديمة - بعد أسلمتها بالمنشآت العمرانية الإسلامية كالمساجد؛ فوجود الإسلام انعكس على الوجه العمراني للمنطقة، وساهم في التحوّل الجذري لتصميم المدن.

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج 1، ص 54.

إنّ لعمران المدن دلالات سياسية واقتصادية واجتماعية، ونحن نبحت في النصوص التاريخية الإخبارية والجغرافية الوصفية عن ما قاله وكتبه الكثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة حول التراث المادي، المتمثل في معالم الأبنية المتنوعة من عمارة مدنية ودينية وعسكرية في الإقليمين محلّ الدراسة.

ثانيا: الحيز الجغرافي لإقليمي الأوراس والزاب خلال العصر الوسيط:

من بين أكثر المناطق تعميراً وسُكنى في الجهة الشرقية من بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط منطقتين، هما: الأوراس في وسط المغرب الأوسط، والزاب في جنوب المغرب الأوسط، ونحاول في هذا العنصر حصر كل إقليم استناداً على الإسطوغرافيا العربية.

1- الأوراس: يُنسب هذا الإقليم الذي يشتمل مجاله الجغرافي على عدة مُدن إلى جبل أوراس، وهو "قطعة متّصلة من جبل درن المغرب، وهو كاللام محنيّ الأطراف"⁽¹⁾، ويشقّ هذا الجبل بلاد الغرب وبلاد إفريقية، ويبلغ طوله نحو اثني عشر يوماً؛ وفيه المياه الغزيرة، والمراعي الكثيرة، والعمارة الدائمة المتصلة"⁽²⁾.

يقول الحسن الوزان (ت957هـ/1550م) - واصفاً حدود إقليم الأوراس: "تقع الأوراس على بعد نحو ستين ميلاً من بجاية، وثمانين ميلاً من قسنطينة، وهي

(1) - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ص264.

(2) - ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، صص84-85؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص264؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، طبع على مطابع هيدلبرغ، بيروت، ط2، 1984، ص65.

مفصولة عن الجبال الأخرى وممتدة على طول نحو ستين ميلاً، تُتأخم الأوراس جنوباً صحراء نو ميديا، وشمالاً بلاد المسيلة وسطيف ونكاوس وقسنطينة"⁽¹⁾.

وفي جبل أوراس عدّة بلاد، تسكنها قبائل من البربر من البتر والبرانس: لواتة، هواره، كتامة، وزناتة بفروعها: جراوة، بنو يفرن، وغيرها، هذا بالنسبة للعنصر البربري؛ أمّا بقية العناصر التي سكنت الأوراس فنشير إليها لاحقاً عند ذكر مُدن الإقليم⁽²⁾.

2 - الزاب: هو "كورة عظيمة، ونهر جرّار بأرض المغرب على البرّ الأعظم، عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة"⁽³⁾.

يقع الزاب "على أطراف الصحراء في سَمَت البلاد الجريدية من عمل إفريقية، وهو مثلها في حرّ هوائها وكثرة نخيلها، وهو مدن كثيرة واسعة، وعمائر متّصلة فيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة"⁽⁴⁾.

إنّ المجال الجغرافي لإقليم الزاب مُتغيّر حسب وصف الجغرافيين حيث كان شاسعاً يشتمل على عدّة مدن في القرن 3-4هـ/9-10م، ذكر اليعقوبي (ت 284هـ/897م) أنّ الزاب "بلد واسع"، بينه وبين القيروان "عشر مراحل"، ويشمل

(1) - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983، ج2، ص102.

(2) - البغدادى، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - وهو مختصر معجم البلدان لياقوت، 1992م، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ج1، ص130؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص75/ ج7، ص15، 12، 11/ ج6، ص156.

(3) - الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج3، ص124.

(4) - الحميري، المصدر السابق، ص282.

كل من: مدينة الزاب العظمى طبنة، باغاية، تيجس، ميله، سطيف، نقاوس، مقرة، أحه، أربة⁽¹⁾؛ وأضاف المقدسي (ت387هـ/997م): مدينة "المسيلة"، في قوله: "والزاب مدينتها المسيلة ولها: مقرة، طبنة، بسكرة، تهوذا، طولقا، جمبلا، بنطوس، أدنة، أشير"⁽²⁾.

وفي نهاية العصر الوسيط بالضبط في القرن التاسع الهجري/15م تقلّصت مساحة إقليم الزاب لتشمل تقريبا مدينة بسكرة وقراها فقط، قال ابن خلدون واصفا حدود هذا الإقليم في عصره: "حدّه من لدن قصر الدوّسن بالمغرب إلى قصور تنومة وبادس في المشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمّونه الحُصْنَة... جبل دَرَن المتّصل من أقصى المغرب إلى قبله بَرّقة...، ويتّصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الجوف"⁽³⁾.

ويُضيف "وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعدّدة متجاورة جمعاً جمعا، يعرف كل واحد منها بالزاب، وأولّها زاب الدوّسن، ثم زاب طَوْلَقَة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس، وبسكرة أمّ هذه القرى كلها"⁽⁴⁾.

إنّ الزاب والأوراس هما من أهم أقاليم المغرب الأوسط التي عمّرت عبر التاريخ، نظراً لتوفرهما على مجموعة من العوامل الطبيعية والجغرافية، والمتمثلة في:

(1) - اليعقوبي، البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،

2002م، صص 190-191.

(2) - المقدسي، المصدر السابق، صص 209-210 / ص 79.

(3) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 585.

(4) - نفسه، ص 585.

المياه والكلاً (المراعي) والجبال التي تعتبر حصناً طبيعياً، - هذه العوامل هي التي شجعت كل من الإنسان المحلي والوافد على السكن والاستقرار فيهما ثم تشييد المدن. تُظهر النصوص التي سُقناها أنَّ هناك اختلاف فيما يخص تحديد مجال إقليمي الأوراس والزاب ومُدنها بين المؤرخين القدامى واللاحقين في العصر الوسيط - كابن حوقل (ت 380هـ/ 990م) وابن خلدون مثلاً - فكل واحد منهما شاهد على عصره. إنَّ الأمر ليس كما يبدو، فالاختلاف في تحديد مدن كل إقليم مُرتبط بالتفاوت الزمني وبالحالة السياسية والسلطة القائمة في كل عصر، فعصر ابن حوقل ليس كعصر ابن خلدون فقد عرف الإقليمين تمَدُّ وتقلص عبر الأزمنة - خاصة إقليم الزاب، وحسب مجال الدَّول المتداولة على حكم المنطقة في بعض المراحل التاريخية في القرون الوسطى.

ثالثاً: معالم عمران المدن الأوراسية والزابية في العصر الوسيط من خلال المصادر

العربية

1. معالم العمران في الأوراس والزاب والنص العربي التاريخي والجغرافي:

بما أنَّنا نعتمد على النصوص العربية الوسيطة المحصورة بين القرنين (3 - 9هـ/ 9 - 16م) لإنجاز هذا المقال، فإنَّ أول عائق هو شُحُّ المعلومات بل انعدامها في بعض الأحيان فيما يخصَّ الإشارة إلى حالة معالم عمران المدن الأوراسية والزابية خلال مرحلة الفتح - أي في القرن الأول الهجري/ 7م رغم أنَّ تمَدُّن المنطقة يعود إلى العصور السابقة للإسلام.

عند البحث في المصادر التاريخية المكتوبة باللغة العربية المدوَّنة في القرون الإسلامية الأولى (3 - 4هـ/ 9 - 10م)، والتي اهتمَّت بأحداث الفتح، وبالمختصين النصوص المصدرة الإخبارية المشرقية لا نجد أيَّ إشارة لمعالم العمران، من: وصف

للمدن أو الحصون في إقليميّ الأوراس أو الزاب، وفيما يلي ذكر لبعض النماذج عن تلك المصادر:

➤ كتاب "فتوح إفريقية" للواقدي (ت207هـ/ 822م): وهو أقدم تاريخ لأقدم مؤرخ في تاريخ الإسلام، أشار فيه إلى فتح بلاد الزاب، وذكر اسم بعض مُدنه في قوله: "صاحب ريغ وطولقة وصاحب نقاوس وصاحب أركا وعظماء ملوك الزاب"⁽¹⁾ أي دون الإشارة إلى المعالم العمرانية في البلاد الزابية أو إلى إقليم الأوراس.

➤ "تاريخ خليفة بن خياط" (المتوفى حوالي 240هـ/ 854م): اكتفى بالإشارة إلى إقليم "الزاب" مرتين في حديثه عن مقتل "الكاهنة" سنة 74هـ/ 693م، ومرة أخرى في سنة 124هـ/ 741م بعد مقتل "ميسرة المطغري" حيث ذكر "الزاب" و"طبنة"⁽²⁾.

➤ "فتوح مصر وإفريقية" لابن عبد الحكم (ت257هـ/ 871م): أشار فقط إلى مدينة "تهودة"⁽³⁾.

(1) - الواقدي، فتوح إفريقية، دار الكتب الوطنية، تونس، 1898، صص 153-154.

(2) - خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، راجعه وضبطه ووثقه ووضع حواشيه وفهرسه: مصطفى نجيب فواز وحكمت كشيلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م، ص 169؛ ص 231.

(3) - ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، د.ت، تحقيق: عبد المنعم عامر، الأمل للطباعة والنشر، د.ت، ج1، ص 267.

➤ "تاريخ الرسل والملوك" للطبري (ت 310 هـ / 922 م): هذا الكتاب موسوعة لروايات تاريخية حسب السنوات، لم نجد فيه أي إشارة للمعالم العمرانية في إقليمي الأوراس والزاب⁽¹⁾.

هذه بعض النماذج فقط، عن المؤلفات المشرقية الإخبارية التي أهملت بقصد أو دون قصد الإشارة إلى معالم تمدن المنطقة رغم ذكرهم لأحداث وعمليات الفتح، وربما يعود هذا الأمر إلى جهل هؤلاء المشاركة بجغرافية عمران المنطقة، بالإضافة إلى أن الكتابة التاريخية في هذه المرحلة ما تزال في مهدها حيث أن تدوين التاريخ كان على شكل روايات للأحداث فقط.

وإن كان المؤرخون المشاركة قد غلب عليهم الاهتمام بذكر الوقائع أكثر من وصف الأمكنة والبقاع، فما هو عُذر بعض المدونات الجغرافية المشرقية التي لم تُفصّل في ذكر بعض معالم المدن الأوراسية والزابية؟، والتي نذكر من بينها:

➤ "المسالك والممالك" لابن خرداذبة (ت 272 هـ / 885 م): أشار إلى مدينة الزاب وتهودة عرضاً في إطار حديثه عن إحدى المسالك "الطريق من برقة إلى المغرب"؛ وإلى إقليم الأوراس في ذكره للأداسة⁽²⁾، دون التفصيل في مجال كل إقليم.

(1) - ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط 2، 1970.

(2) - ابن خرداذبة، المسالك والممالك، طبع في مطبعة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، 1889، صص 87-89.

➤ "المسالك والممالك" للإصطخري (ت 346هـ / 957م): لم يتحدث إطلاقاً عن الأوراس أو الزاب ولا مدنها، رغم إirاده لكثير من مدن بلاد المغرب والأندلس⁽¹⁾.

➤ "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" أو ما تسمى رحلة المقدسي: ذكر بعض أسماء المدن الأوراسية والزابية في إطار حديثه عن بلاد المغرب عامة دون التفصيل في ذكر معالم عمران المدن⁽²⁾.

إنَّ عدم ذكر مثل هذه المصادر الجغرافية المشرقية في القرنين 3 و4هـ / 9-10م - ما عدا "اليقوبي" و"ابن حوقل - لمعالم العمران ليس تجاهل للمنطقة، بل جهل بها وبعمارتها.

استثنينا من المشاركة كل من الرحالة اليقوبي وابن حوقل اللذين فصلا في كَوْر الإقليمين، فكلاهما صاحبا رحلة مغربية، حيث كتبا مؤلفيهما بالمشاهدة، وبذلك يعتبران مصدراً أولاً للمعلومات الجغرافية التي تداولت وتواترت فيما بعد عن الزاب والأوراس في مؤلفات المشاركة والمغاربة.

إنَّ تسبقنا لهذا العنصر الذي عالجنا فيها إهمال المصادر المشرقية لذكر المعالم العمرانية في إقليمي الزاب والأوراس لا يعني أننا نُحمّل المصادر مسؤولية انعدام

(1) - الإصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسني، مراجعة شفيق غربال، قدم هذه الطبعة عبد العال عبد المنعم الشامي، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، مركز النشر الجامعي، القاهرة، 2004، ص 33.

(2) - المقدسي، رحلة المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، 2003م، حررها وقدم لها: شاكّر لعبي، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2003، صص 78-79؛ ص 209؛ صص 227-228.

المادة بل اعتبرناها من ضمن الصعوبات التي تواجه الدّارس لهذا الموضوع في القرون الأولى من العصر الوسيط.

في المقابل نُؤكّد على وجود إسطوغرافيا أخرى مشرقية ومغربية، جغرافية وتاريخية اهتمت بالمنطقة بحيث فصّلت في مدن كل إقليم، وقدّمت صورة واضحة المعالم، وأوضحت المسار التاريخي العمراني لإقليمي الأوراس والزاب؛ هذه الإسطوغرافيا هي التي اعتمدنا عليها في تقديم هذه المادة وساعدتنا في تتبع سيورة تمدّن هذين الإقليمين، وساهمت في رصد مختلف أنواع معالم العمران المدنيّة والعسكرية والدينية، وقد اخترنا ذكر المدن المهمّة بالتفصيل في كل إقليم كنماذج لهذه الدراسة، والإكتفاء بالإشارة إلى المدن الأخرى عرضاً.

2. مدن إقليم الأوراس والزاب في العصر الوسيط من خلال النصوص العربية:

نهتم أساساً بجغرافية العمران التاريخيّة، لذلك نسعى إلى تحديد مدن إقليمي الأوراس والزاب من خلال النصوص العربية.

- مدينة "باغاية": مدينة كبيرة، قديمة أوليّة، تقع قرب جبل أوراس، يقول ابن حوقل: "وجبل أوراس منها [أي باغاية] على أميال...⁽¹⁾"، و"لها ماء جارٍ من وادٍ يأتيهم من القبلة ومنه شربهم مع آبار لهم عذبة، ولهم من البساتين الكثير مرحلة،... وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير"⁽²⁾.

توسّعت المدينة بعد ازدياد عدد ساكنتها حيث ظهرت الأرباض حولها، كما تواجدت بمُحاذاتها القرى والعمارات، وذلك قبل الغزو الهلالي لبلاد المغرب في القرن

(1) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 84 / المقدسي، المصدر السابق، ص 213.

(2) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 84.

الخامس الهجري/ 11 م، يقول الإدريسي (المتوفى حوالي 558هـ/ 1162م): "وأما الآن ف...الأرباض خالية بإفساد العرب لها... وكانت لها بوايدٍ وقُرى وعمارات، والآن كل ذلك قليل فيها"⁽¹⁾.

وباغاية بلد بربري البادية، من قبيلة: "هواره"⁽²⁾، كما سكن فحص المدينة قبائل من "لواتة" و"ضريسة"⁽³⁾؛ واستقرَّ بها أيضاً العرب من قبائل الجند، وعجم من أهل خُراسان، وعجم من عجم البلد من بقايا الروم⁽⁴⁾.

وكانت المدينة تُشرف على عدّة طرق، وصف إحداها ابن حوقل، بقوله: "طريق يأخذ الآخذ على بلزمة إلى نقاوس إلى طُبنة، ويتّصل هذا الطريق بطريق مجانة إلى تيجس... ومن باغاي إلى دوفانة قرية من جبل أوراس...، ومنها إلى دار ملول... ومنها إلى طُبنة..."⁽⁵⁾.

ومن المدن الأوراسية القديمة القريبة من باغاية، نجد: "مدينة يقال لها: تيجس، من عمل باغاية حولها قوم بربر عجم"⁽⁶⁾ وهي "مدينة أوليّة شاخة البناء

(1) - الإدريسي، المصدر السابق، صص 276-277.

(2) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 84 / يعقوبي، المصدر السابق، ص 190.

(3) - الحميري، المصدر السابق، ص 77.

(4) - يعقوبي، المصدر السابق، ص 190.

(5) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 85.

(6) - يعقوبي، المصدر السابق، 2002، ص 190.

كثيرة الكلاء والرَّبيع"⁽¹⁾، ومدينة أخرى تسمى "قاساس" أشار إليها البكري (ت487هـ/ 1098م) في كتابه "المسالك والممالك"⁽²⁾.

وأيضا من مدن بلاد الأوراس، نجد: مدينة "بلزمة"، يقول ابن حوقل: "مدينة بلزمة حصن لطيف فيه رجال جلد..."⁽³⁾ وسمّاه البكري "بلزمة لمزاة"، ووصفه بقوله: "في بساط الأرض، كثير المزارع والقرى"⁽⁴⁾؛ وكذلك مدينة "دار ملول" التي كانت "مدينة عامرة وأسواقها قائمة ولها مزارع وغلات جمّة... وشربهم من ماء عيون بها جارية وبين دار ملول إلى القلعة ثلاث مراحل"، وبينها وبين طبنة مرحلة كبيرة⁽⁵⁾.

ومن الآثار القديمة القريبة من مدينة باغاية "قبر مادغوس" ذكره البكري في القرن 5هـ/ 11م، ووصفه الحميري (ت750هـ/ 1349م) بقوله: "بقرب باغاية قبر مادغوس، وهو قبر مثل الجبل العظيم مبني بآجر رقيق معقود بالرصاص، وبنيت فيه طبقات صغار، وصُورت فيه جميع الصور من الإنسان والطير والوحوش، وهو مدرّج النواحي، وقد رام كثير من الناس هدم هذا القبر فلم يقدرُوا على ذلك، ولا يُعلم على الحقيقة ما هو؟، هل هو قبر أو هيكل!، إنّما هو بناء قديم لا يعلم له حقيقة، وهو مجمع

(1) - البكري، المسالك والممالك، 2003م، حققه ووضع فهارسه: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج2، ص232.

(2) - نفسه، ج1، ص227.

(3) - ابن حوقل، 1992، ص91.

(4) - البكري، المصدر السابق، ج2، ص227.

(5) - الإدريسي، المصدر السابق، صص 263-264.

لكل طائر، ويقال إنَّ لهم هناك طلاسَم" ⁽¹⁾ وما يزال هذا القبر موجوداً، ويعرف أيضاً بضريح إيمدغاسن (ضريح أحد الملوك النوميد).

- مدينة نقاوس: "مدينة كبيرة... قديمة أزليّة، ولها مياه كثيرة وأجنّة عظيمة، وبها جميع الفواكه كاللوز والجزر والكروم وزرعهم غزير كثير" ⁽²⁾، بينما وصفها الإدريسي في القرن السادس الهجري / 12 م بالصغيرة ⁽³⁾.

وكانت هذه المدينة "كثيرة العمارة، بها قوم من الجند، وحواليها البربر من: مكنانة بطن من زناتة، وحوّلهم قوم يقال لهم: أوربة" ⁽⁴⁾.

تعتبر نقاوس نقطة عبور إلى عدة مدن أخرى، يقول الإدريسي: "من مدينة طبنة إلى مدينة نقاوس مرحلتان،... ومن نقاوس إلى المسيلة أربع مراحل وقيل: ثلاث، ومن مدينة نقاوس أيضاً إلى حصن بسكرة مرحلتان" ⁽⁵⁾.

ومدينة أخرى أشار إليها "البكري" بعد ذكر مدينة نقاوس وهي: "مدينة اللّوز" الواقعة شرق نقاوس ⁽⁶⁾.

- مدينة طبنة: من أعظم بلاد الزاب، تقع في وسطه، وهي "مدينة كبيرة... بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلبّي المعروف بهزار مرد" ⁽¹⁾؛ وهي التي كان ينزلها ولاية إقليم الزاب ⁽²⁾.

(1) - الحميري، المصدر السابق، ص 77.

(2) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 91.

(3) - الإدريسي، المصدر السابق، ص 264.

(4) - اليعقوبي، المصدر السابق، ص 190.

(5) - الإدريسي، المصدر السابق، ص 264.

(6) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 228.

وصفها ابن حوقل، بقوله: "مدينة قديمة، وكانت عظيمة، كثيرة البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير...، وأكثر غلاتهم السقي ويزرعون الكتان، وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة، وكانت وافرة الماشية من: البقر والغنم وسائر الكراع والنعم"⁽³⁾.

وأضاف البكري: "ليس من القيروان إلى مدينة سجلهامة أكبر منها، واسم نهرها بيطام، وإذا حمل سقى جميع بساطها، ويقول أهلها: بيطام بيت الطعام لجودة زرعها"⁽⁴⁾؛ كما وصف الإدريسي أحوالها بقوله: "بها صنائع وتجارات وأموال لأهلها متصرفّة في ضروب من التجارات، والتمر بها كثير، وكذلك سائر الفواكه"⁽⁵⁾.

وكان لطبنة قصر، وأرباض واسعة⁽⁶⁾، وصف قصرها البكري بقوله: "إنَّ قصر طبنة قديم أولي كبير جليل، مبني بالصخر الضخم، عليه أزاج كثيرة، ينزله العمال، وهو مُلاصق لسور المدينة من جهة القبلة، عليه باب حديد وهو شرقي... وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيه نهرها، ومنه تسقى بساتينها... ولها بساتين ملاصقة للربض"⁽⁷⁾.



- (1) - نفسه، ج 2، ص 228.
- (2) - اليعقوبي، المصدر السابق، ص 190.
- (3) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 85.
- (4) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 229.
- (5) - الإدريسي، المصدر السابق، ص 263.
- (6) - الحميري، المصدر السابق، ص 387.
- (7) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 228.

وكانت "مقبرتها بشرقيها، وبقرب المقبرة غدير يُعرف بغدير فرغان" (1).

أما عن ساكنتها، فقد كان بها "أخلاط من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر" (2)، يقول ابن حوقل: "وأهلها قبيلتان عرب وبرقجانة" (3).

ويبدو أن عظمة طبنة قد زالت في النصف الثاني من القرن 4هـ / 10م بدليل ما ذكره الرحالة ابن حوقل: "فحدث بينهم [أي بين أهلها] البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض، وآتى على نعمهم فصاروا بعد السعة والدعة إلى الضيق والذلة والصغار والشتات والقلّة، مشردين في البلاد مطرّحين في كل جبل وواد..." (4).

وسبب هذا الأمر أشار إليه البكري في القرن الخامس الهجري / 11م وهو الخلاف الحاصل بين أهلها، حيث قال: "يسكنها العرب والعجم، وبينهما الاختلاف والحرب... وإذا كانت الحرب بين العرب والمولّدين، استمد العربُ بعرب مدينة تهوذا وسطيف، واستمدّ المولدون بأهل بسكرة وما والاها... ويسكن حولها: بنو زقراح" (5).

ولطبنة عدّة طرق تربطها ببقية مدن الزاب فـ "من المسيلة إلى طبنة مرحلتان" (6)، ومن طبنة إلى مقرة مرحلة، ومن مقرة إلى المسيلة مرحلة (7).

(1) - نفسه، ج 2، صص 228-229.

(2) - اليعقوبي، المصدر السابق، ص 190.

(3) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 85.

(4) - نفسه، ص 85.

(5) - البكري، المصدر السابق، ج 2، صص 228-229.

(6) - الإدريسي، المصدر السابق، ص 263.

(7) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 85.

ومن المدن الأهلة القريبة منها، نجد: "فج زَيدان" الذي كان يطل على مدينة طَبنة، و"مدينة مقرة"، و"قلعة أبي طويل"⁽¹⁾.

- مدينة بسكرة: قاعدة بلاد الزاب، وتعرف ببسكرة النخيل⁽²⁾، وسماها البكري: بلد بسكرة، وقال عنها: "كورةٌ فيها مدن كثيرة، وقاعدتها بسكرة، وهي مدينة كبيرة كثيرة النَّخل والزيتون وأصناف الثمار...، وحواليها بساتين كثيرة، وهي في غابة كبيرة مقدار ستة أميال، فيها أجناس التمور...، وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة، منها في الجامع بئر لا تنزف، وداخل المدينة جنان يدخل إليها الماء من النَّهر، وبها جبل ملح، يقطع منه الملح كالصخر الجليل...، وشرب بسكرة من نهر يجري في جوفها، منحدرٌ من جبل أوراس"⁽³⁾.

ولبسكرة أرباض خارجها، وكور وقرى عامرة ومدن، ومن قراها: مَلشون، وقيل: ملسون⁽⁴⁾. ؛ أما مدنها فهي: "مدينة جمونة، ومدينة طولقة، ومدينة مليلي، ومدينة بنطوس"⁽⁵⁾.

وساكنتها من المولدين، وحوّلها من قبائل البربر: سدراته وبنو مغراوة: أهل بيت بني خزر، وبنو يزمري⁽¹⁾.

(1) - البكري، المصدر السابق، ج 2، 229.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 585.

(3) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 230 / 231.

(4) - نفسه، ج 2، ص 231 / مجهول، الإستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، 1985 م، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة - آفاق عربية، بغداد، 1985، ص 173.

(5) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 231.

- مدينة تهودة: وقيل تهودا وتهوذة، من بلاد الزاب بالقرب من بسكرة⁽²⁾، وقال الحموي: "تهودة" بالفتح ثم الضمّ، وسكون الواو، والذال معجمة: اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية، لهم أرض تعرف بهم⁽³⁾.

ورد في كتاب "المسالك والممالك" نصّ يصف أحوالها وعمرانها، يقول صاحبه: "مدينة أهلة كثيرة الشار والنخل والزرع، وتهودا مدينة أولية، بنيانها بالحجر، ولها أموال كثيرة، وحوها رُبُصٌ قد خندق على جميعه واستدار بالمدينة... ونهرٌ يُصبُّ في جوفيّها من جبل أوراس، سُكَّانها العرب قومٌ من قريش... وفي المدينة بئرٌ لا تُنْزَح، أولية، وآبار كثيرة طيبة... وحواليها أزيد من عشرين قرية"⁽⁴⁾.

وفي هذه المدينة قُتل فاتح إفريقية "عقبة بن نافع" سنة 64 هـ / 683 م، ومن الآثار المادية التي كانت لا تزال موجودة فيها في القرن 5 هـ / 11 م "قبر عقبة" الذي أشار إليه البكري بقوله: "وقبر عقبة معروف بمدينة تهودا"⁽⁵⁾.

ومن المدن الأخرى التابعة لبلاد الزاب - والتي لا يسعنا في هذه الورقة البحثية التعريف بها - حسب رأي جغرافي العصر الوسيط، نذكر: مدينة "المسيلة" التي



(1) - نفسه، ج 2، صص 230-231.

(2) - نفسه، ج 2، ص 255.

(3) - الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 6.

(4) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 255.

(5) - نفسه، ج 2، ص 256.

استحدثها "علي بن حمدون الأندلسي" في عهد الدولة العبيدية (296-361هـ/908-971م)⁽¹⁾، ومدينة "أحه"، ومدينة "أربة" - آخر مدن الزاب⁽²⁾.

إنَّ مصدر هذه المعلومات كما هو مُوضَّح هي المصادر العربية الجغرافية، ويتَّضح ممَّا سبق من وصف للسمات الحضريَّة للمدن الأوراسية والزابية، وذكرٍ لمظاهر التمدن والعمران في الإقليمين ما يلي:

- للموقع الجغرافي دور كبير في تعمير القبائل البربرية لإقليمي الأوراس والزاب.

- إنَّ عمران وتمدُّن مجالي الأوراس والزاب قديم سابق للإسلام.

- بعد الفتح الإسلامي تظَّهَرت أغلب المدن الأوراسية والزابية بميزة المدينة الإسلامية في العصر الوسيط خاصة بعدما سكنها العرب.

- تغيَّرَ مجال مدن كل إقليم حسب العصور التاريخية والدول القائمة آنذاك.

- وجود نوعين من المدن في هذين الإقليمين: المدن الكبيرة والتي تعتبر كعاصمة وقاعدة للإقليم، والصغيرة المنتشرة في مجال كل إقليم.

- كثرة الطرق الرابطة بين المدن الكبيرة والصغيرة داخل الإقليمين وخارجهما.

- ظهور الأرباض والقرى حول المدن الأوراسية والزابية يؤكد ارتفاع عدد الساكنة وزيادة عدد المساكن والدور في هذه المدن في العصر الوسيط.

- أدَّت الحروب والهجرات إلى خراب العمران البشري (قتل الساكنة وتهديم

المدن) في الأوراس والزاب خاصة بعد القرن 5هـ/10م، فمثلا مدينة باغاية خرَّبت

(1) - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 85.

(2) - اليعقوبي، المصدر السابق، صص 190-191.

مرّتين: المرة الأولى من طرف الكاهنة في مرحلة الفتح، والثانية من طرف العرب الهلالية.

3. معالم عمران المدن الأوراسية والزابية في العصر الوسيط من خلال المصادر

العربية:

بعد تحديد مجال كل إقليم ووصف شامل للمدن، نتطرق في هذا العنصر بالتفصيل إلى معالم العمران بهدف رسم صورة لمباني كل مدينة في إقليم الزاب والأورس من خلال المصادر العربية التاريخية والجغرافية، وقد اخترنا أن تكون على شكل جداول.

الجدول رقم 1: الجوامع والمساجد

المصدر	النصوص التاريخية والجغرافية	المدينة
(البكري، ج 2، ص 255)	" بها جامع جليل، ومساجد كثيرة"	تهودة
(البكري، ج 2، ص 228 - 229)	"وداخل القصر جامع" "مصلّى العيد"	طبنة
(البكري، ج 2، ص 230)	"بها جامع ومساجد كثيرة"	بسكرة
(الورثياني ⁽¹⁾ ، ص 122)	قال الورثياني: " وقبره - أي عقبة - بالبسيط الذي تحت جبل أوراس الذي قتل به وهو مشهور يزار وعليه مسجد عجيب ... وفي مسجده مئذنة كبيرة عظيمة متقنة البناء وفي أعلاها عمود... وفي حجة سنة 96... وغالب	

(1) - الورثياني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيانية، اعتنى به: محمد خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت،

	من دخل المسجد من الحجاج يكتب خطه على أساطين المسجد وحيطانه ويكتب اسمه".	
--	--	--

الجدول رقم 2: الأسواق والفنادق

المدينة	النصوص التاريخية والجغرافية	المصدر
باغاية	"ولها ربض عليه سور والأسواق فيه، وكانت الأسواق قديماً في المدينة فنُقلت"	(ابن حوقل، ص 84)
تهودة	"أسواق وفنادق"	(البكري، ج 2، ص 255)
طبنة	"بها أسواق كثيرة"	(البكري، ج 2، ص 228)
بسكرة	"ذات أسواق"	(الحموي، ج 1، ص 422)
نقاوس	" فيها سوق قائمة ومعاش كثيرة"	(الإدريسي، ص 264)

الجدول رقم 3: الحمامات

المدينة	النصوص التاريخية والجغرافية	المصدر
بسكرة	"وحمامات"	(الحموي، ج 1، ص 422) (الحميري، ص 113) /

الجدول رقم 4: الأبواب

المدينة	النصوص التاريخية والجغرافية	المصدر
طبنة	"لمدينة طبنة من الأبواب: بابُ خاقان، مبنيٌّ بالحجر، عليه باب حديد سريّ، وباب الفتح: غربي باب حديد أيضاً، وباب تهوذا: قبليّ، عليه باب حديد، وهو سري أيضاً، والباب الجديد: حديدٌ أيضاً، وباب كُتامة: جوفي".	(البكري، ج 2، ص 228)
بسكرة	"لها من الأبواب: باب المقبرة، وباب الحَمَام، وباب ثالث"	(البكري، ج 2، ص 230)

الجدول رقم 5: الأسواق

المدينة	النصوص التاريخية والجغرافية	المصدر
---------	-----------------------------	--------

"عليها سور أزي من حجارة، ولها ربض عليه سور"	(ابن حوقل، ص 84)	باغاية (باغاي)
"كبرة مسورة..."	(المقدسي، ص 213)	
"مدينة كبرة عليها سوران من حجر، وربض عليه سور."	(الإدريسي، ص 276-277)	
"مدينة... عليها سوران من حجر، وربض عليه سور"	(الحميري، ص 76)	
"وهي مدينة مسورة"	(الحموي، ج 1، ص 422)	بسكرة
"وعليها سور"	(الحميري، ص 113)	
"ولها سور من طابية مرحلة"	(ابن حوقل، ص 85)	طبنة
"سورها اليوم من بناء المنصور أبي الدّوانق... وسورها مبني بالطوب"	(البكري، ج 2، ص 228-229)	
"خارج المدينة بإزاء باب الفتح سورٌ مضروبٌ على فحص فسيح يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة: بناء عمر بن حفص هزارد."		
"وهي مدينة مسورة... وعليها سور من تراب"	(الإدريسي، ص 263)	تهودة
"بنيانها بالحجر الجليل، وعليها سور عظيم"	(الحميري، ج 1، ص 142)	
"عليها سور من حجارة قديمة أزليّة"	(ابن حوقل، ص 91)	نقاوس
"عليها سور حصين من طوب"	(ابن حوقل، ص 85)	المسيلة

الجدول رقم 6: الحصون

المدينة	النصوص التاريخية والجغرافية	المصدر
باغاية	"إلى مدينة باغاية لجأ البربر والروم، وبها تحصنوا من عقبة بن نافع القرشي... هزمهم عقبة ولجأ"	(الحميري، ص 77)

	فلهم إلى الحصن...".	
(الحميري، ص 65)	"... فنزلت [الكاهنة] مدينة باغاي فأخرجت من بها وظنت أن حسان يريد حصناً يتحصن به".	
(الحميري، ص 66)	"... فوجهت [الكاهنة] البربر يقطعون الشجر ويهدمون الحصون".	
(الإدريسي، ص 264)	"ومنه إلى حصن بادس وهو في أسفل طرف جبل أوراس ثلاث مراحل وهو حسن عامر بأهله"	جبل أوراس
(الإدريسي، ص 263 - 264)	"فيها حصن مطل، فيه مرصد من البلد، ينظر إلى مجال العرب في بلادهم، ويتطلع منه إلى ما بُعد من الأرض"	دار ملول
(الإستبصار، ص 173)	"حواليها حصون كثيرة"	
(الإدريسي، ص 277)	"أما حصن بشر، فهو قلعة عامرة من أعمار بسكرة، وهو في ذاته حصن جليل ومقل جميل وله عمارات"	بسكرة
(الإدريسي، ص 264)	"حصن بسكرة... وهو حصن منيع في كدية تراب عال وبه سوق وعمارة"	
(الحميري، ص 387)	"لها حصن قديم عليه سور من حجر جليل ضخخم متقن البناء من عمل الأول".	طبنة
(اليعقوبي، ص 191)	"لها حصون كثيرة... ومنها إلى حصون تسمى برحلس وطلمة وحرور"	مقرة
(ابن حوقل، ص 91)	"حصن لطيف فيه رجال جلد..."	بلزمة

"بلزمة لمزاةة: حصن أولي...وفي قرأه حصون كثيرة"	(البكري، ج2، ص227)
--	--------------------

- الجدول رقم7: الخنادق

المدينة	النصوص التاريخية والجغرافية	المصدر
بسكرة	"هي مدينة مُسَوَّرة عليها خندق"	(البكري، ج2، ص230)
	"وخنادق"	(الحميري، ص113)

بناءً على ما تقدم ذكره فإن الدراسة تشمل مساحة جغرافية وزمنية طويلة، لذلك لم يكن هناك خيار أماناً سوى اتّخاذ بعض الكتب التاريخية والجغرافية كنماذج لأخذ إشارات عن التكوين المعماري لهذين الإقليمين في العصر الوسيط.

من خلال هذه الجداول نُؤكد على تنوع المعالم العمرانية في المدن الأوراسية والزراعية خلال العصر الوسيط، من: معالم العمارة المدنية الحضرية مثل: الحمامات التي ساهمت في حفظ الصحة العامة، والعمارة الاقتصادية التي تساهم في صيانة للمال كالأسواق، والعمارة الدينية التي عملت على حماية الدين مثل الجوامع والمساجد، والعمارة العسكرية الأكثر انتشاراً في الإقليمين - والتي كانت غايتها الحفاظ على الأمن و الاستقرار وسلامة الساكنة فأغلب مدن الأوراس والزاب كانت محاطة بأسوار وحصون وخنادق بالإضافة إلى تعدّد مداخلها - الأبواب كونها منطقة آهلة منذ التاريخ القديم.

خاتمة:

عالجنا في هذا الموضوع المعالم العمرانية الكبرى في إقليمي الأوراس والزاب من خلال الاستعانة بنماذج من النصوص المتنوعة مشرقية ومغربية تاريخية وجغرافية كمحاولة لرسم صورة واضحة المعالم لتمدّن الإقليمين، وخلصنا في نهاية هذه المداخلة إلى ما يلي:

- أثبتت هذه الدراسة أنّ أغلب المصادر التي أشارت إلى بعض جوانب العمران ذات منظور جغرافي عمراني - أي المدونة الجغرافية وكتب الرحلة، وهي التي يسهل من خلالها رصد الملامح العمرانية ومعرفة أنماط العمران خلال الحقبة الوسيطة.

- إنّ تاريخ عمران بلاد الأوراس والزاب من خلال المصادر العربية من الموضوعات المهمة كونها ترصد مظاهر العمارة انطلاقاً من نصوص تصف المدن.

- وُجد التراث المادي المعماري في المنطقة المدروسة قبل القرن الأول الهجري / 7م، ومجيء الإسلام أحدث تحولا عمرانيا ذا طابع إسلامي، وما تزال بعض الآثار العمرانية قائمة والتي تعود إلى الفترة القديمة أو الوسيطة.

وفي الأخير فإننا ندعو إلى الحفاظ على التراث المعماري الموجود في منطقة الأوراس والصحراء الشرقية كونه إرث حضاري يُساهم في بناء الذاكرة الجماعية للأمة الجزائرية ويعمل على تثبيت وحدتها وإبراز هويتها.

دراسة مخطوط كتاب اختصار الصباغ على شرح الزواوي على الوغليسيّة

الباحث في المخطوط أ. أحمد أبو بكر ضيف الجزائري

مقدمة:

تزخر الأمة الإسلامية بتراثها المخطوط الذي هو نتاج الحضارة العربية الإسلامية التي علّمت المسلمين كيفية إقامة الدين القويم وتسيير شؤونهم الدنيّة والدنوية، وإحياء للتراث الفقهي لأمتنا الإسلامية، فقد قام العلماء بالتأليف في جميع الفنون النقليّة والعقليّة وبقي هذا التراث محفوظاً في مكتبات وخزائن العالم إلى يوم الناس هذا، فبادرت عقول وفكر الباحثين بتحقيقه وتنقيحه وإخراجه ونفض الغبار عنه في شتى العلوم والفنون، ونخصّ بالذكر هنا مخطوطات علماء الفقه الإسلامي الذين علّموا المسلمين كيفية تسيير أمور حياتهم في الدّنيا والآخرة:

تفقه فإنّ الفقه أفضل قائد	إلى البر والتقوى وأعدل قاصد
وكن مستفيداً كل يوم زيادة	من الفقه وأسبح في بحور الفوائد
فإنّ فقهياً واحداً متورعاً	أشدّ على الرحمن من ألف عابد

والفقه هو الفهم لأحكام الشريعة من أدلتها التفصيلية وفي عرف الفقهاء خطاب الشّارع الحكيم المتعلقة بأفعال العباد الحسية والمعنوية حيث يهدف الفقه لمعرفة المخلوق بخالقه وعلاقته بسائر المخلوقات في هذا الكون الفسيح والحكمة تقول: فأين كانت المصلحة فثمّ شرع الله، والفقه هو الذي يعرفنا أمور ديننا وحياتنا اليومية من معاملات وعبادات، وقد قال النبي ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقه في الدين).

ومن خلال هذا الحديث الشريف الذي سطرّ للمسلمين تعليم دينهم أنّه خير شيء هو الفهم في الدّين، فبادر العلماء بالاهتمام بعلم الفقه والتّدوين والكتابة

والتصنيف فيه، ارتأينا وبادرنا نحن إلى تحقيق هذه المخطوطة في علم الفقه على مذهب إمام المدينة الإمام مالك - رحمه الله - وهو: "اختصار عمدة البيان في معرفة فرائض الأعيان" للشيخ العلامة أبو زيد عبد الرحمن الصَّبَاغ الذي اختصر فيه كتاب الشيخ العلامة أبو محمد بن علي بن عبد الكريم الزَّواوي المغيلي والذي سماه "عمدة البيان في معرفة فرائض الأعيان"، وهو على المتن المسمى بـ: "المقدمة الوغليسية" المنسوبة لأبي زيد عبد الرحمن الوغليسي البجائي، وقد بيّن الشيخ الصَّبَاغ سبب اختصاره لهذا الكتاب حيث قال: (... فطلب مني شيخنا وبركاتنا سيدي يحيى - العيدلي البجائي - المشار إليه فيما تقدّم أن اختصره اختصاراً سالماً من إكثار العلل والاختصار المخلّ، فكان ما طلب من النّظر السّديد والرأي الرّشيد، فأجبتّه وإجابته حقّاً ومساعدة مراده غنماً وسعداً...)، وقد وضّح وبيّن الشيخ الصَّبَاغ سبب الاختصار مرة أخرى حيث قال: (... وقد تعرض - رحمه الله - أي الشيخ عبد الكريم الزَّواوي - لشرح هذا الكتاب متحريراً لنقل الصّواب، لكن - رحمه الله - بسط الكتاب يداً وأورده بالنّقل زنْداً، وربما كان ذلك داعياً إلى العلل فيقل الانتفاع به لاسيّما وقد اعتنى بقراءته في وقتنا جماعة من المرابطين، ومن الطلبة المبتدئين، وقد اعذر - رحمه الله - عن هذا الإطناب بأنّه فقير عادم للكتب...).

ومن خلال تحقيقنا تبين لنا أن الشيخ الصَّبَاغ كان اختصاره مُلماً ومبسّطاً وبسيطاً حيث يسوغ المسائل الفقهية ويحررها تحريراً فقهياً ويرجح الأقوال ويذكر الخلاف مع ذكر بعض أقوال المذاهب الأخرى كأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد ابن حنبل، معتمداً في ذلك على كثير من كتب المذهب المالكي التي ذكرها في اختصاره هذا مع التّبيين والتّوضيح والوعظ والإرشاد. فجاء اختصاره هذا مهماً لقراء الفقه المالكي والمدرّسين له، فنسأل الله عزّ وجلّ أن يجعل عملنا وتحقيقنا هذا فائدة وإضافة جديدة

لكتب وتراث الفقه المالكي وخصوصاً أنّه عالم من علماء بجاية من أرض الجزائر، كما أننا كذلك بادرنا إلى تحقيق الكتاب الذي اختصره الشيخ الصّباغ على الشيخ أبو محمد بن علي بن عبد الكريم الزّواوي المغيلي الذي سبق ذكره وذلك على نسختين خطيتين وفعلاً فقد وجدنا كتابه كبير الحجم يحتاج إلى وقت لتخريج آياته وأحاديثه وأقواله وأشعاره وكتبه وسبب كتابته وشرحه للمقدّمة الوغليسية التي لها شهرة كبيرة في أوساط علماء المذهب المالكي.

وأخيراً ادعوا الله عزّ وجلّ أن يمنحنا التّوفيق ويجعلنا وإياكم من أهل التّحقيق والتّحقيق، وصلى اللّهم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً إلى يوم الدين.

أولاً: الكلام على الوغليسية وترجمة مقدّمها واعتناء العلماء بشرحها.

ثانياً: في الكلام على اختصار شرح الوغليسية وترجمة مؤلفها ومنهج المؤلف واختصاره.

ثالثاً: في الكلام على الشرح الكبير وترجمة مؤلفه، وسبب شرحه للوغليسية.

رابعاً: في وصف النّسخ المعتمدة في التّحقيق وعملنا ومنهجنا في التّحقيق ونماذج من الألواح الأولى والأخيرة للنسخ الخطية المعتمدة في التّحقيق.

أولاً: الكلام على الوغليسية وشهرتها وترجمة صاحبها، واعتناء العلماء

بشرحها.

1. ترجمة الشيخ عبد الرحمن الوغليسي⁽¹⁾ صاحب "متن الوغليسية في الفقه

المالكي" (ت 786هـ)

اعتماداً على المعلومات التاريخية للبحث عن ترجمته فإنّ المصادر وكتب الطبقات والتراجم تكاد تنعدم وذلك لعدم معرفته معرفة دقيقة حول نشأته ورحلاته وتآليفه ومساهمته في الحياة الاجتماعية والعلمية.

نسبه:

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله الوغليسي البجائي الزّواوي نسبته إلى قبيلته التي تسمى آث وغليس جنوب مدينة بجاية.

مولده:

ولد عبد الرحمن الوغليسي في بداية القرن الثامن الهجري نحو عام 702هـ حيث كان معاصراً للدولة الحفصية التي حكمت بجاية في وقته.

حث ذاع صيته وذلك بسبب تواجده في حاضرة علمية سواءً من الدولة الحفصية أو مدينة بجاية التي اكتسبت شيوفاً معروفون وكانت مدية بجاية مهبط العلماء، حيث درس مترجمنا على أحد الشيوخ الكبار وهو العلامة أحمد بن إدريس

(1) - ينظر ترجمته في المصادر والمراجع: الإمام أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي آثاره وأراؤه افقهية جمع ودراسة حفيظة بلميهوب، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج ص 142، والوفيات لابن قنفذ ص 372، وشجرة النور الزكية 1/ 237، وتعريف الخلف برجال السلف ص 73، ومعلمة الفقه المالكي ص 130. ومعجم المؤلفين 5/ 123، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان 2/ 250، ومعجم أ' لام الجزائر ص 83، ومعجم مشاهير المغاربة ص 550، وكشف الظنون 2/ 1166. وفهرست معلمة التراث الجزائري 2/ 134، والدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي ص 319.

الإيلولي (ت 760هـ)، كما درس سيدي أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي مع أكابر العلماء في وقته وزمانه مثل محمد بن عبد الصمد المشذالي (ت 864هـ) والد بلقاسم المشذالي (ت 770هـ)، وأبو علي المشذالي (ت 781هـ)، وعائلة المشذالة معروفون بعلمهم وأدبهم وتصانيفهم، وكذلك أبو العباس الغبريني (ت 704هـ) وهو صاحب كتاب "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" وغيرهم الكثير.

شهرة الوغليسي:

انتشرت شهرة أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي من خلال متنه في الفقه المالكي الذي تصدى لشرحه ثلثة من العلماء كالشيخ العلامة عبد الكريم الزواوي والذي سمى كتابه بـ "عمدة البيان في فرائض الأعيان". وقد شرحه أيضًا العلامة زروق البرنسي (ت 846هـ)، وشرحه أيضًا العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ)، وغيرهم الكثير، وكذلك اشتهر من خلال فتاويه التي ذكرت في كتب النوازل مثل نوازل "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" لمحمد بن أبي عمران المازوني (ت 833هـ)، وكذلك نوازل "المعيار المغرب والجامع العرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب" لأبي العباس أحمد الونشريسي (ت 914هـ). و"الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من فتاوى جبال غمارة" للزياتي (ت 1055هـ) وذكره كذلك الشيخ أبو محمد بن القاسم الغرناطي (ت 741هـ) في نوزاله، كما ذكره الثعالبي (ت 876هـ)، أيام دخوله مدينة بجاية حيث قال:.... فلقيت بها الأئمة المقتدى بهم في العلم أصحاب سيدي عبد الرحمن الوغليسي متوافرين وحضرت مجالسهم....

وقال أيضًا في كتابه "الجامع":... ولقيت بها الأئمة المقتدى بهم في العلم والدين والورع أصحاب الشيخ الفقيه الزاهد أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي وهم يومئذ متوافرون....

شيوخه:

تلقى الشيخ أبو زيد عبد الرحمن العلم ببجاية على يد علماء وشيوخ كبار منهم:
- العلامة أبو العباس أحمد بن إدريس وهو من العلماء الأجلاء حيث أخذ عنه الوغليسي.

- أحمد بن عيسى البجائي.

أشهر تلامذته:

- أبو محمد علي بن عبد الكريم الزواوي المغيلي (القرن السابع والثامن الهجري) اعتبرته من تلامذته لأنه شرح الوغليسية في وقته.

- علي المنجلاتي (ت 815 هـ).

- بلقاسم المشدالي (770 هـ).

- محمد الهواري (ت 751 هـ) عالم وهران

- الحسن بن مخلوف الراشدي.

مؤلفاته:

- مقدّمة الوغليسية

- رسالة الإيحاء والإسلام⁽¹⁾

وفاته:

كانت وفاة سيدي أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي سنة 786 هـ.

(1) - تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ج 2 ص 250 ذكرها أنها موجودة في القيروان - تونس -

2. اعتناء العلماء بشرح متن الوغليسية في الفقه المالكي:

اهتم كثير من علماء المالكية بشرح متن الوغليسية لأبي زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي حيث قلنا أنها لها شهرة كبيرة في أوساط علماء الفقه المالكي وقد اهتم العلماء بهذا المتن من بينهم:

الأول: شرح الشيخ أبو محمد بن علي بن عبد الكريم الزواوي والذي سَمَّى شرحه بـ "عمدة البيان في معرفة فرائض الأعيان"، وقد قال في ديباجة شرحه: (... الحمد لله المبدئ المعيد المصرف لجميع خلقه فيما يريد السابق حكمه وقضاؤه فيهم بالشقي والسعيد، فله الشكر على ملة الإسلام والتوحيد شكرا يقيد النعم عن الزوال ويمنعها من التغير وتبدل الأحوال ويتغني به المزيد من الأفضال، وصلى الله على سيدنا محمد وآله خير آل صلاة دائمة بالغدو والآصال والرضى خصوصا عن الخلفاء الراشدين وعموما عن باقي الصحابة وتابعهم إلى يوم الدين أمّا بعد:

وفقنا الله وإياكم لما فيه رضاه وغفر لنا ولكم من الخطايا والمآثم ما قر علمه وأحصاه لا موجود إلا هو ولا موجود لنا سواه، فقد سبق من كلام علمائنا رضي الله عنهم ما يغني عن كلام مثلي، ولكن حملني على هذا التقييد أمور:

أحدها: ما سبق به علمه وأمضاه إذ لا قول ولا عمل إلا وقد قضاه.

الثاني: الدعاء الصالح من الإخوان وفي مثل ذلك غرض لي، سألتكم بالله ثم بأحمد شفيع الوري إلا ما هو تم لنا المتولى وعساه بغفران يمن ورحمة ويسكننا من جنة الخلد في أعلى، فإنّ من مولانا الكريم بفضله عظيم علينا وهو أهل لما أولى).

كما بيّن الشيخ عبد الكريم الزواوي سبب كتابته لهذا الشرح الكبير حيث قال: (... ممّا ينبغي لكل ذي عقل سليم ومتمسك بمنصف قويم وغايته، وقد وقع عدم الابتهال لكثير من الناس إلا من ساعدته العناية ومصدق ذلك قوله عليه الصّلاة

والسلام: (من سأل بالله ولم يجب جاء يوم القيامة ووجهه عظم بلا لحم)، وقد نقل ابن رشد والشيخ أبي الحسن الصغير قضية الخضر عليه السلام أول كتاب التفليس وحاصلها أن الخضر عليه السلام سئل بالله في قانيق فلم يجده فمكن نفسه من البيع لما سئل بالله ، ثم كان عتقه من أجل السؤال بالله وذلك أن مشتريه لما رأى من أحواله ما خرج عن مقدور البشر سأله بالله عن سبب بيعه فقص عليه الخبر فاعتقه.

الثالث: ما رأيته من اضطرار المريد من الإخوان إلى معرفة فرائض الأعيان إذ بمعرفتها مع بعد قضاء الله يرتجى الكون في الجنان، بل وكذا كثير من الطلبة، أيضاً فإنهم يشتغلون بتعليم العربية والحساب وغيرهما مما هو فرض كفاية قبل الاشتغال بفرض العين، ولقد صدق بعض الشيوخ حيث قال ما معناه مساعفة المعلم للمتعلم على الاشتغال بفرض الكفاية قبل التحصيل فرض العين من الاشتغال مما لا يعني، وقد قال ﷺ: (حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) ولا سيما من الإخوان من بعدت داره وذهب في البطالة زمانه فلا شيخ يبصره ولا كتاب له ينظره وإن تيسر فربما لا يتيسر كل الكتب التي منها نقلنا ولا مكان الذي به وصلت فله الحمد وله الشكر فيما أمتنّ به من ذلك علينا فندبني ذلك كله إلى تقييد أبين فيه جملة مما يلزم المكلف من فرائض الأعيان على حسب الإمكان ، ثم رأيت المقدمة الوغليسية المنسوبة للإمام العالم العلامة الورع الزاهد التي بقيت آثاره وأنواره ساطعة نائرة السيد أبو زيد عبد الرحمان الوغليسي قدس الله روحه ونور ضريحه وافيت بالمقصود إذ لم يذكر فيها إلا ما يلزم المكلف معرفته مما يعمّ المكلف، ولهذا من فهمها وحفظها وعمل بمقتضاها فهو بخير في دينه، فاستخرت الله تعالى أن يوفقني إلى شرح يكون لها كالتكميل وافياً بالمقصود إن شاء الله تعالى وأضفت كلامي إلى كلامه رغبة مني في إتقانه ونفاده ببركاته رضي الله عنه ، ثم رأيت من المصلحة أن أذكر فيه الأصل المشروح بلفظه معبراً عنه

يقال لأني وجدت أكثر نسخها غير صحيحة وعلى الناسخ لهذا الشرح أن يكتبه بقلم مخالف في الغلظ والرقّة لكلام المؤلف ليحصل المرام والمقصود على التمام، فسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعل ما نسعى فيه جميعنا من هذا الشرح خالصا لوجهه مبلغا لمرضاته لا رب لنا سواه.

كما حدّد الشيخ عبد الكريم الزّواوي الكتب التي اعتمد عليها وهي كثيرة حيث يقول: (... وقد اعتمدت على كتاب " الذخيرة " للقرافي لأنّه قال اعتمدت في النقل على كتب خمسة " المدونة " ، و " الجلاب " ، و " الجواهر " ، و " التلقين " ، واعتمدت على " تلخيص " الحضرمي وهو عجيب، وقد قال أيضًا: إني اقتضيت جميع ما تيسر لي من ستة من الدواوين معلومة مشهورة وفي العلم والتحري مذكورة كتاب " النوادر " لأبي محمد بن أبي زيد الحائز قصب السبق والتأييد، و " المتقى " للإمام القاضي الباجي أبي الوليد، وكتاب الإمام الأجل أبي عبد الله محمد بن يونس ذي التحري بالرأي السديد، وكتاب " المقدمة " للإمام أبي عبد الله محمد بن رشد المرشد الرشد، وكتاب " القبس " للإمام أبي بكر بن العربي المقدم في فنون العلوم والجديد، فكفونا مؤنة هذه الأمهات فإنّها لا تيسر لكل أحد فجزاهم الله خير المنى وجعل مأواهم إلّا ضلّ ما يتسنى، واعتمدت أيضًا على " شرح التلقين " للإمام المازريّ وعلى غير ذلك مما ذكرنا مضيفا الأقوال إلى قائلها ما أمكن ليعلم النّاطر التفاوت بين القولين بحسب القائلين بخلاف ما يفعله بعض الأصحاب فيقول في المسألة قولان من غير تعيين فلا يدري الائتمان من يجعل بينه وبين الله تعالى، ولعلّ قائلها واحد.

كما أن الشيخ عبد الكريم الزّواوي أضاف على متن الوغليسية باين وهما: باب الأذان وباب الزّكاة، وباب الحجّ لكن باب الحجّ لم يتطرق له عبد الكريم الزّواوي بالشرح وتبعه ابن الصّبّاغ في اختصاره له.

الثاني: شرح العلامة أحمد زروق البرنسي (ت 899 هـ)⁽¹⁾ الذي يقول في ديباجة كتابه: (...الحمد لله حمد عاجز عن حمده إلا بحمده، والشكر له على عظيم نعمه وعظيم رفده، وأستعينه في مبدأ الأمر وقصده، وأستغفره من هزل العمل وجدّه والصّلاة والتّسليم على محمد نبيّه وعبدّه، وعلى آله وأصحابه وكافة أهل ودّه أمّا بعد: فهذا إن شاء الله مختصر على "المقدّمة الوغليسية" نذكر فيه ما تيسّر من معانيها ومناحيها التقديسية حسب الوُسع والتيسير، وقدّر ما انتهى إليه فهمي القاصر وعلمي القصير، ملتزمًا ما يحتاج إليه الفقير النَّاصح، وعاملاً على ما لا بدّ منه من الأمر الواضح، وللفقيه العذر، ومن فضله القبول، وعلى الفقير تحقيق ما تحويه من معقول ومنقول، وهذا حين أبتدئ وعلى الله أعتد وإلى الله أستند ومن فضله أستمّد وهو حسبنا ونعم الوكيل).

الثالث: وله أيضًا "تقييد من شرح الوغليسية" لأحمد زروق البرنسي السابق الذّكر يوجد في الخزانة الحسنية النّاصرية⁽²⁾.

الرّابع: اختصار العلامة الشيخ عبد الرحمن الصّبّاغ على شرح الشيخ عبد الكريم الزّواوي السّابق الذّكر والمسمى بـ "عمدة البيان في فرائض بعض الأعيان"، وهذا الأخير وهو الذي تقدمه بين يدي القارئ محققاً وقد بيّن فيه الشيخ عبد الرحمن سبب اختصاره لهذا الكتاب حيث يقول: (...أنّه لما كان الكتاب المسمى بـ: "الوغليسية" الذي وضعه العلامة العلم الرّاسخ في مرضات الله القديم، الذي عمّت

(1) - حققه الشيخ محفوظ بوكراع والشيخ عمّار بسطة وطبع في دار ابن حزم سنة 1431 هـ بيروت لبنان.

(2) - ينظر الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي ص 176 - مؤلفات المالكية على الوغليسية.

أنواره ولم تزل ظاهرة آثاره، الصالح الزاهد المتبع، سيدنا أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي برّد الله ضريحه، واسكنه من أعلى الفردوس فسيحه، مشتملاً على المهم من أمور الديانات مخلصاً من شوائب الاختلافات، بادية أسرار، مشرقة أنواره، أعشى بقراته والعمل بما فيه من نور الله بصيرته وحسن سيرته، فكيس من حلل أنواره، وظهر عليه من بركت أسرار، شيخنا المشتهر بالعلم بين الأنام الذي ألف الله بركاته بين قلوب العباد، وأحیی بركاته ما اندرست أعلامه من البلاد وظهرت بركاته على من لاذ بحماه، وتحصن بحمد الله من الغين من تمسك بعراه سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا سيدنا أبو زكرياء يحيى بن الشيخ المقدس المرحوم سدي أبو العباس أحمد العيدلي أعلا الله في الدارين قدره ورفع ذكره، ومنهم الشيخ الصالح الورع سيدنا أبو محمد عبد الكريم بن علي الزواوي تغمده الله برحمته وأسكنه أعالي جنته، وقد تعرض - رحمه الله - لشرح هذا الكتاب متحريراً لنقل الصواب، لكن - رحمه الله - بسط الكتاب يداً، وأورده بالنقل زنداً، وربما كان ذلك داعياً إلى العلل، فيقل الانتفاع به لاسيما وقد اعتنى بقراته في وقتنا جماعة من المرابطين، ومن الطلبة المبتدئين، وقد اعذر - رحمه الله - عن هذا الأطناب بأنه فقير عادم للكتب، والشيخ فجمع هذا الجمع لينتفع به، فطلب مني شيخنا وبركاتنا سيدي يحيى المشار إليه فيما تقدّم أن أختصره اختصاراً سالماً من إكثار العلل والاختصار المخلّ، فكان ما طلب من النظر السديد والرأي الرشيد، فأجبتة وإجابته حتماً، ومساعدة مراده غنماً وسعداً...

الخامس: شرح الوغليسية لمحمد بن يوسف بن عمر بن شعيب عبد الله الحسني السنوسي (895هـ)، وهذا الشرح كما قال صاحب "نيل الابتهاج بتطريز

الديباج": (أنه لم يكمله)⁽¹⁾، وقال الملاي تلميذه: وشرح منها شيئاً يسيراً ولم يكمله رضي الله عنه لكثرة الشواغل التي تشغله عن إكماله وإكمال غيره.

السادس: شرح على الوغليسية لأبي علي الحسين بن علي بن طلحة الشوشاوي السملالي (ت 899هـ).

ثانياً: في الكلام على اختصار شرح الوغليسية وترجمة مؤلفها ومعها نظرة في منهج المؤلف في سبب اختصاره، ونسبة الكتاب لمؤلفه والمصطلحات التي استعملها الصباغ في اختصاره لشرح الوغليسية.

1. ترجمة الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الصباغ⁽²⁾ (بعد 875هـ)

لم تسعفنا كتب التراجم بترجمة الشيخ عبد الرحمن الصباغ سوى ما ذكره الشيخ الحسين الورثيلاني في رحلته "نزهة الأنظار"، بيد أنه لم يذكر عنه سوى معلومات قليلة لا تشفي غليل الباحث عن ترجمة الصباغ.

والظاهر أن الشيخ عبد الرحمن الصباغ نشأ في منطقة بني وغيليس - جنوب بجاية - وأخذ العلم عن الشيخ الولي يحيى بن أحمد العيدلي ت (881هـ) وذلك بزوايته الشهيرة ببلدة ثُمُقرة⁽³⁾ وقد أثنى المترجم على شيخه ثناء عظيماً، قال - رحمه الله -: (شيخنا المشتهر بالعلم والصلاح بين الأنام... سيدنا ووسليتنا إلى ربنا سيدي أبو

(1) - ينظر نيل الابتهاج 2/ 260.

(2) - ذكر في المصادر والمراجع التالية: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ص 8، وفهرست معلمة التراث الجزائري ج 3 ص 34، وشوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار لوظيفة الشيخ العارف بالله النبراس المختار ص 33، والإمام أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي آثاره وآراءه الفقهية ص 135.

(3) - ثُمُقرة: بلدة تبعد عن بلدة أقبو بنحو 37 كلم - ولاية بجاية - الجزائر -

زكرياء يحيى بن الشيخ المقدس المرحوم أبي العباس أحمد العيدلي، أعلى الله في الدارين مقامه، ورفع ذكره⁽¹⁾.

ومن مشايخ الشيخ الصَّبَّاح: العلامة أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (786هـ / 875هـ) والظاهر أنه أخذ العلم عنه براويته بحاضرة الجزائر، قال الشيخ الصَّبَّاح: (وسمعت شيخنا ومولانا الشيخ العالم الصَّالح سيدي عبد الرحمن الثعالبي - رحمه الله - في أواخر ذو القعدة سنة خمس وسبعين وثمان مائة يقول...) ⁽²⁾

ومن مشايخه كذلك الشيخ أبو محمد بن علي بن عبد الكريم الزَّواوي (كان حيًّا سنة 820)، وذكر هذا في كتابه المختصر الذي نقوم بتحقيقه حيث يقول الصَّبَّاح في مختصره هذا: قال شيخنا عبد الكريم...

ومن مشايخه أيضًا الشيخ يحيى العيدلي ⁽³⁾ (ت 881هـ) وقد ذكر هذا في ديباجة مقدمته في اختصاره لكتاب الشيخ عبد الكريم الزَّواوي على الوغليسية حيث قال: (... سيدنا أبو زكرياء يحيى بن الشيخ المقدس المرحوم سيدي أبو العباس أحمد العيدلي أعلا الله في الدارين قدره ورفع ذكره... فطلب مني شيخنا وبركاتنا سيدي يحيى المشار إليه فيما تقدم أن أختصره اختصاراً سالماً من إكثار العلل والاختصار المخل) ⁽⁴⁾.

(1) - مخطوطة "اختصار عمدة البيان" اللوح 8.

(2) مخطوطة "اختصار عمدة البيان" اللوح 61.

(3) - ينظر شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار لوظيفة الشيخ العارف بالله النبراس المختار ص 63 / 15.

(4) - وينظر أيضًا مقال ألقى في الملتقى الأول في حول علماء بجاية بتاريخ 3 / 11 / 1996 م مداخلة بعنوان: حياة الشيخ يحيى العيدلي للشيخ الطاهر أيت علجان.

ولا نستبعد أنّ المترجم أيام دراسته على الشيخ العيدلي بزوايته بلدة ثمقرة قد
تزامن مع بعض تلامذة شيخه المذكور ومنهم:

العلامة أحمد زروق البرنسي (846هـ / 899هـ).

الشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري (963هـ).

الشيخ الولي أحمد بن يوسف الملياني (840هـ / 931هـ)، وهذا الأخير من
العلماء كذلك له تلميذ يعرف بابن الصَّبَاغ القلعيّ وهو غير هذا الذي نترجم له.
ولا ريب أن الشيخ عبد الرحمن الصَّبَاغ تصدّر للتدريس بزواي شيخه يحيى
العيدلي.

ولمّا رأى الشيخ العيدلي وقور علم تلميذه الصَّبَاغ طلب منه اختصار شرح
الشيخ عبد الكريم الزّواوي على متن الوغليسية المسمّى: "عمدة البيان في معرفة
فرائض الأعيان".

قال الشيخ الصَّبَاغ بعد ذكره وثنائه على شرح الشيخ عبد الكريم بن علي
الزّواوي على الوغليسية: (... فطلب مني شيخنا وبركاتنا سيديّ يحيى المشار إليه فيما
سبق أن اختصره اختصاراً سالماً من الإكثار المملّ والاختصار المخلّ فكان ما طلبه من
النّظر السّديد والرّأي الرّشيد فأجبتّه وإجابته حَتَمٌ ومساعدة مُراده غنم....)⁽¹⁾

وأما تأليف الشيخ عبد الرحمن الصَّبَاغ فلم يرد ذكرها سوى في الرحلة
الورثيلانية، ولا ريب أنّه ترك تأليف عديدة يدلّ على ذلك قول الشيخ الحسين
الورثيلاني (الشيخ الولي الصّالح ذو التّصانيف المفيدة سيدي عبد الرحمن

(1) - اختصار عمدة البيان اللوح 2.

الصَّبَاغ...⁽¹⁾ وقوله أيضًا (أَمَّا سَيِّدِي عَبْد الرَّحْمَنِ الصَّبَاغُ فَتَأْلَفُهُ تُنْبِئُ عَنْهُ، وَكَلَامُهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الشَّانِ وَالتَّصْرِيفِ، وَهُوَ مِنَ الْقَرْنِ الثَّاسِعِ)⁽²⁾.

ولا ريب أنَّ أشهر تأليف المترجم:

- مختصر عمدة البيان في معرفة فرائض الأعيان، وقد ذكرناه سابقاً، وهو الذي نقدّمه اليوم محققاً للقراء الكرام.

- اختيار اللباب في أربعين حديثاً وهو يوجد ضمن مجموع في المسجد النبوي الشريف تحت رقم 80 / 35 ومعها كتابه الذي نقوم بتحقيقه مختصر عمدة البيان في شرح فرائض الأعيان، ويقول في هذه التأليف: (.. فَإِنِّي لَمَّا وَقَفْتُ عَلَى الْكَلَامِ الطَّيِّبِ وَاسْتَمَطَرْتُ سَحَابَ غَيْثِهِ الطَّيِّبِ أَلْفَتْ فِيهِ أَرْبَعِينَ حَدِيثًا،... هَذِهِ الْوَرَقَاتُ وَاسْمُهَا: اخْتِيار اللباب وذلك لكثرة دورانها على اللسان وعظيم ما يحتاج إليه الإنسان والله تعالى هو المسئول وهو خير مأمول...)⁽³⁾

وذكر الشيخ الحسين الورثياني تأليفاً آخر للمترجم وهو: مختصر شرح البردة لابن مرزوق التلمساني، قال الورثياني (الشيخ الولي الصالح ذو التصانيف المفيدة سيدي عبد الرحمن الصَّبَاغُ شارح الوغليسية، وقد شرح البردة أيضاً بأن اختصر شرح الإمام ابن مرزوق التلمساني عليها بعلوم سبعة⁽⁴⁾، ورثاه عند موته بقصيدة عظيمة)،

(1) - نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ص 8.

(2) - اختصار عمدة البيان اللوح 27.

(3) - يبدو أن مفهرس مخطوطات المسجد النبوي الشريف لم ينتبه إلى مختصر عمدة البيان في شرح فرائض الأعيان للشيخ عبد الرحمن الصَّبَاغُ المجموع ضمن اختياراته الحديثية.

(4) - المقصود بالعلوم السبعة هي: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع.

والمقصود بشرح البردة: هو كتاب: إظهار صدق المَوَدَّة في شرح البردة للعلامة أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن مرزوق التلمساني (842 هـ).⁽¹⁾

وللمترجم مرثية جلييلة في شيخه يحيى العيدلي ذكرها الشيخ الورثياني أيضاً قال: (ورثاه عند موته بقصيدة عظيمة)⁽²⁾، والمرثية ذكرها الدكتور محمد الشريف قاهر - رحمه الله - والدكتور إدير مشنان - حفظهما الله تعالى - في تحقيقهما لوظيفة ومناقب سيدي يحيى العيدلي - رحمه الله -⁽³⁾، حيث قالوا: أنها تتكون من 91 بيتاً تضمنت مادة تاريخية ومعلومات حول حياة شيخه السابق الذكر، وهذه نماذج من مرثية الشيخ عبد الرحمن الصَّبَّاح:

يُلاطِفُنِي لُطْفَ المَحَبِّ حَبِيْبُهُ	مُغَاذِلَةً مِنْهُ لِقَصْدِ المَوَدَّةِ
نَسِيتُ بِهِ أَهْلِي وَرَهْطِي وَمَنْ بِهِ	كُلَّيْتُ حَيَاتِي قَبْلَ تِلْكَ الْمَسَرَّةِ
وَقُلْتُ كَمَا قَالَ الَّذِي حَلَّ جَنَّةً	أَيَّا لَيْتَ يَعْلَمُونَ كِرَامَتِي

وقال الشيخ عبد الرحمن الصَّبَّاح وهو يتذكر تلك الرحلات المتكررة إليه صيفاً وشتاءً وكلما رحل إليه طلبته استقبلهم بكل المحبة والترحاب حيث يقول:

أَتَيْنَاهُ أَحْيَانًا مُشَاءً عَلَى الثَّرَى رَحَلْنَا إِلَيْهِ فِي مَصِيفٍ وَشْتَوَةٍ⁽⁴⁾

(1) - نزهة الأنظار ص 8

(2) - نزهة الأنظار ص 8

(3) - ينظر: شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار لوظيفة الشيخ العارف بالله النبراس المختار ص

(4) - ينظر شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار لوظيفة الشيخ العارف بالله النبراس المختار ص

وذكر الشيخ عبد الرحمن الصَّبَاغ من كرامات شيخه الشيخ سيدي يحيى العيدلي
البجائي ضمن هذه المِثْثَة:

يكاشفُ الأمر الذي قد كتمْتُهُ فيبديه بغير رويّة
ويُخبرُ بالأمر المُهمِّ وإنْ خَفَا فيأتي به التعريف من غير فِثْرَة⁽¹⁾

ويقول أيضًا في شيخه سيدي يحيى العيدلي:

أتى بعدما غلب الضلالُ على الورى وأصبحت الدّنيا دُجى في دُجّة
وبعد فسادِ الدّين والنّاس في عمى حيارى فلا يُرجى لهم بُرءٌ علّة

ويقول أيضًا:

أناكم غياثُ جامعٍ لشتاتِكُمْ يُقيمُ الهدى حقًا ويُحيى الشريعة
ويُمنّو ضلالةَ الجهالة والعمى وينفي ولايةَ الجور في كلّ فجوة⁽²⁾

ومّا يميز شخصية المترجم أنّه رائد من رواد اختصار الشّروح وهذا منهج قلّ
من نهجه من العلماء.

هذا ما وقفت عليه من ترجمة الشيخ عبد الرحمن الصَّبَاغ والله الموفق للصّواب
والهادي إلى سبيل الرّشاد.

(1) - ينظر شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار لوظيفة الشيخ العارف بالله النبراس المختار ص

(2) - ينظر شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار لوظيفة الشيخ العارف بالله النبراس المختار ص

2. المصطلحات التي استعملها الشيخ الصباغ في مختصره على عمدة البيان في

معرفة فرائض الأعيان

قال (المصنّف): يقصد به متن الشيخ عبدالرحمن الوغليسي.

علي: علي بن زياد تلميذ مالك وأحياناً يطلق عليه ابن زياد.

أبو إسحاق: يطلق على ابن شعبان.

ابن أبي زيد: أبو محمد عبد الله القيرواني.

الجلّاب: في كتابه التفريع.

النكت: هو النكت والفروق للصقلي.

ابن القصار: أبو الحسن علي بن عمر قاضي بغداد وكتابه "عيون الأدلة في

مسائل الخلاف".

ابن العربي: هو القاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي. القبس أو المسالك.

القاضي عياض: في كتابه: التنبيهات المستنبطة، أو: المعلم بفوائد مسلم، أو في

قواعده.

القاضي أبو محمد: عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي.

الباجي: أبو الوليد سليمان بن خلف صاحب كتاب "المنتقى".

محمد: محمد بن مواز صاحب الموازية.

الأهري: أبو بكر.

أبو عمران: هو الفاسي نزيل القيروان.

الصائغ: عبد الحميد شيخ المازري.

ابن بشير: يقصد به كتابه "التنبيه على مبادئ التوجيه".

المازري: في كتابه "شرح التلقين" و"المعلم بفوائد مسلم".

ابن شاس: يقصد كتابه "عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة" ويسميه اختصارًا "الجواهر".

العتبية: المستخرجة لأبي عبد الله العتبي الأندلسي.

الأمهات: المدونة.

المدونة: يقصد بها التهذيب في اختصار المدونة للبراذعي، وكذلك الجامع لمسائل المدونة لأبي بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي.

السليمانية: لسليمان بن سالم القطان المعروف بابن الكحالة.

الزروق: زروق البرنسي في كتابه "شرح رسالة أبي زيد القيرواني"، وأحيانًا "شرح الوغليسية"، وأحيانًا شرح المقدمة القرطبية.

خليل: في كتابيه المختصر والتوضيح.

ابن يونس: في كتابه الجامع لمسائل المدونة.

ابن عرفة: في كتابه "المختصر الفقهي".

ابن الحاجب: في كتابه "جامع الأمهات".

ابن ناجي: التنوخي في "شرحه على الرسالة" أو "شرح الجلاب".

البيان: هو "البيان والتحصيل" لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي.

اللخمي: في كتابه "التبصرة".

المبسوطة: ليحيى بن إسحاق الليثي

المبسوط: للقاضي إسماعيل بن إسحاق

المجموعة: لابن عبدوس.

قال الشارح: يقصد به أبي محمد عبد الكريم الزواوي المغيلي صاحب كتاب

"عمدة البيان في معرفة فرائض الأعيان".

3. نسبة الكتاب لمؤلفه

تثبت كل المصادر على أنه كتاب اختصار شرح الوغليسية للصباغ...

ثالثاً: في الكلام على الشرح الكبير وترجمة مؤلفه وسبب شرحه للوغليسية

1. سبب شرحه للوغليسية:

إن دوافع البحث والتأليف عند الشيخ أبي محمد بن علي بن عبد الكريم الزواوي لشرحه مقدمة الوغليسي حيث بيّن في ديباجة شرحه إذ قال: (... وفقنا الله وإياكم لما فيه رضاه وغفر لنا ولكم من الخطايا والمآثم ما قر علمه وأحصاه لا موجود إلا هو ولا موجود لنا سواه ، فقد سبق من كلام علمائنا رضي الله عنهم ما يغني عن كلام مثلي، ولكن حملني على هذا التقييد أمور:

أحدها: ما سبق به علمه وأمضاه، إذ لا قول ولا عمل إلا وقد قضاه.

الثاني: الدّعاء الصالح من الإخوان وفي مثل ذلك غرض لي، سألتكم بالله ثم بأحمد شفيع الوريّ إلّا ما هو تم لنا المتولى وعساه بغفران يمن ورحمة ويسكننا من جنة الخلد في أعلى، فإنّ من مولانا الكريم بفضله عظيم علينا وهو أهل لما أولى).

كما بيّن كذلك الشيخ عبد الكريم الزّواوي سبب كتابته لهذا الشرح الكبير لمقدمة الوغليسي حيث قال: (... ممّا ينبغي لكل ذي عقل سليم ومتمسك بمنصف قويم وغايته، وقد وقع عدم الابتهال لكثير من النّاس إلّا من ساعدته العناية ومصدق ذلك قوله عليه الصّلاة والسّلام: (من سأل بالله ولم يجب جاء يوم القيامة ووجهه عظم بلا لحم)، وقد نقل ابن رشد والشيخ أبي الحسن الصغير قضية الخضر عليه السلام أول كتاب التفليس وحاصلها أن الخضر عليه السلام سئل بالله في قانيق فلم يجده فمكن نفسه من البيع لما سئل بالله ، ثم كان عتقه من أجل السؤال بالله وذلك أن مشتره لما

رأى من أحواله ما خرج عن مقدور البشر سأل به الله عن سبب بيعه فقص عليه الخبر فاعتقه.

الثالث: ما رأيته من اضطراب المريد من الإخوان إلى معرفة فرائض الأعيان إذ بمعرفتها مع بعد قضاء الله يرتجى الكون في الجنان ، بل وكذا كثير من الطلبة، أيضاً فإنهم يشتغلون بتعليم العربية والحساب وغيرهما مما هو فرض كفاية قبل الاشتغال بفرض العين، ولقد صدق بعض الشيوخ حيث قال ما معناه مساعفة المعلم للمتعلم على الاشتغال بفرض الكفاية قبل التحصيل فرض العين من الاشتغال مما لا يعني، وقد قال ﷺ: (حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) ولا سيما من الإخوان من بعدت داره وذهب في البطالة زمانه فلا شيخ يبصره ولا كتاب له ينظره وإن تيسر فربما لا يتيسر كل الكتب التي منها نقلنا ولا مكان الذي به وصلت فله الحمد وله الشكر فيما أمتن به من ذلك علينا فنكّبتني ذلك كله إلى تقييد أبين فيه جملة مما يلزم المكلف من فرائض الأعيان على حسب الإمكان، ثم رأيت المقدمة الوغليسية المنسوبة للإمام العالم العلامة الورع الزاهد التي بقيت آثاره وأنواره ساطعة نائرة السيد أبو زيد عبد الرحمان الوغليسي قدس الله روحه ونور ضريحه وافيت بالمقصود إذ لم يذكر فيها إلا ما يلزم المكلف معرفته مما يعمّ المكلف، ولهذا من فهمها وحفظها وعمل بمقتضاها فهو بخير في دينه، فاستخرت الله تعالى أن يوفقني إلى شرح يكون لها كالتكميل وإفياً بالمقصود إن شاء الله تعالى وأضفت كلامي إلى كلامه رغبة مني في إتقانه ونفاده ببركاته رضي الله عنه ، ثم رأيت من المصلحة أن أذكر فيه الأصل المشروح بلفظه معبراً عنه بقال لأنني وجدت أكثر نسخها غير صحيحة وعلى الناسخ لهذا الشرح أن يكتبه بقلم مخالف في الغلط والرقعة لكلام المؤلف ليحصل المرام والمقصود على التمام، فسأل الله العظيم رب

العرش الكريم أن يجعل ما نسعى فيه جميعنا من هذا الشرح خالصا لوجهه مبلغا لمرضاته لا رب لنا سواه.

كما حدّد الشيخ عبد الكريم الزّواوي الكتب التي اعتمد عليها في شرحه وهي كثيرة حيث يقول: (...وقد اعتمدت على كتاب "الذخيرة" للقرافي لأنّه قال اعتمدت في النقل على كتب خمسة "المدونة"، و"الجلّاب"، و"الجواهر"، و"التلقين"، واعتمدت على "تلخيص" الحضرمي وهو عجيب، وقد قال أيضًا: إني اقتضيت جميع ما تيسر لي من ستة من الدواوين معلومة مشهورة وفي العلم والتحري مذكورة كتاب "النوادر" لأبي محمد بن أبي زيد الحائز قصب السبق والتأييد، و"المنتقى" للإمام القاضي الباجي أبي الوليد، وكتاب الإمام الأجل أبي عبد الله محمد بن يونس ذي التحري بالرأي السديد، وكتاب "المقدمة" للإمام أبي عبد الله محمد بن رشد المرشد الرشد، وكتاب "القبس" للإمام أبي بكر بن العربي المقدم في فنون العلوم والجديد، فكفونا مؤنة هذه الأمهات فإنّها لا تيسر لكل أحد فجزاهم الله خير المئى وجعل مأواهم إلّا ضلّ ما يتسنى، واعتمدت أيضًا على "شرح التلقين" للإمام المازريّ وعلى غير ذلك مما ذكرنا مضيفا الأقوال إلى قائلها ما أمكن ليعلم الناظر التفاوت بين القولين بحسب القائلين بخلاف ما يفعله بعض الأصحاب فيقول في المسألة قولان من غير تعيين فلا يدري الائتمان من يجعل بينه وبين الله تعالى، ولعلّ قائلها واحد.

كما أن الشيخ عبد الكريم الزّواوي أضاف على متن الوغليسية باين وهما: باب الأذان وباب الزّكاة، وباب الحجّ لكن باب الحجّ لم يتطرق له عبد الكريم الزّواوي بالشرح وتبعه ابن الصّباغ في اختصاره له.

2. ترجمة الشيخ الكريم الزواوي (كان حيًا 820هـ).

لم تسفنا التراجم والمصادر لمعرفة ترجمته إلا أننا وأثناء تحقيقنا لشرحه الكبير على الوغليسية وجدنا في باب الزكاة....

رابعاً: في منهجنا وعلما في تحقيق النسخ المخطوطة، ووصف النسخ المعتمدة

في التحقيق ونماذج من الألواح الأولى والأخيرة للمخطوطات المعتمدة في التحقيق

1. منهجنا وعلما في تحقيق النسخ المخطوطة:

يتلخص عملنا في تحقيق كتاب "اختصار الصباغ على شرح الزواوي على

الوغليسية" فيما يلي:

1. كتبنا النصّ بالرسم الإملائي الحديث، وراعينا قدر الإمكان علامات الترقيم.

2. ضبطنا نصّ الكتاب بالشكل التام.

3. اعتمدنا على عدّة نسخ خطية: نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية، ونسخة مكتبة

الشيخ أو لحبيب في بجاية، ونسخة المسجد النبوي الشريف.

4. جعلت نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية نسخة أم وذلك لقدم نسخها ورمزت

لها بحرف (أ)، ورمزت لنسخة مكتبة أو لحبيب في بجاية بحرف (ب) وتأتي في

المرتبة الثانية وذلك من حيث تاريخ النسخ. ورمزت لنسخة المسجد النبوي

الشريف بحرف والتي تأتي بعدهما من حيث تاريخ النسخ (ج) حيث جعلت

النسخة (ب) و(ج) للمقارنة والمقابلة.

5. وضعنا ما بين معقوفتين هكذا [] نوضح فيه ما هو ساقط من أصل النصّ

المخطوط.

6. وضعنا ترجمة مختصرة عن الشيخ عبد الرحمن الصباغ ولذلك لندرتهما وشحّ

المصادر والمراجع إلا ما ذكره الشيخ الحسين الورثيلاني في رحلته..

7. وضعنا ترجمة مختصرة لصاحب المتن الفقهي الشيخ عبد الرحمن الوغليسي وذلك لشهرته وشهرة متنه الفقهي.

8. اعتمدنا على مصادر ومراجع توفرت عندنا.

9. خرّجنا الآيات القرآنية، وأشرنا إلى السّورة، ورقم الآية، في النصّ بنفس الخط؛ ولكن بحجم أصغر مع إخراج الآيات القرآنية ووضعها في الفهارس العامة.

10. خرّجنا الأحاديث والآثار الواردة في النصّ قدر الإمكان، ووضعها في الفهارس العامة.

11. خرّجنا من استطعنا من أقوال العلماء الفقهية وغيرها في هامش النصّ.

12. خرّجنا الكتب والمصادر المعتمدة داخل النصّ المخطوط ووضعها في الفهارس العامة.

13. خرّجنا الأبيات والأشعار المعتمدة داخل النصّ المخطوط

14. ضبطنا نصّ متن الوغليسية بالشكل التام.

15. ترجمنا لأغلب الأعلام.

16. حاولنا قدر الإمكان عزو الأقوال - التي رتب فيها الشيخ الصابغ كتابه عمّن سبقه - إلى مصادرها الأصلية، وخاصة التي أكثر منها النقل.

17. جعلنا في نهاية الكتاب ثبّتاً بالمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في التحقيق.

18. جعلنا فهرساً محتويّاً للمواضيع التوضيحية.

2. وصف النسخ المخطوطة

(أ)، (ب)، (ج)

اعتمدنا في تحقيقنا على عدة نسخ خطية، وقد رتبنا النسخ حسب تاريخ نسخ

المخطوطات:

➤ النسخة (1): وهي نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية وتقع تحت رقم: وتكون من:

بداية المخطوطة: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم تسليماً الحمد لله الذي أعلا معالم الإسلام، وبين لعباده بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام، حلية ما أحلّ، وحرمة ما هو حرام. والصلاة والسلام على نبيه وحببيه محمد ﷺ أزكى الصلاة وأزكى التسليم وأصحابه وأزواجه وذريته ما لمع بارق ورسخ غمام، أمّا بعد: أنّه لما كان الكتاب المسمى بـ: (الوغيلسية) الذي وضعه العلامة العلم الراسخ في مرضات الله القديم، الذي عمّت أنواره ولم تزل ظاهرة آثاره، الصالح الزاهد المتبع، سيدنا أبو زيد عبد الرحمن الوغيلسي برّد الله ضريحه، واسكنه من أعلى الفردوس فسيحه....).

نهاية المخطوطة: (...كمل يحمد الله وحسن عونه على يد العبد الحقير الذليل المرتجى عفو مولاه وغفرانه عمر بن علي بن محمد بن قاسم الوجاني القبيلة الأوراسي الدار غفر الله له ولوالديه ولأسلافه ولأشياخه ولإخوانه نسباً ولإخوانه المؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات).

نسخه لنفسه ولن شاء الله بعده، وكان الفراغ من نسخه قبل الزوال يوم الخميس في أوائل شهر الله الأعظم جماد الثاني سنة إحدى وثلاثين بعد الألف، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلّم كثيراً كثيراً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

➤ النسخة (2): نسخة الأزهرية التي تقع تحت رقم: 95241، عدد ألواحها: 98 في كل صفحة: 31 سطراً، طولها: 26 سم، وعرضها: 21، عليها ختم المكتبة الأزهرية نسخت سنة: 1038هـ. ومعها رسالة "الدرة المفردة في شرح

المرشدة" لمؤلفها الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل الأموي عرف بالنقاش،
ناسخ المخطوطتين هو محمد بن الفقيه فتح الله ابن الولي الصالح قطب زمانه
سيدي سالم الأيبي نسباً المالكي مذهباً.

➤ النسخة (3): وهي نسخة المسجد النبوي الشريف تقع تحت رقم: 8035 عدد
ألواحها: ... في كل صفحة: 27 سطرًا نسخت سنة 1166 هـ ومعها رسالة
منسوبة للشيخ عبد الرحمن الصباغ بعنوان "اختيار أربعين حديثاً"، ناسخ
المخطوطتين هو: محمد بن المبارك بن أحمد بن علي الخلفي نسباً ومسكناً بني
امليكش الكائن في بني بترون عند أولاد سيدي أبو الفضل.

➤ النسخة (4): وهي نسخة مكتبة أولحبيب في بجاية الجزائر عدد ألواحها: 80
لوح في كل صفحة: 25 سطرًا نسخها: محمد بن القاسم اليعمري سنة
1191 هـ..

➤ النسخة (5): وهي نسخة المسجد النبوي الشريف والتي تقع تحت رقم:
217/2 130 عدد ألواحها: 155 لوحًا: في صفحة: 25 سطرًا، طولها: 21
سم، وعرضها: 16 سم، جاءت عناوين المتن باللون الأحمر وخطها مغربي
مقروء، نسخها: إبراهيم الشريف بن محمد الشريف سنة 1194 هـ.

➤ النسخة (6): نسخة الأزهرية التي تقع تحت رقم: 95243 عدد ألواحها: 132
في كل صفحة: 31 سطرًا، طولها: 22 سم، وعرضها: 15 سم 21 بدون تاريخ
نسخ نسخها السيد: بلقاسم بن علي الملحي نسباً نسخه للسيد: سليمان بن
أحمد....

➤ النسخة (7): نسخة أخرى من الأزهرية وهي ناقصة الآخر، تقع تحت رقم:
95244 عدد ألواحها: 121 لوحًا، في كل صفحة: 29 سطرًا، طولها: 22 سم

، عرضها: 16 سم، عليها ختم المكتبة الأزهرية في أول الصفحة وآخرها
وعناوين الكتاب مكتوبة باللون الأحمر وخطها مغربي مقروء.

➤ النسخة (8): نسخة عائلة محمد الصغير بن شاعة بالأغواط الجزائر تقع تحت
رقم: 01 / 24 عدد ألواحها: 74 لوح في كل صفحة: 34 سطرا نسخها: عبد
الله بن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الله، قام بفهرستها ابننا أحمد أبو بكر ضيف
مع مركز "تيكا بتركيا".

بداية المخطوطة: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد
وسلم تسليماً الحمد لله الذي أعلا معالم الإسلام، وبين لعباده بواسطة الرسل عليهم
الصلاة والسلام، حلية ما أحلّ، وحرمة ما هو حرام. والصلاة والسلام على نبيه وحبيبه
محمد ﷺ أزكى الصلاة وأزكى التسليم وأصحابه وأزواجه وذريته ما لمع بارق ورسخ
غمام، أمّا بعد: أنّه لما كان الكتاب المسمى بـ: (الوغيليسية) الذي وضعه العلامة العلم
الراسخ في مرضات الله القديم، الذي عمّت أنواره ولم تزل ظاهرة آثاره، الصالح
الزاهد المتبع، سيدنا أبو زيد عبد الرحمن الوغيليسي برّد الله ضريحه، واسكنه من أعلى
الفردوس فسيحه....).

نهاية المخطوطة: (...كمل بحمد الله وحسن عونه على يد ناسخه لنفسه ثمّ لمن
شاء بعده محمد] [بن بلقاسم] [نسباً اليعربي موطناً المالكي مذهباً الأشعري
اعتقاداً غفر الله له ولوالديه ولأشياخه ولقرابته ولجيرانه ولأحبته ولجميع المسلمين
والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنّك مجيب الدعوات، وصلى
الله على من إليه أذعنت الجبابرة والعصاة، وعلى آله وصحبه الواصف لهم بأنهم هداة،
صلاة لا تنقطع أثناء الليل والنّهار وسائر الأوقات، وكان الفراغ من نسخته يوم الجمعة

في شهر الله المعظم ربيع الثاني عند الزوال سنة 1195 هـ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).

➤ النسخة (ج): وهي نسخة المسجد النبوي الشريف على صاحبه أفضل الصلابة

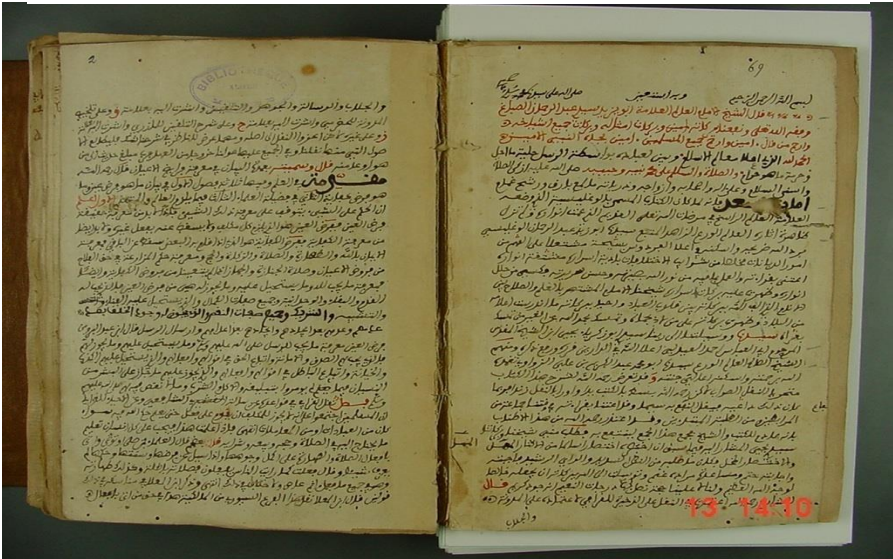
وأزكى التسليم وتقع تحت رقم

بداية المخطوطة: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم تسليماً الحمد لله الذي أعلا معالم الإسلام، وبين لعباده بواسطة الرسل عليهم الصلابة والسلام، حلية ما أحلّ، وحرمة ما هو حرام. والصلابة والسلام على نبيه وحبيبه محمد ﷺ أزكى الصلابة وأزكى التسليم وأصحابه وأزواجه وذريته ما لمع بارق ورسخ غمام، أمّا بعد: أنّه لما كان الكتاب المسمى بـ: (الوغيضية) الذي وضعه العلامة العلم الراسخ في مرضات الله القديم، الذي عمّت أنواره ولم تزل ظاهرة آثاره، الصالح الزاهد المتبع، سيدنا أبو زيد عبد الرحمن الوغيضي برّد الله ضريحه، واسكنه من أعلى الفردوس فسيحه....)

نهاية المخطوطة: (... فهذا ما وجدناه في هذا التأليف المبارك والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم والرسول العظيم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، ووافق الفراغ من نسخه يوم السبت خلف من شهر حجة الحرام خمسة أيام عند صلاة العصر على يد عبد الله وأقل عبيده الحاج إبراهيم الشريف بن المرحوم برحمة الحي القيوم الحاج محمد الشريف العيدلي غفر الله له ولوالديه لجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين المؤمنات الأحياء منهم والأموات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين صلاة وسلاماً دائماً متلازمين إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين وقل ربي زدني علماً سنة 1194 هـ).

نماذج من صور المخطوطات (أ) و (ج)

المخطوطة (أ)



اللوحة الأولى من النسخة (أ) نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية

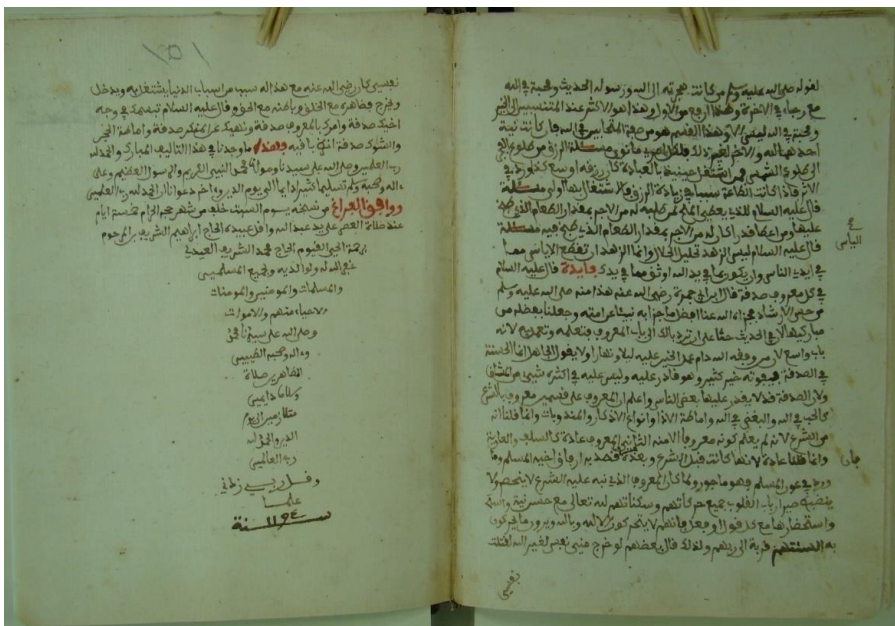


اللوحة الأخير من النسخة (أ) نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية

المخطوطة (ج)



اللوحة الأولى من النسخة (ج) نسخة المسجد النبوي الشريف



اللوحة الأخيرة من النسخة (ج) نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية

مخطوط ينشر لأول مرة عدة ملوك أولاد جلان

A Manuscript Published for the First Time
Several Kings, Sons of Jalan

أ. أحلام لغريب

جامعة محمد بوضياف، المسيلة

ahlam.leghrib@univ-msila.dz

ملخص:

إن هذه النبذة التاريخية حول عدة ملوك أولاد جلان (وارجلان) هي جزء ضمن مجموع، لمؤلف معاصر لفترة حكمهم مجهول لم يدون اسمه، وهي ذات أهمية لأنها تتناول تاريخ ملوك أولاد جلان خلال الفترة الحديثة، وتتجل أهميتها في كونها تقييد للملوك بالإضافة لرصدها لرحلاتهم إلى الحج، والذي يجعلنا نسلم بأهمية هذه المخطوطة أن تاريخ نسخها يعود 1265 هـ (كما ورد في المجموع)، وآخر تاريخ ذكر في سلسلة هؤلاء الملوك 1249 هـ (حسب المخطوطة التي بين أيدينا).

Abstract:

This historical overview of several kings from the lineage of Jalaan (or Wargalan) is part of a collection by an unknown contemporary author from their period of rule, whose name was not recorded. Its significance lies in documenting the history of the Kings of Jalaan. It is valuable not only for its record of these rulers but also for chronicling their pilgrimage journeys. The importance of this manuscript is underscored by the fact that it was copied in 1265 AH (as noted in the collection), with the last date mentioned in this series of kings being 1249 AH

"الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم⁽¹⁾

هذه عدة ملوك أولاد جلان وتوارينهم من الشيخ سليمان إلى أولاده وبني عمه. فأولهم الشيخ سليمان تولى المملكة في بلاد تقرت من بعد أهله الأولاد وعمر البلاد، وقهر أهل البغي والفساد، وركب من الخيل نحو خمسمائة وزاد، وبقي من السنين ماسك الملك الجواد، فلما صار عمره وانقرط، وأراد الله به النقلة إلى دار الرضا، جعل سبب موته على يد امرأة يقال لها أم تهاني بنت البلائي حين خطبها في ابنتها، فبعثت له بخبر يعتليها، فلما قدم إليها هو وخدامه فقتلته رحمة الله عليه وهو اليوم مدفون في سير بن خليل.

وتولى من بعده الشيخ محمد بن سليمان وبقي في المملكة ما شاء الله فلما كان في بن السير نافقوا عليه أهل البلاد والبُلاد وأرادوا خلعه فقتل بضربة خطأ، وتولى من بعده الشيخ محمد الأكمل وبقي ما شاء الله فنافقوا عليه عاما فقتلوه رحمة الله، وتولى من بعده أخوه وبقي ما شاء الله ثم مات رحمه الله ثم تولى من بعده الشيخ إبراهيم وبقي مده ثم خرج إلى أرض الحجاز وخلف أولاده وهم الشيخ عبد القادر والشيخ أحمد فخرجوا من البلاد بعد أبيهم، رجع إلى البلاد الشيخ خالد وبقي ما شاء الله وخرج ومات بورقلة، ثم الشيخ عبد القادر بن إبراهيم سنة 1137 فمكث في المملكة سبع سنين ثم مات رحمه الله، وخلف من بعده خمسة من الذكور وهم الشيخ عمر والشيخ جلاب أولاد الضواية والشيخ عمران بن شويخه بنت الشيخ عمران.

(1) هذه العدة توجد ضمن مجموع ضمن مخطوطة تحمل رقم 1588، يعود تاريخ نسخه إلى

1265 هـ بالمكتبة الوطنية الجزائرية. وقد وجدت نسخة من هذه العدة في مكتبة ليدن (هولندا)

تحمل عنوان "تقييد ولاية بعض ملوك أولاد أعلاهم بوارجلان"، تحمل رقم (1) IV - 14.012

ثم تولى من بعده الشيخ أحمد بن إبراهيم سنة 1144 وبقي في المملكة تسع سنين ثم خرج ومات رحمه الله ببلاد اماس وخلف أربعة ذكور اثنان قتلهم الشيخ عمر وبقي الشيخ محمد الأخضر هربته أمه إلى غدامس والرابع وهو الشيخ محمد مهساس خرجوه أخواله أولاد صوله.

وتولى الدولة الشيخ عمر سنة 1153 وبقي في الدولة سبع عشرة سنة ثم بعد ذلك قتل إخوانه وهم علي ياسر والشيخ أحمد حين خرجوا إلى سيد خالد فمدهم بالأمان فلما قدموا تلقوهم في الشوشة التي تسمى بشوشة السلاطين وهي بإزاء بلاد القصور وقبورهم الآن ببلاد المغارب الغربية في سيدي مسعود. ثم خرج الشيخ عمر وتولى من بعده الشيخ محمد سنة 1170 وبقي في الدولة أربع سنين ثم خرج وتولى من بعده الشيخ عمران وبقي في الدولة تسعة أشهر فخرج ثم مات في الواد ببلاد سوف وخلف ابنه الشيخ الكلاني ولم يرد له المملكة.

وأما الشيخ جلاب فإنه مات بسوف وخلف ابنه الشيخ إبراهيم ثم رجع الشيخ عمر سنة 1175 وبقي في المملكة خمس سنين فمات رحمه الله، وتولى ابنه من بعده المملكة على رأس العام التاسع والسبعين وبقي في المملكة سبعة أشهر ورجع من بعده الشيخ عمر فبقي في المملكة خمسة أشهر ثم خرج فمات رحمه الله في سيدي خالد وخلف ثلاثة ذكور ومنهم الشيخ عبد القادر والشيخ فرحات والشيخ أحمد ثم رجع الشيخ أحمد من بعد الشيخ عمر سنة ومكث في المملكة ستة عشر سنة وخرج فمات رحمه الله بمكة، وخلف أربعة ذكورا وهم الشيخ محمد والشيخ إبراهيم والشيخ عبد الرحمن والشيخ علي، أما الشيخ علي فمات رحمه الله صغيرا في دولة الشيخ إبراهيم، وأما الشيخ إبراهيم فمات في دولة أخيه الشيخ محمد.

وتولى من بعد الشيخ أحمد الشيخ عبد القادر ابن عمر سنة 1195 وبقي في المملكة عاما ثم مات، وتولى من بعده أخوه الشيخ فرحات سنة 1197 وبقي في المملكة عشر سنين ثم خرج فمات بالواد، وخلف ابنه الشيخ الخازن وتولى من بعده الشيخ إبراهيم سنة 1203 وبقي في المملكة سنة فخرج عنه أهل البلاد فخرج وتولى من بعده إبراهيم بن الحاج بن قانة وبقي سنة ثم خرج، وتولى من بعده ابن أخيه علي بن الفيروم وبقي سنة ثم خرج فرجع الشيخ إبراهيم سنة 1210 وبقي في المملكة اثني عشر سنة ثم خرج الشيخ إبراهيم ودخل الشيخ الخازن آخر سنة العشرين بعد المائتين. فدخل الشيخ محمد سنة 1221 فقتل الشيخ وبقي في الملكة سبعة عشر عاما وخمسة أشهر ثم مات رحمه الله، وتولى من بعده الشيخ عمر سنة 1238 فمات رحمه الله وتولى من بعده أخوه الشيخ إبراهيم سنة 1247 وبقي في المملكة سنتين وخرج إلى بلاد الحجاز وتولى من بعده الشيخ علي سنة 1249 فعقدوا عليه التسعة في شهر الله رجب الفرد في 20 خلون منه.

وأما ابن الشيخ إبراهيم وهو الشيخ أحمد فإنه ولي بعد أبيه حين خرج إلى الحجاز في 3 قعدة الحرام يوم السبت".

الحمد لله ، وصلى الله على محمد وآله وسلم
هـ من عتق ملوك أو كرام جلال
 وتوارى عنهم من الشيخ سليمان إلى أولاده
 وبن عمه **قارولهم** الشيخ سليمان تولى
 المملكة في بلاد تفرق من بعد انقضاء أوائل
 وعمر البلاد ، وفيها أهل البغية والفساد
 وركب من الخيل نحو ظلمة وراة
 وبقي من السير ما سلا لليل الجواد
 فلما صار نحو وانقضاء ، وأراد الله به
 النقلة إلى أراض الرضا ، جعل سبب مؤتمه على
 نيل امرأة يقال لها أم تغلا بنت البلدي
 حين حكى له **استدعا** ، فبعث له
 بغير عتق ، فلما فزع اليها هو وخرامه
 بعثته رحمة الله عليه وفعوا اليوم مدحون
 في سير خليل **وقال** من بعد الشيخ
 محزون سليمان وبقي في المملكة ما شكا
 الله **قال** كما في بعض السير ندموا

المملكة **واما** الشيخ **خلاب** دولة ما
 بسوق وطلب ابنه الشيخ ابي ابيهم ثم
 رجع الشيخ **محمّد** سنة وبعث في المملكة
 خمس سنين لما رجع الله وتولى ابنه
 من بعث المملكة على راس العلم التاسع
 والسبعين وبعث في المملكة سبعة اشهر
ورجع من بعث الشيخ **عمر** فبعث في
 المملكة خمسة اشهر ثم خرج بمائة رجه
 الله في سير حاله وطلب ثلاثة في كور
 ومع الشيخ **عمر** الفاضل والشيخ **عمر** حان
 والشيخ **أحمد** ثم رجع الشيخ **أحمد** من بعث
 الشيخ **عمر** سنة ومكث في المملكة
 تسعة عشر سنة وخرج بمائة رجه الله
 بمكة وطلب اربعة في كورا وهما
 الشيخ **محمّد** والشيخ **ابو** ابيهم والشيخ
عمر الزهر والشيخ **علي** املا الشيخ **علي**
 بمائة رجه الله فبعث في دولة الشيخ
 ابي ابيهم **واما** الشيخ **ابو** ابيهم بمائة

في دولة

في دولة اخيه الشيخ **محمّد** وتولى من
 بعث الشيخ **أحمد** الشيخ **عمر** الفاضل
 اربع سنين سنة وبعث في المملكة مائة
 ثم مات **وتولى** من بعث الشيخ
 في دولة سنة وبعث في المملكة خمس
 سنين ثم خرج بمائة بالواد وطلب ابنه
 الشيخ **الحازن** **وتولى** من بعث الشيخ
 ابي ابيهم سنة وبعث في المملكة
 سنة فخرج بمائة بالبلاد **وتولى**
 من بعث ابي ابيهم بالجامر بقلنه
 وبعث سنة ثم خرج **وتولى** من بعث
 ابي اخيه **علي** بن الفيرم وبعث سنة ثم
 خرج **ورجع** الشيخ **ابو** ابيهم سنة
 وبعث في المملكة اثني عشر سنة ثم خرج
 الشيخ **ابو** ابيهم **ودخل** الشيخ **الحازن**
 في سنة العشرين من بعث الحازن
ودخل الشيخ **محمّد** سنة وبعث
 الشيخ وبعث في المملكة سبعة عشر

علاماً وحسنة اشقلى ثم ما رحمه الله
وتولى من بعده الشيخ عمي ^{١٣٨}
 رحمه الله **وتولى** من بعده اخو
 الشيخ ابراهيم ^{١٣٩} وبقي
 في المملكة سني وفهم الى بلاد الحجاز
وتولى من بعده الشيخ علي ^{١٤٠}
 بعفو واعليه التسعة في شهر ابراهيم
 ابراهيم في خلوة منه **واما** ابراهيم
 ابراهيم وهو الشيخ ^{١٤١} اخوانه
 ولم يبق له من فهم الى الحجاز
 فعلى الخراج بين السيف



فقه العمران الريفي والحضري بالمغرب الأوسط

من خلال مخطوط « المذهب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق »

لأبي عمران موسى المازوني (ت بعد 874هـ / 1469م)

دراسة وتحقيق لمسائل متفرقة في مقاصده

د. إسماعيل بركات

أستاذ محاضر « أ » - قسم التاريخ

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

الملخص:

تعكس هذه الورقة البحثية أوجه ما سطره أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني (ت بعد 874هـ / 1430م) في مخطوطه « المذهب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق » فيما يتعلق بمسائل فقه العمران الريفي والحضري بالمغرب الأوسط الوسيط، من الوقوف على معالم الإصلاح التي لامس فيها محاولة النظر والتأمل لمختلف مسائل التنظيم والترشيد العمراني عبر مضامين نصوصه وقضاياها الشاكلة، نجد أنه كفيلا برصد مختلف الصور والتصورات للإشكالات الواقعة آنذاك ذات الصبغة العمرانية، وما كان منها إنتاج فقهي في إطار التأثير والتأثر بالتحويلات الحضارية التي عرفها المجتمع الزياني، ومعرفة مدى توافق هذه النصوص الفقهية والخصومات التي كان تطرح عليه كفقيه وقاضي، خاصة منها ما تعلق بالأضرار الناجمة عن راحة وسلامة المسكن ومكان العمل الخاص، من منطلق فقه العمران الذي يقوم على أساس قاعدة « نفي الضرر »، بما تضمنه من مساواة بين الأطراف

وترتيب الأولويات حسب نوعية المسألة ومكان تواجدها، وكذا طبيعة النشاط
المزاوول بخصوصها.

الكلمات المفتاحية: التوثيق، فقه العمران، العمران الريفي، العمران الحضري،
المقاصد، المغرب الأوسط.

Abstract:

This research paper reflects the aspects of what Abu Imran Musa bin Issa Al-Maghili Al-Mazouni (d. after 874 AH / 1430 AD) wrote in his manuscript « **Al-Muhadhdhab Al-Ra'iq fi Tadrib Al-Nashi' Min Al-Qudat Wa Ahl Al-Watha'iq** » regarding the issues of rural and urban urban jurisprudence in the middle Maghreb, from standing on the features of the reform in which he touched on the attempt to consider and contemplate the various issues of urban organization and rationalization through the contents of his texts and his various issues. We find that he is capable of monitoring the various images and perceptions of the problems that occurred at that time with an urban character, and what was from them a jurisprudential production within the framework of the influence and being influenced by the civilizational transformations that the Zayyanid society experienced, and knowing the extent of the compatibility of these jurisprudential texts and the disputes that were presented to him as a jurist and judge, especially those related to the damages resulting from the comfort and safety of the residence and the private workplace, from the standpoint of urban jurisprudence that is based on the rule of “negating harm”, including what it includes of equality between the parties and arranging priorities according to the type of issue and its location, as well as the nature of The activity carried out in relation to it.

Keywords: Documentation, urban jurisprudence, rural urbanism, urbanism, objectives, Middle Maghreb.

مقدمة:

يفتح البحث في التراكم المعرفي الذي يوفره التراث الفقهي بالمغرب الأوسط الوسيط، ما يفيد فهم مقاصد فقه العمران، بدءً بكتب فقه الأحكام والتوثيق التي تبرز أهميتها فيما يتعلق بآليات ضبط النزاعات في مسائل البنيان وتدبيرها، في إطار سعي الفقهاء لحل الخلافات الدينية والاقتصادية والاجتماعية المترتبة عنها، استهدافاً لحماية المصلحة العامة، وإقراراً للقاعدة « نفي الضرر »، وما يُعزى إلى مقاصد الفقه المالكي في المغرب الأوسط من قواعد وأسس نظرية، وما له صلة بالأعراف، ذلك أن العمران - حسب التعبير الخلدوني⁽¹⁾ - اقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش بالأمصار والقرى والمدن للاعتصام بها والتحصن بجدرانها.

ومن المؤلفات التي تعكس ذهنية مجتمع المغرب الأوسط فيما يتعلق بالأحكام الفقهية التي تستقضي مجموعة من القضايا ذات الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية، التي تعود بالنفع على الفرد والجماعة، كانت مسائل فقه العمران الريفي والحضري ضمن مخطوط « المذهب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق »⁽²⁾، لمؤلفه أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني؛ إحدى كتب الوثائق المهمة في دراسة تاريخ

(1) ابن خلدون أبي زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ / 1405 م)، مقدمة ابن خلدون، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله محمد الدرويش، ج2، ط1، دار يعرب، دمشق، 2004، ص132.

(2) توجد نسخة مخطوطة منه بـ« المتحف البريطاني »، تحت رقم: 242، ونسخة بـ« مكتبة الطاهر بن عاشور » بتونس تحت رقم: 307 ف أ / 275، تحتوي على 335 ورقة، في أولها فهرس شامل لأبواب الكتاب، وفصوله بخط الشيخ إسحاق التميمي، أما نسخة « متحف سيرا » بقسنطينة تحت رقم: 14، فهي النسخة المعتمدة عندنا في الدراسة والتحقيق.

المغرب الأوسط الاجتماعي والاقتصادي في العصر الزياني المتأخر، فهو يقدم لنا مادة علمية وفيرة وقيمة في التأريخ لبعض المساحات المهمشة، إذ يعتبر حلقة علمية هامة أنتجت لنا مواد أساسية فقهية ساهمت في التأسيس للعديد من القضايا التي ترتبط بالشؤون العامة لمجتمعه، إذ يتكشف من خلال استقراء مسأله أهمية قضايا البنيان، بين ما يقره الشرع وما يقيمه العرف من تعاملات، شأنها فهم طبيعة التحولات التاريخية التي صنعت مجتمع ذلك العصر.

وبناءً على ما ورد في هذا المصنف من الوقوف على معالم الإصلاح التي لامس فيها أبي عمران محاولة النظر والتأمل لمختلف مسائل التنظيم والترشيد العمراني عبر مضامين نصوصه وقضاياها الشاكلة، نجد أنه كفيل برصد مختلف الصور والتصورات للإشكالات الواقعة آنذاك ذات الصبغة العمرانية، وما كان منها إنتاج فقهي في إطار التأثير والتأثر بالتحولات الحضارية التي عرفها المجتمع الزياني، ومعرفة مدى توافق هذه النصوص الفقهية والخصومات التي كان تطرح عليه كفقيه وقاضي، خاصة منها ما تعلق بالأضرار الناجمة عن راحة وسلامة المسكن ومكان العمل الخاص، من منطلق فقه العمران الذي يقوم على أساس قاعدة « نفي الضرر »، بما تضمنه من مساواة بين الأطراف وترتيب الأولويات حسب نوعية المسألة ومكان تواجدها، وكذا طبيعة النشاط المزاوّل بخصوصها.

فهل كان لقيمة المخطوط ما يحفز على تقييمه وتقويمه للاستفادة من مخرجاته الإيجابية فيما يتعلق بفقه العمران الريفي والحضري بالمغرب الأوسط الوسيط؛ فيمكننا في اعتماد أهميته النظرية تطبيقياً في علاج العديد من المسائل؟

كل ما سبق تأتي شروحه النظرية والتطبيقية، وفق خطة ثنائية ارتأينا أن تكون في شكل محورين؛ الأول؛ تناول الجانب التعريفي بالمؤلف والمخطوط، والثاني؛ تقصى

مختلف المقاصد المرجوة من نفي الضرر المتعلق بالعمران في مسائل متفرقة منه كتنبيه
يحد من فكرة التعدي، كون أن المقصد قائم ويحقق غايته من أجل استبعاد الخصومات
ذات العلاقة بهذه المسائل المختارة.

المحور الأول: الإطار التعريفي بالمؤلف والمخطوط

1. أبي عمران موسى المازوني:

الفقيه القاضي موسى بن عيسى المغيلي المازوني، يكنى بأبي عمران⁽¹⁾، من قبيلة
مغيلة البترية إحدى بطون قبيلة زناتة، من أسرة علم وفقه، درس في قريته وبها تولى
خطة القضاء التي توارثتها أسرته أباً عن جد، فوالده عيسى كان قاضياً بها.⁽²⁾
وبعد أن تمكن أبي عمران من علوم عصره، وخصوصاً الفقه والتوثيق، بعد
تحصيله على يد والده القاضي عيسى (كان حياً سنة 791 هـ / 1833 م)⁽¹⁾، وبعض

(1) الثابت في بعض مصنفاته كـ « قلادة التسجيلات »، بالإضافة إلى بعض مصادر ترجمته هو « أبي
عمران ». ينظر: أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني (ت 833 هـ / 1430 م)، قلادة
التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود، أطروحة دكتوراه في الفقه وأصوله، كلية الشريعة
والاقتصاد، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2016 - 2017، ص 86. التنبكتي أحمد
بابا (ت 1036 هـ / 1626 م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم: الهرامة عبد الحميد
عبد الله، ط 1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا، 1989، ص 605. كفاية المحتاج
لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: علي عمر، ج 2، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004،
ص 243. الحفناوي أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الديسي (ت 1391 هـ / 1941 م)، تعريف
الخلف برجال السلف، ج 2، مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة، تونس، 1985، ص 572.

(2) ذكر المؤلف في « قلادة التسجيلات »، أن والده كان قاضياً بقوله: « وناهيك أني ما وقفت لهم
قطُّ على تسجيل بشيء ما يمليه عليهم والدي أيام قضائه ». ينظر: قلادة التسجيلات، ص 43.

فقهاء عصره⁽²⁾، تولى التدريس بمدرسة أبي ماته بمازونة، حيث وصف بالفقيه الأجل المدرس المحقق، يشار له بالبنان في بلدة مازونة وحتى خارجها⁽³⁾، من خلال مشاركته العديد من العلوم والمعارف، ومكاتبه ومراسلة شيوخ وقته، مع مراجعتهم في مسائل الاختلاف، وتحريزه في ضبط أحكام⁽⁴⁾.



(1) يقول المؤلف: « وفرغت منه بعد تعطيل في بعض الأيام، في ربيع الأول من عام أحد وتسعين وسبعمائة عرفنا الله خيرته، وعرضت منه أماكن على سيدي الوالد متعني الله برضاه فاستحسنها ». ينظر: قلادة التسجيلات، ورقة 170 و. وقوله: « قال لي رحمه الله عن شيخه القاضي أبي محمد عبد الحق الملياني وكان ممن يقول على قوله لمعرفته ودينه ». ينظر: المذهب الرائق، ورقة 49 ظ.

(2) كأبي عثمان سعيد بن محمد العقباني (ت 811 هـ / 1408 م)، وأبو مهدي عيسى بن محمد الغبريني (ت 815 هـ / 1412 م)، والقاضي أبو عبد الله الشريف (ت 771 هـ / 1369 م)، وأبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني (ت 854 هـ / 1450 م)، وأبو عبد الله بن العباس (ت 871 هـ / 1466 م)، والقاضي أحمد بن المفضل، وأبي زكريا يحيى بن عمر.

(3) التنبكي، نيل الابتهاج، ص 605. الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص 583.

(4) بقوله: « وأن من الأشياخ من قال أنه لا اختلاف في ذلك بين المسلمين وقد كتبه إلى بعض أشياخي أعزه الله في هذه المسألة بأثر كلام وقع فيها ». ينظر: المذهب الرائق، ورقة 54 ظ.

وقد ترك أبي عمران عددًا من التآليف بين مخطوط ومفقود، وما حُقِّق، أو في طريق التحقيق، يمكن حصرها فيما يلي:

- « المهذب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق ». ⁽¹⁾
- « ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار ». ⁽²⁾
- « صلحاء وادي الشلف ». ⁽³⁾
- « حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه ». ⁽⁴⁾
- « تحلية الذهب في علم القضاء والأدب ». ⁽⁵⁾
- « فريدة الاقتباس في كيفية النظر في الأحباس ». ⁽¹⁾

(1) محل الدراسة والتحقيق، وقد تم تحقيقه من طرف (أحمد بن جعمان العمري، من أول الكتاب إلى نهاية كتاب الأحباس، أطروحة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1431 - 1432 هـ)، (عبد الله بن عيسى بن محمد عايشي، من أول كتاب البيوع إلى نهاية الكتاب، أطروحة دكتوراه، 1434 - 1435 هـ).

(2) توجد نسخة من هذا الكتاب بخزانة الشيخ المهدي البوعبدلي بوهران. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 45.

(3) تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2019.

(4) في حكم المفقود. ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص 45.

(5) لا يزال مخطوطًا بخزانة زاوية علي بن عمر، الزاوية العثمانية - طولقة، بسكرة، وقد تم تحقيق بعض من لوحاته في إطار البحوث المكتملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في العلوم الإسلامية (فقه مقارن وأصوله)، بجامعة الشهيد حمة لخضر - الوادي، معهد العلوم الإسلامية، قسم الشريعة الأولى من اللوحة 3 إلى اللوحة 13 من إعداد الطالب: سالم اليامي، والثانية (من اللوحة 25 إلى اللوحة 36 من إعداد الطالب: الصغير زقوني)، برسم السنة الجامعية: 2021 - 2022.

- « قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود ».⁽²⁾

وعن تاريخ وفاته ما يفيد أنه توفي بعد سنة 833 هـ / 1429 م⁽³⁾، ما قاله المؤلف في «تحلية الذهب»: «وسئل الفقيه سيدي أحمد الونشريسي في عام أربعة وسبعين وثمانمائة...»⁽⁴⁾، فتكون وفاته محصورة بين سنتي 874 هـ / 1469 م، و883 هـ / 1478 م، تاريخ وفاة ابنه أبي زكريا يحيى، حيث صرح بوفاة والده في نوازل⁽⁵⁾.

2. التعريف بالمخطوط وتوصيفه:

هو عبارة عن فقه لأحكام القضاء والتوثيق، مغلباً فيه الجانب النظري على التطبيقي العملي، وهو قاعدة لتدريب القضاة والموثقين - كما سَمَّاه - على مزاوله



(1) في حكم المفقود، وقد ذكره المؤلف بقوله: «ومن أراد الشفاء من ذلك فليلتمسه في كتابنا: فريدة الاقتباس في كيفية النظر في الأحباس». ينظر: المذهب الرائق، ورقة 269 ط.

(2) تحقيق: أحمد لشهب.

(3) المرجع نفسه، ص 54، 55.

(4) أبي عمران موسى، تحلية الذهب في علم القضاء والأدب، مخ، خزانة زاوية علي بن عمر، الزاوية العثمانية - طولقة، بسكرة، ورقة 49 و.

(5) أبي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني (ت 883 هـ / 1478 م)، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: بركات إسماعيل، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2، 2010، ص 224.

مهنتهم، وما يحتاج إليه كل واحد منهما من فقه ومعرفة لأحكام خطته، وعدته إحدى الأبحاث⁽¹⁾ حلقة مفردة في المنظومة القانونية الفقهية الواقعية في إصلاح القضاء.

وقد تضمنت فهرسته تراجم عامة؛ قائمة مقام الكتب والأبواب كما هو المؤلف في غالب العادات، وتراجم خاصة؛ قائمة مقام الفصول، مع الإلماع والتنبيه إلى بعض فوائدها الغربية، متراوحة بين العدل في بعده الفقهي، وبين العدل في بعده العمراني، ومرتبة أحسن ترتيب، وهو دليل على مستوى النضج الذي انتقل إليه فقه نظام القضاء في فكره حتى أصبح ضرورة وليس حاجة فقط.

استمد مادته من الأحكام الشرعية والمقررات الفقهية والاجتهادات القضائية، وأخذ في ترتيبه بعقلية القاضي الفقيه، والعرف الذي جرى به عمل القضاة من غير إغفال عرف الناس وعاداتهم، وعناصر كل اتفاقية معقودة بين شخصين أو عدة أشخاص يضمن استمرارها وأثر مفعولها، وحاسماً لمادة النزاع بين الأطراف المتعاقدة موضعاً لكل من العاقد له والمعقود عليه، ما له وما عليه، وموضحاً في الوقت نفسه دور القضاء في الضرب على أيدي المفسدين، ومؤصلاً للقواعد القانونية التي تحكم المجتمع وتؤمن حياته وممتلكاته وتصون حقوقه، فكان مشروعه جامعاً بين التفاصيل والجزئيات المرتبطة بالأحكام الفقهية، بالتجميع والاختصار والتجديد، من خلال

(1) أحصت إحدى الأبحاث من هذا النوع 16 مؤلفاً فقط لعلماء المغرب الأوسط طوال العصر الوسيط ما زالت قيد الدراسة، وهي - حسب رأيها - لم يشهد ازدهار هذا النمط من الكتابة الفقهية قبل عصر المؤلف عكس ما يشاع. ينظر: رفيق خليفي، "مخطوط المذهب الرائق لأبي عمران موسى المازوني وأهميته التوثيقية في تاريخ المغرب الأوسط وأواخر العصر الوسيط"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج 4، ع 1، جامعة حمة لخضر، الوادي، 2018، ص 230، 243.

مقاييس جديدة تحاول التوفيق بين النظرية الشرعية وبين الواقع وتطوره، ببراعة فقهية في النقول والأسلوب والتبويب.

2.1. نسبته إلى مؤلفه:

ما يصل إلى حد القطع والجزم ما أثبتته المصادر المترجمة له، فقد نسبته إليه كل من التنبكتي في نيله بقوله: « ولصاحب الترجمة تأليف في الوثائق سماه المذهب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق في مجلد»⁽¹⁾، ونفسه عند الحفناوي في تعريف الخلف، وعادل نويض في معجمه، والخطيب البغدادي في إيضاح المكنون⁽²⁾.

2.2. موضوعه:

هو تلك الأحكام من حيث الكتابة في الفقه وعلم الوثائق، استقها من أمهات مصادر المذهب، وأخذ بعضها من العادات والأمور الاستحسانية، من حيث كون ترتيبها موافقاً لقوانين الشرع، وربما من فروع الأدب لاعتبار تحسين ألفاظها، وهي خطوة من المؤلف تقرب مضامين ما حضر من إصلاح لمشاريع القضاء، في قراءة تصل إلى التعبير عن الكائن والممكن فيها وفق اختيارات المذهب المالكي، وقد ابتدأه ببيان أهمية القضاء، وصفة القاضي، وأرزاق القضاة، وكتب القضاة إلى القضاة، ثم ما يتعلق بالشاهد من أحكام، ومراتب الشهادات، ثم ضمنه أحكاماً تتناول أبواب الفقه كالنكاح والبيع والصلح والإقرار والسلم والإجارة والمساقات وغير ذلك.

(1) التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 606.

(2) البغدادي إسماعيل باشا بن محمد أمين مير سليم (ت 1339 هـ / 1920 م)، إيضاح المكنون في الذيل عن كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1992، ص 608.

أما القصد من تأليفه هو الفقه والأحكام الضابطة للوثائق من خلال شروط تولي خطة القضاء، إذ لم يعتن المصنف ببيان تقييد الوثائق، وما ورد من نماذج للوثائق قليل جداً جاء في معرض التمثيل والتوضيح، قاصداً به الطلبة والمتدربين المبتدئين في مجال التوثيق والقضاء، يعودون إليه في أحكامهم، ودافعه في ذلك أن خطة القضاء في عصره تسلط عليها الجهالة وإخوان السوق المتفقيهن⁽¹⁾، ناهيك عن ثبات العقل الفقهي وتوقفه عن الاجتهاد⁽²⁾، وحاجة الفقه وأبوابه إلى التجديد، خاصة في مجالاته التطبيقية، بل الأكثر من ذلك دخول الخطط الفقهية في حالة من الاختلال والقصور تجلت في فساد منظومة القضاء والتوثيق، خصوصاً قضاة البادية الذين طالهم نقده⁽³⁾.

2.3. مصادره:

منح أبي عمران « مذهب » أهمية بالغة لضبط نصوصه وتوثيقه بمصادر أصيلة، حيث نجده قد أغناه بحسن توظيفه لأمّهات كتب الفقه المالكي، وكتب التوثيق والشروط، ناقلاً عنها أبرز آراء العلماء المعتمدين في المذهب، مع الاهتمام القليل بظاهرة التمثل بالنص القرآني والحديث النبوي الشريف، ومن أبرز المصادر التي

(1) المصدر نفسه، ورقة 14 و.

ويراجع: ملاك لين، علم التوثيق في المغرب الأوسط، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2، 2014 - 2015، ص 77، 78.

(2) بوبة مجاني، " كتب النوازل والأحكام مصدر للتاريخ الاجتماعي - العصر الزياني أنموذجاً "، أعمال الملتقى الدولي « التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور »، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري - قسنطينة، 2001، ص 147، 148.

(3) المذهب الرائق، ورقة 99 ظ.

اعتمد عليها في التأليف بناءً على المسائل المختارة للدراسة والتحقيق « مسائل الغائب «، نجدها في سماع عيسى، وفي سماع ابن القاسم « نوازل أصبغ «، و« المدونة الكبرى»، و«الواضحة في السنن والفقه» لابن حبيب، و«العتبية» لأبي عبد الله القرطبي، و«وثائق ابن مزين»، و«منتخب الأحكام» لابن أبي زمنين، و«البيان والتحصيل» لابن رشد، و«الذخيرة» للقرافي، ونوازل ابن سهل، ونوازل أبي عبد الله التجيبي.

3. وصف النسخة المعتمدة في التحقيق ونماذج منها:

3.1. وصف النسخة المعتمدة في التحقيق:

عنوان المخطوط: المذهب الرائي في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق.

مؤلف المخطوط: أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني (ت بعد

874هـ / 1679م).

ناسخ المخطوط: /

تاريخ النسخ: 1248هـ / 1832م.

عدد الأوراق: 243 ورقة.

المقياس: 27 × 12 سم.

المسطرة: 31 سطر

عدد الكلمات في السطر:

نوع الخط: مغربي نسخي.

مكان المخطوط: متحف سیرتا - قسنطينة (الجزائر).

بداية المخطوط: « بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

وآله وصحبه وسلم، قال الشيخ الإمام الورع الفاضل أبو يحيى موسى بن عيسى بن

يحيى المغيلي المازوني رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين آمين، الحمد لله الذي صفا بواطن

العلماء من الجهالة، وحلاظواهرها بأنوار التعظيم والجلالة، وأطلع على قلوبهم شمس اليقين، وأوضح لهم آثار المهتدين، والصلاة التامة والسلام الأكملان على رسوله المصطفى الأمين، وعلى آله وأصحابه الأكرمين صلاة تامة زاكية إلى يوم الدين، أما بعد فإن معرفة الأحكام الشرعية أعلى بضاعة، والتحلي بحلية التوفيق لمن توفرت فيه شروطه أرفع صناعة، فإن العلم لمخلص طلبه أفضل الأعمال...».

نهاية المخطوط: «... وهكذا ينبغي إذا أقرت هي ولم يعلم منه إنكار أنه يرثها وفي توريثها بغير الطاري خلاف، إلا أن يكون معها ولد وأقر بنكاحها وأن هذا ولدي فيرثانه معاً، لأن استلحاقه له قاطع للتهمة ورافع لها عن عندهم أبو عمرو في الإقرار بوارث غير الزوج والولد قولان، انتهى والله الموفق للصواب، انتهى الكتاب بإعانة الملك الوهاب، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد أفضل من أوتي الحكمة وفصل الخطاب وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الثأب والحمد لله رب العالمين».

ملاحظات: تمليك لشخص يدعى ابن الشاذلي اشتراه بثمن معلوم سنة

1294هـ / 1877م.

2.3. نماذج من مسائل النسخة المعتمدة في التحقيق:

3 20:11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ + وَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِطَاعَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِطَاعَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِطَاعَتِهِ

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١

١٥٠٠
 ١٤٩٩
 ١٤٩٨
 ١٤٩٧
 ١٤٩٦
 ١٤٩٥
 ١٤٩٤
 ١٤٩٣
 ١٤٩٢
 ١٤٩١
 ١٤٩٠
 ١٤٨٩
 ١٤٨٨
 ١٤٨٧
 ١٤٨٦
 ١٤٨٥
 ١٤٨٤
 ١٤٨٣
 ١٤٨٢
 ١٤٨١
 ١٤٨٠
 ١٤٧٩
 ١٤٧٨
 ١٤٧٧
 ١٤٧٦
 ١٤٧٥
 ١٤٧٤
 ١٤٧٣
 ١٤٧٢
 ١٤٧١
 ١٤٧٠
 ١٤٦٩
 ١٤٦٨
 ١٤٦٧
 ١٤٦٦
 ١٤٦٥
 ١٤٦٤
 ١٤٦٣
 ١٤٦٢
 ١٤٦١
 ١٤٦٠
 ١٤٥٩
 ١٤٥٨
 ١٤٥٧
 ١٤٥٦
 ١٤٥٥
 ١٤٥٤
 ١٤٥٣
 ١٤٥٢
 ١٤٥١
 ١٤٥٠
 ١٤٤٩
 ١٤٤٨
 ١٤٤٧
 ١٤٤٦
 ١٤٤٥
 ١٤٤٤
 ١٤٤٣
 ١٤٤٢
 ١٤٤١
 ١٤٤٠
 ١٤٣٩
 ١٤٣٨
 ١٤٣٧
 ١٤٣٦
 ١٤٣٥
 ١٤٣٤
 ١٤٣٣
 ١٤٣٢
 ١٤٣١
 ١٤٣٠
 ١٤٢٩
 ١٤٢٨
 ١٤٢٧
 ١٤٢٦
 ١٤٢٥
 ١٤٢٤
 ١٤٢٣
 ١٤٢٢
 ١٤٢١
 ١٤٢٠
 ١٤١٩
 ١٤١٨
 ١٤١٧
 ١٤١٦
 ١٤١٥
 ١٤١٤
 ١٤١٣
 ١٤١٢
 ١٤١١
 ١٤١٠
 ١٤٠٩
 ١٤٠٨
 ١٤٠٧
 ١٤٠٦
 ١٤٠٥
 ١٤٠٤
 ١٤٠٣
 ١٤٠٢
 ١٤٠١
 ١٤٠٠
 ١٣٩٩
 ١٣٩٨
 ١٣٩٧
 ١٣٩٦
 ١٣٩٥
 ١٣٩٤
 ١٣٩٣
 ١٣٩٢
 ١٣٩١
 ١٣٩٠
 ١٣٨٩
 ١٣٨٨
 ١٣٨٧
 ١٣٨٦
 ١٣٨٥
 ١٣٨٤
 ١٣٨٣
 ١٣٨٢
 ١٣٨١
 ١٣٨٠
 ١٣٧٩
 ١٣٧٨
 ١٣٧٧
 ١٣٧٦
 ١٣٧٥
 ١٣٧٤
 ١٣٧٣
 ١٣٧٢
 ١٣٧١
 ١٣٧٠
 ١٣٦٩
 ١٣٦٨
 ١٣٦٧
 ١٣٦٦
 ١٣٦٥
 ١٣٦٤
 ١٣٦٣
 ١٣٦٢
 ١٣٦١
 ١٣٦٠
 ١٣٥٩
 ١٣٥٨
 ١٣٥٧
 ١٣٥٦
 ١٣٥٥
 ١٣٥٤
 ١٣٥٣
 ١٣٥٢
 ١٣٥١
 ١٣٥٠
 ١٣٤٩
 ١٣٤٨
 ١٣٤٧
 ١٣٤٦
 ١٣٤٥
 ١٣٤٤
 ١٣٤٣
 ١٣٤٢
 ١٣٤١
 ١٣٤٠
 ١٣٣٩
 ١٣٣٨
 ١٣٣٧
 ١٣٣٦
 ١٣٣٥
 ١٣٣٤
 ١٣٣٣
 ١٣٣٢
 ١٣٣١
 ١٣٣٠
 ١٣٢٩
 ١٣٢٨
 ١٣٢٧
 ١٣٢٦
 ١٣٢٥
 ١٣٢٤
 ١٣٢٣
 ١٣٢٢
 ١٣٢١
 ١٣٢٠
 ١٣١٩
 ١٣١٨
 ١٣١٧
 ١٣١٦
 ١٣١٥
 ١٣١٤
 ١٣١٣
 ١٣١٢
 ١٣١١
 ١٣١٠
 ١٣٠٩
 ١٣٠٨
 ١٣٠٧
 ١٣٠٦
 ١٣٠٥
 ١٣٠٤
 ١٣٠٣
 ١٣٠٢
 ١٣٠١
 ١٣٠٠
 ١٢٩٩
 ١٢٩٨
 ١٢٩٧
 ١٢٩٦
 ١٢٩٥
 ١٢٩٤
 ١٢٩٣
 ١٢٩٢
 ١٢٩١
 ١٢٩٠
 ١٢٨٩
 ١٢٨٨
 ١٢٨٧
 ١٢٨٦
 ١٢٨٥
 ١٢٨٤
 ١٢٨٣
 ١٢٨٢
 ١٢٨١
 ١٢٨٠
 ١٢٧٩
 ١٢٧٨
 ١٢٧٧
 ١٢٧٦
 ١٢٧٥
 ١٢٧٤
 ١٢٧٣
 ١٢٧٢
 ١٢٧١
 ١٢٧٠
 ١٢٦٩
 ١٢٦٨
 ١٢٦٧
 ١٢٦٦
 ١٢٦٥
 ١٢٦٤
 ١٢٦٣
 ١٢٦٢
 ١٢٦١
 ١٢٦٠
 ١٢٥٩
 ١٢٥٨
 ١٢٥٧
 ١٢٥٦
 ١٢٥٥
 ١٢٥٤
 ١٢٥٣
 ١٢٥٢
 ١٢٥١
 ١٢٥٠
 ١٢٤٩
 ١٢٤٨
 ١٢٤٧
 ١٢٤٦
 ١٢٤٥
 ١٢٤٤
 ١٢٤٣
 ١٢٤٢
 ١٢٤١
 ١٢٤٠
 ١٢٣٩
 ١٢٣٨
 ١٢٣٧
 ١٢٣٦
 ١٢٣٥
 ١٢٣٤
 ١٢٣٣
 ١٢٣٢
 ١٢٣١
 ١٢٣٠
 ١٢٢٩
 ١٢٢٨
 ١٢٢٧
 ١٢٢٦
 ١٢٢٥
 ١٢٢٤
 ١٢٢٣
 ١٢٢٢
 ١٢٢١
 ١٢٢٠
 ١٢١٩
 ١٢١٨
 ١٢١٧
 ١٢١٦
 ١٢١٥
 ١٢١٤
 ١٢١٣
 ١٢١٢
 ١٢١١
 ١٢١٠
 ١٢٠٩
 ١٢٠٨
 ١٢٠٧
 ١٢٠٦
 ١٢٠٥
 ١٢٠٤
 ١٢٠٣
 ١٢٠٢
 ١٢٠١
 ١٢٠٠
 ١١٩٩
 ١١٩٨
 ١١٩٧
 ١١٩٦
 ١١٩٥
 ١١٩٤
 ١١٩٣
 ١١٩٢
 ١١٩١
 ١١٩٠
 ١١٨٩
 ١١٨٨
 ١١٨٧
 ١١٨٦

[illegible]

مقدمة المخطوط

المحور الثاني: تحقيق المسائل المختارة

[مسألة]: التنازع في الجدار والتخوم⁽¹⁾

وإذا تنازع رجلان جدارًا بين داريهما، فالحكم فيه إن لم تشهد لهما أو لأحدهما به
بيّنة عادلة، أن يقضي به لمن شهد له به العرف والعادة أنه له، فمن ذلك القمط⁽²⁾

(1) بضم أوله وثانية (جمع: تُخْم)، وهو حد الأرض. ينظر: الفيومي أحمد بن محمد المقرئ (770هـ / 1368م)، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، 1987، ص 42.

(2) واحدا قماط، ومعناه: الشّد، ومنه قَمَطَ الصَّبِي: لَفَّ في الخرق. ينظر: الزبيدي مرتضى محمد بن محمد الحسيني (ت 1205هـ / 1790م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي هلاي، مراجعة: مصطفى حجازي وآخران، ج 20، ط 1، الكويت، 2001، ص 54.

وفسر بعضهم بأنه ما يُشَدُّ به وجه الحائط ويمنعه من الانتثار، وقيل: السواري تبنى في الحائط. ينظر: الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي (914هـ / 1508م)، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، تحقيق: أحمد بوطاهر الخطابي، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1980، ص 392. المنجور أحمد بن علي المنجور (ت 995هـ / 1586م)، شرح المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب، تحقيق: محمد الشيخ الأمين، دار عبد الله الشنقيطي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص 444. ميارة الفاسي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد (ت 1072هـ / 1661م)، الإلتقان والإحكام شرح تحفة الحكام، تحقيق: محمد عبد السلام محمد سالم، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص 460، 461. النفراوي أحمد بن غنيم بن سالم بن مهنا الأزهرى المالكي (ت 1126هـ / 1714م)، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد الوارث محمد علي، ج 2، ط 1، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1997، ص 386. التسولي أبي الحسن علي بن عبد السلام (ت 1258هـ / 1844م)، البهجة في شرح التحفة، ضبطه وصححه: محمد عبد القادر شاهين، ج 2، ط 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1998،

ومعاهد الأركان والطيقان وغرز الخشب⁽¹⁾ والباب فيكون فيه، والأصل فيه حكم
حُذيفة [بن اليمان]⁽²⁾ حين يعثه رسول الله ﷺ / 26 و / للنظر في ذلك⁽³⁾، فإذا ادّعاه



ص 340، 341.

(1) عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: « لا يمنع احدكم جاره أن يغرز خشبه في داره ». أخرجه: مسلم في صحيحه [كتاب: المساقاة / باب: غرز الخشب في جدار الجار]، حديث رقم: 1609، ص 136.

قال النووي: « واختلف العلماء في معنى الحديث هل هو على النذب إلى تمكين الجار من وضع الخشب على جدار جاره أم على الإيجاب؟ وفيه قولان للشافعي وأصحاب مالك أصحهما في المذهبين: النذب؛ وبه قال أبو حنيفة والكوفيون، والثاني: الإيجاب؛ وبه قال أحمد وأبو ثور وأصحاب الحديث، وهو ظاهر الحديث ». ينظر: النووي أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف الشافعي (ت 676هـ / 1277م)، شرح صحيح مسلم، المطبعة المصرية بالأزهر، مصر، 1929، ص 47، 48.

(2) أبو عبد الله حذيفة بن حسيل بن جابر العبسي اليماني الأزدي، من أعيان المهاجرين، حدث عنه زيد بن وهب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وهمام بن الحارث وغيرهم، له في الصحيحين اثنا عشر حديثاً، وفي البخاري ثمانية، وفي مسلم سبعة عشر حديثاً، توفي بالمدائن بعد عثمان. له ترجمة في: الذهبي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ / 1374م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1996، ص 391 - 369.

الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، قدم له وقرظه: محمد عبد المنعم البري وآخرون، ج 2، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1995، ص 40. ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي (ت 852هـ / 1448م)، تهذيب التهذيب، ج 1، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 367.

(3) من حديث يمران بن جارية عن أبيه أن قوماً اختصموا إلى النبي ﷺ في خُصٍّ كان بينهم فبعث حذيفة يقضي بينهم، فقضى للذين يليهم القُمُطُ، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ أخبره فقال: أصبت

أحدهما دون صاحبه، وسأل من القاضي؟ بعث أهل البصرة لرؤيته، أجابه لئلا يضيع حقه، وقيل: لا يلزمه ذلك إلا أن يشأ، الباجي⁽¹⁾: وتلزمه اليمين مع العقد، قاله مُطرف⁽²⁾ وابن الماجشون⁽³⁾، وكذلك إن نكلاً، وإلا فهو للحالف منهما.



وأحسن. أخرجه: ابن ماجه في سننه [كتاب: الأحكام / باب: الرجلان يدعيان في خص]، حديث رقم: 2343، ص 433. والبزار في مسنده (مسند جارية بن ظفر الحنفي)، حديث رقم: 3791، ج 9، ص 251.

(1) الباجي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب المالكي الأندلسي (ت 494 هـ / 1100 م)، المنتقى شرح موطأ الإمام مالك، ج 5، ط 3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ص 235.

(2) أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن سليمان بن يسار الهلالي المدني، مولى ميمونة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، وهو ابن أخت مالك بن أنس، روى عن مالك وابن أبي الزناد وابن الماجشون وغيرهم، وروى عنه أبو زرعة وأبو حاتم، والبخاري في الصحيح، توفي في صفر سنة 220 هـ / 835 م، وقيل: 214 هـ / 829 م. له ترجمة في: البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ / 869 م)، التاريخ الكبير، مراقبة: محمد عبد المغني خان، ج 7، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 397. عياض القاضي أبو الفضل عياض بن موسى البحصبي السبتي (ت 544 هـ / 1149 م)، ترتيب المدارك وتقري بالمسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، تحقيق: أحمد بكير محمود، ج 1، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص 358. الشيرازي أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت 772 هـ / 1370 م)، طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، ط 2، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص 147.

(3) أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون المدني، اسمه ميمون، ولقبه أبا سلمة، والماجشون صبغ يكون بالمدينة، تفقه على يد والده والإمام مالك وإبراهيم بن سعد، وروى عنه سليمان بن داود المصري وعمرو بن علي، توفي سنة 212 هـ / 827 م. له ترجمة في:

تنبيه:

ولو اختلفت دعواهما فيه، قال أحدهما: أنه لي كله، وقال الآخر: بل بيننا، قال
مُطرف: لمن يدّعيه منه ثلثاه وللآخر ثلثه، وقال ابن الماجشون: لمدّعٍ كله ثلاثة أرباعه
وللآخر ربعه، وبالأول قال مالك وأشهب⁽¹⁾ وابن وهب⁽²⁾ وأصيبغ⁽³⁾ وابن كنانة⁽¹⁾،



البخاري، التاريخ الكبير، ج 5، ص 424. عياض القاضي، ترتيب المدارك، ج 1، ص 360. ابن حجر
العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 6، ص 408.

(1) أبو عمرو أشهب بن مسكين بن عبد العزيز بن داود القيسي بن إبراهيم المعافري الجعدي من
ولد جعدة بن كلاب بن ربيعة بن عامر، اسمه مسكين، وأشهب لقبه، ولد سنة 140 هـ / 757 م،
وقيل سنة 150 هـ / 767 م، روى عن مالك والليث والمنذر بن عبد الله الخزامي، وروى عنه بنو
عبد الحكم وسحنون بن سعيد، كانت له رئاسة المذهب بعد ابن القاسم، توفي بمصر في رجب سنة
204 هـ / 819 م، وقيل سنة 203 هـ / 820 م، من تصانيفه: « كتاب في اختلاف القسامة »،
كتاب في فضائل عمر بن عبد العزيز». له ترجمة في: عياض القاضي، ترتيب المدارك، ج 1، ص 447.
البخاري، التاريخ الكبير، ج 2، ص 57. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 1، ص 359.
(2) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري المصري، من أصحاب مالك، جمع بين الفقه
والحديث والعبادة. له ترجمة في: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 1، ص 279. ابن حجر العسقلاني،
تهذيب التهذيب، ج 6، ص 7.

وابن فرحون برهان الدين إبراهيم بن علي (ت 799 هـ / 1396 م)، الديباج المذهب في معرفة
أعيان المذهب، تحقيق: علي عمر، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006، ص 132.

(3) أبو عبد الله أصيبغ بن الفرج بن سعد، سكن الفسطاط، روى عن الدراوردي، وعبد الرحمن بن
زيد عن أسلم وغيرهما، وعنه البخاري والذهلي وغيرهما، وعليه تفقه ابن المواز، وابن حبيب
وغيرهما، توفي سنة 225 هـ / 839 م، من مصنفاته: « كتاب الأصول »، « غريب الموطأ والرد على

وبالثاني قال ابن القاسم⁽²⁾، وقال عيسى [بن دينار]⁽³⁾: « أنه بينهما نصفين إذا حلفاً⁽⁴⁾، والكلام في جزئيات ما يتعلق بهذا إن كانا عقده من جهة أكثر ومن جهة أقل، أو عقده من جهة ومرافقة من جهة، أو كانا من جهة واحدة، والمرافق هي



أهل الأهواء». له ترجمة في: عياض القاضي، ترتيب المدارك، ج2، ص 561. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج1، ص 327، 328.

(1) عثمان بن عيسى بن كنانة المدني، لازم الإمام مالك وجلس في مجلسه بعد وفاته، توفي سنة 198هـ / 813م، وقيل سنة 186هـ / 802م. له ترجمة في: عياض القاضي، ترتيب المدارك، ج1، ص 292، 293. الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص 146.

(2) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري، عرف بابن القاسم، تفقه بالإمام مالك والليث بن سعد ومسلم بن خالد وغيرهم، وعنه أصبغ وسحنون وابن عبد الحكم ويحيى بن يحيى الليثي، توفي بمصر سنة 191هـ / 806م، روى المدونة عن مالك. له ترجمة في: ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج6، ص 252. عياض القاضي، ترتيب المدارك، ج2، ص 433. والذهبي أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد (ت 748هـ / 1347م)، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص 356، 357.

(3) أبو محمد عيسى بن دينار بن وهب القرطبي، الفقيه العابد، لم يسمع من مالك، وسمع من ابن القاسم وصحبه، وله عشرون كتاباً في سماعه عنه، توفي سنة 212هـ / 823م له ترجمة في: ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2، ص 66.

ومخلوف محمد بن محمد بن عمر بن قاسم (ت 1360هـ / 1941م)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرّج حواشيه وعلق عليه: عبد الحميد خيالي، ج2 ن ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2003، ص 66.

(4) التطيلي عيسى بن موسى (386هـ / 996م)، كتاب الجدار، دراسة وتحقيق: إبراهيم بن محمد الفايز، ط 1، دار روائع الكتب للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1996، ص 227.

الكوة⁽¹⁾ والباب وحمل الخشب والبناء عليه، أو كان لأحدهما فيه عقد وللآخر فيه كوة وباب، أو لأحدهما وللآخر حمل خشب طويل، ولو لم يكن شاهد عرف لواحد منهما، فهو بينهما ولو كان كذلك، إلا أن وجه البناء لأحدهما وللآخر ظهره، فقيل: أنه لمن إليه وجهه، وقال سحنون⁽²⁾: لا عبرة بذلك وهو ظاهر ولو كان لأحدهما وأراد هدمه وهو قوي لا يخشى سقوطه لم يكن له ذلك إن فهم عنه إرادة الضّر وبجاره الذي هو سترة له، فإن هدمه ففي جبره على إعادته خلاف، وأما لو انهدم بساوي لم يجبر على رده، ويقال للجار: أستر على نفسك إن شئت في حقك، وقال ابن كنانة: يجبر على رده.⁽³⁾

(1) جمعها كَوَاتٌ وكِوَاءٌ وكُوَى، والكُوْ: الخرق في الجدار يدخل منه الهواء والضوء. ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، إشراف: شوقي ضيف، جمهورية مصر العربية، 2004، ص 806.

(2) أبو سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني، ولد بالقيروان سنة 160 هـ / 776 م، رحل إلى المدينة فصصح الأسدية (أجوبة ابن القاسم لابن الفرات)، فكانت المدونة الجامعة لآراء مالك وابن القاسم، توفي سنة 240 هـ / 854 م. من تصانيفه: « المدونة الكبرى »، « التنبيه على مبادئ التوجيه »، « المقدمات الممهدة »، « الشرح الصغير على تهذيب البرادعي ».

له ترجمة في: الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص 132، 133.

وابن العماد أبو الفلاح عبد الحي (ت 1085 هـ / 1674 م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج2، دار المسيرة، بيروت، 1979، ص 94. المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد (ت 453 هـ / 1061)، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسّاكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: البكوش بشير، مراجعة: المطوي محمد العروسي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1983، ص 249.

(3) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج9، ص 220، 221.

وابن أبي زيد القيرواني أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت 386 هـ / 996 م)، النوادر والزيادات

تنبيه:

إذا ثبت أنه بينهما لم يكن لأحدهما أن يحدث فيه شيئاً من رفع بنيان، أو غرز خشب إلا بإذن شريكه، وأما التداعي في التخوم فلا يخلو أن تكون الأرض متساوية في الارتفاع، أو تكون إحدهما أعلى من الأرض الأخرى، فإن كانتا متساويتين، فحكمهما حكم الجدار بين الرجلين يكون لمن حلف منهما أنه له دون من لم يحلف، فإن حلفاً أو نكلاً كان بينهما نصفين⁽¹⁾، وإن كانت أرض أحدهما أعلى وتداعيا في ذلك، فعن ابن القاسم: أنه لصاحب المرتفعة، حكاه عنه ابن هشام وعليه المعول، وحكى عنه غيره: أنه لا يعتبر بارتفاع التخوم في أرض أحدهما عن أرض صاحبه، قال بعضهم: وصاحب السفلى يطلب صاحب المرتفعة، لأنها تنهار في كل سنة، وتزيد في الأرض السفلى بالتخوم لصاحب المرتفعة على كل حال، سواء كان بالبنيان أو بغيره، لأن صاحب العليا ما يبني تحمه حتى ترى أرضه تذهب، فعلى الأول هل لصاحبه تغييره أم لا؟ فيه خلاف، وجاء ملعون من غير منار الأرض⁽²⁾، المقرب: لو قال رجل



على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ج 11، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 103.

(1) ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، ج 11، ص 103.

(2) عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: « ملعون من غيّر تخوم الأرض ». أخرجه: الحاكم في مستدركه (كتاب: الحدود)، حديث رقم: 8052، ج 4، ص 396. وابن حبان في صحيحه [كتاب: الحدود / باب: الزنى وحده]، حديث رقم: 4417، ج 10، ص 265، 266. والهيثمي في مجمع الزوائد [كتاب: الإيمان / باب: في الكبائر]، حديث رقم: 384، ج 1، ص 505، 506.

لآخر أعطني ثمن ثوبي الذي بعته، فقال: إنما أمرتني ببيعه حلف أنه باعه منه وأخذ ثمنه، فإن نكل حلف الآخر وبرئ.⁽¹⁾

وقف المدعي فيه:

وإذا اتجه أمر الطالب، وقف / 26 ظ / له الشيء المدعى فيه وفقاً يمنع من الإحداث فيه ممن هو في يده، لا يحفر ولا يهدم ولا يبنّي ولا يبيع، قاله بعض رواة المدونة، وإلا تجده هو أن يأتي بيّنة تشهد بتملكه له، وإن لم تكن له قاطعة، أو بعدل، وأما لو جاء بعدول وجازوا الشهود، وجب ضرب الأجل للمطلوب في مدفع إن كان عنده، فإن كانت الدعوى في دار اعتقلت بالقفل بحضرة سيدين يوجههما القاضي لذلك بعد تأجيله في إخلائها، فرد ما يرتاد مسكناً ينتقل إليه، وإن كانت الدعوى فيما له خراج، كالفنادق والخوانيت والحمامات والأفران⁽²⁾ والأرحى، وشبهه مما هو معد للاستغلال، وقف الخراج إن كانت الدعوى في بعض الملك، وقف الكراء كله، وقيل:

(1) ذهب ابن العطار إلى أن الثوب إن كان بأيديهما يتجاذبان، يقول الواحد لي نصفه، والثاني له كله، حلّفا وقسم بينهما، لأن مدعي النصف نصفه بيده، والجدار بأيديهما، وإن كان الثوب بيد غيرهما كان لمدعي النصف ربه، ومدعي الكل ثلاثة أرباعه بعد أيانها، لأن مدعي الكل يقول لمدعي النصف أنت مقر لي بالنصف ولا تنازعني فيه، وأنا أنازعك فيه، فيقسم بينهما النصف الثاني بعد أيانها. ينظر: ابن العطار محمد بن أحمد الأموي (ت 399 هـ / 1009 م)، كتاب الوثائق والسجلات، اعتنى بتحقيقه ونشره: ب. شالميتا وف. كورينطي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، 1983، ص 122.

وانظر: ابن رشد، البيان والتحصيل، ج 14، ص 189. التسولي، البهجة، ج 2، ص 141.

(2) الذي يُخبز عليه غير التنور، والفرنّي الخبز نفسه، وقيل: القرن الخبزة، ينظر: الفيومي، المصباح المنير، ص 179.

بقدر المستحق منه، ونحوه في المنتخب⁽¹⁾، ولو قال المطلوب: ليس هذا الملك لي، وإنما هو لابني ولفلان الحاضر لم يمنع المدعي من إقامة البينة، فإن أثبت المطلوب ما قال، رجعت لخاصة المدعي مع مالكة، أو ولي مالكة إن كان تحت ولاية، ولو ثبت أنه لغائب انصرف الخصام إليه، قال ابن القاسم: فيمن أقام بينة غير قاطعة في شيء بثمن هو بيده أن يبيعه ويصنع فيها ما أحب وأنكره سحنون، ورأى أن البيع في ذلك غرر لا يجوز.⁽²⁾

[مسألة]: الحكم فيمن أراد أن يحفر بئرًا في داره أو ينشئ سانية⁽³⁾ بجنته أو

أرضه فاعترضه جاره أن ذلك يضر به في بئر أو سانيته أو جداره

والقضاء أن من أراد إحداث بئر أو سانية بملكه، وكان ذلك مما يضر بجدار ملك جاره، فإنه منع باتفاق، حتى وإن لم يضر ذلك بئر أو سانيته، وأما من له بئر، أو سانية بجنته، أو أرضه، فمعلوم أن ذلك يحتاج لكثرة الماء لسقي الأشجار وإحياء ثمارها وما يزرع فيها، أو ينشئه من غرس، فإذا أراد أن يحفر بقرب ذلك بئرًا أو سانية، وقال أهل المعرفة والبصر بشدة الأرض ورخائها، أن ذلك ينقص من مائه ويضر به في غرسه وزرعه منع من ذلك، لأنه ضرر كبير، فيقال لمريد ذلك أردمه إن كان حفره،

(1) ابن أبي زمنين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى (ت 399 هـ / 1008 م)، منتخب الأحكام، تحقيق: عبد الله بن عطية الرداد الغامدي، ط 1، مؤسسة الريان، بيروت - لبنان، 1998، ص 249، 250.

(2) المدونة، ج 5، ص 187.

(3) بمعنى: الساقية، وهي الغرب وأداته، والناقة يسقى عليها. ينظر: الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817 هـ / 1414 م)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، ج 4، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987، ص 345.

وباعده بحيث لا يضر به صاحب الجنة أو الأرض، ولا حد لقرب ذلك ولا لبعده، إلا ما يقوله أهل المعرفة، قرب أرض صلبة لا يتقى ذلك فيها ولو قرب، وأخرى يتقى ذلك فيها مع البعد، وأما بئر الماشية والزرع فيحتاج صاحبها أيضًا لسقي مواشيه وزروعاته، فيحتاج في البئر قدر ما يكفيه، فإذا جاءه من ينقص ماءه أدخل عليه الضرر، وبخلاف الدور فإنها يكتفي باليسير من المياه، إذ لا يحتاج إن كان عذبًا إلا للشرب، قال أشهب: إن أراد إحداث ذلك في ملكه وكان مما يضر بجاره، لم تدفعه لذلك ضرورة منع إن اضطر لذلك ولم يجد عنه مندوحة، فله أن يحفر وإن أضر بجاره لأنه يضر به منعه كما يضر بجاره حفرة، فهو أولى أن يمنع جاره أن يضر به في منعه من الحفر في حقه لأنه ماله، قال ابن كنانة: له أن يحفر في داره بئرًا، وإن أضر حفرة ببئر جاره للحديث: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارٌ»⁽¹⁾، وقد قال أكثر العلماء: إذا اجتمع ضرران سقط أصغرهما لأكبرهما⁽²⁾، والذي يمنع أن يحفر بداره وهو لا يضر حيطان جاره، أقوى لما منع من حفر بئر في داره به نفسه ويستتر به أهله، والآخر أخف ضررًا لما ينقص الماء من بئرته والماء يزيد بأيسر شيء، قال ابن القاسم في أرباب الدور: إذا حفر بعض جيراننا بئرًا أو كنيفًا في داره فأضر ذلك بالبئر الأول منع من ذلك وردم عليه،

(1) أخرجه: البيهقي في السنن الكبرى [كتاب: إحياء الموات / باب: من قضى فيما بين الناس بها فيه صلاحهم ودفع الضرر عنهم على الاجتهاد]، حديث رقم: 11878، ج 6، ص 258. وابن ماجه في سننه [كتاب: الأحكام / باب: من بني في حقه ما يضر جاره]، حديث رقم: 2340، ص 432. ومالك في الموطأ [كتاب: الأفضية / باب: القضاء في المرفق]، حديث رقم: 2171، ص 290.

(2) ابن تيمية أبو العباس تقي الدين أحمد عبد الحليم الحراني (ت 728هـ / 1327م)، مجموع الفتاوى، ج 23، ط 3، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، 2005، ص 343.

وله في النوادر⁽¹⁾: فيمن حفر بئرًا بعيدة من بئر جاره، وكان أحيا لها قبل ذلك، وانقطع ماء البئر الأول، وعلم أنه إنما انقطع من حفر هذه الثانية، فله أن يقوم على الثاني، فيردم عليه بئر المحدثه، وقال أيضًا: من حفر بئرًا في غير ملكه أو في طريق المسلمين، أو حفرها في أرض رجل بغير أمر رب الأرض، أو حفرها بجانب بئر ماشية بغير أمر رب البئر فأضر ببئر الماشية من ذلك.⁽²⁾

تنبيه:

فإن عطب في ذلك رجل أو بهيمة ضمن الحافر، وقد قال مالك⁽³⁾: من حفر بئرًا حيث لا يجوز له، فهو ضامن ما عطب فيها أنه يؤخذ به / 37 و / وكذلك كل من فعل شيئًا يتلف به الأموال والأنفس، كمن [حفر] مكانًا يتردى فيه إنسان أو بهيمة، أو حفر حفرة حول زرعه أو بحائره أو جناته أو بداره لإضرار الدواب به في ذلك، أو لمريض به من اللصوص في مخزنه، أو مجتمع بيت، أو لمن يخالفه لامراته أو لجاريته، وكذلك من حدد قصبًا أو عيدانًا بموضع من جنته، أو دراه قصدًا لإهلاك، أو ظالم، أو نصب هنالك ما يعطب به من يؤذيه في سرقة ثمرته، أو بقوله أو غنمه أو متاعه هذا إن هلك به المقصود وإن علمك به من لم يرصد بذلك فالدية أو القيمة، وانظر لو فعل في ذلك غير الحافر أو الناصب له ما قلنا، قال أبو عمر: « فإن رده غير فعل المردى

(1) ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، ج 11، ص 14.

(2) المصدر نفسه، ج 11، ص 24.

وانظر: المدونة [كتاب: حريم الآبار / باب: فيمن حفر بئرًا إلى جانب بئر جاره]، ج 15، ص 196.

(3) المدونة [كتاب: الديات / باب: ما جاء في رجل حفر بئرًا على طريق المسلمين]، ج 15،

تقديمًا للمباشرة على السبب»⁽¹⁾، واختلف في السبب الذي يحصل بمباشرة الضمان إذا تناول التلف بواسطة سبب تأخر، قال مالك: يضمن هل يحصل به ضمان أم لا؟ كمن فتح قفصًا فيه طائر فطار عقب الفتح، قال مالك: يضمن لهاجه على ذلك الطيران بعد الفتح أو لم ينجه، قال بعض الشيوخ: ومن هذا المعنى من حفر بئرًا فسقط فيه شيء فهلك إذا حفره، بحيث يكون حفره بعيدًا ضمن ما تلف فيه وإلا جلى، وانظر هل يشترط في المباشرة العمد أم لا؟ والأشهر عندنا أن الأموال تضمن عندنا بالعمد والخطأ، وإن كانوا قد اختلفوا في مسائل قريبة من هذا المعنى، وانظر هل يشترط أن يكون مختارًا؟ هذا ما فيه خلاف عندنا، كمن أكره على إتلاف مال شخص⁽²⁾، قال ابن هشام عن أصبغ: فيمن حفر بئرًا في داره [بياض] في دار جاره، فادعى أنه أضرب بئره لم يمنع، حتى يتبين ضرره باحتراز ماء بئر جاره لبيع داره، وقال الميتي⁽³⁾: إن كانت

(1) الرافعي أبي القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القزويني (ت 623هـ / 1226م)، الشرح الكبير، تحقيق: علي محمد عوض وعثدا أحمد عبد الموجود، ج5، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1997، ص399.

(2) ابن رشد أبي الوليد محمد بن أحمد المالكي القرطبي (ت 520هـ / 1126م)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2015، ص137.

(3) القاضي أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، يعرف بالمتطي السبتي الفاسي، أخذ عن أبي الحجاج المتطي وأبي محمد بن القاضي وغيرهما، له كتاب كبير في الوثائق يعرف بالمتيطة، اعتنى به جماعة من أهل العلم، توفي سنة 570هـ / 1174م. له ترجمة في: التنبكتي، نيل الابتهاج، ص314. كفاية المحتاج، ص255. 2004. مخلوف، شجرة النور الزكية، ص163.

وابن القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي العافية المكناسي (ت 1025هـ / 1616م)، جذوة

الأرض رخوة، وإن كانت صلبة لم يمنع، ولأصبع في كتاب ابن عبد الحكم⁽¹⁾ في آبار الدور: إذا حفر أحدهم بئراً ثم حفر جاره بداره بئراً، استشرف به مع الآخر منع الحدث لأنها من الضرر.⁽²⁾

[مسألة]: الحكم في العين تكون في أرض جار فنبعت منها في أرض جاره

حكى ابن يونس⁽³⁾ وغيره عن أصبع، أنه سئل عن العين تكون في أرض الرجل ولجنبه أرض لجاره، فنبعت فيها عين من تلك العين، فأراد رب الأرض سد هذه



الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج2، دار المنصور للطباعة والوراق، الرباط، 1973، ص480.

(1) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث المصري، سمع مالك والليث وغيرهما، كان صديقاً للشافعي، توفي سنة 214 هـ / 829 م، من مصنفاته: «المختصر الكبير»، «القضاء في البنيان»، «المناسك». له ترجمة في: عياض القاضى، ترتيب المدارك، ج2، ص523. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج5، ص256. مخلوف، شجرة النور الزكية، ج2، ص59.

(2) ابن عبد الحكم، المختصر الكبير، ص306، 307.

(3) أبو بكر (وقيل: أبو عبد الله) محمد بن عبد الله بن يونس، تميمي النسب، اشتهر على ألسنة شراح خليل وأصحاب الحواشي عليه بابن يونس، أخذ عن ابن الحصائري، وأبو الحسن القابسي، وأبو عمران الفاسي، وعنه عبد الكريم الصقلي، وعمر بن الحذاء القيسي، من تصانيفه: كتاب الجامع، كتاب الفرائض، توفي سنة 451 هـ / 1059 م. له ترجمة في: عياض القاضى، ترتيب المدارك، ج8، ص114. ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2، ص369، 370. ابن بشكوال أبي القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578 هـ 1182 م)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقائهم وادبائهم، حققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، ج2، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2010، ص.

خيفة أن تغور عينه، قال: إن كان لم يستحدث ذلك ولم يحتفره، يريد أن يجريه ماء العين لنفسه، فليس له منعه من ذلك، لأنه شيء ساقه الله إليه، فليس له صرفه عنه وإن كان هو الذي احتفر ذلك، وأجراه لأرضه بحفير، أو شيء صنعه فليس له ذلك، وللأول منعه وسد ما ينبع منه في أرض الجار، وبه قال ابن القاسم، وانظر فيمن له شجرة أرضه تندفع عروقها في أرض جاره، ويصير منها غرسات.⁽¹⁾

[مسألة]: الحكم فيمن أراد أن يجري ماءه في أرض غيره لأرض له أخرى أو

لداره أو حمامه أو عرصة⁽²⁾ أنشأها / 37ظ /

ومن أراد أن يسوق ماءه لملكه، وقد حالت بينه وبين ذلك أرض غيره، ولا يجد سبيلاً لذلك إلا بإجرائه في أرض الغير فمنعه صاحبها من ذلك، قال ابن القاسم عن مالك: له منعه، ولم يأخذ بما روي عن عمر في ربيع بن عوف⁽³⁾، ولا بما ورد في خليج الضحاك⁽⁴⁾ مخافة أن استحق جري الماء في أرض الرجل⁽¹⁾، وقال: «تحدث للناس

(1) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج 9، ص 409، 410.

(2) عرصة الدار: ساحتها، والجمع عراض، وهي البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء. ينظر: الفيومي، المصباح المنير، ص 153.

(3) عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أنه قال: كان في حائط جدي ربيع عبد الرحمن بن عوف، فأراد أن يحوله إلى ناحية من الحائط هي أقرب إلى أرضه، فمنعه صاحب الحائط، فكلم عمر بن الخطاب، ف قضى لعبد الرحمن بن عوف بتحويله. ينظر: مالك، الموطأ (كتاب: الأقضية)، حديث رقم: 1563، ج 3، ص 575. البيهقي، معرفة السنن والآثار، ج 4، ص 541. بداية المجتهد، ج 4، ص 133.

(4) أبو عبد الرحمن الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة بن وائل بن عمرو بن سنان بن محارب بن فهر الفهري، روى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عنه الحسن البصري، ومحمد بن سودة،

أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»⁽²⁾، ولو كان في وقت أناس كما في زمن عمر لكان لهم ذلك، وبهذا العمل لحديث: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنِ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ»⁽¹⁾، وحكى ابن نافع⁽²⁾ عن مالك أن له ذلك.



وأبو إسحاق السبيعي، وتميم بن طرفة وغيرهم، توفي سنة 64 هـ / 683 م. له ترجمة في: الإصابة، ج3، ص387، 388.

(1) عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه: أن الضحَّاك بن قيس ساق خليجاً له من العُرَيْض، فأرادوا أن يمر به في أرض محمد بن مسلمة، فأبى محمد، فقال له الضحَّاك: أنت تمنعني وهو لك منفعة، تسقي منه أولاً وآخرًا ولا يضرُّك؟ فأبى محمد، فكلَّم فيه الضحَّاك عمر بن الخطاب، فدعا عمر محمد بن مسلمة، فأمره أن يخلي سبيله، قال محمد: لا، فقال عمر: لا تمنع أخاك ما ينفعه ولا يضرُّك، فقال محمد: لا، فقال عمر: والله كَيْمَرَنَّ ولو على بطنك، فأمر عمر أن يمر به، ففعل الضحَّاك. أخرجه: مالك، الموطأ (كتاب: الأقضية)، حديث رقم: 1562، ج3، ص575. البيهقي، معرفة السنن والآثار، ج4، ص541. السنن الكبرى [كتاب: إحياء الأموات / باب: من قضى فيما بين الناس بما فيه صلاحهم]، حديث رقم: 11882، ج6، ص259. بداية المجتهد، ج4، ص133.

(2) ابن سهل أبي الأصمغ عيسى بن عبد الله الأسدي الجبالي (ت 486 هـ / 1093 م)، الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق: يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، 2007، ص168. ابن رشد، فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق: المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1987، ص961، 762. الشاطبي أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (ت 790 هـ / 1388 م)، الاعتصام، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ج1، مكتبة التوحيد، د، ت، ص301. البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي (ت 841 هـ / 1437 م)، فتاوى البرزلي جامع مسائل الاحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

تنبيه:

ظاهره لم يمنع من ذلك لضرر يخافه، وأنه لما يخشى من الاستحقاق⁽³⁾، وينبغي إن كانت هذه الأرض الحائلة بين مالكي مجرى المياه بيضاء عاطلة، أن لا يمنعه من إجرائه لأنه مما لا يضره، بل ربما نفع رب الأرض، نعم يشهد له بجريه فيها أنه عارية لديه لئلا يطول الأمد، فيأتي من لا يعرف كيف كان أصل جريه فيها، إلا أن يقول أهل المعرفة أن جريه في الأرض البيضاء يفسدها أو يضر بها من أجل فساد موضع الجرية



2002، ص 93. القرافي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي (684 هـ / 1285 م)، الذخيرة، تحقيق: محمد بوخبزة، ج 12، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 122. (1) أخرجه: البيهقي في السنن الكبرى [كتاب: الغصب / باب: لا يملك أحد بالجناية شيئاً جنى عليه إلا أن يشاء هو والمالك]، حديث رقم: ج 6، ص 160. (2) أبو محمد عبد الله بن نافع مولى بني مخزوم، المعروف بابن الصائغ، روى عن مالك وتفقه به، وكان مفتي المدينة بعده، توفي سنة 186 هـ / 802 م، من مصنفاته: « تفسير الموطأ ». له ترجمة في: ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 6، ص 48. ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 1، ص 409. (3) استحققه: استوجبه، وهو رفع ملك شيء بثبوت ملك قبله، أو حرية كذلك بغير عوض. ينظر: الفيروزابادي، القاموس المحيط، ج 4، ص 229. وانظر: الرصاع أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت 894 هـ / 1489 م)، شرح حدود ابن عرفة: الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، تحقيق: أبو الأجفان محمد والمعموري الطاهر، ج 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص 470.

بالتملّيح⁽¹⁾ لما يستقبل بخلاف جريانه في العامرة، لأنه يصلح ما كان معموراً زرعاً كان أو غيره على موضع الساقية.

[مسألة]: ما يحاز من الضرر وما يجب قطعه

ولا يستحق الضرر بالقدّم إلا أن يكون أقدم من المتأخر، ولا تكون الحيازة في أفعال الضرر حيازة تقوى به حجة محدثة، بل لا يزيد تقادمه إلا ظلمًا، وإنما اختلف الفقهاء في حيازة الضرر المحدث إذا سكت المتضرر به بعد علمه مدة تحاز بها الأملاك على ملاكها، مع صرف الموانع من صغر أو سفه أو خوف المحدث مثل أن يكون له سلطان يمتنع به، أو له عليه دين يخاف أن يسجنه فيه ونحو ذلك مما يتضح فيه العذر المشهور من المذهب أن يسجنه ونحو ذلك عشرة أعوام حيازة في ذلك، وبه قال أشهب وابن نافع، وقيل: خمسة عشر، وقيل: عشرين، وبه قال أصبغ، قال ابن حبيب: لا يحاز أصلاً، ابن مزين⁽²⁾: ما كان منه يبقى على حالة واحدة، ولا يتزيد كفتح

(1) المراد انتزاع النخل، قال في القموس: « واملخه: انتزعه ». ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج1، ص180.

(2) أبو زكريا يحيى بن مزين مولى رملة بنت عثمان بن عفان، أصله من طليطلة، وانتقل إلى قرطبة روى عن عيسى بن دينار، ومحمد بن عيسى الأعشى، ويحيى بن يحيى وغيرهم، ورحل إلى المشرق ولقي مطرف بن عبد الله، وروى عنه الموطأ، وسمع بمصر أصبغ بن الفرج، وعنه روى سعيد بن حميد، وسعيد بن عثمان وغيرهما، توفي سنة 259هـ / 872م. له ترجمة في: عياض القاضى، ترتيب المدارك، ج4، ص238، 239.

والضبي أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت 599هـ / 1203م)، بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج2، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، 1999، ص178.

الأبواب والكوى على الجار ونحوه، فهذا يستحق بها تستحق به الأملاك إذا علم به الشيخ ابن لبابة⁽¹⁾ العشر سنين في الضرر في الطرق، وقيل رواه عن أصبغ، والمعروف من قول أصبغ، وما أفتى به جميع المفتين بقرطبة أنه لا يستحق بالعشرين سنة إلا بما زاد عليها، قاله بعض الأسيخ الضرر القديم بما كان به قبل المتأذي لا يغير عن حاله، وإن أضر بجيرانه باتفاق، لأنه ضرر دخل عليه، وما كان منه بعد المتأذي به وطال زمانه، فمنه ما يستحق، ومنه ما لا يستحق وإن طال زمانه، فالذي لا يستحق وإن طال زمانه؛ دخان الحمامات والأفران وغبار الأندر⁽²⁾ وتتن دباج الدباغين، قال ابن هشام: ويقال لمحدثه احتل له وإلا فاقطعه قديماً كان أو محدثاً، سحنون: في قناة جرت على دار رجل سنة ذلك قليل، والأربع سنين والخمس لك حيازة واستحقاق، وفي سماع ابن عاصم: إذا رءا جاره يفعل ما عليه فيه ضرر فسكت حتى تمت نفقته وبناءه فهو رضى

(1) أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة، مولى عثمان بن عبيد الله بن عثمان، من أهل قرطبة، كان إماماً في الفقه، مقدماً على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر بالفتيا، ولد سنة 225 هـ / 839 م، وأخذ عن عثمان بن أيوب بن أبي الصلت القرطبي، والقاسم بن مالك بن أبي جعفر المزني، وأبان بن عيسى بن دينار وغيرهم، وعنه خالد بن وهب الصغير التيمي، وأحمد بن محمد بن زياد اللخمي، ويحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي وغيرهم، توفي سنة 314 هـ / 926 م. له ترجمة في: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 14، ص 495. ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 2، ص 189.

وابن الفرضي أبي الوليد عبد الله بن محمد (ت 403 هـ / 1012 م)، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج 2، ط 1، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، 1989، ص 562.

(2) البيدر: وهو المكان الذي تُداس فيه الحبوب، وجمعه: الأنادر. ينظر: الفيومي، المصباح المنير، ص 228. الجوهري، الصحاح، ج 2، ص 825.

منه، قال القاضي ابن عبد الرفيح⁽¹⁾: من قام على من أحدث عليه بنياناً أو غيره مما يضر به عند فراغ مقصده منه حلف أن سكوته لم يكن إسقاطاً لحقه ويقطع الضرر عنه، وسئل أصبغ عن بناء غرفة في داره وفتح فيها كوة يطل منها على جيرانه، ويفتح باباً في فناء غيره، وصاحب الفناء ينظر إليه، أو يعمل أندراً يضر برجل في داره أو جناته أو يسيل عليه ميزاباً⁽²⁾ ثم يقام عليه ولا حجة له عليهم أكثر من معرفتهم بما يصنعه، هل ينفعه ذلك ويقطع به حجتهم أم لا ينفعه ذلك؟ وكما الوقت الذي تنقطع فيه حجتهم حتى يكون سكوته فيه كالإذن له، وهل ذلك عنده بمنزلة من بنى عرصة غيره

(1) قاضي الجماعة بتونس أبي إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيح الربيعي التونسي المالكي، ولد سنة 639 هـ / 1241 م، باشر الخطابة بجامع الزيتونة، وكان يلقب بمفتي المسلمين، واشتهر بفتواه في نفي ثبوت الشرف من جهة الأم، أخذ عن أبي عبد الله محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي، وأبي محمد ابن حوط الله، وأبي عمرو عثمان بن سفيان بن عثمان التميمي ابن الشقر، وعنه محمد بن جابر الوادي آشي، وابن مرزوق التلمساني، توفي سنة 733 هـ / 1332 م، من مصنفاته: «تجريد المسائل الأجنبية الواقعة في غير تراجمها من المدونة»، «السهل البديع في شرح التفریع»، «معين الأحكام على القضايا والاحكام» له ترجمة في: ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة في أعيان المائة العاشرة، ج1، دار الجيل، بيروت، 1993، ص23. ابن قنفذ أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني (ت 810 هـ / 1408 م)، كتاب الوفيات، حققه وعلق عليه: عادل نويهض، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص345. الوادي آشي محمد بن جابر، برنامج الوادي آشي، تحقيق: محمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980، ص45.

(2) جمع ميازيب ومآزيب وموازيب (فارسية)، أنبوب أو مجرى من معدن أو حجر أو خشبة ناتئ من أعلى البناء، يثبت أحد طرفيه عمودياً على الجدار، ويميل الطرف الآخر قليلاً إلى أسفل، يخرج منه ماء المطر الذي يتساقط على السطح. ينظر: عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، بيروت - لبنان، 1998، ص313.

وصاحبها ينظر إليه ثم أراد أن يقوم عليه في ذلك بعد سنين؟ فإن ابن القاسم رأى أن له القيام بعد ست سنين وينفع وجعله غاصباً، وهل قوله هذا عندك حسن؟ قال: لا حجة لهذا ولا منفعة له فيه ولا ضرر عليهم فيه، ولهم أن يقطعوه ويبطلوه، إذ ذاك حقاً من حقوقهم لو قاموا به / 39 و / أولاً لكان لهم فيما نرى، ولا يلزمهم، وهذا وذلك سواء، وليس هذا برضى ولا حيازة ولا يلزم في هذا إلا ما حاز فيه الرضى البين والتسليم والتصريح والإقرار والبينة القاطعة على شيء في ذلك، وليس في هذا أحد محدود يقطع إليه قيامهم إلا أن يطول الدهر الكثير جداً، الذي يرى أنه رضى وحيازة وليس الخمس سنين في هذا شيء، ولا العشر بعد إحلافهم على ذلك أنه لم يكن رضى منهم⁽¹⁾، ابن مزين: وما أحدث من الكنف بالقرب من الجدار، أو الحفر التي يستنقع فيها الماء والمطامر والآبار وشبه ذلك، فلا يستحق بطول زمان، لأنه كل ما طال زمنه تزايد ضرره، ولو اختلف في قَدَم الضرر وحدوثه، فهو على الحدث وبه القضاء، سحنون: هو على القَدَم.

[مسألة]: القضاء في كنس⁽²⁾ البئر والكنيف⁽³⁾

الواضحة: سألت مُطرف عن شركاء في دار يحتاج بئرهم، أو كنيفهم للكنس، فيستأجرون في كراء ذلك، أيحمل عليهم منه على قدر مالكمهم منها؟ أم على الجماجم؟

(1) التَّطِيلِي، كتاب الجدار، ص 205 - 207.

(2) كنست البيت كنساً من باب قتل، والمكنسة (بكسر الميم): الآلة، والكناسة (بالضم) ما يُكنس وهي الزبالاة. ينظر: الفيومي، المصباح المنير، ص 207.

(3) الكنيف: الحظيرة، والكنيف الساتر، وسمي الترس كنيفاً لأنه يستر صاحبه، وقيل: للمرحاض كنيف لأنه يستر قاضي الحاجة. ينظر: الفيومي، المصباح المنير، ص 207.

قال: على الجماجم، لأنه قد يكون على العدد الكثير في البيت الواحد ليس لهم من الدار غيره، ويكون الرجل بخادمه أو امرأته في العدة من البيوت يكون لهم من الدار، فلو كان على قدر ما لهم منها، لكان على هذا أكثر مما على أولئك، وإنما كنس الكنيف ككنس الزبول⁽¹⁾ يجتمع في دارهم، فعلى كل قوم كنس الزبول، قلت له: فعلى من كنس الكنيف وقامة الدار وطرحها وما يجتمع فيها من الزبول؟ قال: على المكثري الساكن، ويحملان في كنس الكنيف على سنة البلد، وأخبرني أصبغ عن ابن القاسم وأشهب؛ أن الزبول وكنس الكنيف على المتكاري، ابن حبيب⁽²⁾: الأول أحب إلي وبه أقول، أنظر على من كنس زبول الفنادق هل على أربابها أو على المتكاريين؟ ولو ترك رب الكنيف كنسه فأضرت رائحته بمن جاوره، فعليه تنقيته، ويجبر على ذلك ولو كانت / 41 و / غرفة لرجل وأسفل الآخر تجتمع الأنفال في مرحاض⁽³⁾ السفلى، فإن كان مشتركاً بينهما كنسوه على عدد جماجمهم، وحكاه أبو محمد عن ابن عبد الحكم، وإن كان المرحاض لصاحب السفلى دون صاحب العلو، فلا ابن القاسم في كتاب ابن الحكم:

(1) الزبل: السرجين، وموضعه مَزْبَلَةٌ وَمَزْبُلة. ينظر: الصحاح، ج 4، ص 1715. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج 3، ص 398، 394.

(2) أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي، أصله من طليطلة، سمع ابن الماجشون، ومطرف، وأصبغ وغيرهم، عين مفتياً لقرطبة مع يحيى بن يحيى الليثي، ثم انفرد بالإفتاء بعد وفاته، توفي سنة 238 هـ / 852 م، من أشهر مصنفاته «الواضحة». له ترجمة في: عياض القاضى، ترتيب المدارك، ج 1، ص 30 - 48. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص 154 - 156.

(3) الجمع: مراحيض ومراحيض، وهو المغتسل كما في الصحاح، والمرحاض موضع الرخض، وقد يكنى به عن مطرح العذرة، والمرحضة كمكنسة: شيء يتوضأ فيه، وفي الأساس: الميضأة. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج 18، ص 342.

كنس بئر المرحاض على صاحب السفلى إلى السقف، وقال ابن وهب: كنسه بينهما على قدر الجحاح من كثرة العيال وقتلهم وهو المستعمل وهو أحسن وقاله يحيى بن عمر⁽¹⁾، فإن اعتل المرحاض الذي بينهما فأصلحه على صاحب السفلى.⁽²⁾

[مسألة]: التضرر بفتح الكوى على دور الجيران أو على عرصهم التي لا بناء

فيها وصفة سدّها بالحكم

ابن القاسم: يمنع من فتح كوة يطلع منها على ما في دار جاره، وكذلك فتح باب الغرفة، إلا أن تكون كوى قديمة فلا يمنع من سد القديم، وقيل: يمنع لما فيه من كشف الحرم، قاله ابن يونس عن بعض الشيوخ المشاور في الاستغناء إنما يمنع إذا تبينت الأشخاص، وإذا لم تبين فلا يمنع ابن سهل⁽³⁾ ولو أمكن جعل سرجب في الدار المفتوح في الخرقه، حتى لا يمكن ساكنها كشف ما في دار جاره لم يمنع، قال ابن رشد⁽⁴⁾: وكل الشيوخ يختلفون في ذلك، قال بعضهم: وهذا غلط، ممن رأى عمل

(1) أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف الكنانى الأندلسى الأصل، الأفريقى الموطن، من أبرز علماء المذهب المالكي، كانت نشأته الأولى بقرطبة، ارتحل وسمع بإفريقية من سحنون وأبي زكريا الحفري، وعون بن يوسف، وسمع بمصر من يحيى بن بكير، وحرملة، وابن رمح، وسكن القيروان وكان حافظاً للفروع، ضابطاً لكتبه، وأخذ عنه أحمد بن خالد الحافظ، وجماعة من أهل القيروان، توفي سنة 85هـ / 704م له ترجمة في: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، ص462، 463. الحميدي، جذوة المقتبس، ص377، 378. المالكي، رياض النفوس، ج1، ص396 - 406.

(2) ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، ج11، ص18، 19، 107. ابن رشد، البيان والتحصيل، ج9، ص67، 68، 283، 284.

(3) ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ص658.

(4) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج9، ص362.

السرجب، لأن عمله أقوى ضررًا من خروج الرأس لأنه ينظر منه، ولا يتحرز المنظور إليه منه، فعمله أقوى ضررًا إلا أن يكون كما قال ابن سهل⁽¹⁾، فإن كانت الدار المنكشفة في كراء شخص يقال لربها خاصم عني لإزالة الضرر فأبى، كان له فسخ الكراء إن أحب كامتناعه من بناء ما تهدم منها مما يضر بالمكتري قاله ابن عتاب، سحنون: في رجلين لهما داران بينهما زقاق⁽²⁾ مسلوكة وفي أحدهما كوة يرى منها ما في غرفة الأول، فطلب الأول سد المحدثه، وقال له الآخر سد أنت القديمة، فأنا ما سكْتُ عنك خمسة أعوام أو أربعة إلا على حسن الجوار⁽³⁾، وهو غير تارك لحقه ويسد بعضهما على بعض، قال سحنون: قلت لابن القاسم لو أن رجلاً بنى قصورًا لجنب داري أكون لي أن أمنعه من ذلك في قول ابن القاسم؟ مالك قال: نعم [يُمنع من ذلك]⁽⁴⁾، وقال عمر فيمن أحدث غرفة على جاره وفتح فيها كوى، أنه يوضع وراء تلك الكوى سريرًا فيقوم عليه رجل، فإن كان ينظر لما في الدار منع وإلا فلا⁽⁵⁾،

(1) ينظر: ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ص 663.

(2) جمعه: أَرْقَّة، وهو الطريق الضيق دون السكة نافذًا كان أو غير نافذ. ينظر: ابن منظور، لسان

العرب، ج 6، ص 59. الفيومي، المصباح المنير، ص 97.

(3) ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، ج 11، ص 41.

(4) المدونة [كتاب: حريم الآبار / باب: فيمن حفر بئرًا إلى جانب بئر جاره]، ج 15، ص 197.

(5) المصدر نفسه [كتاب: حريم الآبار / باب: فيمن حفر بئرًا إلى جانب بئر جاره]، ج 15،

ص 197. قال ابن الحاج في نوازل: « وإن كان الاطلاع لا يمكن إلا بواسطة مثل سلم أو كرسي أو

ما أشبه ذلك فلا يهدم موضع الاطلاع ولا يطمس ويمنع أن لا يطلع منه ». ينظر: ابن الحاج التجيبي

أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت 529 هـ / 1134 م)، نوازل ابن الحاج التجيبي، دراسة

والسرير فرش الغرفة، وقيل: السلم، وقيل: الكرسي، ولو فتح في الكوة الضوء على دار جاره وكره الجار ذلك وهو لا تنال إلا بالسلم، قال ابن نافع في العتبية⁽¹⁾: إن لم يكن على الجار ضرر فلا أرى بأساً يفتحها لأنها منفعة لهذا ولا ضرر على الآخر، وإن كان ضرر منع، قاله ابن وهب وأصيب، ولو فتحتها عليها ولم يتكشف منها عليه فشكى الجار ذلك ضرر⁽²⁾، فاختلف التونسيون في ذلك فمنهم من اعتبر الكلام وحركة اللسان وراءه ضرراً، ومنهم من لم يعتبره، وقال: لا يمنع، وبه جرى الحكم، وكذلك المطالع للسطوح إلا أن يعمل باب المطالع ينظر له أو جاره فيمنع، وإن كان متحياً / 42 و / عنه لم يمنع، وسئل أبو عبد الله بن الغمار عما تحدث الناس في كرومهم من البراجم، ويتخذون الكوى للفرجة ويتكشفون منها على مواضع غيرهم من الجانة، هل يمنع من اتخاذ ذلك أم لا؟ قال: إن كان جنائاً فيه بناءً للسكنى فحكمه عندي حكم الدور تسد كل ما اتخذ عليه من الكوى، ابن القاسم: كل من فتحت عليه كوة تبين إليه تغييرها بحكم، فطلب أن يبيّن في حقه ما يسدها به فذلك له، كما لا يمنع رفع بناءة حيث شاء، وإن ستر عنه الريح والشمس، أو ستر به الضوء، ومن له عرصة بجنب عرصة رجل، فبنى في عرصته وفتح أبواباً وكوى في بناءة لجهة عرصة الجار، فأراد رب العرصة منعه لم يكن له ذلك، إن قال أريد أن أبنى لأنه حق سبق إليه، قال ابن الماجشون: ومن سبق لمنفعة شيء فهو أحق به، وقال أصيب ومطرف وابن حبيب:



وتحقيق: أحمد شعيب اليوسفي، ج3، الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، 2018، ص541.

(1) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج9، 399، 400.

(2) التُّطيلي، كتاب الجدار، ص172.

له منعه لأنه حقه يذب عنه ما يضر به، وذكره عيسى في الجدار⁽¹⁾ قال: له منعه قبل البناء وبعده، مطرف: لو أرفقه بفتحها على أنه متى شاء سدها عليه جاز، سحنون: إذا أقضي بسد الكوى لم يكن لمحدثها سدها من وراء بابها ويلزم بقلع ذلك وتغييره، حتى لا يبقى له أثر يدل عليه بعد اليوم، وكذلك الأبواب المحدثه تعلق أبوابها وعتبها وتنزع عضايدها لما يتوقع من بقاء عتبها لطول الزمان أن يحتاج به محدثه، قال بعض الشيوخ: والمشهود في الكوة القديمة بقاؤها على حالها، وفي المحدثه السد على المشهور، قال أشهب وابن الماجشون والمخزومي⁽²⁾: لا يمنع أحد من فتح الأبواب والكوى والغرف، ويقال للمتضرر به أستر على نفسك، وليس به عمل نقله ابن رشد⁽³⁾، ومن أحدث كوى يرى منها ما في أسطوان⁽⁴⁾ جاره قاله ابن الهندي⁽¹⁾، ظاهره حتى ولو كان

(1) المصدر نفسه، ص 175.

(2) أبو هاشم المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي، كان مدار الفتوى بعد مالك عليه وهو محمد بن دينار، صحب مالكا، أخذ عن هشام بن عروة، وأبي الزناد وغيرهما، وعنه مصعب بن عبد الله وغيره، توفي سنة 188 هـ / 805 م، وقيل: 186 هـ / 803 م. له ترجمة في: ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 10، ص 256. ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 2، ص 343. مخلوف، شجرة النور الزكية، ج 1، ص 84.

(3) قال ابن رشد: « ومنه ضرر الاطلاع، مثل أن يُحدث كوة أو باباً يطلع منه على دار جاره، أو يتخذ عليه قصبة يشرف منها على عياله، وفي هذا اختلاف شاذ، قيل: إنه لا يمنع، ويقال لجاره استر على نفسك في حقل إن شئت، روي ذلك عن أشهب وابن الماجشون ومحمد بن مسلمة المخزومي، ومحمد بن صدقة الفدكي من أصحاب مالك ». ينظر: ابن رشد، البيان والتحصيل، ج 9، ص 402.

(4) بضم الهمزة وبعدها سينٌ مهملة ساكنة، وفي عُرف المغاربة هو دهليز (بكسر الدال المهملة) الدار في عُرف المشاركة. ينظر: تبصرة الحكام، ج 2، ص 262.

بينهما سكة نافذة كثيرة المارة، ولا حجة له أن يقول أنا في النظر والمار سواءه، قاله جماعة من الشيوخ.

[مسألة]: فيمن فتح باباً أو حانوتاً قبالة باب جاره

ابن سحنون عن أبيه يؤمر من فتح باباً قبالة باب جاره أن ينكف عنه بذراع أو ذراعين قدر ما يرى زوال الضرر، وكذلك قال في الدرب الكبير غير النافذة إن كان في الدرب زنقة⁽²⁾ في ناحية منه غير نافذة ولرجل في أقصاها باب، فأراد أن يقدمه لطرف الزنقة، لكن لأهل الدرب منعه، ولا يحركه على موضعه إلا برضاهم⁽³⁾، وكذلك كل دار مشتركة ليس لأحد الشريكين فتح باب فيها، ولا إحداث شيء إلا بإذن الشريك، التحصيل قال ابن رشد⁽⁴⁾: في فتح الرجل باباً أو حانوتاً قبالة باب جاره في الزقاق



(1) ابن سلمون أبي محمد عبد الله بن عبد الله الكناني (ت 741 هـ / 1340 م)، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، عناية وتعليق: محمد عبد الرحمن الشاغول، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001، ص 446. (وابن الهندي هو أبو عمر أحمد بن سعيد بن إبراهيم الهمداني، أخذ عن أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، وروى عن قاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة وعبد الله بن أبي دليم ولقي أبا إسماعيل بن القاسم البغدادي وأخذ عنه وتأدب به، وكان مقدماً عند القاضي محمد بن السليم، ألف كتاباً في الشروط مفيداً جامعاً يحتوي على علم كثير عليه اعتماد الموثقين والحكام، توفي سنة 399 هـ / 1008 م. له ترجمة في: عياض القاضي، ترتيب المدارك، ج 4، ص 650 - 656. ابن فرحون، الديباج المذهب، ص 364، 365. مخلوف، شجرة النور الزكية، ج 1، ص 151.

(2) السكة الضيقة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 6، ص 93.

(3) التُّطيلي، كتاب الجدار، ص 189.

(4) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج 9، ص 404، 405.

النافذ ثلاثة أقوال؛ الجواز ابن القاسم في المدونة، وأشهب وسحنون المنع، إلا أن ينكب⁽¹⁾ على ذلك / 42 ظ / ابن وهب: له ذلك إن كانت السكة واسعة كسبعة أذرع فأكثر⁽²⁾ ويتحصل في فتحه بابًا، وتحويله عن موضعه في زقاق وليس بنافذ ثلاثة أقوال؛ المنع إلا بإذن الجميع، وإليه ذهب ابن زرب⁽³⁾ أقامه من المدونة⁽⁴⁾: في الدارين تكون لأحدهما في جوف الأخرى، ولأهل الداخلة الممر في الخارجة، فيقسم أهل الداخلة دارهم وأراد كل منهم فتح باب لنصيبه في الخارجة ليس لواحد منهم، وإنما لهم الممر، وبه جرى العمل بقرطبة، ولابن القاسم في المدونة⁽⁵⁾: له ذلك فيما لم يقابل باب جاره

(1) أي يعدل ويتنحى. ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج 4، ص 178.

(2) لما جاء من حديث رسول الله ﷺ: «الطريق الميتة سبعة أذرع». أخرجه: البخاري في صحيحه [كتاب: المظالم / باب: إذا اختلفوا في الطريق الميتة]، حديث رقم: 2473، ص 599. ومسلم في صحيحه [كتاب: المساقاة / باب: قدر الطريق إذا اختلفوا فيه]، حديث رقم: 1613، ج 1، ص 60. والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: 11806، ج 11، ص 302.

(3) أبو بكر محمد بن يَنْقَى بن محمد بن زرب القرطبي، قاضي الجماعة بقرطبة، كان في أوائل الدولة العامرية، وكان له حظ كبير من علم الإعراب والفقه، أخذ عن القاسم بن أصبغ ومحمد بن دليم واللؤلؤي وغيرهم، وعنه ابن مغيث وابن الحذاء، توفي سنة 381 هـ / 991 م، من تصانيفه: «كتاب الخصال في الفقه على مذهب مالك» (عارض به كتاب الخصال لابن كابس الحنفي). له ترجمة في:

عياض، ترتيب المدارك، ج 2، ص 630. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 16، ص 411.

والحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (ت 488 هـ / 1095 م)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، ط 1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009، ص 93.

(4) المدونة، ج 15، ص 237، 238.

(5) المصدر نفسه، ج 4، ص 274.

ولا قرب منه فقطع به عنه مرفقاً، وقاله ابن وهب في سماع زونان⁽¹⁾ من كتاب السلطان من العتبية⁽²⁾، وقال أشهب: له تحويله على هذه الصفة إذا سد الأول، وليس له أن يفتح فيه باباً لم يكن قبل بحال.⁽³⁾

[مسألة]: الإحداث في الطرق

وقد قضى عمر رضي الله عنه بالأفنية⁽⁴⁾ لأرباب الدور في انتفاعهم بها للمرباط⁽⁵⁾ والمجالس والمسابط⁽¹⁾، وجلس الباعة فيها للبيع الخفيف إلا أن تحاز بالبناء⁽²⁾،

(1) أبو مروان عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زُرَيْق بن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، كان الأغلب عليه الفقه ولم يكن من أهل الحديث، سمع عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد العزيز، وابن وهب وغيرهم، أفتى أيام هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم وابنه عبد الرحمن بن الحكم، توفي في شعبان سنة 232هـ / 846م. له ترجمة في: عياض القاضى، ترتيب المدارك، ج4، ص110، 111. الحميدي، جذوة المقتبس، ص407.

وابن الفرضي أبي الوليد عبد الله بن محمد (ت 403هـ / 1012م)، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج2، ط1، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، 1989، ص458، 459.

(2) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج9، ص404.

(3) الخطاب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المالكي (ت 954هـ / 1547م)، مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: زكريا عميرات، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1995، ص137.

(4) جمع فناء، وهو سعة امام البيت، وقيل: ما امتد من جوانبه. ينظر: الفيومي، المصباح المنير، ص183.

(5) جمعه: رُبُط ورباطات، وهي ما يربط بها القرية وغيرها، والرباط الذي يبنى للفقراء مولد. ينظر: الفيومي، المصباح المنير، ص82. والمراد هنا مكان ربط الدواب.

ويمنع من الإحداث المضرة بالسكك كفتح ماء الشروب عليها، وإلقاء الزبول، وكل ما فيه ضرر، ويشدد القاضي في قطع ذلك أو الموكل بالمصلحة، ويتقدم إلى الصانع في جلوس النساء عندهم، المغامي⁽³⁾ في الدروب الغير النافذة وشبهها ذلك كله منافع مشتركة بين ساكنيه، ليس لهم أن يحدثوا في ظاهر الزقاق ولا في باطنه إحداث، إلا في اجتماعهم في فتح باب أو إخراج عساكر أو رفوف أو أجنحة أو حفرة يحفرونها أو يوارونها، الواضحة: قلت لمطرف وابن الماجشون، الكُنفُ تُتخذ في الطرق يحفرها الرجل فيها لصق جداره ثم يوارياها، أيمنع من ذلك؟ قالوا: إذا واراها وأحكم غطاها وسواها بالطريق حتى لا يضر مكانها بأحد⁽⁴⁾، ولو كانت له جرية ماء في بستان شخص، أو مجرى رحاضه في دار رجل لم يمنع من الدخول لإصلاحه⁽⁵⁾، سحنون ولا من الدخول لضر حائطه، ومن أخلّ من طريق المسلمين ما يضر بهم في ممرهم، هدم



(1) جمعها: سَوَابِطُ وَسَابَاطَاتُ، والسَّابَاطُ: سقيفة بين دارين، أو بين حائطين تحتها طريق نافذ. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج 19، ص 332.

(2) ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ص 642. ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، ج 11، ص 47.

(3) أبو عمر يوسف بن يحيى الأزدي المغامي (قرية من أعمال طليطلة)، سمع من يحيى بن يحيى، وسعيد بن يسار، ورحل إلى المشرق فسمع بمصر من يوسف بن يزيد القراطيسي وغيره، وعنه محمد بن فطيس، وسعيد بن فحلون، اختص بعبد الملك بن حبيب وروى عنه الواضحة، توفي بالقيروان سنة 283 هـ / 896 م، وقيل: 285 هـ / 898 م. له ترجمة في: الحميدي، جذوة المقتبس، ص 373. الضبي، بغية الملتبس، ج 2، ص 667.

(4) ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ص 641.

(5) التطيلي، كتاب الجدار، ص 280.

عليهم قل ذلك أو كثر باتفاق، وفيما لا يضر إذا كانت السكة واسعة جدًا خلاف بين
 الأشياخ؛ حكاه ابن سهل⁽¹⁾ وغيره⁽²⁾، والأصل المنع للحديث: من اقتطع من طريق
 المسلمين أو أبنتهم أو من أرض ليست لهم⁽³⁾ أو بيت حداد كبيرًا⁽⁴⁾ في السوق، فأمر
 عمر بهدمه⁽⁵⁾، وهدم على أبي سفيان حين أخذ بأساسه شيئًا من الطريق، وأبو سفيان
 من هو في علو قدره، قال أشهب: ويأمر القاضي بهدمه وعنه خلافه، قال ابن وهب [
 عن ربيعة في المجموعة]: سألت مالكا عما بنى مسجداً في طائفة من داره، ثم أراد أن
 يزيد فيه شيئاً من طريق المسلمين، قال: إن كان لا يضر بهم فلا أرى بذلك بأساً⁽⁶⁾،
 وأما تدريب الأزقة فلو أراد أحد في دور مجتمعة في دخلة غير نافذة أن يبني درباً في

(1) ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ص 642، 643.

(2) التطيلي، كتاب الجدار، ص 281.

(3) لم أقف على هذا الحديث بهذا اللفظ، وقد ورد في الصحاح والسنن من حديث سعيد بن زيد بن
 عمرو بن نفيل، أن رسول الله قال: « من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوّقه الله إياه يوم القيامة من
 سبع أرضين ». أخرجه: مسلم في صحيحه [كتاب: المساقاة / باب: غرز الخشب في جدار الجار]،
 حديث رقم: 1610، ص 791. والحاكم في مستدركه (كتاب الأيمان والنذور)، حديث رقم:
 7807، ج 4، ص 329. والبيهقي في السنن الكبرى [كتاب: الغصب / باب: التشديد في غصب
 الأراضي وتضمينها بالغصب]، حديث رقم: 11532، ج 6، ص 162.

(4) الكير: زق الحداد الذي ينفخ فيه، ويكون من جلد غليظ ذي حافات، وأما المبنى من الطين،
 وهو المراد هنا كما يظهر. ينظر: الفيومي، المصباح المنير، ص 208. ابن منظور، لسان العرب، ج 12،
 ص 200.

(5) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحداد بني كير في طريق المسلمين: لقد استهضمتم سوق المسلمين ثم
 أمر بهدمه. ينظر: ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ص 636.

(6) المصدر نفسه، ص 643

أولها، لم يكن له ذلك إلا برضى جميعهم / 43 و / قاله ابن هشام، وأفتى ابن عتاب في الدرب يتفق الجيران على إصلاحه، ويأبى بعضهم من ذلك هل يجبر على أداء ما يجب عليه في إصلاحه معهم، وانظر لو خاف أهل قرية أو حض على أنفسهم من غارة العدو، واتفقوا على إنشاء باب لخلق ذلك، أو سور، أو بناء ما تهدم منه، وأبى بعضهم ذلك، هل يجبر عليه لأنها منفعة عامة أو لا؟ وكذلك لو أرادوا بناء مسجد في القرية لإقامة جماعة، أو استئجار إمام، أو مؤذن، فأبى من ذلك بعضهم، هل يجبر أم لا؟ وهذه ضروريات كثيرًا ما تقع عندنا، وكذلك لو اتفق الجيران على استئجار من يحرس جناتهم أو زروعاتهم فيأباه بعضهم، في نوازل أبي عبد الله بن الحاج⁽¹⁾: أنه يجبر على الاستئجار، وأما لو ضاق المسجد بأهله جبر من جاوره على بيع داره لتزاد فيه.

[مسألة]: التضرر بالأشجار

ولا يمنع أحد من الصعود ليحني ثمر شجر داره إن كان يطلع منها على جاره، نعم يؤذنه في ذلك، حديثة أو كانت قديمة، بخلاف الغرفة، قاله أصبغ ومطرف وابن الماجشون في الواضحة⁽²⁾، يعني أن اطلاع الغرفة مداوم وصعود الشجرة نادر، قال عيسى: ليس عليه أن يأذنه⁽³⁾، أنظر هل عليه يقضى بقطعها إذا خاف أن يطرقه منه اللصوص؟ ولو أضرت الشجرة بالجار قاله مطرف إن كانت أقدم منه على حال ما هي عليه اليوم من الانتشار، وإنما بني الجدار بعدها وهي كذلك لم تُقطع، إلا أن تحدث لها

(1) التيجيبي، النوازل، ص 541.

(2) ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، ج 11، ص 43، 108. ابن رشد، البيان والتحصيل، ج 9، ص 408.

(3) التطيلي، كتاب الجدار، ص 338.

أغصان بعد إقامة الجدار أضرت به فيشرف منها كلما أضر منها مما حدث بعد بنائه، ابن الماجشون: إن كانت أقدم منه تركت، وما حدث من أغصانها وزاد في انتشارها وإن أضر به، إذ قد علم هذا من شأن الشجر، وقاله أصبغ، وبه أخذ ابن حبيب، وقالوا: إن كانت محدثة بعده قطع منها كلما أضر مما أحدث بعد بنائه قلّ أو كثر، ومن أنشأ غراساً فانتشرت أغصانها فأضلت على أرض جاره، فله قطع ما دخل من ذلك في حقه وهواه ولو سكت عنه، مع العلم بذلك من غير مانع مدة يكون في مثلها الحوز، ثم أراد قطعه لم يكن له ذلك على الخلاف المتقدم في حيازة الضرر والمحدث، والتزم قطع ذلك ضمناً أنه يلزمه، ثم علم أنه لا يلزمه ففي إلزامه ما التزم خلاف، وهذا جار في كل من التزم ما لا يلزمه، بحكم ظننا منه أنه يلزمه، ذكره ابن سهل في آخر أحكامه⁽¹⁾، قال بعضهم: فيمن له شجرة فامتدت فروعها حتى أضرت بجاره في أرضه إن كان غصنها ارتياعاً في الهواء، فأضلت بأرض جاره أو داره لا تقطع، لأنها كالبنين بينيه الرجل بأرضه أو داره فيمنع منه جاره الشمس والريح، فلا كلام للجار في ذلك، وكذلك الشجر ما لم تمد على هواء صاحبه هواء جاره، ولا أعلم فيه خلافاً / 43 ظ / واختلف إذا خرجت الفروع لهواء جاره.⁽²⁾

(1) ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ص 670، 671

(2) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج 9، ص 409، 410. ابن سلمون، العقد المنظم، ص 452،

الخلاصة:

برزت على امتداد هذه الدراسة والتحقيق لمتفرقات من مسائل فقه العمران الريفي والحضري بالمغرب الأوسط عبر مضامين مخطوط « المذهب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق »، لأبي عمران موسى المازوني، جملة من المخرجات:

- يمثل المخطوط مرحلة مهمة من مراحل نضج الكتابة الفقهية التي عرفها المغرب الأوسط في مرحلته المتأخرة من الناحية النظرية والتطبيقية، بدليل المقومات الوثائقية التي استند إليها المؤلف، والتي هي في الأساس من منطوق مدونات فقهاء المذهب المالكي، وضع فوقها سائر أبنيته المناهجية والمعرفية في التأكيد على تجربته في فقه الوثائق، تحقيقاً ونقداً.

- للمخطوط أهمية جد بالغة تحاكي قوة النظر لمسائل فقه العمران على أرض الواقع بحسب تلك الفترة الزمنية، أثراه منهج المؤلف من خلال عمله في ميدان التوثيق ثم القضاء بحسب الأصلح والأنجع في الحلول لكل مسأله.

- أبرز المخطوط مجال مهم من التطبيق لقاعدة « لا ضرر ولا ضرار »، في استخدامه لهذا الأصل للحكم على تصرفات الفرق التي تضيع البيئة من جهة؛ فقد يقوم الأفراد بتغيير البيئة بشكل يضر بالجيران، مدعماً ذلك بأصول أخرى كالاستحسان والضرورة وسد الذرائع والمصالح المرسله وغيرها، ومن جهة ثانية حماية السلوك الإنساني اتجاه البناء المعماري؛ بمراعاة شروط الحياة الاجتماعية والصحية، خاصة ما تعلق بالإحداث في الطرق والدور والأفنية.

- أن مسائل العمران التي أبرزها المخطوط؛ كانت الأصل فيما جرى به العمل، لتحقيق المصالح ودفع المفاسد، ومسايرة لصوالح الأعراف ومحاسن العادات.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المخطوطات

- 1 - أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني (ت بعد 874هـ / 1669م)،
المهذب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق، مخ، متحف سیرتا -
قسطنطينة، رقم: 14.
- 2 - أبي عمران، تحلية الذهب في علم القضاء والأدب، مخ، خزانة زاوية علي بن
عمر، الزاوية العثمانية - طولقة، بسكرة.

ثانياً: المصادر المطبوعة

1. - الباجي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب المالكي الأندلسي (ت
494هـ / 1100م)، المنتقى شرح موطأ الإمام مالك، ج 5، ط 3، دار الكتاب
العربي، بيروت، 1983.
2. - البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256هـ / 869م)، التاريخ
الكبير، مراقبة: محمد عبد المغني خان، ج 5، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
3. - البزار أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي (ت 292هـ / 904م)،
البحر الزخار المعروف بمسند البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، ط 1،
مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، 1993.
4. - ابن بشكوال أبي القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578هـ / 1182م)، الصلة
في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثهم وفقائهم وأدبائهم، حققه وضبط
نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، ج 2، دار الغرب الإسلامي، تونس،
2010.

5. - البغدادي إسماعيل باشا بن محمد أمين مير سليم (ت 1339هـ / 1920م)،
إيضاح المكنون في الذيل عن كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2،
دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1992.
6. - بوبة مجاني، " كتب النوازل والأحكام مصدر للتاريخ الاجتماعي - العصر
الزياني أنموذجاً "، أعمال الملتقى الدولي « التغيرات الاجتماعية في البلدان
المغاربية عبر العصور »، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة
متوري - قسنطينة، 2001.
7. - البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ / 1065م)، السنن
الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج4، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت
- لبنان، 2003.
8. - التسولي أبي الحسن علي بن عبد السلام (ت 1258هـ / 1844م)، البهجة في
شرح التحفة، ضبطه وصححه: محمد عبد القادر شاهين، ج2، ط1، منشورات
محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1998.
9. - التطيلي عيسى بن موسى (ت 386هـ / 996م)، كتاب الجدار، دراسة وتحقيق:
إبراهيم بن محمد الفايز، ط1، دار روائع الكتب للنشر والتوزيع، المملكة
العربية السعودية، 1996.
10. - التنبكتي أحمد بابا (ت 1036هـ / 1626م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج،
إشراف وتقديم: الهرامة عبد الحميد عبد الله، ط1، منشورات كلية الدعوة
الإسلامية، طرابلس - ليبيا، 1989.

11. - كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدياج، تحقيق: علي عمر، ج2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004.

12. - ابن الحاج التجيبي أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت 529 هـ / 1134 م)، نوازل ابن الحاج التجيبي، دراسة وتحقيق: أحمد شعيب اليوسفي، ج3، الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، 2018.

13. - الحاكم أبو عبد الله محمد بن بن عبد الله النيسابوري (ت 405 هـ / 1014 م)، المستدرك على الصحيحين، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط2، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2002.

14. - ابن حبان أبي حاتم محمد البستي (ت 354 هـ / 965 م)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ج2، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1998.

15. - ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي (ت 852 هـ / 1448 م)، تهذيب التهذيب، ج1، دار صادر، بيروت، د.ت.

16. - أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261 هـ / 874 م)، صحيح مسلم، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه وعد كتبه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991.

17. - الخطاب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المالكي (ت 954 هـ / 1547 م)، مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ضبطه وخرج آياته

وأحاديثه: زكريا عميرات، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1995.

18. - الحفناوي أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الديسي (ت 1391هـ / 1941م)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة، تونس، 1985.

19. - الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (ت 488هـ / 1095م)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009.

20. - الذهبي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ / 1374م)، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

21. - سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1996.

22. - الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، قدم له وقرظه: محمد عبد المنعم البري وآخرون، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1995.

23. - ابن رشد أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد المالكي القرطبي (ت 520هـ / 1126م)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق: أحمد الحبابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1988.

24. - فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق: المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1987.
25. - رفيق خليفي، " مخطوط المذهب الرائق لأبي عمران موسى المازوني وأهميته التوثيقية في تاريخ المغرب الأوسط أواخر العصر الوسيط "، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج4، ع1، جامعة حمة لخضر، الوادي، 2018.
26. - الزبيدي مرتضى محمد بن محمد الحسيني (ت 1205هـ / 1790م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي هلاي، مراجعة: مصطفى حجازي وآخران، ج20، ط1، الكويت، 2001.
27. - أبي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني (ت 883هـ / 1478م)، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: بركات إسماعيل، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2، 2010 - 2011م.
28. - ابن أبي زمنين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى (ت 399هـ / 1008م)، منتخب الأحكام، تحقيق: عبد الله بن عطية الرداد الغامدي، ط1، مؤسسة الريان، بيروت - لبنان، 1998.
29. - ابن أبي زيد القيرواني أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت 386هـ / 996م)، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ج11، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.

30. - ابن سلمون أبي محمد عبد الله بن عبد الله الكناني (ت 741هـ / 1340م)،
العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، عناية وتعليق:
محمد عبد الرحمن الشاغول، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001.
31. - الشاطبي أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (ت 790هـ /
1388م)، الاعتصام، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: أبو
عبدة مشهور بن حسن آل سلمان، ج1، مكتبة التوحيد، د.ت.
32. - الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت 360هـ / 970م)، المعجم
الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ج1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة،
د.ت.
33. - عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، بيروت - لبنان،
1998،
34. - ابن العطار محمد بن أحمد الأموي (ت 399هـ / 1009م)، كتاب الوثائق
والسجلات، اعتنى بتحقيقه ونشره: ب. شالميتا وف. كورينطي، المعهد
الإسباني العربي للثقافة، مدريد، 1983.
35. - ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي (ت 1085هـ / 1674م)، شذرات
الذهب في أخبار من ذهب، ج2، دار المسيرة، بيروت، 1979.
36. - أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني (ت 833هـ / 1430م)،
قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود، أطروحة دكتوراه في
الفقه وأصوله، كلية الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم
الإسلامية، 2016-2017.

37. - عياض القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت 544هـ / 1149م)، ترتيب المدارك وتقري بالمسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، تحقيق: أحمد بكير محمود، ج1، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
38. - ابن الفرزي أبي الوليد عبد الله بن محمد (ت 403هـ / 1012م)، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج2، ط1، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، 1989.
39. - الفيومي أحمد بن محمد المقرئ (770هـ / 1368م)، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، 1987.
40. - ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت 273هـ / 886م)، السنن، حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط وآخران، ط1، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2009.
41. - مالك بن أنس أبو عبد الله بن مالك الأصبحي المدني (ت 179هـ / 795م)، المدونة الكبرى، برواية: سحنون بن سعيد التلوخي المالكي (ت 240هـ / 854م)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، د.ت.
42. - الموطأ، برواية يحيى بن يحيى الليثي (ت 923هـ / 1517م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج2، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
43. - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، إشراف: شوقي ضيف، جمهورية مصر العربية، 2004.

44. - مخلوف محمد بن محمد بن عمر بن قاسم (ت 1360هـ / 1941م)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرّج حواشيه وعلق عليه: عبد الحميد خيالي، ج2 ن ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2003.
45. - ملاك لمن، علم التوثيق في المغرب الأوسط، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2، 2014 - 2015.
46. - المنجور أحمد بن علي المنجور (ت 995هـ / 1586م)، شرح المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب، تحقيق: محمد الشيخ الأمين، دار عبد الله الشنقيطي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
47. - ميارة الفاسي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد (ت 1072هـ / 1661م)، الإتقان والإحكام شرح تحفة الحكام، تحقيق: محمد عبد السلام محمد سالم، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2011.
48. - النفراوي أحمد بن غنيم بن سالم بن مهنا الأزهري المالكي (ت 1126هـ / 1714م)، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد الوارث محمد علي، ج2، ط1، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1997.
49. - النووي أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف الشافعي (ت 676هـ / 1277م)، شرح صحيح مسلم، المطبعة المصرية بالأزهر، مصر، 1929.
50. - الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان المصري (ت 807هـ / 1404م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا،

ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،
2001.

51. - الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي
(914هـ / 1508م)، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، تحقيق: أحمد
بوطاهر الخطابي، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1980.

التركيبة الإثنية للمجتمع بمدينة بجاية وتأثيراتها على النشاط الحرفي والتجاري خلال القرنين 5 و6 هـ / 11 و12 م

ط.د صباح طرهيو

قسم التاريخ

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

الملخص:

يعالج المقال جانباً مهماً من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مدينة بجاية خلال العهد الحمادي، والمتمثل في التركيبة الإثنية للمجتمع البجائي وتأثيراتها على الأنشطة الاقتصادية، خاصة منها النشاط الحرفي والتجاري، ونحاول من خلال هذه الدراسة تحديد الملامح العامة للموضوع رغم بعض الصعوبات المتعلقة بشح المادة الخبرية في المصادر الوسيطة، إلا أنه وأمام هذا الأمر حاولنا الاعتماد على ما توفر من اشارات مصدرية، بالإضافة الى اعتماد اسلوب المقاربة لمدينة بجاية ببقية مدن المغرب الاوسط في اطار المجال الجغرافي الواحد، وبالتالي هدفنا من هذه الدراسة هو الحفر في إحدى الجوانب المهمة من تاريخ مدينة بجاية وما خلفته العناصر البشرية التي استقرت بها خلال الفترة الحمادية من تراث حضاري وعمراني وتنوع فكري و ثقافي لإرساء دورها في البناء الحضاري بالمدينة الحمادية.

الكلمات المفتاحية: التركيبة الإثنية، بجاية، العهد الحمادي، الحرف، التجارة.

Abstract:

The article deals with an important aspect of the social and economic life in the city of Bejaia during the Hammadid era, which is the ethnic composition of the Beja community and its effects on economic activities, especially craft and commercial activities. Through this study, we try to determine the general features of the subject despite some difficulties related to the scarcity of news material in intermediate sources. However, in light of this matter, we tried to rely on the available source references, in addition to adopting the approach method for the city of Bejaia with the rest of the cities of central Morocco within the framework of a single geographical area. Therefore, our goal in this study is to delve into one of the important aspects of the history of the city of Bejaia and what the human elements that settled there during the Hammadid period left behind in terms of a civilizational and urban heritage and intellectual and cultural diversity to establish their role in the civilizational construction of the Hammadid city.

Keywords: Ethnic Composition, Béjaïa, Hammadid Period, Crafts, Trade.

مقدمة:

برزت أهمية مدينة بجاية كإحدى الحواضر الثقافية والمراكز الاقتصادية الرئيسية بالمغرب الاسلامي في الفترة الحمادية، وذلك من خلال موقعها الاستراتيجي على ساحل البحر الأبيض المتوسط، والذي يمثل نقطة التقاء هامة للتجار والحرفيين والصناع من مختلف أرجاء العالم الإسلامي والمتوسطي.

وعليه فدراسة التركيبة الاثنية للمجتمع الحرفي في هذه المدينة خلال الفترة الحمادية يفتح نافذة على فهم كيفية التأثير والتفاعل بين مختلف المجموعات الثقافية والاثنية على النسيج الاجتماعي والاقتصادي للمدينة، خاصة وان بجاية كانت قد شهدت خلال القرنين (5 و 6 هـ / 11 و 12 م) تزايداً ملحوظاً في التنوع الاثني بفضل سياسة التسامح الديني والتعايش الاجتماعي التي حرص اصحاب القرار على رأس السلطة الحمادية على توفيرها مما أدى الى تدفق مجموعات مختلفة من الإثنيات، كالأندلسيين واليهود والمسيحيون من مختلف الجنسيات، على غرار البربر السكان الأصليين، والعرب المتواجدين بها منذ الفتح الاسلامي.

هذا التنوع البشري لم يكن مجرد مزيج من الثقافات بل كان له تأثيرات عميقة على جميع جوانب الحياة الاقتصادية بالمدينة، بدءاً من تطوير الحرف وادخال تقنيات وأساليب صناعية جديدة وصولاً إلى تشكيل الهويات الاجتماعية وتغيير بنية السوق المحلية.

تعد دراسة التركيبة الاثنية للمجتمع الحرفي في بجاية الحمادية من المواضيع الحيوية لفهم الديناميات الاجتماعية والاقتصادية في فترة تاريخية متميزة بالعاصمة الحمادية الثانية، باعتبارها مدينة تجارية وحاضرة ثقافية هامة في المغرب الاسلامي

ككل، فقد شهدت عدة تفاعلات معقدة بين مختلف المجموعات الاثنية التي أسهمت في تطوير الحرف والمهن، ومن خلال دراسة التركيبة الاثنية يمكننا فهم كيف أثرت الاختلافات الثقافية والعرقية والدينية على الأنشطة الحرفية والتجارية، وكيف ساهمت هذه الأنشطة في تشكيل الهوية الاجتماعية والاقتصادية للمدينة.

تسعى هذه الدراسة للوصول الى تحليل التركيبة الاثنية للمجتمع الحرفي في بجاية الحمادية، وذلك بتحديد المجموعات الاثنية الرئيسية التي كانت نشطة في مجال الحرف والمهن، وتقديم نظرة شاملة عن أدوارهم ومساهماتهم، واستكشاف تفاعلاتهم في المجال الحضري، وكيف أثر هذا التفاعل على الابتكار وتبادل المعرفة في المجالات الحرفية المختلفة؟، بالإضافة الى تقييم تأثيرات التنوع الاثني على البناء الحضري بالمدينة في جوانبه الاقتصادية والفنية والعمرانية.

ومن هذا المنطلق تتمحور الاشكالية الرئيسية للموضوع حول دراسة كيفية تأثير التركيبة الاثنية المتنوعة للمجتمع الحرفي في بجاية على طبيعة وأداء الحرف والمهن خلال القرنين 5 و 6 هـ / 11 و 12 م، فكيف أثرت الخلفيات الثقافية والعرقية والدينية المختلفة على تفاعل الحرفيين؟ وكيف ساهم ذلك في تشكيل بنية الاقتصاد المحلي وتطوير الحرف؟ وما هي التأثيرات الاقتصادية والفنية والعمرانية الناتجة عن هذا التنوع؟

وبالتالي اعتمدت هذه الدراسة على منهجية بحث تاريخية وتحليلية اساسها المنهج التاريخي الوصفي الملائم للموضوع.

وقد حاولنا الاحاطة قدر الامكان بالموضوع من جميع جوانبه وفق خطة ثنائية تقوم على توضيح التركيبة الاثنية للمجتمع الحرفي في بجاية، مع التركيز على

المجموعات الاثنية المختلفة وأدوارها في الأنشطة الحرفية والصناعية اولا ثم استنتاج التأثيرات في المجال الاقتصادي والفني والعمراني ببجاية الحمادية.

أولا: التركيبة الاثنية للمجتمع في مدينة بجاية خلال القرنين 5 و6 هـ/ 11

و12م:

تُعَدُّ مدينة بجاية من اهم حواضر المغرب الاسلامي خلال القرون الوسطى، فقد لعبت دوراً هاماً ومحوريا في تاريخ الدولة الحمادية بفضل موقعها الاستراتيجي وازدهارها الاقتصادي مما ساهم في استقطابها للعديد من العناصر البشرية من مختلف الجنسيات، على غرار السكان الاصليين حيث تعكس التركيبة الاثنية لمجتمعها تنوعاً دينيا وثقافياً وعرقياً معقداً، أسهم في تشكيل ديناميات الاقتصاد المحلي وتطوير أساليب العمل.

1. البربر:

شكل البربر بتركيبتهم الثقافية الفريدة، جزءاً أساسياً من نسيج المجتمع الحمادي في مدينة بجاية، وبالتالي كان العنصر البربري هو الغالب على العناصر السكانية التي استوطنت المغرب الاوسط منذ زمن بعيد فشكّلوا اهم عناصر المجتمع الحمادي⁽¹⁾.

2. العرب:

يرجع تواجد العنصر العربي بالمغرب الاوسط الى ايام الفتح الإسلامي منذ القرن 2 هـ / 7م، ليزداد عقب خراب مدينة القيروان وهزيمة المعز بن باديس امام

(1) بودالية تواتية، الانتفاء الحرفي لاهل الصناعات في المغرب الاوسط، مجلة مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، ع:04، جوان 2013، ص257.

الهجمة الهلالية فكانت مدينة بجاية الملجأ الذي فر اليه كثير من الهاربين من افريقية⁽¹⁾، ليستمروا بعدها في التوسع والانتشار والتأثير في المنطقة، فكانوا من العناصر الاساسية المدعمة لحركة النمو الديمغرافي بمدينة بجاية كبقية مدن المغرب الاسلامي خاصة مع بداية المنتصف الثاني للقرن 5 هـ / 11 م⁽²⁾، مما ساهم في تغيير البنية الاجتماعية والاقتصادية للمدينة.

أما العناصر الشرقية بمختلف جنسياتها فقد استمرت في التدفق على المغرب الاوسط منذ عهد الولاة من الحجاز والعراق ومصر والشام بالإضافة الى القبائل الهلالية⁽³⁾ التي اجتاحت المنطقة بداية من النصف الثاني من القرن 5 هـ / 11 م⁽⁴⁾، إلا انها لم تتمكن من دخول عاصمة الحماديين الثانية بجاية لوقوعها في "منعة الجبال وتوعر مسالكها على رواحهم"⁽⁵⁾، ولا شك في ان البعض من العرب الهلاليين قد استقروا في المدينة فيما بعد خاصة في اوقات الازمات والكوارث الطبيعية التي حلت

(1) عبد الحليم عويس، بجاية الجزائرية وريثة القيروان وحاضرة المغرب العربي لثلاثة قرون، مجلة الدارة، مج: 08، ع: 03، جلنفي 1983، ص 163.

(2) بوتشيش امينة، بجاية من العهد الحمادي الى الغزو الاسباني دراسة تاريخية وحضارية، اطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب الاسلامي الوسيط، اشراف: بلحاج معروف، قسم العلوم الانسانية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2015 / 2016، ص 110.

(3) بودالية، المرجع نفسه، ص 257.

(4) ابن خلدون عبد الرحمان (ت 732 هـ / 808 م)، العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر، مرا: سهيل زكار، ج 6، ط 1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1981، ج 6، ص 27.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 27.

بالمغرب الاوسط فترة الدراسة حيث كانت المدن تمثل ملاذاً آمناً للفارين من تداعيات الحروب والكوارث.

وقد شكل العرب الهلالية اهم طبقات المجتمع الحمادي التي كان لها شخصيتها الثقافية والاجتماعية والفكرية التي تميزها عن بقية الجنسيات البشرية في الدولة الحمادية⁽¹⁾.

3. الأندلسيون:

أشار البكري إلى استقرار الجالية الأندلسية بمدينة بجاية قبيل سنة 460هـ / 1067م، حيث ذكر بأنها: « كانت عامرة بأهل الأندلس⁽²⁾»، قبيل تأسيسها من طرف الناصر بن علناس (454 - 461 هـ / 1062 - 1088 م)، وبقيت هجرة الاندلسيين متواصلة فيما بعد نتيجة التناحر على السلطة من قبل ملوك الطوائف، فاستقطبت مدن المغرب الأوسط خاصة حاضرة بجاية عدداً كبيراً من الجالية الأندلسية من التجار والحرفيين والصناع والفقهاء والعلماء، ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله: "وأما اهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم امم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب.. وشاركوا اهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا باذيال الدولة"⁽³⁾، ويذكر صاحب الاستبصار ان بجاية

(1) عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط02، دار الصحوة، القاهرة، مصر، 1991، ص 236.

(2) البكري أبو عبيد (ت 487هـ / 1094م)، المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص 757.

(3) ابن خلدون، العبر، ج1، ص ص 528، 529.

كانت ملجأ للعديد منهم بقوله: "...وكان فيها بقية صنهاجة الموتورين جعلوا يداخلون امثالهم ممن وترت دنياه وأخراه كاهل ميورقة المنقطعين فيها من ابناء جنسهم فدهم بجاية منهم"⁽¹⁾ وذلك في اشارة الى هجرة الاندلسيين من صنهاجة المرابطين الفارين نحو بجاية والمطاردين من قبل الموحدين، وكانوا قد حضيو بمكانة مرموقة في المجتمع الحمادي الى جانب البربر البجاويين⁽²⁾.

شكل هؤلاء الأندلسيون أساس الاقتصاد في المغرب الاوسط من خلال ممارسة الاعمال الحرفية والتجارية والزراعية التي جلبوها معهم من موطنهم الاصيلي الاندلس⁽³⁾، وظلت الجاليات الاندلسية تشكل فئة متميزة في المجتمع الحمادي من خلال تنظيماتها وثقافتها، وكان لها رئيس يمثلها يطلق عليه لقب "شيخ الجماعة الاندلسية"⁽⁴⁾.

4. أقليات أخرى:

كانت هناك أقليات أخرى استوطنت مدينة بجاية تمثلت في اليهود والمسيحيون الذين شكلوا جزءاً هاماً من النسيج الاجتماعي والاقتصادي للمدينة، فكان لهم دور مهم في التجارة واحتكروا العديد من الحرف المتخصصة.

(1) مؤلف مجهول (عاش خلال القرن 6هـ/ 12م)، الاستبصار في عجائب الامصار، نشر وتعليق:

سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، د ت ن، ص 131.

(2) عويس، المرجع نفسه، ص 237.

(3) بودالية، المرجع السابق، ص 258.

(4) الياس حاج عيسى، الحياة الاجتماعية في المغرب الاوسط خلال العهد الحمادي (398 -

547هـ/ 1007 - 1152م)، اطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، اشراف: عبد العزيز لعرج،

قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2018/ 219م، ص 165.

أما الجالية المسيحية التي استوطنت مدينة بجاية فكانت غالبيتها من فئات الاسرى والتجار ورجال الدين والعبيد⁽¹⁾، واستقرت فئة اخرى من الحرفيين النصارى مؤقتا بالمدينة ففي عهد الامير المنصور (481 - 498هـ / 1088 - 1104م) دعمته مدينة جنوة بحرفيين متخصصين في مختلف فنون العمارة من أجل تزيين أحد قصور بجاية⁽²⁾، كما أورد المؤرخ الفرنسي لوران شارل فيرو (L. charles féraud) بأن الامير الحمادي المنصور حافظ على صلواته الودية مع البابا بروما، وطلب منه أن يرسل إليه أحسن المهندسين الحرفيين المتخصصين في أشغال البناء والزخرفة المعمارية وذلك لمواصلة أشغال البناء والتزيين بقصور مدينة بجاية، فأرسل إليه البابا حوالي ألفاً ومائة حرفي في مختلف الأعمال التي تخص صناعة البناء⁽³⁾، وقد حظيت هذه الجالية بوضع دينية واقتصادية مريحة بفضل التسامح الديني وحسن التعامل والحرية خاصة منهم من احترفوا التجارة وذلك تسهيلا لمهامهم التجارية⁽⁴⁾. وبالتالي يمكن القول ان فئة المسيحيين في الفترة الحمادية لا تُذكر إلا عرضا كأفراد وليس كجماعات فلم تكن لهذه الفئة تأثير كبير في مجال الانشطة الحرفية والصناعية، ولم تلبث ان انصهرت في المجتمع الحمادي.

(1) عبد العزيز فيلاي، بحوث في تاريخ المغرب الاوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2014، ص 27.

(2) حاج عيسى، المرجع نفسه، ص 174.

(3) L , charles Féraud , Histoire Des Ville de La Province de Constantine , Bougie , constantine ,typographie et litiographie 1 ,arnolet , 1869 , p 76.

(4) إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب لإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، ط 1، دار الطليعة للطباعة، بيروت، لبنان، 1994م، ص 94.

كما شكلت فئة العبيد جزءاً هاماً من النسيج الاجتماعي لمدينة بجاية، إذ اعتمدت الحياة الاقتصادية في المدن والحقول على اليد العاملة من العبيد الذين كانوا يجلبون من بلاد السودان وازداد الطلب عليهم لقدرتهم الجسدية على العمل، بالإضافة إلى الرقيق الأبيض، وحسب ما ذكره الغبريني فإن بجاية عرفت انتشاراً واسعاً للعبيد، فقد كان القراصنة البجائيون يغزون السواحل الجنوبية الأوروبية ويحصلون على "السبي الكثير منها وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها، وهناك يخمس ويقع الفصل فيه، ولم يزل الحال على ذلك، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع ييضاوان من الروم بسوداء من الوحش"⁽¹⁾، ولا شك أن المجتمع الحمادي قد ضم طوائف كثيرة من الروم والزنوج وغيرها من الطوائف الذين عاشوا في بجاية كعبيد أو كأجراء⁽²⁾.

وإلى جانب هذه الجنسيات والديانات والأعراق وجدت طوائف مذهبية إسلامية متداخلة من سنة مالكية وأحناف وشيعة إلى خارجين إباضية⁽³⁾، فباعتبار بجاية مدينة متوسطة فقد ضمت العديد من الطوائف المذهبية والأجناس المختلفة

(1) الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت 714هـ / 1314م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط2، دار الافاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1979، ص45.

(2) عويس، دولة بني حماد، ص ص237، 238.

(3) المرجع نفسه، ص241.

الأصل والانتماء⁽¹⁾، والتي تفاعلت فيما بينها اجتماعيا واقتصاديا وامتزجت ثقافتها وأفكارها لتساهم مجتمعة في بناء حضارة الحماديين.

وانطلاقا من هذه التركيبة الاثنية لمدينة بجاية الحمادية نجد أن هذه العناصر السكانية من الأندلسيين والنصارى واليهود وحتى العرب لعبوا دورا هاما في تطور النشاط الحرفي وتمازج حضارة المغرب الأوسط بحضارات أخرى، وقد اشار الادريسي الى ذلك بقوله: "بها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد"⁽²⁾.

ثانياً: تأثيرات التركيبة الاثنية على الانشطة الحرفية والتجارية في مدينة بجاية

خلال القرنين 5 و6 هـ / 11 و12 م:

قمنا خلال المبحث الأول بتحليل التركيبة الاثنية للمجتمع الحرفي في بجاية خلال القرنين 5 و6 هـ / 11 و12 م، مع التركيز على المجموعات الاثنية الرئيسية وأدوارها في النشاط الحرفي والمهني، بينما يُعنى هذا المبحث بدراسة التأثيرات الناتجة عن هذا التنوع الاثني على الانشطة الحرفية والاقتصادية للمدينة.

1. التأثيرات الاقتصادية (تنوع الحرف والمهن حسب الخلفية الإثنية):

يعكس التنوع الاثني والثقافي في مدينة بجاية تبايناً في التخصصات الحرفية والمهنية اذ يوجد "بها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد"⁽³⁾، و"بها من

(1) عويس، دولة بني حماد، ص 239.

(2) الادريسي ابو عبدالله محمد بن محمد بن ادريس (عاش خلال القرن 6 هـ / 12 م)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، د ت ن، ص 260.

(3) المصدر نفسه.

الصناعات كل غربية ولطيفة"⁽¹⁾ وهذا ما يدل على وفرة اليد العاملة الحرفية والفنية الخبيرة في شتى المجالات الصناعية والتي لا تتوفر في غيرها من مدن المغرب الاسلامي، وقد تجل ذلك في وجود صناعات غربية ولطيفة وبالتالي تنوع السلع والبضائع بأسواق المدينة، ذلك ان المجتمع البجائي كان مفتوحا يتلقى كل المبدعين في مختلف المجالات الباحثين عن مرفأ آمن⁽²⁾.

فبينما اشتغل السكان الاصليون من البربر والعرب في مختلف الحرف التي اشتهرت بها المدينة كصناعة، الأسلحة والسفن، والحرف اليدوية التقليدية كعصر الزيتون والنسيج وصناعة الفخار، والنسيج وغيرها من الحرف الضرورية، شكلت الجالية الاندلسية الفئة فاعلة في مختلف الانشطة الاقتصادية ببجاية خاصة منها النشاط التجاري البحري، والذي بدأ في التراجع مع نهاية العهد الحمادي في النصف الاول من القرن 6هـ / 12م⁽³⁾، ويؤكد الادريسي ذلك بقوله: "ان اهلها كانوا يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضاع بالأموال المقنطرة"⁽⁴⁾، كما تخصص الاندلسيون في عدة حرف اخرى على غرار حرفة الزراعة والبستنة والبناء.

(1) المصدر نفسه.

(2) عويس، بجاية وريثة القيروان، ص 164.

(3) AllAoua Amara, Retour à La Broblématique de Déclin économique, p17.

(4) الادريسي، المصدر السابق، ص 260.

كما حوت الفئة الاندلسية عددا كبيرا من الحرفيين والصناع والبنائين فعرفت بفضلهم مدينة بجاية صنائع جديدة كدباغة الجلود، وصناعة الخزف⁽¹⁾، وقد وصف المقرئ حذق اهل الاندلس بقوله: "صينيون في اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية"⁽²⁾

لكن الملاحظ ان المصادر الاخبارية الوسيطية ركزت على اظهار الدور السياسي والعلمي للاندلسيين الوافدين الى بلاد المغرب الاوسط وبالمقابل لم تذكر دورهم العمراني والحرفي إلا عرضا⁽³⁾، وبالتالي فان البحث في الموضوع شكّل نوعا من الصعوبة التي حاولنا تذليلها بالاعتماد على الاشارات المتناثرة في شتات المصادر الوسيطية.

أما اهل الذمة من اليهود والمسيحيين فقد شكلوا شريحة اجتماعية لها وزنها في المجتمع الحمادي بمدينة بجاية، اذ كان لها تأثير كبير على مختلف الجوانب الحياتية للمدينة، وخاصة في النشاط الحرفي والتجاري لكونها العاصمة السياسية والحاضرة العلمية والمدينة الاقتصادية والتجارية، ولو ان المسيحيون كانوا اقل تأثيرا مقارنة مع

(1) بوتشيش امينة، المرجع السابق، ص ص 114، 115.

(2) المقرئ شهاب الدين احمد بن محمد (ت 1041هـ / 1631م)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تح: احسان عباس، ج 3، ط 01، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997، ص 151.

(3) علاوة عمارة، الهجرة الاندلسية الى بلاد المغرب الاوسط وأثرها في العمران، ضمن كتاب الهجرة المغاربية المغاربية وابعادها السوسيو تاريخية، سلسلة اعمال وملتقيات مخبر الدراسات والأبحاث حول لرحلة والهجرة، اشراف: كمال فيلاي، جامعة قسنطينة، ديسمبر 2014، ص 50.

اليهود الذين احتكروا العديد من الحرف على غرار الصياغة والصباغة والدباغة وصناعة الحرير والصيرفة والترجمة والطب وبرعوا في التجارة⁽¹⁾.

فقد كان لليهود دور كبير في ازدهار الصناعات المعدنية الثمينة كصناعة الحلي الفضية والذهبية التي تعتبر صناعة يهودية جلبوها معهم من المشرق الى بلاد المغرب⁽²⁾، واحتكروها نظرا لامتناع المسلمين عن العمل فيها اجتنابا للشبهات⁽³⁾، وقد بينّ الوزان سبب ذلك بقوله: " لا يمكن لأي مسلم ان يمارس مهنة صائغ، اذ يقال ان بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمان اعلى مما يساويه وزنا يعتبر ربا، ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل"⁽⁴⁾، بالإضافة الى احتكارهم للصناعات النحاسية خاصة منها النحاس الاصفر الذي صنعوا منه ادوات العبادة كالشمعدان الذي يرمز لشجرة الحياة في ديانتهم⁽⁵⁾.

(1) حسن محمد، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج 1، اوريس للطباعة، تونس، 1999، ص ص 156، 157.

(2) برنشفيك روبار، تاريخ افريقية في العهد الحفصي (ق 13 - 15 م)، تر: حمادي الساحلي، ج 01، ط 01، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1988، ص 442.

(3) روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، مرا: نيقولا زيادة، مكتبة لبنان، لبنان، 1967، ص 153.

(4) الوزان الحسن بن محمد (ت 957هـ / 1552 م)، وصف افريقيا، تر: محمد حجي و محمد الاخضر، ط 02، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1983، ص 283.

(5) بشير عبد الرحمان، اليهود في المغرب العربي (22 - 462هـ / 642 - 1070 م)، ط 1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، مصر، 2011، ص 94.

كما امتهنوا حرفة الحياكة وتخصصوا في صناعة الحرير والاتجار به خاما ومصنعا⁽¹⁾، واحتكروا صناعة الحرير الموشى بالذهب⁽²⁾، بالإضافة الى احتكارهم لصناعة القطن حتى انه وجدت بمختلف بلاد المغرب الاوسط عائلات يهودية اطلق عليها تسميات المشتغلين في صناعة القطن كالحلاج والنداف⁽³⁾، واشتغلوا في تنظيف المجاري⁽⁴⁾، واحتكروا حرفة الصباغة والصياغة واشتغلوا في تجليد الكتب والترجمة والصيرفة والسمسرة..⁽⁵⁾ كما تخصصوا في صناعة الزجاج والأواني الزجاجية⁽⁶⁾، وأحدثوا في المغرب الاوسط صناعة السلال التي كانت الحاجة ماسة اليها في عمليات النقل البحري⁽⁷⁾، وانصرفوا للعمل في التجارة المتوسطة وأعمال القرصنة، فبرعوا في التجارة الداخلية والخارجية واشتغلوا كوسطاء بين التجار المسلمين والتجار

(1) جواتيائين س. د، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية، تعريب وتحقيق: عطية القوسي، "01"، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980، ص 168.

محمود هدية، اقتصاد النسيج في الغرب الاسلامي في العصر الوسيط، مؤسسة هنداي، مصر، 2018، ص 142. (2)

(3) الياس هبال، دور اليهود في النشاط الحرفي والصناعي في بلاد المغرب (من ق 6 - ق 9هـ)، مجلة انثروبولوجية الاديان، مج: 19، ع: 01، ماي 2023، ص 210.

(4) جواتيائين، المرجع نفسه، ص 171.

(5) حسن، المرجع السابق، ص ص 156، 157.

(6) جواتيائين، المرجع السابق، ص 168.

(7) سميرة نميش، دور اهل الذمة بالمغرب الاوسط خلال العهد الزياني (من القر 16 م)، مذكرة ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الاسلامي في العصر الوسيط، قسم التاريخ وعلم الاثار، اشرف: عبدلي لخضر، جامعة تلمسان، 2013/ 2014، ص 57.

الاوربيين خاصة منهم تجار ارغون، وتصدروا تجارة الاسلحة والتوابل والعبيد والحرير⁽¹⁾، والى جانب امتهانهم الحرف اليدوية برعوا كذلك في مجال الطب و صناعة الادوية⁽²⁾، كما احتكروا الى جانب النصارى صناعة الخمر وبيعها نظرا لتحريمها على المسلمين⁽³⁾، فكانت الخمر تباع في اسواق المغرب الاوسط مطلع القرن 6هـ/ 12م⁽⁴⁾ على يد اهل الذمة من اليهود والنصارى⁽⁵⁾.

أما المسيحيون فقد اشتغلوا في التجارة اذ كان الكثير منهم ممثلين لمؤسسات تجارية بعدة مدن حمادية على غرار بجاية⁽⁶⁾، فلعبوا بذلك دورا هاما في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية للدولة الحمادية، وقد تميز نشاطهم التجاري الداخلي بتجارة

(1) مبخوت بودواية، الحياة الاقتصادية بالمغرب الاوسط في العهد الزياني، جامعة تلمسان، ص 57. سميرة نميش، الحضور اليهودي بالمغرب الاوسط وانعكاساته الحضارية (7 - 9هـ / 13 - 16م، يهود الاندلس نموذجا)، مجلة العبر للدراسات التاريخية والاثريّة في شمال افريقيا، مج: 04، ع: 02، سبتمبر 2021، ص 442.

(2) حسن، المرجع نفسه، ص 156.

(3) الونشريسي احمد بن يحي (ت 914هـ / 1508م)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب، خرجه جماعة من العلماء باشراف: محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، لبنان، د ت ن، ج 6، ص 418.

(4) عز الدين احمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط 01، دار الشروق، لبنان، 1983، ص 241.

(5) روجي ادريس، الدولة الصنهاجية، تر: حمادي الساحلي، ج 02، ط 01، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1992، ص 201.

(6) حاج عيسى، المرجع السابق، ص 177.

الاموال وتجارة التجزئة خاصة انهم كانوا يكسبون قوتهم من نشاطهم التجاري عن طريق الحرف التي احتكروها⁽¹⁾، اما نشاطهم التجاري الخارجي فتمثل في التجارة البحرية فعملوا على الاتجار بالأسلحة والمعادن كالرصااص والحديد الذي كان يستعمل في الصناعات العسكرية⁽²⁾، وقد ساعدت العلاقات التجارية التي قامت الدولة الحمادية بربطها مع الممالك المسيحية وعلى رأسها روما والمدن الايطالية الثلاث ومرسيليا على توطيد العلاقات التجارية، مما ادى الى انشاء مراكز تجارية ودور سكة لجاليات هذه المدن، كما كان للبيزيين قنصل دائم في المدينة يشرف على مصالحهم⁽³⁾.

وبالتالي نستنتج ان الحرف التي مارسها اهل الذمة من اليهود والمسيحيون بمدينة بجاية ضمننت لهم النفوذ الاقتصادي والسياسي خاصة منها الحرف الرفيعة التي قربتهم من الطبقة الحاكمة كالطب والتجارة والصيرفة وصناعة الحلي الثمينة، هذا بالإضافة الى كونهم يقومون بدفع الجزية فكانوا يشكلون موردا هاما لبيت المال. في حين شكلت فئة الرقيق الابيض والأسود القوة المنتجة الاساسية في جميع ميادين النشاط الاقتصادي اذ كانوا يعملون في الارياف كرعاة وفي اشغال الفلاحة، بالإضافة الى الاعتماد عليهم في الاعمال الشاقة بالمناجم ومقالع الحجارة، كما اشتغلوا ايضا في حراسة القوافل التجارية وفي اعمال البناء وكمعاونين في الاوراش والمصانع

(1) برونشفيك، المرجع السابق، ج 01، ص 433.

(2) نميش، مذكرة، ص 75.

(3) صالح ابو دياك، مدينة بجاية ودورها الحضاري في المغرب منذ القرن الرابع الى القرن الثامن للهجرة، مجلة ابحاث اليرموك سلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية، مج: 12، ع: 02، جامعة اليرموك، الاردن، 1996، ص 226.

بالمدين وفي الاعمال المنزلية⁽¹⁾، وقد اكد ذلك ابو العباس الغبريني في سياق ترجمته لأحد فقهاء المدينة بقوله: "أحدى السوداوات من غسالات الثياب"⁽²⁾، وقد كان لهذه الفئة تأثير كبير على الاقتصاد الحمادي الذي كان قائما على قوتهم البدنية، حتى ان الحياة اليومية للمجتمع الحمادي اعتمدت على وجودهم بشكل اساسي فكانت الحاجة ماسة اليهم.

2. التفاعل بين المجموعات الاثنية داخل المجتمع الحرفي:

شكل سكان مدينة بجاية تنظيمات وطوائف حرفية وكانت الأصناف مفتوحة لمختلف الأديان والأجناس، كما وجدت طوائف حرفية موحدة مهنيا ودينيا شديدة الاتصال بدينها لحماية افرادها من المنافسات الخارجية⁽³⁾، كالتائفة اليهودية التي احتكرت العديد من الحرف والصناعات، ولا شك في انه كان يحدث التعاون والتكامل بين مختلف هذه التنظيمات والمجموعات الاثنية بالمجتمع الحرفي داخل مدينة بجاية خاصة في المشاريع الحرفية والصناعية المشتركة، فقد ساهمت المجموعات الاثنية المختلفة في تنفيذ مشاريع حرفية الكبرى كانهاز المنشآت التجارية والصناعية التي تطلبت تضامن الجهود بين مختلف المجموعات والطوائف الحرفية كصناعة السفن، والأسلحة، وبناء قنوات المياه والمجاري، وشق الطرق، وبناء القصور والمساجد، هذا التعاون القائم بين الحرفيين من مختلف المجموعات الاثنية ساهم في

(1) الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الاسلامي، سلسلة عالم المعرفة 319، الكويت، 2005، ص 86.

(2) الغبريني، المصدر السابق، ص 178.

(3) جوتيان، المرجع السابق، ص 175.

تبادل المهارات والتقنيات، ووطد العلاقات الاجتماعية وأدى إلى تعزيز التنوع الثقافي في المدينة.

كما أسهم التنوع الثقافي والاثني ببجاية في تبادل المعرفة والابتكارات بين الحرفيين من خلفيات اثنية مختلفة، إلا انه وبالرغم من التعاون كان هناك أحياناً منافسة بين الحرفيين خاصة بالنسبة لتسويق الانتاج.

فشكل مجتمع البجائي قوة حرفية انتاجية تنوعت نشاطاتها بفضل تنوعها الاثني واختلاف انتماءات حرفيها، وتم بفضل انتقال العناصر الوافدة عليها من مختلف الاقطار والتي كانت تحمل معها موروثها الحضاري الذي امتزج وتجانس مع موروث العناصر المحلية ليفتح المجال للإبداع ولابتكار في مختلف الفنون والحرف.

3. التأثير الفني والعمراني:

استطاعت الفنون الحمادية نتيجة استقبال الوافدين عليها ان تتبادل التأثير والتأثر في المجال الفني والعمراني خاصة مع الاندلس ومع المشرق العربي محتفظة لنفسها بخصائص ابداعية تميزها خاصة في فن الهندسة المعمارية والزخرفة⁽¹⁾، فقد ادخل الاندلسيون انماط جديدة في فن التزيين والفسيفساء والأشكال الهندسية المختلفة، كما ساهموا في مجال البناء والعمارة اذ قاموا ببناء قنوات المياه وتدعيم ساحات القصور بنوافير تزين احواض ومناياها، بالإضافة الى انشاءهم الحمامات التي وفرت مناصب عمل جديدة بالمدينة⁽²⁾، كما قاموا بإنشاء احياء سكنية بنمط معماري خاص

(1) عويس، بجاية وريثة القيروان، ص 164.

(2) بوتشيش امينة، المرجع السابق، ص 114، 115.

بهم، على غرار اهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين اقيمت لهم احياء خاصة في مدينة بجاية⁽¹⁾

وقد برز فن زخرفة الخزفيات المنقولة كالأواني والمصابيح والمحابر وزجاجات العطور، وفي الزخرفة المعمارية على السقوف المخصصة على هيئة مربعات وفي البلاطات ذات الاشكال المختلفة بالقصور والمساجد، وفي التحف الذهبية والفضية في كل ذلك كفن متقدم ذي ملامح اسلامية وعربية وبربرية مما يدل على تقدم هذا الفن كغيره من الفنون كالنحت والرسم والحفر والنقش⁽²⁾.

وبالتالي يمكن القول ان الاندلسيون ساهموا من خلال منظومتهم الفكرية والذهنية في نقل الخبرات والمهارات الى المغرب الاوسط وقاموا بالدفع بحواضره على غرار بجاية وتلمسان في طريق التمدن والتحضر والابتعاد اكثر عن صفة البداوة التي عادة ما اتصف بها مجال المغرب الاوسط⁽³⁾، فقد كان المنصور الحمادي قد جعل بلاطه اندلسيا تشبه فيه صاحبه بملوك الاندلس فعاش هذا الامير عيشا المترف المولع بالنساء⁽⁴⁾، وكان للجاليات الاندلسية التي ظلت تتوافد على مدينة بجاية دور حضاري وتأثير قوي على جميع الاصعدة خاصة منها الصعيد الفني والعمراني.

وعليه يمكن القول انه كان للتنوع الاثني بمدينة بجاية تأثير كبير على المجال الاقتصادي والعمراني وعلى سكانها من عرب وبربر بسبب الانبهار بالحضارة

(1) عويس، المرجع نفسه، ص 167.

(2) عويس، بجاية وريثة القيروان، ص 166.

(3) حاج عيسى، المرجع السابق، ص 168.

(4) عويس، المرجع نفسه، ص 164.

الاندلسية خاصة وما وصلت اليه من مظاهر الترف والبهخ فكان الانقياد والتقليد في عديد الجوانب الحضارية بالمدينة⁽¹⁾، ومما لا شك فيه ان الجالية المسيحية واليهودية التي عاشت تحت ظلال الحمادين قد تأثرت وأثرت في المجتمع الحمادي ايضا⁽²⁾، ويؤكد الادريسي ذلك بقوله: "وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد.. وبها من الصناعات كل غريبة وطريفة"⁽³⁾، مما يدل على توفر الخصوبة الفكرية والمهنية التي ولدت مجتمعا متنوعا ثقافيا ومهنيا⁽⁴⁾، فلقد عاشت هذه الطوائف والاثنيات وغيرها حياة مستقرة بفضل التسامح والحرية الاقتصادية فانعكس ذلك على مظاهر العطاء العمراني والحضاري بالمدينة⁽⁵⁾.

(1) عويس، دولة بني حماد، ص 242.

(2) عويس، المرجع نفسه، ص 239.

(3) الادريسي، المصدر السابق، ص 260.

(4) ابو دياك، المرجع السابق، ص 225.

(5) عويس، المرجع نفسه، ص 239.

الختامة:

في ختام هذه الدراسة يتضح لنا أن التركيبة الإثنية لمجتمع مدينة بجاية خلال العهد الحمادي لعبت دوراً محورياً في تشكيل الأنشطة الحرفية والتجارية التي ازدهرت في تلك الفترة، فقد ساهمت التركيبة الإثنية في المدينة في خلق بيئة ثقافية وحرفية متنوعة، وأضافت كل مجموعة إثنية إلى النسيج الاجتماعي والاقتصادي مهاراتها وابتكاراتها التي تميزها.

إن استعراض هذه الدراسة لموضوع تأثير التركيبة الإثنية على النشاط الحرفي والتجاري بمدينة بجاية الحمادية يعكس كيف أن التفاعل بين مختلف المجموعات الإثنية يمكن أن يسهم في تطوير وتحويل مدينة صغيرة إلى مركز تجاري وثقافي مزدهر يضاهي كبريات العواصم الإسلامية في وقتها، ولا تزال الحاجة لمزيد من الدراسات المعمقة والبحث في المصادر التاريخية الأخرى لتوسيع المعرفة لهذا الجانب الهام من تاريخ المدينة.

ومن خلال تحليل التركيبة الإثنية وتأثيراتها على الحرف والتجارة، تم التوصل إلى النتائج التالية:

1 - التنوع الإثني وتعزيز الحرف: أسهم في إثراء البيئة الحرفية في بجاية من خلال تبادل المعرفة بين المجموعات المختلفة، وأدى هذا التفاعل إلى تحسين جودة الانتاج مما انعكس إيجاباً على الاقتصاد المحلي وادى الى التنوع في الصادرات.

2 - التحولات الاجتماعية: ساهم التنوع الثقافي في تشكيل هويات اجتماعية وثقافية جديدة، وعزز العلاقات بين الأفراد من خلفيات مختلفة، كما اثر ايجابا على العلاقات الخارجية للدولة الحمادية.

3 - ابان التنوع الاثني بمدينة بجاية جانبا حضاريا هاما ميز الدولة الحمادية عن غيرها من الدول والذي تمثل في التسامح الديني والتعايش الاجتماعي الذي كان له الفضل في استمراريتها رغم الاوضاع المضطربة التي كانت تحيط بها.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا المصادر:

1. ابن خلدون عبد الرحمان (ت732هـ / 808م)، العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر، مرا: سهيل زكار، ج6، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1981، ج6.
2. ابن خلدون، العبر، ج1.
3. الادريسي ابو عبدالله محمد بن محمد بن ادريس (عاش خلال القرن 6هـ / 12م)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، دت ن.
4. البكري أبو عبيد (ت 487هـ / 1094م)، المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
5. الغبريني ابو العباس احمد بن احمد بن عبد الله (ت714هـ / 1314م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط2، دار الافاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1979.
6. المقري شهاب الدين احمد بن محمد (ت1041هـ / 1631م)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تح: احسان عباس، ج3، ط01، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997.
7. مؤلف مجهول (عاش خلال القرن 6هـ / 12م)، الاستبصار في عجائب الامصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، دت ن.

8. الوزان الحسن بن محمد (ت957هـ / 1552م)، وصف افريقيا، تر: محمد حجي و محمد الاخضر، ط02، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1983.
9. الونشريسي احمد بن بحى (ت914هـ / 1508م)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب، خرجه جماعة من العلماء باشراف: محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، لبنان، دت ن، ج6.
- ثانيا:المراجع باللغة العربية:
- أ/ الكتب:
1. إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب لإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، ط1، دار الطليعة للطباعة، بيروت، لبنان، 1994م.
2. برنشفيك روبر، تاريخ افريقية في العهد الحفصي (ق13 - 15م)، تر: حمادي الساحلي، ج01، ط01، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1988.
3. عبد الرحمان، اليهود في المغرب العربي (22-462هـ / 642-1070م)، ط1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، مصر، 2011.
4. جواتاين س. د، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية، تعريب وتحقيق: عطية القوصي، "01، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980.
5. الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الاسلامي، سلسلة عالم المعرفة 319، الكويت، 2005.
6. روجي ادريس، الدولة الصنهاجية، تر: حمادي الساحلي، ج02، ط01، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1992.

7. روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، مرا: نيقولا زيادة، مكتبة لبنان، لبنان، 1967.

8. عبد العزيز فيلاي، بحوث في تاريخ المغرب الاوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2014.

9. عز الدين احمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط01، دار الشروق، لبنان، 1983.

10. عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط02، دار الصحوة، القاهرة، مصر، 1991.

11. محمد حسن، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، اوربيس للطباعة، تونس، 1999.

12. محمود هدية، اقتصاد النسيج في الغرب الاسلامي في العصر الوسيط، مؤسسة هنداوي، مصر، 2018.

ب/ الاطاريح والمذكرات:

1. الياس حاج عيسى، الحياة الاجتماعية في المغرب الاوسط خلال العهد الحمادي (398 - 547هـ / 1007 - 1152م)، اطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، اشراف: عبد العزيز لعرج، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2018/2019م.

2. سميرة نميش، دور اهل الذمة بالمغرب الاوسط خلال العهد الزياني (من القرن 16م)، مذكرة ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الاسلامي في العصر

الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، اشراف: عبدلي لخضر، جامعة تلمسان،
2014/2013.

3. بوتشيش امينة، بجاية من العهد الحمادي الى الغزو الاسباني دراسة تاريخية
وحضارية، اطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب الاسلامي الوسيط، اشراف:
بلحاج معروف، قسم العلوم الانسانية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،
جامعة تلمسان، 2016/2015.

ج/ المجلات:

1. بودالية تواتية، الانتماء الحرفي لأهل الصناعات في المغرب الاوسط، مجلة مخبر
البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، ع: 04، جوان 2013.
2. الياس هبال، دور اليهود في النشاط الحرفي والصناعي في بلاد المغرب (من ق 6
ق 9هـ)، مجلة انثروبولوجية الاديان، مج: 19، ع: 01، ماي 2023.
3. مبخوت بودواية، الحياة الاقتصادية بالمغرب الاوسط في العهد الزياني، جامعة
تلمسان.
4. سميرة نميش، الحضور اليهودي بالمغرب الاوسط وانعكاساته الحضارية (7 -
9هـ / 13 - 16م، يهود الاندلس انموذجا)، مجلة العبر للدراسات التاريخية
والاثريّة في شمال افريقيا، مج: 04، ع: 02، سبتمبر 2021.
5. علاوة عمارة، الهجرة الاندلسية الى بلاد المغرب الاوسط وأثرها في العمران،
ضمن كتاب الهجرة المغاربية المغاربية وابعادها السوسيو تاريخية، سلسلة اعمال
وملتقيات مخبر الدراسات والابحاث حول لرحلة والهجرة، اشراف: كمال
فيلاي، جامعة قسنطينة، ديسمبر 2014.

6. صالح ابوديالك، مدينة بجاية ودورها الحضاري في المغرب منذ القرن الرابع الى القرن الثامن للهجرة، مجلة ابحاث اليرموك سلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية، مج: 12، ع: 02، جامعة اليرموك، الاردن، 1996.
7. عبد الحليم عويس، بجاية الجزائرية وريثة القيروان وحاضرة المغرب العربي لثلاثة قرون، مجلة الدارة، مج: 08، ع: 03، جانفي 1983.

ثالثا: المراجع باللغة الاجنبية:

1. AllAoua Amara, Retour à La Broblématique de Déclin économique.
2. L , charles Fèraud , Histoire Des Ville de La Province de Constantine , Bougie , constantine ,typographie et litiographie,arnolet , 1869.

الفهرس

فهرس المحتويات

4.....	إهداء
5	تقديم وتصدير
7.....	كلمة في ذكرى رحيل زميلنا البروفيسور بوطارن مبارك أ.د. أحمد مريوش
9.....	شهادات عن المرحوم الدكتور مبارك بوطارن رحمه الله
11	قراءة في السيرة الذاتية للأستاذ المرحوم: مبارك بوطارن (1960-2023) أ.د. عبد الغني حروز
29.....	البروفيسور بوطارن مبارك كما عرفناه أ.د. أحمد مريوش
37.....	أبحاث ودراسات تاريخية
39.....	الأوضاع الاجتماعية لبلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي أ.د. مبارك بوطارن (رحمه الله) د. مرزاق بومداح
109.....	إرهاصات الحراك الرحلاقي بجزائر العهد العثماني أ.د. البشير بوقاعدة
155	التعدد الاثني وأثره على المجتمع الجزائري في العهد العثماني ط.د. ثريا بن الزاوي
185	رؤية نفسية اجتماعية للهجرة ط.د. موشموش بدر الدين

النشاط السياسي والعسكري للجبهة الجنوبية وأبعاده الاستراتيجية 201

أ.د. عبد الله مقلاتي

مقتطفات وانطباعات من كتابي "الثورة الجزائرية في عامها الأول والمثقفون الجزائريون

والثورة" لمحمد العربي الزيري 223

د. فاتح بلعمري

العمارة الدينية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني 243

ط.د. خيرة بوصوار

أهمية مرافق المياه ومنشآتها بالمدينة المغربية من خلال نوازل كتاب المعيار للونشريسي

(ت 914هـ/ 1508م) 283

د. هشام بن سالم

أ. زير سالمي

التأثير الأندلسي على العمارة الجزائرية 319

د.د. سامية بن قويدر

مظاهر الفن المعماري لمساجد الجزائر العثمانية بين النمطين العثماني والأندلسي 343

ط.د. فتحي إسماعيل

المثدنة في العمارة الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني 365

أ.د. موشموش محمد

أ.د. سعيد بوزينة

معالم عمران المدن الأوراسية والزابية في العصر الوسيط 395

أ. خديجة طاهر منصور

- دراسة مخطوط كتاب اختصار الصباغ على شرح الزواوي على الوغليسية 421
- أ. أحمد بو بكر ضيف الجزائري
- مخطوط ينشر لأول مرة عدة ملوك أولاد جلان 451
- أ. أحلام لغريب
- فقه العمران الريفي والحضري بالمغرب الأوسط 459
- د. إسماعيل بركات
- التركيبة الإثنية للمجتمع بمدينة بجاية وتأثيراتها على النشاط الحرفي والتجاري خلال
القرنين 5 و 6 هـ / 11 و 12 م 525
- ط.د. صباح طرهيو
- فهرس المحتويات 555



الأستاذ الدكتور مبارك بوطارن

رحمه الله
(1960-2023م)

هذا الكتاب

لا يجادل اثنان في كون رحيل الإنسان أكبر خسارة يمني بها محبوبه، فقد ألف الله تعالى بين قلوب الناس على نحو جعل الروابط فيما بينهم تبنى على الألفة والمحبة والمصالح المشتركة، حتى إذا انفرط عقد مجموعة بشرية معينة بفعل موت أحدها أو بعضها ساد الحزن والتفجع والإحساس بما يشبه الخسارة، قد تفوق الخسارة المادية التي يحرص الإنسان كل الحرص على تفاديها.

هذا الوضع هو الذي عاشه الأساتذة و الطلبة الذين عرفوا الأستاذ الفقيه مبارك بوطارن، الذي فارق الحياة بشكل مفاجئ يوم 4 سبتمبر 2023 ليترك أثارا لا تمحي في نفوسهم، لهذا فكر زملاؤه وأصدقائه و طلبته في دعوة الذين عرفوه على مستوى قسم التاريخ و الجغرافيا بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر و كذا قسم التاريخ بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة، وعلى مستوى مختلف جامعات الوطن وخارجها، ومن مختلف التخصصات الإنسانية والاجتماعية إلى للمساهمة في الاستكتاب الجماعي لإنجاز كتاب أعمال مُهداة للأستاذ مبارك بوطارن، تكريما له ولمساره البيداغوجي والعلمي، الذي ساهم من خلاله في تخريج عدة دفعات، ومناقشة و تأطير عدد هائل من الطلبة المُتخرجين، بالمدرسة العليا للأساتذة منذ بداية عمله بها و إلى غاية وفاته رحمه الله.

ISBN: 978-9969-553-91-8



دار
أحلام للنشر
MAISON D'ÉDITION AHLEM